برات فارار

جوزفين تاي



ترجمة أمنية طلعت

برات فارار

تأليف
جوزفين تاي

ترجمة
أمنية طلعت

مراجعة
شيماء طه الريدي



برات فارار

جوزفين تاي

Brat Farrar

Josephine Tey

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٢٠٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٤٩.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مرَّت ثماني سنواتٍ منذ اختفاء باتريك تاركًا رسالته المُحزِّنة «آسفٌ، ولكن لم أعُد أطيق الاحتمالَ أكثرَ من ذلك. لا تغضبوا مني. باتريك.» بدا في تلك اللحظة أنه قد عادَ في الوقت المناسب ليُطالِب بميراثه من العائلة. لكن إذا كان باتريك قد انتحر حقًّا، فمَن هذا الشاب الغامض الذي يدَّعي أنه باتريك ويُسمِّي نفسَه برات فارار؟

الفصل الأول

قالت جين، وهي تنفخ بشدة في حسائها: «عمة بي، أكان نوح ناصحًا داعمًا أشدَّ براعة من يولسيس، أم كان يولسيس ناصحًا داعمًا أشدَّ براعة من نوح؟»

«لا تأكلي من طرف ملعقتك يا جين.»

«لا أستطيع تحريكَ فتائل الشعرية من الجانب.»

«روث تفعل ذلك.»

نظرت جين إلى توءمها، التي كانت تتعامل مع الشعرية بإتقان يعكس اعتدادًا ببراعتها المميزة تلك.

«إنَّ قدرتها على الرشف أقوى مني.»

قالت روث، وهي ترمق عمَّتها بنظرةٍ جانبية: «العمة بي لها وجه يشبه وجه قطة غالية الثمن.»

فكَّرت بي في نفسها أن الوصف كان جيدًا للغاية، لكنها تمنَّت لو لم تكن روث شخصية غريبة الأطوار هكذا.

قالت جين، التي لم تكن تحيد أبدًا عن طريقٍ بمجرد أن تطأه قدماها: «لا، لكن أيهما كان الأكثر براعة؟»

قالت روث: «بل أيهما أكثر براعة من الآخر.»

«أكان نوح أم يولسيس؟ مَن منهما يا سايمون، في رأيك؟»

قال أخوها، دون أن يرفع بصره عن صحيفته: «يولسيس.»

فكَّرت بي أن سايمون ذو طبيعة تؤهله لقراءة قائمة العدَّائين في سباق نيو ماركت، وهو يضع التوابل على حسائه، ويستمع إلى الحوار الدائر، كل ذلك في آنٍ واحد.

«لِمَ يا سايمون؟ لماذا يولسيس؟»

«لأنه لم يكن لدَيه توقُّعات دقيقة من الأرصاد الجوية كالتي كانت لدى نوح. هل تتذكرين في أيِّ مكان انتهى حصان فايرلايت في سباق فري هانديكاب؟»

قالت بي: «بعيدًا في الجنوب.»

«إن الاحتفال ببلوغ سن الرشد يُشبِه، بعضَ الشيء، حفل الزفاف، أليس كذلك يا سايمون؟» كانت روث مَن طرحت هذا السؤال.

«بل أفضل بوجهٍ عام.»

«صحيح؟»

«يُمكنكِ البقاء والرقص في حفل بلوغك سن الرشد. لكن لا يُمكنكِ فِعل ذلك في حفل زفافك.»

«سأبقى وأرقص في حفل زفافي.»

«لا أستبعد ذلك عنكِ.»

فكَّرت بي في نفسها، آهٍ يا عزيزتي، أتصوَّر أن هناك أُسَرًا تخوض «حوارًا» على مائدة الطعام، لكنني لا أعرف كيف يديرونه. لعلي لم أكن حازمة بما يكفي.

نَظَرَت إلى المائدة حيث الرءوس الثلاثة مُنحنية، وإلى مكان إلينور الذي لا يزال شاغرًا، وتساءلت إن كانت قد تحرَّت العدل بينهم. هل كان بيل ونورا سيسعدان بما أوصلت إليه أبناءهما؟ لو أن معجزة حدثت ودخلا الآن، في هيئتهما الشابة الأنيقة البشوشة كما رحلا عن الدنيا، هل كانا سيقولان: «أجل، هكذا تصورناهم في خيالنا بالضبط؛ حتى جين بهيئتها الرثة»؟

لاحت ابتسامة في عينَي بي عندما استقرَّتا على جين.

كانت الأختان التوءمتان في سن التاسعة وتُشارفان على عامهما العاشر، وكانتا مُتطابقتَين. كان تطابُقًا بالمعنى النظري. فرغم التشابُه بينهما في الملامح الجسمانية، لم يكن هناك أدنى شكٍّ بخصوص أيُّهما جين وأيُّهما رُوث. كان لهما نفس الشعر الأشقر الفاتح المسترسِل، ونفس الوجه الصغير والبشرة الفاتحة، والنظرة المباشرة نفسها المفعمة بالتحدي؛ ولكن عند هذا الحد تنتهي أوجُه التشابُه. كانت جين ترتدي سروالًا متسخًا مُخصصًا لركوب الخيل وقميصًا صوفيًّا لا معالِمَ له مزينًا بنهاياتٍ مفتولة من الصوف. أما شعرها فكان مسحوبًا إلى الخلف دون الاستعانة بمرآة، ومعقودًا في قبضة صارمة لدبوس شعر عتيق لدرجةِ أنه استعاد لونَه الفولاذي الأصلي، كما يحدث مع دبابيس الشعر القديمة. كان نظرُها ضعيفًا قليلًا، وفي حضور هيئة التحكيم في سباق الخيول، اعتادت

ارتداءَ نظارةٍ لها إطارٌ من البلاستيك السميك. كان المُسْتقَر الطبيعي لهذه النظارة عادةً في الجيب الخلفي لسروالها؛ ولهذا كثيرًا ما كانت تضغط وتجلس عليها، حتى صارت تعيش في حالة إفلاس دائمة بسبب تكرار انكسارها واضطرارها لدفع ثمن إصلاحها من حصَّالتها بما يفوق مصروفها السنوي. كانت تمتطي فوربوستر؛ المُهر الأبيض العجوز، في طريقها من وإلى دروسها في بيت القسِّ، وكانت ساقاها القصيرتان تبرُزان إلى الخارج على كِلا جانبيه مثل القش. أصبح فوربوستر منذ وقتٍ طويل وسيلةَ تنقُّلٍ أكثرَ منها مطيةً للنُّزهة؛ لذا لم تكن تعبأ ببدَنِه اللَّيِّن وعرْضه اللذَين كانا يشبهان الأفرشة المحشوَّة بالريش.

أما روث، على الجانب الآخر، فكانت ترتدي فستانًا قطنيًّا ورديَّ اللون، وتنضح نشاطًا ونضرة حينما انطلقت على متن درَّاجتها صباحَ اليوم إلى منزل القس. كانت يداها نظيفتين وأظافرها مُقلَّمة، وكانت قد وجدت في مكانٍ ما شريطةَ شعر وردية فعقَدت جانبَي شعرها على هيئة أنشوطة أعلى رأسها.

ثماني سنوات، هكذا كانت بي تفكر. ثماني سنواتٍ من التدبير، والتوفير، والتخطيط. وفي غضون ستة أسابيع، سينقضي دَورها كقيِّم. خلال شهر ونَيفٍ سيبلغ سايمون عامَه الحادي والعشرين، وسيرث ثروةَ والدِه وستنقضي السنوات العِجاف. لم تكن أسرة آشبي غنية مطلقًا، لكن في حياة أخيها كان هناك مُتَّسع للحفاظ على ضيعة لاتشتس — المؤلَّفة من منزلٍ وثلاث مزارع — كما ينبغي. ولم يكن موت أخيها المفاجئ إلَّا سببًا في العيش على أعتاب الفقر طوال تلك السنوات الثماني. وقرار بي لم يأخُذ في الحسبان سوى أن تنتقِل أموال زوجة أخيها، في الشهر القادم، إلى ابنها كاملةً دون نُقصان. لم يكن متاحًا الاقتراض على أساس ذلك الإرث المستقبلي. ولا حتى حينما كان السيد ساندال، من مكتب كوسيت وثرينج ونوبل للمحاماة، على استعدادٍ للموافقة على ذلك. وكما قالت بي، لا بد أن تُغطي لاتشتس نفقاتها. وها هي ذي لاتشتس، بعد ثماني سنوات، لا تزال تعتمد على نفسها وقادرة على الوفاء بالتزاماتها المادية.

من وراء رأس ابن أخيها الأشقر، كان بإمكانها أن ترى، من النافذة، القضبانَ البيضاء لسور إسطبل الخيول الجنوبي، والحركة السريعة لذَيل ريجينا العجوز في ضوء الشمس. كانت الخيول السببَ في إنقاذهم. كانت الخيول، التي كانت هواية أخيها، هي سبيل النجاة والخلاص لمنزله. وعامًا بعد عام، ورغم كل الأمراض، والحوادث، واللعنة الشديدة التي أصابت الخيول، نجحت في إثبات أنها مصدرُ ربح. كانت الأرباح دائمًا ما تفوق الخسائر قليلًا. ولَمَّا تبيَّن أن مزرعة خيول السباق الأصلية الصغيرة التي كانت مصدرَ سعادة أخيها

قد تكون مصدرَ دعمٍ مشكوكًا فيه، اتَّجهت العمة بي إلى إضافة الأمهُر الصغيرة الشديدة الاحتمال الخاصة بالأطفال الصغار لتشغلَ المراعي الأشدَّ برودةً في منتصف الطريق نحو الجنوب. كانت إلينور قد درَّبت الخيول العجائز المشكوك في أمرها لتُصبح «مطيةً آمنة للسيدات» ثم باعتها بسعرٍ مُربح. وبعد أن صارت العزبة مدرسةً داخلية، كانت تُعلِّم الآخرين ركوب الخيل، مقابل سعرٍ مجزٍ للغاية في الساعة.

«تأخَّرت إلينور كثيرًا، أليس كذلك؟»

سأل سايمون: «أهي بالخارج مع ابنة بارسلو؟»

«أجل، مع ابنة بارسلو.»

«على الأرجح أن الحصان التعيس قد سقط ميتًا.»

نهض سايمون ليأخذ أطباقَ الحساء، وليُساعد في تقديم طبق اللحم من نضد المائدة، وبي تُراقبه باستحسانٍ نقدي. على الأقل نجحَتْ في ألا تُدلل سايمون، وكان ذلك إنجازًا لا يُستهان به بالنظر إلى جاذبية سايمون التي أكسبَتْه حُبًّا لذاته. كان سايمون يتمتع بإحساسٍ بالثقة كان خادعًا ومضللًا تمامًا، لكنه ضلَّل الجميع دون استثناء منذُ أن كان في الروضة. راقبَتْ بي طريقتَهُ المُضلِّلة باستمتاعٍ وبشيءٍ كان أشبهَ بإعجابٍ على مضض؛ شعرت أنها لو كانت هي نفسها قد وُهبت تلك الجاذبية المُميزة لسايمون، فأغلب الظن أنها كانت ستستغلُّها لصالحِها مثلما فعل سايمون. لكنها كانت حريصةً على الانتباه حتى لا تنطليَ عليها.

علَّقت روث، مُستسلمةً لمحاولتها مع شوكةٍ عنيدة: «سيكون من اللطيف لو كان في احتفالات البلوغ شيءٌ مثل وصيفات العروس.»

لكن حديثها قُوبِل بالتجاهل.

قالت جين التي لم تَحِد عن موضوعها: «يقول القسُّ إن يولسيس كان على الأرجح مصدر إزعاج مُريع في أرجاء المنزل.»

قالت بي، مبديةً اهتمامها بهذه المعلومة الإضافية عن القصص الكلاسيكية: «حقًّا! لِمَ»؟

«قال إنه كان «بلا شكٍّ يخترع أداةً ما، وأن بينلوبي على الأرجح كانت سعيدة بالتخلُّص منه لوهلة.» أتمنَّى لو أن الكبد لم تكن لينةً إلى هذه الدرجة.»

دخلت إلينور وغرفت لنفسها من نضد المائدة بأسلوبها الصامت المعتاد.

قالت روث: «أُفٍّ! يا لرائحة تلك الإسطبلات!»

قالت بي مستفسرةً: «تأخرتِ يا نيل.»

أجابت إلينور: «لن تتعلَّم ركوب الخيل أبدًا. لا يُمكنها حتى هزُّ السَّرج حتى الآن.»

قالت روث: «قد لا يقوى المختلُّون على ركوب الخيل.»

قالت بي بلهجةٍ قوية: «روث، التلاميذ في منزل القرية ليسوا مُختلِّين. ولا يُعانون حتى إعاقةً ذهنية. كلُّ ما في الأمر أنهم صِعاب المِراس.»

قال سايمون: «الوصف الدقيق لهم هو أنهم أشخاص غير مُتزنين عقليًّا ونفسيًّا.»

«حسنًا، إنهم «يتصرفون» كالمُختلِّين عقليًّا. وإذا كنت تتصرَّف كشخصٍ مُختل، فكيف لأحدٍ أن يجزم بأنك لستَ واحدًا منهم؟»

ولمَّا لم يكن لدى أحدٍ أيُّ إجابةٍ عن هذا السؤال، خيَّم الصمت على مائدة غداء أُسرة آشبي. تناولت إلينور طعامَها بالعزم المفاجئ الذي ينتاب تلميذًا جائعًا، دون أن ترفع عينَيها عن طبقِها. وأخرج سايمون قلمَ رصاصٍ وحسب احتمالات الفوز على هامش الصحيفة. أما روث، التي كانت قد اختلست ثلاث قطع من البسكويت من المرطبان على نضد المائدة بمنزل القس وأكلَتْها في المرحاض، فصنعَتْ قلعةً من طعامها يُحيط بها خندقٌ مائي من صلصة اللحم. والتهمت جين طعامها باستمتاع نشط. بينما جلست بعينَين شاردتَين في المشهد خلف النافذة.

عند تلك القمة الجبلية النائية انحدرت الأرض مسافةَ أميالٍ من الرُّقَع الأرضية ذات الألوان المتباينة حتى البحر والأسطح المحتشِدة في ويست أوفر. لكن هنا في هذا الوادي المرتفع، الذي يقع بمنأًى عن عواصف جُزُر تشانيل ومكشوف للشمس، وقفَتِ الأشجارُ في الهواء العليل بسكونٍ يُشبه سكونَ وسط البلاد، بسيماء تنمُّ عن سِحرٍ وجاذبية. وتجلَّى المشهد بكمال لا يعكر صفوه شيء، وسكون طيف عابر.

كان ميراثًا رائعًا سخيًّا مليئًا بالخيرات. وكانت تأمُل أن يُحْسِن سايمون استغلاله. مرت أوقات كانت فيها ... لا، لم تكن خائفة. أوقات ربما كانت التساؤلات تملأ عقلها. لقد كانت شخصية سايمون مُتعدِّدة الأوجُه إلى أقصى حد؛ كان ذا طبيعة مُتقلبة لا يمكن التنبؤ بأفعالها، لا تتناسَب مع ميراثٍ ضخمٍ آلَ إلى شابٍّ صغير مثلِه. وحدَها لاتشتس، من بين جميع الضيعات المُحيطة، كانت لا تزال تُئوِي أسرةً محلية وأمَلَتْ بي أن تظلَّ مأوًى لآل آشبي لقرونٍ قادمة. آلُ آشبي ذَوو الشعر الأشقر، والوجه الصغير والرأس الصغير العامر بالحِكمة مثل أولئك المجتمعِين حول المائدة.

«جين، هل لزامًا عليكِ نثرُ عصير الفاكهة حولك هكذا؟»

«لا أُحب الراوند على هيئة قطع صغيرة يا عمَّة بي، أُحبُّه مهروسًا.»

«حسنًا، اهرسيه بتأنٍّ أكثر من ذلك.»

عندما كانت في عُمْر جين كانت تهرس الراوند أيضًا، وعلى المائدة نفسِها أيضًا. وعلى هذه المائدة نفسها كانت عائلة آشبي تتناول طعامها؛ تلك العائلة التي كان منهم مَن مات على إثر حُمَّى في الهند، وجروح في القرم، والمجاعة في كوينزلاند، وحُمَّى التيفويد في جمهورية الرأس الأخضر، وتليُّف الكبد في مستعمرات المضيق. لكن دومًا كان أحد أفراد عائلة آشبي يُوجَد في لاتشتس، وقد أحسنوا إلى الأرض واعتنَوا بها. من حينٍ لآخَر كان يأتي شخص تافِه — مثل ابن عمِّها والتر — لكن العناية الإلهية تعهَّدت بحصر خصلة التفاهة تلك على الأبناء الذكور الصغار، الذين بإمكانهم ممارسة تمرُّدِهم على أشياءَ أخرى بعيدة عن لاتشتس.

لم تأتِ أي ملكات إلى لاتشتس لتناول العشاء، ولم يأتِها يومًا فارس ليختبئ فيها. فقد ظلت طوال ثلاثمائة عام واقفةً وسط مروجها تمامًا مثلما تقف الآن؛ مأوًى لمالكٍ صغير. ولقرابة مائتَين من تلك الأعوام الثلاثمائة عاشت عائلة آشبي بها.

لعلَّ ما أنقذَها هو بساطتها. فهي لم تُطالب بشيء؛ ولم تتطلَّع إلى شيءٍ. لقد مُزِج خيرها بالتربة من جديد، فعادت الحيوية إلى جذورها. على الجانب الآخر من الوادي وقف منزل كلير الأبيض الشاهق داخل حديقتِه في مَهابةٍ كمهابةِ نائبة ملكة، لكن لم يَعُد فيه أيٌّ من عائلة ليدينهام الآن. كانت عائلة ليدينهام غنية بمواهبها وثرواتها، وكانت تستغلُّ منزل كلير كخلفية لهم، أو محفظة أموال، أو زينة، أو ملجأ، لكن ليس كمنزلٍ أبدًا. وطوال قرون كانوا يتباهَون بأنفسهم أمام العالم: كولاة، كمُستكشِفين، كمهرِّجين في البلاط الملكي، كأثرياء داعِرين منغمِسين في الملذَّات، وكثُوَّار؛ وكان منزل كلير داعمًا لبذخِهم وغُلُوِّهم. لم يتبقَّ منهم الآن سوى لوحات شخصية لهم. وأصبح المنزل المَهيب داخل الحديقة مدرسةً داخليةً لأطفالٍ صِعاب المراس لآباءٍ لهم أفكار تقدُّمية وحسابات مصرفية ضخمة.

أما عائلة آشبي فظلَّت في لاتشتس.

الفصل الثاني

عندما صبَّت بي القهوة اختفت التوءمتان منشغلتَين بحِيَلِهما الخاصة؛ إذ كان نصف اليوم إجازة لهما، واحتست إلينور قهوتها في عجالة، ثم عادت إلى الإسطبلات.

سأل سايمون: «هل تُريدين السيارة عصر اليوم؟ فقد وعدت جيتس العجوز وعدًا غير مؤكد بأن أحضِر عِجلًا من ويست أوفر في واحدة من مقطوراتنا. فمقطورته مُعطَّلة.»

أجابت بي، مُتسائلة عما حمل سايمون على مهمة في غاية الملل كهذه: «لا، لا أحتاج إليها.» تمنَّت ألا يكون في الأمر ابنة جيتس؛ التي كانت جميلةً للغاية، وسخيفةً للغاية، وعاديةً للغاية. كان جيتس هو المُستأجِر لمزرعة ويجسيل، وهي المزرعة الصغرى بين المزارع الثلاث، ولم يكن سايمون يُطيق انتهازيته في العادة.

قال سايمون وهو ينهض: «أصدُقكِ القول، أريد مشاهدة الفيلم الجديد لجون كاي. إنه يُعرض في سينما إمباير.»

كانت الصراحة المثيرة للإعجاب فيما قيل ستُسعِد أيَّ شخصٍ عدا بياتريس آشبي، التي كانت تعرف جيدًا عادةَ ابن أخيها من إلقاء كُرتَين ليصرف انتباهك عن الكرة الثالثة.

«هل لي أن أُحضِر إليك أي شيء؟»

«ربما بوسعكَ إحضار الجدول الجديد لمواعيد الحافلات من مكتب «ويست أوفر آند ديستركت» إن كان وقتُك يسمح. تقول إلينور إن لدَيهم خدمةَ نقلٍ جديدة من وإلى كلير تمرُّ بجيسجيت.»

جاء صوت في الرَّدهة يقول: «بي، هل أنتِ هنا يا بي؟»

قال سايمون، وهو يخرج لمُقابلتها: «السيدة بيك.»

نادتْها بي: «ادخُلي يا نانسي. تعالَي واشربي القهوة معي. لقد فرغ الآخَرون من قهوتهم.»

ودخلت زوجة القسِّ إلى الغرفة، ووضعت سلَّتها الفارغة على نضد المائدة، وجلست وهي تتنفَّس الصُّعداء. وقالت: «أنا في أمسِّ الحاجة إلى بعض القهوة.»

لا يزال الناس عندما يذكرون اسمَ السيدة بيك، يُضيفون إليه عبارة: «التي كانت نانسي ليدينهام، كما تعرف»؛ رغم مرور عَقد من الزمان منذُ أن فاجأت الوسط الاجتماعي بزواجها من جورج بيك ودَفَنت نفسها في منزل قسٍّ ريفي. كانت نانسي ليدينهام تفُوق كونَها «نجمة العام» في الوسط الاجتماعي عند ظهورها لأول مرة؛ بل كانت ملكيةً قومية. لقد فعلت الصحافة الرخيصة لها ما فعلته البطاقاتُ البريدية الرخيصة لِلِيلي لانجتري؛ فكان جمالُها ملكيةً عامة. إذا لم يقف الجمهور على الكراسي لمشاهدتها وهي تمرُّ، كانوا يُوقِفون حركة السير بكل تأكيد؛ وكان ظهورها كوصيفة عروس في حفل زفاف كافيًا ليجعل قلب السُّلطات يخفق من الخوف لأسبوع سلفًا. كان لها ذلك الحُسن الفتَّان الهادئ الذي لا يختلف عليه اثنان، والذي كان كفيلًا بأن يهزم أي ذامٍّ متأهِّبٍ للانتقاد والحطِّ من شأنها. وبدا السؤال الوحيد في الواقع هو ما إذا كان التُّوَيج النهائي الذي ستتوَّج به ستزينُه أوراقُ الفراولة المميزة للتيجان الملَكية أم لا. كانت الصحف قد تنبأت بحصولها على لقب ملكي أكثرَ من مرة، لكن هذا عمومًا كان أمرًا مُستبعدًا لا يمتُّ للواقع بصلة؛ وكان جمهورها سيسعد بحصولها على لقب ملَكي.

ثم، وبدون أي مقدمات — بين إصدارٍ من مجلة «تاتلر» وآخر، إن جاز التعبير — إذا بها قد تزوَّجَت من جورج بيك. صدحت الصحافة المصدومة، التي كانت تفعل أقصى ما في وُسعِها من أجل الجمهور المصدوم، بأعلى صوتٍ لها وتحدَّثَت بصوتٍ مُرتجفٍ عن قصة الحب، لكن جورج انتصر عليها. كان رجلًا طويل القامة، نحيفًا له وجه قردٍ شديد الذكاء ووسيمًا نوعًا ما. إلى جانب ذلك، قال المُحرِّر الاجتماعي لصحيفة «كلاريون»: «قس! بربكِ! كان بإمكاني أن أجد مزيدًا من الرومانسية مع خلاطة أسمنت!»

وهكذا تركَها جمهورها لتدخُلَ في طيِّ النسيان الذي اختارتْه. أما عمَّتها، التي كانت مسئولةً عن تقديمها إلى المجتمع الراقي، فحرَمتها من الميراث. وتُوفي والدُها غارقًا في براثن الغم والديون. ومنزلها القديم، المنزل الأبيض المهيب الكائن في الحديقة، صار مدرسة.

لكن بعد مُضيِّ ثلاثة عشر عامًا من الحياة في منزل القس ظلت نانسي بيك محتفظةً بجمالها الهادئ الذي لا يختلف عليه اثنان؛ وظلَّ الناس يقولون: «التي كانت نانسي ليدينهام، كما تعرف.»

قالت: «أتيت لأخذِ البَيض، لكن لا داعي للعجلة، أليس كذلك؟ من الرائع أن نجلس دون أن نفعل شيئًا.»

تحرَّكت عين بي جانبًا نحوَها في ابتسامة.

«لكِ وجه جميل يا بي.»

«شكرًا. تقول روث إنه يُشبه وجه قطة غالية الثمن.»

«هُراء. على الأقل ليس النوع المكسوِّ بالفرو. فهمت، أعرف ما تقصده! إنه ذلك النوع من القطط الذي له رقبة طويلة، وشعر قصير يكشف عن ذقنه الصغير. القطط التي تظهر في الشعارات. حقًّا يا عزيزتي بي، لكِ وجه يُشبه القطط التي في الشعارات. لا سيما عندما تُبقين رأسكِ ثابتًا وتحرِّكين عينَيك جانبًا نحو الناس.» ووضعَتْ فنجانها وتنفَّسَت الصُّعداء مرةً أخرى في سرور. «لا أستطيع أن أتصوَّر كيف أخفَقَ المُنشقُّون عن الكنيسة في اكتشاف القهوة.»

«اكتشافها؟»

«أجل. باعتبارها شِركًا. إنها تفعل بالإنسان أكثرَ بكثيرٍ مما يفعله الخمر. ولكن أحدًا لم يُلقِ عِظةً بشأنها حتى الآن، أو يوقِّع على تعهُّدات بعدَم احتسائها. خمس رشفاتٍ منها كفيلة ليبدو العالَم ورديًّا.»

«أكان رماديًّا من قبل؟»

«كان بلونٍ أشبه بلون الوحل. كنتُ في غاية السعادة هذا الأسبوع لأنه كان أول أسبوع في هذا العام لم نحتَج فيه إلى مدفأة غرفة الجلوس، ولم يكن عليَّ إشعال النار ولا تنظيف المدفأة. لكن لا شيء — أُكرِّر، لا شيء — سيمنع جورج عن إلقاء أعواد ثقابِه المُحترقة في المدفأة. وبما أنه يستهلك خمسة عشر عود ثقابٍ ليُشعل غليونًا واحدًا ...! إن الغرفة تعجُّ بسِلال النفايات ومَنافض رماد السجائر، لكن لا، لا بد أن يَستخدِم جورج المدفأة. إنه، حتى، لا يُصوِّب الأعواد، تبًّا له. بحركة سريعة مُستهترة من معصمه، يُسقِط الثقاب في أي مكانٍ من حاجز المدفأة إلى أبعد قطعة فحم. ويجب تجميعُها كلها مرةً أخرى وإخراجها من المدفأة.»

«ويقول: لِمَ لا تتركِيها كما هي.»

«هكذا يقول بالضبط. ولكن بعد أن حظِيتُ الآن ببعض من قهوة لاتشتس، قرَّرتُ ألا أحمل له ساطورًا رغم كل شيء.»

«مسكينة يا ناني. هكذا هم المسيحيون.»

«كيف تسير التجهيزات لحفل بلوغ سنِّ الرشد؟»

«الدعوات على وشْك أن تذهب إلى المطابع؛ وهي مرحلة حاسمة من الجيد أنْ وصلنا إليها. سيكون هناك عشاء للأصدقاء المُقربين هنا، وفقرة رقص للجميع في الإسطبل. ما عنوان أليك، بالمناسبة؟»

«لا أتذكَّر آخِر عنوان له. سأبحث لكِ عنه. في كل مرة يُراسِلنا فيها يكتب من عنوان مختلف. أعتقد أنه يترك المسكَن حينما يعجز عن دفع إيجاره. لا تصِلُني أنباءٌ منه كثيرًا، بالطبع. إنه لم يغفر لي قطُّ أنني لم أُحسِن الاختيار في زيجتي، حتى يُمكنني أن أُبقِي أخي الوحيد على الحال التي اعتادها.»

«هل يعمل بالتمثيل الآن؟»

«لا أعلم. لقد شارك في ذلك العرْض الكوميدي السخيف الذي عُرض على مسرح سافوي لكنه لم يُعرَض إلا أسابيع قليلة. فهو من الشخصيات التي تقتضي الضرورة أن تكون أدواره محدودة.»

«أجل، أعتقد ذلك.»

«لا يمكن لأحد أن يمنح أليك دورًا سوى شخصية أليك. لا تعرفين كم أنتِ محظوظة يا بي، أنك تتعاملين مع عائلة كعائلة آشبي. فوجود المُتهتِّكين والفاسِقين في عائلة آشبي قليل إلى حدٍّ استثنائي.»

«كان هناك والتر.»

«ذئب وحيد يَعوي في البرِّية. إلامَ آلَ مصيرُ والتر؟»

«لقد مات.»

«هل مات تائبًا تفوح منه رائحة القداسة؟»

«لا. بل رائحة فينول. أظنُّه مات في عنبر بملجأ للفقراء والمسجونين.»

«تعرفين، حتى والتر لم يكن سيئًا. كلُّ ما في الأمر أنه أحبَّ الشُّرب ولم يستطِع الصمود أمامه. لكن عندما يكون أحد أفراد عائلة ليدينهام مُتهتكًا، يكون في غاية السوء.»

جلستا معًا في صمتٍ لا يُكدِّره شيء، تتأمَّلان حالَ عائلة كل واحدةٍ منهما. كانت بي تَكبُر صديقتَها بعدة سنوات؛ كانت تكبُرها بجيلٍ تقريبًا. لكن لم تستطِع أيٌّ منهما أن تتذكَّر مرةً غابت فيها إحداهما؛ كان أطفال ليدينهام يدخلون منزل لاتشتس ويخرجون منه وكأنه منزلهم، بنفس الأريحية التي كان عليها آل آشبي مع منزل كلير.

قالت نانسي: «كنتُ أفكِّر كثيرًا في بيل ونورا مؤخرًا. كان هذا الحفل سيكون مناسبةً سعيدة لهما.»

أجابت بي في تأمُّل: «هذا صحيح»؛ كانت عيناها مستقرتَين على النافذة. كانت واقفة أمام ذلك المشهد الذي كانت تنظر إليه الآن حينما حدث ما حدث. في يومٍ يُشبه هذا اليوم كثيرًا وفي نفس هذا الوقت من العام. كانت واقفةً عند نافذة غرفة الجلوس، تفكِّر في قدْر الجمال الذي تجلَّى به كل شيء وفيما إذا كانا سيريان أن لا شيء مما رأياه في أوروبا يضاهي نصف جمال المنظر هنا. كانت تتساءل إن كانت نورا ستستعيد عافيتها من جديد؛ فقد وهَنت كثيرًا بعد ولادة التوءمتَين. وكانت تأمُل في نفسها لو أنها قد استطاعت أن تنوب عنهما في شئونهما بمهارة، ولكن أسعدها أنها ستستأنف حياتها الخاصة في لندن من الغد.

كانت التوءمتان تغُطَّان في النوم، والأطفال الأكبر سنًّا في الطابق العلوي يهندمون أنفسهم استعدادًا لاستقبال والدَيهما وللعشاء الذي سُمح لهما بالسهر من أجله. في غضون نصف ساعة أو نحو ذلك كانت السيارة ستنحرف من الطريق المحفوف بأشجار الليمون لتستقر عند الباب وسيكونان قد وصلا، في جوٍّ من الضحك والعِناق وتقديم الهدايا والسعادة.

كان تشغيل الراديو حركةً تفعلها في شرود ودونما انتباه لدرجة أنها لم تكن تُدرك أنها قد شغَّلته. ليأتي عبره صوتٌ فاتر معلنًا: «تحطَّمت عصر اليوم طائرة الساعة الثانية المتجهة من باريس إلى لندن وعلى متنها تسعة رُكَّاب وطاقم الطائرة المكوَّن من ثلاثة أفراد، وذلك بعد عبورها ساحل كينت مباشرة. ولم ينجُ أحدٌ من الحادث.»

غير معقول. لم ينجُ أحد من الحادث.

قالت نانسي: «كان الأطفال يستحوذون على تفكيرهما كثيرًا. خطرا ببالي كثيرًا في الآونة الأخيرة، بعد أن أوشك سايمون على إتمام عامِه الحادي والعشرين.»

«وباتريك أيضًا كان يخطر ببالي.»

قالت نانسي: «باتريك؟» وبدا في نبرتها الارتباك والتردُّد. «أجل، بالتأكيد. مسكين يا بات.»

نظرت بي إليها بفضول. «لقد نسيتِ تقريبًا، أليس كذلك؟»

«الحقيقة، لقد مرَّ وقت طويل يا بي. و... حسنًا، أعتقد أن عقل الإنسان يضع الأشياء التي لا يستطيع أن يتذكَّرها في موضعٍ بعيد. ما حدث لبيل ونورا كان مروعًا، لكنه كان حادثًا وقع لمجموعة من الأفراد. أقصد، كان جزءًا من مخاطر الحياة التي أَلِفناها. لكن ما حدث مع بات كان ... كان مختلفًا.» وظلَّت صامتة لوهلة. «لقد تجاهلت التفكير في الأمر لدرجةِ أني لم أعُد حتى أتذكَّر شكله. أكان يُشبه سايمون مثلما تُشبه روث توءمَها جين؟»

«لا، إطلاقًا. لم يكونا توءمين مُتطابقَين مثلهما. لم يبدوا مُتشابهَين أكثرَ مما يبدو بعض الإخوة. ولكن من الغريب أنهما كانا مُتأثرَين أحدهما بالآخر ربما أكثر من روث وجين.»

«يبدو أن سايمون قد تجاوز المحنة. هل تظنِّين أنه يتذكَّر الأمر كثيرًا؟»

«لا بد أنه تذكَّره كثيرًا في الآونة الأخيرة.»

«صحيح. لكن مرَّ وقت طويل بين سنِّ الثالثة عشرة والحادية والعشرين. أعتقد أنه حتى التوائم يزدادون غموضًا في تلك الفترة الزمنية.»

استوقفها ما قيل لوهلةٍ وأخذت تُفكِّر. إلى أي مدًى كان يبدو غامضًا بالنسبة إليها ذلك الصبي الصغير الرزين العطوف الذي كان من المُفترض أن يحصل على ميراثه الشهر القادم؟ حاولت استحضار وجهه أمامها، لكنها لم ترَ إلا مشهدًا ضبابيًّا. لقد كان صغيرًا وغير ناضج بالنسبة إلى سنه، لكن فيما عدا ذلك كان مجرد فردٍ من أفراد عائلة آشبي. كان الشبَه عائليًّا أكثر منه فرديًّا. كل ما تذكَّرته حقًّا، عندما فكرت في تلك اللحظة، أنه كان رزينًا وعطوفًا.

لم يكن العطف صفة غالبة في الصبية الصغار.

كان سايمون مُفرط العطاء حدَّ التهوُّر عندما لا يُكلفه الأمر مشقةً؛ لكن باتريك كان يتميز بطيبة قلبٍ لا تحمِله على العطاء فحسب، بل على التنازل.

قالت بي بنبرة حزنٍ: «ما زلتُ أتساءل؛ هل كان من المفترض أن نسمح بدفن الجثة التي عثرنا عليها على شاطئ كاسلتون هناك. لقد كانت مقبرة من مقابر الفقراء.»

«لكن يا بي! كان قد مضى شهور على غرقه في الماء، أليس كذلك؟ ولم يكن بوسعهم حتى التعرُّف على نوعه؛ أليس كذلك؟ وكاسلتون على بُعد أميال. وهم يأخذون جميع الجثث من السفن الغارقة في المحيط على أي حال. أقصد، الجثث الأقرب إليهم. ليس من المنطقي القلق بشأن ... أعني ربط الأمر بـ...» وتخافَتَ صوتُها الوجِل حتى صمت تمامًا.

قالت بي سريعًا: «لا، الأمر ليس كذلك بالتأكيد! أنا فقط حزينة ومتأثرة بموتِه. لتشربي مزيدًا من القهوة.»

وبينما كانت تصبُّ القهوة قررت أن تفتح الدُّرج السري في مكتبها عند مغادرة نانسي وتحرق رسالة باتريك المُحزِنة. كان الاحتفاظ بها مروعًا، رغم أنها لم تنظر فيها لسنوات. لم تواتِها الشجاعة قط لتمزيقها؛ لأنها كانت تبدو جزءًا من باتريك. لكن بالتأكيد كان ذلك تفكيرًا عبثيًّا. فلم تَعُد الرسالة جزءًا من باتريك بقدْر ما كانت جزءًا من حالةِ اليأس التي

كانت تسيطر عليه عندما كتبها: «آسفٌ، لم أعُد أُطيق الاحتمال أكثر من ذلك. لا تغضبوا مني. باتريك.» ستأخذها وتحرقها. صحيح أن حرْقَها لم يكن ليمحُوَها من ذهنها، بالتأكيد، لكن لم يكن بيدها شيء آخر لتفعلَه حيالها. لقد انطبعت تلك الحروف المستديرة المكتوبة بخط تلميذٍ بالمدرسة في عقلِها إلى الأبد. حروف ذات شكلٍ مُستدير منمَّقة مكتوبة بقلم حبرٍ كان مُتعلقًا به بشدة. كانت الرسالة تبدو أقربَ إلى اعتذارٍ من باتريك عن انتحاره.

قدَّمت لها نانسي، التي كانت تُراقِب وجه صديقتها، ما اعتبرته مواساة. «أتعرفين، يقولون إنك عندما تُلقين بنفسك من مكانٍ عالٍ تفقدين الوعي في الحال.»

«لا أظن أنه قد فعلها بتلك الطريقة يا نان.»

بدت نانسي مندهشة فقالت: «معقول! لكن ذلك كان المكان الذي عُثر فيه على الرسالة. أقصد، المعطف الذي كانت الرسالة بداخل جيبه. على قمة المنحدر.»

«أجل، لكن على جانب الطريق. على جانب الطريق المؤدي إلى الممر الجبلي وصولًا إلى الشاطئ.»

«إذن ماذا ...؟»

«أعتقد أنه سَبَحَ بعيدًا.»

«حتى لم يَعُد بوسعه العودة مرة أخرى، أهذا قصدك؟»

«أجل. عندما كنت أتولَّى مسئوليتهم في تلك الفترة، عندما كان بيل ونورا يقضيان إجازتهما، ذهبنا مراتٍ كثيرة إلى الممر، أنا والأطفال؛ للسباحة والتنزُّه. وذات مرة عندما كنَّا هناك قال باتريك إن أفضل طريقة للموت — أظن أنه أطلق عليها الطريقة اللطيفة — هي السباحة إلى مسافة بعيدة حتى يُصبح المرء مجهدًا لدرجةٍ تُعييك عن الذهاب إلى أبعد مما وصلت. قال إنه شيء واقعي تمامًا، بكل تأكيد. في تلك الأيام كان الأمر مجرَّد مسألة أكاديمية. عندما أشرتُ إليه أن الغرق سيظل غرقًا، قال: «لكنك ستكونين متعبةً للغاية، كما تعرفين، ولن تُبالي أكثرَ من ذلك. سيبتلعكِ الماء.» كان يُحبُّ الماء.»

ظلت صامتة قليلًا ثم أفشت الشيء الذي كان بمنزلة كابوس أخفتْه داخلها لسنوات.

«كنتُ أخشى دائمًا أنه لمَّا فات الأوان على العودة ربما قد شعر بالندم.»

«يا إلهي، غير معقول يا بي!»

اتجهت نظرةُ بي الجانبية إلى وجه نانسي الفاتن وقد ظهرت عليه أمارات الاعتراض.

«أمرٌ مريع. أعرف ذلك. انسَي ما قلتُه.»

قالت نانسي متسائلة في تعجُّب: «لا أعرف الآن كيف «تمكنتُ» من نسيانِ ما حدث. أسوأ شيء في دفع أحداث مريعة إلى العقل الباطن هو أنه عند ظهورها على السطح فجأة مرة أخرى تكون حية كما لو كانت طعامًا يخرج طازجًا من مُبرد. لم تسمحي للزمن بأن ينال منها ... أن يفسدها ولو قليلًا.»

قالت بي، ملتمسةً لها العذر: «أعتقد أن عددًا كبيرًا من الناس قد نسوا تقريبًا أن سايمون كان له أخ توءم. أو أنه لم يكن دائمًا الوريث الوحيد. بالتأكيد لم يذكُر لي أحدٌ سيرة باتريك منذ أن أوشكَت احتفالات بلوغ سن الرشد.»

«لماذا عجز باتريك عن أن يجدَ ما يُخفِّف عنه صدمة موت والدَيه إلى هذا الحد؟»

«لم أكن أعرف أنه كذلك. ولا أحد منَّا وجد ما يُخفِّف عنه صدمة موتهما. في البداية طغت حالةٌ من الحزن الشديد على الأطفال جميعًا بالطبع. أضناهم الحزن. لكنه لم يُضنِ أحدًا أكثر من الآخر. بدا باتريك مُتحيرًا أكثرَ منه قانطًا لا يجد ما يُعزِّيه. أتذكَّره وهو يقول: «أتقصدين أن لاتشتس صارت ملكًا لي الآن؟» وكأنها فكرة غريبة، يصعب استيعابها. أتذكَّر أن سايمون كان ضجرًا منه. كان سايمون دائمًا الأذكى. أظن أن الأمر فاق احتمال باتريك؛ كان غريبًا للغاية في نظره. إحساس التيه الذي انتابَهُ لأنه بات فجأة من دون أبيه وأمِّه، وعبء لاتشتس الذي صار على عاتقه. كان الأمر فوق احتماله وكان في غاية التعاسة لدرجةٍ دفعته إلى ... إلى إنهاء حياته.»

«مسكين بات. مسكين يا عزيزي. كان جُرمًا منِّي أني نسيتُه.»

«تعالَي؛ لنذهب ونأتِ بالبيض. لن تنسَي أن تُخبريني بعنوان أليك، أليس كذلك؟ لا بد من توجيه دعوةٍ لأحد أفراد عائلة ليدينهام.»

«بلى، سأبحث عنه عندما أعود، وأخبرك به عبر الهاتف. هل للبَلْهاء الأخيرة التي تعمل لدَيك أن تستقبل رسالةً عبر الهاتف؟»

«بالكاد.»

«حسنًا، سوف أتحرَّى البساطة دون الدخول في تفاصيل. لن تنسَي أنه أليك لودينج المُمثل، أليس كذلك؟» ثم أخذت سلَّتها من فوق نضد المائدة. «أتساءل إن كان سيأتي. مرَّ وقتٌ طويل منذ زيارته الأخيرة لمنزل كلير. الحياة الريفية ليست فكرة للترفيه لدى أليك. لكن بلوغ أحد أفراد عائلة آشبي سن الرشد شيءٌ سيُثير اهتمامه بالتأكيد.»

الفصل الثالث

لكن الشاغل الأساسي لدى أليك لودينج فيما يتعلَّق باحتفال عائلة آشبي ببلوغ أحد أفرادها سنَّ الرشد كان إفساد الاحتفالات بطريقةٍ درامية. وبالفعل، كان في هذه اللحظة مُنهمكًا بكل كيانِه في استخدام نفوذِه لبلوغ غايتِه تلك.

أو، بالأحرى، كان يحاول استغلال نفوذه لتحقيق هدفه. لكن محاولته لم تكن تسير على نحوٍ مُرضٍ.

كان يجلس في الغرفة الخلفية في فندق جرين مان، وبقايا الغداء متناثرة أمامه، وإلى جواره جلس شاب. ربما كان لأحدٍ أن يدَّعي أنه صبي، لولا ضبط النفس والهدوء اللذان لم يتماشيا مع مرحلة المراهقة. صبَّ لودينج القهوةَ لنفسه وأضاف إليها قدْرًا وفيرًا من السُّكر، مسددًا نظرةً خاطفة من حينٍ لآخر إلى رفيقه، الذي كان يُقلِّب كأس جِعَة فارغة مرارًا على المائدة. كانت الحركة متأنية للغاية، حتى إنه كان من الصعب اعتبارها ضربًا من التململُ والتوتر.

قال لودينج في النهاية: «موافق؟»

«لا.»

أخذ لودينج رشفةً من القهوة.

«خائف؟»

«لستُ ممثلًا.»

ثمَّة شيء في عبارته الفاترة بدا أنه قد جرحَه فاحمرَّ وجهه قليلًا.

«ليس مطلوبًا منك أن تكون عاطفيًّا، إذا كان ذلك ما تعنيه. لا مجالَ للتظاهُر بتعلُّق الابن بوالدَيه، كما تعرف. ليس مطلوبًا سوى إظهار مودَّة نابعة من البِر والواجب نحو

عمةٍ لم ترَها منذ ما يقرُب من عشر سنوات؛ وهو ما يُتوقَّع أن يكون مجرد بِر وطاعة أكثر منه عاطفة حقيقية.»

«لا.»

«أنت شابٌّ أحمق، أنا أُقدِّم لك ثروةً طائلة.»

«نصف ثروة. وأنت لا تُقدِّم لي أيَّ شيء.»

«إن كنتُ لا أقدِّم لك أيَّ شيء، فماذا أفعل الآن؟»

أجاب الشابُّ قائلًا: «تُقدِّم لي عرضًا.» ولم يكن قد رفع عينَيه عن كأس جِعَته التي كانت تدور ببطء.

«عظيم، أنا أُقدِّم لك عرضًا، على حدِّ تعبيرك الفظِّ. ما المشكلة في هذا العرْض؟»

«إنه ضربٌ من الجنون.»

«وما وجه الجنون فيه، بالنظر إلى الميزة المبدئية الُتمثِّلة في وجودك؟»

«لم يستطِع أحدٌ النجاحَ في هذه المهمة الصعبة.»

«لم يمرَّ وقتٌ طويل منذ نجاح أحد المُمثِّلين في انتحال شخصية جنرال مشهور كان وجهه أشهَرَ من نارٍ على علَمٍ — إن كنت ستتغاضى عن الاستعارة — في وضَح النهار وعلى مرأًى ومَسمَع من عامة الناس.»

«تلك مسألة مختلفة تمامًا.»

«أتفق معك. لكن لم يُطلب منكَ انتحال شخصية أحد. ليس عليك إلا أن تكون أنت. تلك مهمة أسهل كثيرًا.»

قال الشاب: «لا.»

حافظ لودينج على هدوء أعصابِه بجهدٍ واضح. كان وجهه متورِّدًا ويبدو عليه الانهيار يُذكِّرك بالجانب السفلي من حبات عيش الغراب الطازج. كان اللحم متدليًا من عظام وجهه القوية التي تميز آل ليدينهام بتراخٍ مثبِّط، والجيوب الحديثة العهد تحت عينَيه كانت تنتقِص من ذكائه الذي لا يقبل الشك. والمخرجون الذين كانوا يَعرضون عليه في يومٍ من الأيام أدوارَ الشاب المُستهتر المرِح أصبحوا لا يَعرضون عليه الآن إلا دور مُتهتكٍ سيئ السمعة.

قال فجأةً: «يا إلهي! أسنانك.»

حتى ذلك لم يدفع الشاب إلى الاندهاش إلى الحد الذي يُظهِر على وجهه أي تعبير. رفع عينَيه لأول مرة، مُستقرًّا بهما على لودينج بلا مبالاة. ثم سأل: «ما الخطْب بأسناني؟»

«تلك هي الطريقة التي يتعرَّفون بها على هوية الأشخاص الآن. إن طبيب الأسنان يحتفظ بسجلٍ لعملِه، كما تعرف. أتساءل أين ذهبت تلك الأسنان اللبنية. هذه مسألة يجب علينا أن نفعل شيئًا حيالها. هل هذه الأسنان الأمامية هي أسنانك؟»

«السنَّان الوُسطَيَان تاجان. فالأصليتان قد وقعَتا.»

«كانوا يذهبون إلى طبيبٍ هنا في المدينة، أتذكَّر ذلك جيدًا. ثمة رحلة كانوا يقومون بها إلى لندن لزيارة الطبيب مرتَين في السنة؛ مرة قبل عيد الميلاد ومرة في الصيف. كانوا يتَّجهون إلى الطبيب في الصباح ثم يذهبون لمشاهدة عرضٍ بعد الظهيرة: عرض البانتومايم في الشتاء ومنافسات دورة الألعاب الملَكية في أوليمبيا في فصل الصيف. تلك هي طبيعة الأشياء التي ستحتاج إلى معرفتها، بالمناسبة.»

«حقًّا؟»

أثار هذا الردُّ المُقتضَب المهذَّب جنونَ لودينج.

«اسمع يا فَارار، مِمَّ تخاف؟ أن يكون لدَيه علامة مميزة على شكل ثمرة فراولة مثلًا؟ لقد تحمَّمتُ مع ذلك الطفل ونحن عاريان مراتٍ كثيرة ولم يكن لدَيه أي شيء مميز يتجاوز الشامة الصغيرة. لقد كان عاديًّا للغاية لدرجةٍ أن بإمكانك أن تجد مثله عشرات في مدرسة إعدادية في إنجلترا. تبدو أكثر شبهًا لأخيه في هذه اللحظة من ذلك الطفل، رغم أنهما كانا توءمَين. لقد ظننتُك لوهلةٍ واحدًا من أبناء عائلة آشبي. أليس هذا كافيًا لك؟ ستأتي وتعيش معي أسبوعين وفي نهاية تلك الفترة لن يكون هناك أي شيء لا تعرفه عن قرية كلير وسكانها. ولا عن لاتشتس. فأنا أعرف كل خزانة مؤن فيها. ولا عن عائلة آشبي. هل تجيد السباحة، بالمناسبة؟»

أومأ الشاب برأسه. كان قد عاد إلى كأس الجِعَة مرة أخرى.

«هل تجيد السباحة؟»

«نعم.»

«ألا تعطيني عبارة كاملة أبدًا؟»

«نعم، ما لم يقتضِ الأمر ذلك.»

«كان ذلك الصبي يُجيد السباحة كثعبان الماء. هناك مسألة الأُذنَين أيضًا. أذناك تبدوان عاديتَين تمامًا، وأُذناه أيضًا كان شكلهما عاديًّا حتمًا وإلا كنت تذكَّرت. أي شخص سبق له دراسة الرسم المُستوحَى من الطبيعة يُلاحظ الأذنَين. لكن لا بد أن أرى الصور المتوفرة

له. الأسنان الأمامية لن تهم، لكن نظرةً قريبة إلى الأذن ربما تكشف الحقيقة. أعتقد أن لزامًا عليَّ أن أقوم برحلة إلى قرية كلير وأُجري بعض التحريات.»

«لا تُجهد نفسك من أجلي.»

التزم لودينج الصمت لوهلة. ثم قال بنبرة عقلانية رزينة: «أخبرني، هل تُصدِّق قصتي من الأساس؟»

«قصتك؟»

«هل تصدِّق ما قلتُه عن هويتي، وإنني من قرية تُدعى كلير، فيها شخص يُعَد نسخةً طبق الأصل منك فعليًّا؟ هل تصدِّق ذلك؟ أو هل تظن أن تلك مجرد حيلة لأجعلك تأتي إلى المنزل معي؟»

«لا، لم أظن أن الأمر هكذا. أنا أصدِّق قصتك.»

قال لودينج وهو يلوي حاجبه: «عظيم، حمدًا للرب على ذلك، على الأقل. أعرف أن مظهري لا يبدو كما كان عليه، لكن يجب أن أكون مستاءً من أن أراه يُوحي بالعدوانية. حسنًا، إذن. ها قد حسمنا ذلك الأمر، هل تُصدِّق أنك تبدو كأحد أبناء عائلة آشبي كما أقول؟»

أدار الكأس دورةً كاملة وخلال ذلك الوقت لم تصدُر منه أي إجابة. «أشك في ذلك.»

«لماذا؟»

«بحسب كلامك، فقد مرَّ وقتٌ منذ أن رأيتَه آخِر مرة.»

«لكنك لستَ مُضطرًّا أن تبدو شبيهًا بأحد شباب آشبي. فقط عليك أن تبدو مثله. وهكذا تبدو صدِّقني! يا إلهي، أتعجَّب كيف فعلتها! هذا شيء لم أكن لأصدقه لولا أن رأيتُه بأم عيني؛ شيء لم أتصوَّر أن يحدُث إلا في الكتب. والثمن ثروة طائلة لك. ليس عليك إلا أن تمدَّ يديك وتأخذها.»

«مستحيل، لا، لست مضطرًّا.»

«لنتحدَّث مجازًا. هل تُدرك أن فيما عدا أول سنة أو نحو ذلك ستبدو قصتك حقيقية؟ ستكون قصتك الشخصية؛ وقادرة على مواجهة أي قدْر من البحث والتحقيق.» ثم تحوَّل صوته إلى نبرة ساخرة. «أو ... هل سيتم التحقق منها؟»

«أوه، أجل، سيتم التحقُّق منها.»

«حسنًا، إذن. لم يكن عليك سوى الاختباء على السفينة «إيرا جونز» والخروج على متنها من ويست أوفر بدلًا من الذهاب في رحلة لمدة يوم إلى دييب، وها نحن ذا!»

«وكيف عرفت أنه كانت توجد هناك سفينة اسمها «إيرا جونز» في ويست أوفر وقتها؟»

«وقتها! قلَّما تنصفني يا صديقي. كانت هناك سفينة صغيرة تحمل هذا الاسم المنفِّر في ميناء ويست أوفر يوم اختفاء الصبي. وسبب معرفتي هو أني قضيت أغلب اليوم ألوِّنها. كنت ألوِّنها على لوحة من القماش، وليس على ألواح السفينة، كما تفهم. وأبحَرَت السفينة القديمة بعيدًا قبل أن أنتهي؛ قاصدًا جزر تشانيل. جميع السفن التي أرسمها تُبحِر قبل أن أنتهي من تلوينها.»

عمَّ الصمت قليلًا.

«إنها في حجرك يا فارار.»

«فوطة المائدة الخاصة بي في حجري أيضًا.»

«أقصد ثروةً طائلة. منزلًا صغيرًا ساحرًا. أمانًا. و...»

«أمانًا، هل قلت أمانًا؟»

أجابه لودينج بسلاسة: «بعد المخاطرة الأولى بالطبع.»

حملت العينان اللامِعتان اللتان كانتا تنظران إليه لوهلةٍ لمحةً خفيفة من التندُّر.

«ألم يخطر ببالك قطُّ يا سيد لودينج، أنك أنت مَن تخاطر؟»

«أنا؟»

«أنت تعرض عليَّ أجمل فرصة لارتكاب خيانة سمعت بها على الإطلاق. أتلقى توجيهاتك، وأجتاز الاختبار، ثم أنسى أمرك. ولن يُمكنك فِعل أي شيءٍ حيال ذلك. كيف أعددت لمُراقبتي؟»

«لم أُعِدَّ لذلك. ليس لأحدٍ له هيئة عائلة آشبي مثلك أن يكون خائنًا. فعائلة آشبي رموز للاستقامة.»

دفع الشاب الكأس بعيدًا.

«وهذا قطعًا هو سبب امتناعي عن قبول فكرة أن أكون أفَّاكًا. أشكرك على الغداء الذي دعوتني إليه يا سيد لودينج. لو كنت أعرف ما كان يدور في عقلك عندما طلبتَ منِّي تناول الغداء معك، لم أكن ...»

«لا بأس، لا بأس. لا داعي للاعتذار. ولا تولِّ مُسرعًا؛ سنُغادر معًا. لا يُعجبك عرْضي، عظيم؛ فليكن. لكنك، على الجانب الآخر، تُبهرني. بالكاد يمكنني أن أشيح بنظري عنك، أو أصدِّق أن هناك شيئًا نادرًا إلى هذا الحد. وبما أنك متأكد أنَّ عرْضي غير اللائق ليس به أي محمل شخصي، فليس هناك ما يمنع من السير معًا حتى محطة المترو.»

دفع لودينج حساب غدائهما، وعندما خرجا من فندق جرين مان قال: «لن أسألك عن مكان سكنك في حال اعتقادك أنني أريد مُطاردتك. لكني سأُعطيك عنواني على أمل أن تأتي يومًا لزيارتي. لا، ليس كما تظن؛ ليس بخصوص العرْض. إذا كان الأمر غير مُحبَّذ لك، فهو لا يُناسبك؛ وإذا كان هذا هو شعورك حيالَه، فلن تنجحَ فيه بكل تأكيد. اطمئن، ليس بخصوص العرض. لديَّ شيء في منزلي أعتقد أنه سيستحوذ على اهتمامك.»

توقَّف عن الحديث بأسلوبٍ فني أثناء محاولتهما عبور أحد الشوارع.

«عندما بِيعَ منزلي القديم في قرية كلير— بعد وفاة والدي — جمعت نانسي جميع مُتعلقاتي الشخصية في غرفتي وأرسلَتْها إليَّ. حقيبة ضخمة مليئة بأشياءَ فارغة، لم يكن لدي طاقة للتخلُّص منها، وكان جزء كبير منها عبارة عن لقطات فوتوغرافية وصور لرفاق شبابي. أعتقد أنك ستجدها مثيرة إلى حدٍّ كبير.»

نظر شزرًا إلى وجه رفيقه المُتحفِّظ من الجانب.

قال عندما توقَّفا عند مدخل المترو: «أخبرني، هل تمارس ألعاب الورق؟»

قال الشاب بسرورٍ: «ليس مع الغرباء.»

«كنت أتساءل فقط. فلم يسبق لي قطُّ أن قابلتُ وجهَ البوكر الجامد المثالي حتى اللحظة، ومن دواعي أسفي أن يضيعَ سُدًى مع مُنشقٍّ مُمتنع عن القمار. حسنًا. إليك عنواني. إن حدث وهربت من هناك فسيُلاحقني مكتب «سبوت لايت» للتمثيل. أنا حقًّا آسف لأني فشلتُ في إقناعك بفكرة أن تكون أحد أفراد عائلة آشبي. أشعر أنك كنت ستُصبح سيدًا رائعًا للاتشتس. شخصًا كان يسكن في منزل به خيول، واعتاد الحياة في الهواء الطلْق.»

توقَّف الشاب الذي كان قد أشار بيدَيه ليُودِّعَه وكان يهمُّ بالانصراف بعيدًا. ثم قال: «خيول؟»

قال لودينج، مندهشًا على نحوٍ غامض: «أجل، إسطبل لخيول السباق، كما تعرف. أتفهَم أنها مثار إعجاب الجميع.»

«حقًّا.» وتوقَّف للحظةٍ أطول، ثم انصرف.

راقبَهُ لودينج وهو يسير عبر الشارع. كان يفكر قائلًا: «فاتني شيءٌ ما. ثمة طُعم كان سيبتلِعه، لكنِّي أغفلتُه. لماذا ظهر اهتمامُه عند سماع كلمة خيول؟ لا بد أنه ينزعج منها.»

حسنًا؛ ربما سيأتي ليرى كيف يبدو شبيهُه.

الفصل الرابع

استلقى الشابُّ على فراشه في الظلام، بكامل ملابسه، مُحدِّقًا إلى السقف.

لم يكن في الشارع مصابيحُ حتى تضيء هذه الغرفة الخلفية المبنية تحت البلاط الصخري؛ لكن الضباب الخافت للضوء الذي يغشى سماء لندن ليلًا، المنبعث من المصابيح القوسية والغازية ومصابيح البرافين الكثيرة المنتشرة، عكس شيئًا أشبهَ بطيفٍ على السقف حتى صارت شقوقه والبُقَع التي تلطخه تبدو وكأنها خريطة العالم.

كان الصبي يتأمَّل خريطة للعالم أيضًا، لكنها لم تكن على السقف. كان يُعيد النظر في رحلة حياته راصدًا أحداثها التي مرَّ بها. لقد هزَّه لقاء اليوم. بدا له أن هناك رجلًا آخر في مكانٍ ما يُشبهه حتى إنه قد يحدث خلط بينهما لوهلة. كانت الفكرة مُذهلة لرجل عاش في وحدة شديدة طوال حياته.

في الواقع كان ذلك أغربَ شيء حدث له طوال الواحد والعشرين عامًا التي عاشها. بطريقةٍ ما بدا الأمر وكأنَّ كل تلك السنوات التي بدت مُثيرة ومليئة بالأحداث في ذلك الوقت كانت مجرد مُقدِّمة لتلك اللحظة التي وقف فيها المُمثل الشابُّ مشدوهًا في الشارع وقال: «مرحبًا يا سايمون.»

ثم قال في الحال: «أوه! آسف! حسبتك صديقًا لـ...» ثم توقَّف وأخذ يُحدِّق.

سأل الصبي أخيرًا، لمَّا لم يظهِر الرجل أي بادرة للانصراف ومغادرة المكان: «هل بإمكاني أن أساعدك في شيء؟»

«نعم. بإمكانك أن تأتي وتتناول الغداء معي.»

«لماذا؟»

«حان موعد الغداء، وتلك الحانة التي وراءك هي حانتي المفضلة.»

«لكن لماذا أنا بالذات؟»

«لأنك تُثير اهتمامي. تُشبه صديقًا لي كثيرًا. اسمي لودينج، بالمناسبة. أليك لودينج. ألعب دورًا شريرًا في مسرحية هزلية سيئة على ذلك المسرح العتيق المتردِّي هناك.» وأشار برأسه إلى الجهة المقابلة من الشارع. «لكن نقابة «إيكويتي» للمُمثلين، ليُباركهم الرب، قضت بحدٍّ أدنى من الأجر مقابل أعمالي، وبهذا يَسرُّني أن أقول إن الأجر المُخصَّص أفضل كثيرًا من تقاضي الأجر بالدور. هل تُمانع أن تُخبرني باسمك؟»

«فارار.»

«فاريل؟»

«لا. فارار.»

«حسنًا.» كانت تلك النظرة المُبتهجة المتفحصة لا تزال تلوح في عينَيه. ثم أردف قائلًا: «هل عُدت إلى إنجلترا منذ مدة طويلة؟»

«كيف عرفت أني كنت خارج إنجلترا؟»

«من ملابسك يا صاح. الملابس هي صميم عملي. لقد ارتديتُ ملابسَ لكثيرٍ وكثيرٍ من الأدوار لدرجةٍ تجعلني أُميِّز طريقةَ التفصيل الأمريكية عندما أراها. حتى التفصيلة التقليدية المُذهلة التي ترتديها الآن.»

«إذن ما الذي يجعلك ترى أني لستُ أمريكيًّا؟»

ابتسم الرجل ابتسامةً عريضةً إثر سؤاله هذا. فقال: «ذلك هو السر الأبدي الذي يحمِله الإنجليز. تشاهد موكبًا من الرهبان في إيطاليا فتميِّز عيناك أحدَ الرجال وتقول: «ها! رجل إنجليزي.» تلتقي مصادفة بخمسة مُتشردين متدثِّرين في أجولة من الخيش ليحتموا من المطر في ولاية ويسكونسن، وتلاحِظ خامسهم فتفكر قائلًا: «يا إلهي، ذلك الرجل إنجليزي.» ترى عشرة رجال عراة أمام طبيب الفيلق الأجنبي الفرنسي ليُقيِّم لياقتَهم، وتقول ... لكن هيا بنا لتناول الغداء وبإمكاننا أن نتحقَّق في الموضوع على راحتنا.»

ومِن ثمَّ ذهب لتناول الغداء، وتحدَّث الرجل وكان جذابًا وساحرًا. لكن كان وراء تِلكما العينَين المُنتفختَين المفعمتَين بالحيوية دائمًا تلك النظرة الفضولية المُستمتِعة التي يغلُب عليها الشك. كانت تلك النظرة أبلغَ من أي نقاشٍ أو جدلٍ دار فيما بعد. لا بد حقًّا أن برات فارار يُشبه ذلك الرجل الآخر حتى يستحضر في عينِ شخصٍ تلك النظرةَ من الاستمتاع والنشوة المُمتزجَين بشيء من التشكُّك.

استلقى على الفِراش وفكَّر في الأمر. في هذا التشابُه المفاجئ الكائن في عالمٍ لا ينتمي إليه. تملَّكتْه رغبة شديدة في رؤية توءمه هذا؛ هذا الشاب من عائلة آشبي. كان اسمًا

لطيفًا: اسمًا إنجليزيًّا رفيعًا. كان يودُّ أن يرى المكان أيضًا: لاتشتس، المكان الذي نشأ فيه شبيهُه وسط عالَم من الهدوء ينتمي إليه في الوقت الذي كان يجوب العالَم هائمًا على وجهه، من دار الأيتام وحتى تلك اللحظة في أحد شوارع لندن، حتى لم يَعُد له انتماء إلى أي مكان.

دار الأيتام. لم يكن لدار الأيتام ذنبٌ في شعوره بعدم الانتماء. فقد كانت دارًا جيدة للغاية، وأكثرَ بهجةً بكثيرٍ من دُور كثيرة كان قد رآها أثناء مَسيرته. كان الأطفال يُحبونها. بل كانوا يَبكون عندما يُغادرونها ويعودون لزيارتها من وقتٍ لآخر، ويُرسلون تبرعاتٍ إلى صناديق تمويل الدار، ويدعون العامِلين بها لحضور حفلات زفافهم، ويأتون بأطفالهم للحصول على مباركةِ مُشرِفةِ الدار. لم يكن يمرُّ يومٌ إلا وتجدُ تجمهرًا عند الباب حول فتاة أو صبي من نزلاء الدار القُدامى جاءوا لزيارتها. لماذا إذن لم يكن يراوِدُه مثل ذلك الإحساس؟

هل لأنه كان لقيطًا؟ أكان ذلك هو السبب؟ هل لأنه لم يكن يأتيه زائرون قط، أو طرود أو خطابات أو دعوات؟ لكنهم كانوا يتعاملون بحكمةٍ بالغة مع تلك المسألة؛ كانوا حريصين أشدَّ الحرص على دعم تقديره لذاته. على العكس إذا كان هناك أي شيء ميَّزَه عن الأطفال الآخرين، فكان وضعُه كلقيط. تذكَّر أن هدية عيد الميلاد التي تأتيه من المُشرفة كانت مثار حسدٍ من الأطفال الذين لم تكن تأتيهم هديةٌ إلا من عمةٍ أو عمٍّ؛ مجرد صِلة قرابة إن جاز التعبير. كانت المُشرِفة هي التي التقطتْه من عند عتبة الباب يوم مجيئه؛ وكانت تحرص على إخباره مرارًا بمدى حُسن هندامه وشدة الاعتناء به آنذاك. (ظلَّ يسمع ذلك على فتراتٍ معقولة طيلة خمسة عشر عامًا لكنه عجز تمامًا عن الشعور بأي رضًا تجاه ذلك.) كانت المشرفة هي التي اختارت له اسمَه بالاستعانة بدبوسٍ ودليل الهاتف. كان الدبوس قد سقط على كلمة فاريل (وتعني الرجل الشجاع) في دليل الهاتف. وهو ما أسعدَ المشرفة إلى حدٍّ كبير؛ فقد سقط دبوسها ذات مرة، منذ فترة طويلة، على كلمة «كوفين» (وتعني النعش)، وكان عليها حينَها أن تتحايلَ على الأمر وتُجرِّب مجددًا.

انقطعَ أي شكٍّ بخصوص اسمه الأول؛ إذ كان قد وصلَ إلى عتبة الباب في يوم القديس بارثوليو. كان قد أُطلقَ عليه من البداية اسم بارت. لكن الأطفال الأكبر سنًّا حرَّفوا الاسم ليصير برات، وبعد مدةٍ قليلة صار العاملون كذلك يستخدمون الاسم الأكثر شيوعًا (أكانت هذه حيلةً أخرى من المشرفة حتى تُحجِّم إحساسه بكونه «مختلفًا»؟) وصار الاسم مُلازمًا له حتى انتقل إلى مدرسة قواعد اللغة.

مدرسة قواعد اللغة. لماذا لم يشعُر نحوَها «بالانتماء»، إذن؟

هل لأن ملابسه كانت مختلفة بما لا يلفت الأنظار إليه؟ بالتأكيد لا. لم يكن حسَّاسًا في طفولته؛ كان منطويًا فحسب. هل لأنه التحقَ بها من خلال منحةٍ دراسية؟ بالطبع لا: نصف الصبية معه في الصف الدراسي التحقوا بها من خلال منحة دراسية. لماذا إذن قرَّر أن المدرسة لم تكن مناسبة له؟ قرَّر بحسمٍ لا يتماشى مع طبيعة صبيٍّ لدرجةٍ أخرست كلَّ حجج المشرفة تمامًا، وأيَّدت خروجه للعمل.

لا عجبَ في نفوره من العمل بكل تأكيد. فقد كان مَقرُّ عمله يبعُد مسافة خمسين ميلًا، ونظرًا لعدم توافُر أماكن إقامة عادية يُمكنه دفع ثمنها من راتبه، أصبح لا مفرَّ أمامه من الإقامة في الدار المحلية لرعاية «الصبية». لم يُدرك نعيم دار الأيتام إلا حين ذاقَ دار الرعاية. كان بإمكانه أن يحتمِل إما العمل أو الدار، لكن ليس الاثنان في آنٍ واحد. ومن بين الاثنَين كان مقر العمل أسوأهما بكثير. كان العمل مُريحًا كوظيفة، لا تكتنفُه أيُّ ضغوط، ويحمل بعض فرص التطوُّر الأكيدة، وإن كان على المدى البعيد؛ لكن في نظره كان سجنًا. كان يدرك دائمًا أن الوقت يُداهمه؛ الوقت الذي كان يُهدره. لم يكن هذا ما يريده.

ودَّع حياته الوظيفية على نحوٍ شِبهِ مفاجئٍ وغير مُتعمَّد، وبالطبع من دون تروٍّ. «يوم ذهاب وعودة إلى دييب» كان هذا هو محتوى إعلان ملصق على زجاج واجهة عرض خاصة بأحد باعة الصحف؛ وكان السعر الموضَّح بأرقام كبيرة لونها أحمر، هو حصيلة مُدخراته بالضبط مقرَّبًا إلى أقرب نصف كراون إنجليزي. رغم ذلك، لم يكن ليفعل شيئًا حيال ذلك لولا جنازة السيد هندرين العجوز. كان السيد هندرين الشريك «المنسحِب» في المكتب الذي يعمل به، وفي يوم جنازته أغلق المكتبُ أبوابه «تقديرًا له.» وهكذا، ومع امتلاكه راتب أسبوع كامل في جيبه ويومًا كاملًا إجازة في وسط الأسبوع، أخذ مُدخراته وذهب ليرى «العالم بالخارج.» قضى وقتًا رائعًا في دييب، ولم تُشكِّل لغتُه الفرنسية المتواضعة أي عائق أمام الاستمتاع بوقته، لكن لم يخطر بباله ولو لوهلة المكوثُ هناك إلى أن كان في طريق العودة إلى الوطن. كان قد وصل إلى الميناء قبل أن تستحوذ عليه تلك الفكرة الصادمة.

أخذ يفكِّر وهو يحدِّق إلى سقف غرفته الكائنة في بيمليكو، أكانت الأمانة الفطرية، أم حُسن التوجيه الذي تلقَّاه في دار الأيتام، هو الذي جعل ضخامة حساب غسل الملابس الذي لم يُسدِّده عاملًا مؤثرًا للدرجة في صراعه الفكري الذي خالجَه فيما بعد؟ لم يكن لصبيٍّ لا يملك مالًا ولا فراشًا لمبيتِ ليلةٍ أن تشغَلَه القِيَمُ والأخلاقياتُ المتعلقة بالتملُّص من فاتورة غسيلٍ قيمتُها جنيهان وثلاثة بنسات.

كانت الحافلة، القادمة من الميناء، هي طَوق نجاته. رفع إبهامه ليستوقف سائقها، فابتسم السائق الذي كان يتولَّى قيادةَ الحافلة وكان يُشبِه قُطَّاع الطرُق في هيئته، وذا بشرة بُنية ويتصبَّب عرقًا، ابتسم ابتسامةً عريضة لهذه الإيماءة المتعارَف عليها فتهادى في سَيرِه عندما مرَّ به. ركض نحو الحافلة المتحرِّكة التي كانت ضخمةً كسطحٍ مُنْحَدرٍ، فأمسك بها وتشبَّث، ثم سُحِب إلى داخلها. وترك وراءه حياته القديمة برُمتها.

كان قد اعتزم الإقامة والعمل في فرنسا. كان يجادل مع نفسه أثناء الرحلة الطويلة إلى هافر في أفضل طريقةٍ يمكن بها أن يتكسَّب ما يكفي مأكله، وذلك بعدما أصبح التواصُل مع السائق بالإشارات غير مُجدٍ وعَجَز عن فهم لهجة السائق العامية. كان رفيقُه في حانة هافر هو الذي أرشده. قال الرجل، ناظرًا إلى عينَيه مباشرةً بعينَي كلب صيد حزين: «يا صديقي الشاب، لا يكفي أن تكون شخصًا بالغًا حتى تعمل في فرنسا. لا بد أن تحمل وثائقَ رسمية أيضًا.»

تساءل: «وأين يمكن لإنسانٍ أن يعيش دون أن يمتلك وثائقَ رسمية؟ أقصد في أي بلد؟ بإمكاني السفر إلى أي مكان.» لقد أصبح فجأة مُدركًا للعالَم، وأنه صار متحررًا منه.

أجاب الرجل: «الربُّ يعلم. فالبشر يَصيرون أشبهَ كلَّ يومٍ بقطيعٍ من الأغنام المُنقادة. اذهب إلى الميناء واصعد على متن إحدى السفن.»

«أي سفينة؟»

«لا يهم. أليس لديكم لعبة في الإنجليزية ...» ثم قام بإيماءات وصفية.

«لعبة القُرعة؟ أجل. إيني، ميني، ميني، مو.»

«عظيم. توجَّه إلى الميناء وقُل «إيني، ميني، ميني، مو». وعندما تصعد على متن السفينة التي وقعَتْ عليها كلمة «مو» تأكَّد أن لا أحد يراك. فلدَيهم على السفن شغف بالوثائق الرسمية يصِل إلى حدِّ الجنون.»

وقع الاختيار على السفينة «بارفلور»، ولم يكن بحاجة إلى وثائقَ رسمية في نهاية المطاف. فقد كان الصبي هو المنحة السماوية التي كان طاهي سفينة بارفلور يبحث عنها سنواتٍ طِوالًا.

بارفلور الأصيلة الرائعة، بمطبخها الأخضر المُتَّسخ الذي تفوح منه رائحة زيت زيتون أُعيد استخدامُه مرارًا، ومياه البحر الرمادية التي ترتطم عاليًا بالجبال، والمعجزة المتوالية المُتمثلة في مرورها دون وقوع ضرر، وحالة السُّكْر التي تُصيب الطاهي أسبوعيًّا والتي

كانت تُتيح له أن يطهو دون أجر، ويتعلَّم العزف على الهارمونيكا، ويطَّلع على المطبوعات الغريبة في غُرَف طاقم السفينة. يا لبارفلور الرائعة!

أخذ معه أشياءَ كثيرة عندما غادرها، لكن كان أهمَّها على الإطلاق الاسمُ الجديد الذي اكتسبَه. عندما كتب اسمَه لقبطان السفينة، استبدل بوردي العجوز حرف الراء بحرف اللام، ونسخ اسمه فارار. فظلَّ مُحتفظًا به هكذا. أُخذ فاريل من دليل الهاتف؛ وأُخذ فارار من خطأ ربانٍ شارد. وكلٌّ في النهاية يُفضي إلى شخصٍ واحد.

وماذا بعد؟

ميناء تامبيكو ورائحة الشحم. ومُراقب البضائع الذي قال: «هل أنت إنجليزي؟ هل تبحث عن وظيفة على الساحل؟»

ذهبَ لتفقُّد «الوظيفة»، مُتوقعًا أن تكون غسل صحون.

من المفارقات الغريبة أنه ربما كان لا يزال يعيش في ذلك المنزل الهادئ البديع بفِنائه المرصوف، والزهور الزاهية العديمة الرائحة، والغرف الظليلة البسيطة ذات الأثاث الجميل. حياة رغدة، بدلًا من الاستلقاء على فراشٍ مُتداعٍ في بيمليكو. أُعجب به الرجل العجوز، وأراد أن يتبنَّاه؛ لكنه لم يشعر «بانتماءٍ» نحوه. كان يستمتِع بقراءة الصحف الإنجليزية إليه مرتَين يوميًّا، والعجوز يُتابع ما يُقرأ بسبابةٍ نحيفة مصفرة على نسخته الخاصة؛ لكنها لم تكن الحياة التي كان يتطلع إليها. («إذا كان لا يفهم الإنجليزية، فما جدوى قراءة الإنجليزية له؟» كان قد استفسر عندما شُرحت له طبيعة الوظيفة في البداية، وأفهموه أن الرجل العجوز يعرف «القراءة» بالإنجليزية، بعد أن علَّم نفسه من أحد القواميس، لكنه لم يعرف كيف ينطقها. فأراد أن يستمع إلى نطقها من رجلٍ إنجليزي.)

لا، لم تكن تلك الحياة المناسبة له. كانت أشبَهَ بالعيش في موقع تصوير.

لهذا ذهب ليعمل طاهيًا لنخبةٍ من خبراء النباتات. وبينما كان يحزم أمتعته ليرحل قال له رئيس الخَدَم بنبرة مواساة: «أفضل لك أن ترحل، رغم كل شيء. إذا بقيت ستدُسُّ لك رفيقتُه السُّمَّ.»

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها بوجود رفيقة لهذا العجوز.

استمر في العمل طاهيًا بينما كان يشقُّ طريقه بخُطًى ثابتة نحو حدود نيو مكسيكو. وكانت تلك هي الطريقة السهلة لدخول الولايات المتحدة، حيث لا يوجَد نهرٌ يعوق خُطاك. استمتع بهذه البلدة العبثية الرائعة، التي تتَّخِذ معالمها الطبيعية شكل زوايا، لكن مثلما شعر في منزل الأرستقراطي العجوز القريب من ميناء تامبيكو، لم يكن ذلك ما يتطلَّع إليه.

بعد ذلك نما بداخله إحساسٌ بطيء بالرضا.

عمل طاهيًا مساعدًا لدى تلك المجموعة في مدينة لاس كروسيس. وكانوا لا يحتمِلون أيَّ اختلافٍ عن الطعام الذي عرفوه، وكانوا يستمتِعون بلهجتِه. («قُلها مرةً أخرى أيها الإنجليزي.» ثم تنطلق ضحكاتهم مُردِّدين في ابتهاج: «ماذا تقول؟!»)

عمل طاهيًا لمسابقات رعاة البقر التي تقام عند نهرِ سنيك. وهناك اكتشف الخيول. كان الإحساس الذي منحَتْه إياه هو إحساس العودة إلى الوطن.

تولَّى رعاية قطيعٍ من الخيول لصالح مركز سباق الخيل في سانتا كلارا. واكتشف أن الخيل «الحرون» تُصبح أقلَّ عنادًا عندما يَمتطيها صبيٌّ إنجليزي.

أمضى فترةً مع البيطار في مزرعة ويلسون. وهناك كان لقاؤه بفتاته الأولى، لكن ذلك لم يُثِر في نفسه نصفَ الحماس الذي يشعر به حينما يبحث عما بوسعه أن يفعله مع «الخيول الميئوس منها» في الحظيرة. قال له سيده: «ليس بوسعك فِعل شيء سوى إطلاق النار عليها.» وعندما اقترح محاولةَ فِعل شيءٍ حيالها، قال سيده بفتور: «افعل ما شئت؛ لكن لا تنتظِر منِّي دفعَ حساب المستشفى. لقد استؤجرتَ هنا مساعدًا للبيطار.»

ومن تلك المجموعة جاء سموكي: حصانه الجميل سموكي. أهداه سيده إياه جزاءً لما فعله مع الحالات الصعبة. وعندما ذهب إلى مزرعة ليزي واي أخذ سموكي معه.

عمل بترويض الخيول بمزرعة ليزي واي. وكانت فترة سعيدة. كانت السعادة تغمره لدرجةٍ تفوق الحدود. واستمرَّت تلك السعادة قُرابة سنتَين.

وبعد ذلك. صار ينتابه ثِقل وقتي؛ فكان الحَر يُصيبه بالخمول والنعاس أو تُحجَب عنه الرؤية بفعل وهَج الشمس. ورأى الظَّهر البُني المتلوِّي لأحد الخيول ينقلب عليه. وسمع صوت انكسار عظام فخذه.

نُقل إلى المستشفى في إيدجمونت. لم يكن مثل المُستشفيات التي تظهر في الأفلام مطلقًا. لم يكن هناك مُمرضات حسناوات ولا أطباء وَسِيمُون تحت التمرين. كانت جدران العنبر ذات لون أخضر ضارب إلى الرمادي كلَون أوراق المريمية، والمعدَّات والأجهزة قديمة ومتَّسخة، والممرضات مُنهكات من كثرة العمل. كنَّ يُدلِّلنه تارةً ويتجاهَلْنه تارةً أخرى.

ثم حدث الانقطاع المُفاجئ للرسائل من الصِّبية.

المهمة الشاقة لتعلُّم المشي من جديد، واستيعابه البطيء أن إصلاح ساقه قد أدَّى إلى «قِصَرها» عن الساق الأخرى. سيصير أعرجَ إلى الأبد.

ثم الرسالة التي جاءته من سيدِه بإنهاء عمله في ليزي واي.

النفط. كانوا يَحفرون للتنقيب عن النفط. كان أول برج حفرٍ تحت الإنشاء يقع على مسافةٍ لا تتجاوز مائتي ياردة عن مسكن العمَّال. كان الشيك المُرفق بخطاب سيده كفيلًا بإعالة برات حتى يستردَّ عافيتَه. في تلك الأثناء كان يُفكر، ما الذي يجِب فِعله مع سموكي؟

ماذا بوسع رجلٍ أعرجَ أن يفعل مع حصانٍ في حقل نفط؟

بكى على حال سموكي بينما كان مُستلقيًا في ظلمة العنبر. كانت تلك هي المرة الأولى التي يبكي فيها على حال أحد.

حسنًا، ربما أصبح بطيئًا لدرجةٍ تعُوقه عن الاستمرار في ترويض الخَيل، لكنه لن يكون خادمًا للنفط. ثمَّة سُبل أُخرى للكسب من الخيول.

منتجع ركوب الخيل. لم يكن يُشبه تلك المنتجعات التي تظهر في الأفلام أيضًا.

كان مملوكًا لسيداتٍ غليظات حمقاوات يرتدِين ثيابًا غير لائقة ينهلنَ بضرباتٍ قاسية على سروج خيول كسيرةِ الروح، حتى إنه تعجَّب أنها لم تنشطر إلى نصفَين.

السيدة التي كانت ترغب في الزواج منه.

لم تكن نهائيًّا من النساء التي قد تتصوَّر أنها تريد «رجلًا تعوله امرأة.» لم تكن بدينة أو سخيفة أو مُتيَّمة. بل كانت نحيفة، يبدو عليها التعب والإجهاد، وكانت لطيفة بعض الشيء؛ كانت تمتلك من منتجع ركوب الخيل الجزء الواقع أعلى التل. أخبرته أنها ستُعيد إليه ساقَه كما كانت. وكان ذلك هو الطُّعم الذي ألقتْه له.

كان الشيء الإيجابي في منتجع ركوب الخيل هو إمكانية كسب المال فيه. لم يمتلك مالًا بهذه الوفرة في حياته مثلما كان حينما أنهى عمله هناك. كان يعتزم التوجُّه إلى الشرق لإنفاقها. ثم حدث له شيء. أثارت تلك القرية الصغيرة الأكثر خضرةً في الشرق، ورائحة الحدائق النضرة، أثارت في نفسه حنينًا إلى إنجلترا لدرجةٍ أربكته. فلم يكن ينوي بعدُ العودةَ إلى إنجلترا لسنواتٍ قادمة.

ظل لعدة أسابيع يُصارع هذا الحنين في قلق واضطراب — كانت الرغبة في العودة شيئًا طفوليًّا في نظره — ثم استسلَمَ تمامًا على حين غِرة. فهو في النهاية لم يسبِقْ له أن زار لندن. وكانت العودة لزيارة لندن سببًا مشروعًا تمامًا للعودة إلى إنجلترا.

وهكذا عاد إلى الغرفة الخلفية في بيمليكو وذلك اللقاء الذي حدث في الشارع.

الفصل الخامس

نهض وأخذ علبةَ سجائره من جيب معطفه المعلَّق خلف الباب.

لماذا لم تكن صدمته أكبر عندما قدَّم لودينج عرْضه؟

هل لأنه خمَّن أن ثمة عرضًا سيُطرح؟ أم لأن وجه الرجل كان منذرًا بما يكفي بأن مصالحه ستكون مُريبة؟ أم لأنه، ببساطة تامة، لم يكن له صِلة به، ومن غير المحتمل أن يَمسَّه شيء؟

لم يكن مُمتعضًا من الرجل، ولم يسبق له أن قال: «يا لك من وغدٍ دنيء لكي تُفكر في الاحتيال على صديقك لكي تستولي على ميراثه!» أو كلمات بذلك المعنى! لكنه آنذاك لم يكن لدَيه أي اهتمامٍ قطُّ بشئون الآخرين، سواء آثامهم، أو أحزانهم، أو سعادتهم. وعلى أي حال، ليس بإمكانك أن تكون صدوقًا مع رجلٍ كنتَ تأكُل من طعامه.

اتَّجَه ناحية النافذة ثم وقف يتطلَّع إلى الخارج نحو الإطار الباهت لأنبوب المدخنة وسط الضباب الرقيق اللامع. لم يكن قد وصل إلى حدِّ الإفلاس بعدُ، لكن كان قد أضناه البحث عن وظيفة. ولم تكن الفُرَص مُشجِّعة على الإطلاق. كان يبدو أن عدد مَن يهتمون بالحصول على عملٍ في إسطبلات الخيول بإنجلترا أكبر بكثيرٍ من الإسطبلات الموجودة لاستيعابهم. فقد تقلَّص عالم الخيول في الوقت الذي ازداد فيه مُحبو الخيول. وكل هؤلاء الرجال الذين فقدوا اهتمامَهم الأساسيَّ في الحياة باختفاء الفروسية كانوا لا يزالون مُحتفظين بعافيتِهم ونشاطِهم، وكانوا يُطوِّقون مداخل الإسطبلات بمجرد العلم بوجود فرصة عمل.

إلى جانب ذلك، لم يُرِد أن «يمارس مهنته مرتَين في اليوم.» فإذا كانت هندسة الطرق ضمن اهتماماتك، فلن تتوقَ لقضاء أيامك في وضْع القطِران على سطح الطريق.

كان قد أجرى محاولات مع بعض المعارف، لكن لم يُظهر أيٌّ من الأماكن المرموقة اهتمامًا بغريبٍ أعرجَ دون قائمة مرجعيات تُزكِّيه. ولِمَ ينبغي لهم ذلك؟ فلدَيهم نخبةٌ من أكفأ الناس في إنجلترا. وعندما ذكر أن خبرته في ترويض الخيول كانت في الولايات المتحدة، بدت تلك النقطة حاسمةً لأمره. فكان ردُّهم: «أوه، خيول المزارع!» كانوا يقولونها بلطفٍ وأدبٍ جمٍّ — كان قد نسِي مدى دماثة خُلق المواطنين في بلاده إلى أن عاد إليها — لكنهم استشفُّوا بطريقةٍ أو بأخرى أن الأسلوب الغربي الذي يقضي إما بالنجاح التام أو الفشل الذريع ليس أسلوبَهم. ونظرًا لأنهم لم يذكروا ذلك قط بصراحة تامة، لم يكن بوسعه أن يُوضح أن ذلك ليس أسلوبه هو الآخر. وعلى أي حال، لم يكن الأمر ليُفيد في شيء. فقد كانوا يريدون أن يعرفوا شيئًا عنك في هذا البلد قبل أن يقبلوك للعمل معهم. في أمريكا، حيث يتنقل المرء كثيرًا من عملٍ لآخر، كان الأمر مختلفًا؛ لكن هنا تظلُّ في وظيفتِك مدى الحياة، وكانت شخصيتك على نفس قدْر أهمية العمل الذي تُمارسه.

كان الحل، بالتأكيد، هو الرحيل عن البلد. لكن المشكلة الحقيقية التي عجز عن التغلب عليها هي أنه لم يُرِد الرحيل. فالآن وبعد عودته، أدرك أن ما كان يحسبه تَرحالًا حرًّا بلا هدف كان مجرد طريقٍ طويلٍ مُلتفٍّ للعودة إلى إنجلترا. كان كل ما في الأمر أنه رجع، ليس عبر دييب، إنما عبر لاس كروسيس وأماكن ناحية الشرق. لقد وجد ما أراده عندما اكتشف الخيول؛ لكنه لم يحمل أيَّ شعورٍ آخر «بالانتماء» في نيو مكسيكو أكثرَ مما شعر به في مدرسة تعلُّم قواعد اللغة. بل إنه أَحَبَّ نيو مكسيكو أكثرَ منها، هذا كلُّ ما في الأمر.

وما هو أفضل من ذلك أنه أَحَبَّ إنجلترا بعد أن أمعن النظر إليها وتفحَّصها. أراد أن يعمل مع خيول إنجليزية في أرضٍ خضراء إنجليزية على عشب إنجليزي.

على أي حال، كان الخروج من هذا البلد أصعب كثيرًا من الدخول إليه، إذا كنت مُفلسًا. كان قد تشارك في الجلوس على مائدةٍ في لايونز بشارع كونفنتري ستريت ذات يومٍ مع رجلٍ كان يحاول لثمانية عشر شهرًا أن يعمل مقابل سفره مجانًا على متن سفينةٍ إلى مكانٍ أو آخر. تحدَّث الشاب بغضبٍ قائلًا: «البطاقات! هذا كلُّ ما يقولونه دائمًا. أين بطاقتك؟ إذا حدث ولم تكن مُنتميًا إلى النقابة المتحدة لعمال تطبيق مناديل المائدة، فلن يُمكنك أن تساعد حتى خادمًا في تجهيز مائدة. أنتظر فحسب أن أراهم يتركون سفينةً تغرَق من تحتِهم لأن لا أحد على متنِها يحمل البطاقة المناسبة لتوظيفه بغرفة المضخات.»

نظر إلى العينَين الزرقاوَين الغاضبتَين لهذا الرجل الإنجليزي وتذكَّر الرجل في حانة هافر. «لا بد أن تحمل وثائقَ رسمية أيضًا.» أجل، لقد صار العالم يضجُّ بفوضى الأوراق.

من المؤسف أنَّ عرْض لودينج كان إجراميًّا إلى أبعد حد.

أكان سيُنصت إلى العرْض باهتمامٍ أكثرَ لو كان لودينج قد أشار إلى الخيول باكرًا؟

لا، بالطبع لا؛ كان ذلك عبثًا. كان العرض إجراميًّا ولم يكن ليُقبِل عليه.

قال صوتٌ بداخله: «سيكون الأمر آمنًا تمامًا.» ثم تابع قائلًا: «لن يقاضوك حتى لو اكتشفوا الأمر، خوفًا من الفضيحة. لودينج قال ذلك.»

قال: «اخرس. ذاك عمل إجرامي.»

ربما كان مُسليًا الذهاب في ليلةٍ ما ومشاهدة أداء لودينج التمثيلي. لم يسبق له قطُّ أن قابل ممثلًا من قبل. ربما سيكون حدثًا مُثيرًا جديدًا أن تجلس وتُشاهد الأداء التمثيلي لشخصٍ تعرفه «من بعيد.» كيف سيكون لودينج بصفتِه شريكًا في جريمة؟

قال الصوت بداخله: «شريك عبقري، صدقني.»

قال: «بل شخص في غاية السوء. لا أريد التورُّط معه في أي شيء.»

قال الصوت بداخله: «لستُ بحاجة إلى التورُّط في أي شيءٍ مُتعلِّق بالأمر. ليس عليك سوى الذهاب إلى لاتشتس وتقول: ألقوا نظرة عليَّ. هل أُذكِّركم بأحد؟ لقد تُركت على عتبة أحد الأبواب في تاريخِ كذا، ومن ذلك الحين وحتى اليوم وأنا أبحث عن وظيفة.»

«ابتزاز؟ إلى أي مدًى تظن أنني سأستمتع بعملٍ حصلت عليه بطريق الابتزاز؟ كفاك سخافة.»

«هم مدينون لك بشيء، أليس كذلك؟»

«لا، ليسوا مدينين بشيء. ولا بمثقال ذرة.»

«تبًّا، كفاك كذبًا! أنت أحد أفراد عائلة آشبي وأنت تعلم ذلك.»

«لا أعلم ذلك. كم من أشخاصٍ كانوا مُتشابهين من قبل. هتلر كان له أشباه كُثر. وكثير من المشاهير لهم أشباه. دائمًا ما تنشر الصحف صورَ الأشباه المتواضِعين للعظماء. جميعهم يُشبهون العظماء شكلًا دون الجوهر.»

«هراء. أنت أحد أفراد عائلة آشبي. من أين جئت بشغفك الفطري للتعامُل مع الخيول؟»

«كثير من الناس لديهم شغف طبيعي للتعامُل مع الخيول.»

«كان بدار الأيتام اثنان وستون طفلًا، هل بدأ أحدهم في الترفُّع عن وظائفَ مرموقة، أو التبنِّي من قِبل آباء أغنياء، حتى يتمكنوا من شقِّ طريقهم إلى الخيول؟»

«لم أكن أعرف أنني أتطلَّع إلى الخيول.»

«بالتأكيد لم تعرف. لكنَّ عِرقك الآشبيَّ كان يعرف.»

«تبًّا، اخرس.»

كان سيتَّجِه في الغد إلى بلدة لويس ليجري محاولةً مع إسطبل خيول القفز. ربما كان أعرجَ لكن لا يزال بوسعه امتطاء أي شيءٍ يسير على أربع. وربما يُبدون اهتمامَهم بشخصٍ بإمكانه ركوب حصان يزن مائة وأربعين رطلًا ولا يُمانع أن يخاطر بحياته.

«هل تخاطر بحياتك في حين أن بوسعك أن تعيش في نعيمٍ ورغد؟»

«لو كان النعيم الذي أردته، لاستطعت أن أعيش فيه منذ فترة طويلة.»

«صحيح، لكنه ليس نعيمًا فيه خيول.»

«اصمت. أنت تُضيِّع وقتك.»

بدأ في خلع ملابسه، وكأن الحركة قد تضع حدًّا لهذا الصوت. أجل: كان سيذهب إلى بلدة لويس. كانت على مسافةٍ قريبة للغاية من بلدته الصغيرة، لكن لن يتعرف عليه أحد بعد مرور ست سنوات. وكانت المسألة لا تُمثل حقًّا أي أهمية، بالتأكيد، إنْ تعرفوا عليه؛ لكنه لم يُرِد أن يعود إلى الخلف.

تهكَّم الصوت بداخله قائلًا: «بإمكانك دائمًا أن تقول: عفوًا، اسمي آشبي.»

«هل لك أن تصمت!»

بينما كان يُعلِّق مِعطفه على ظهر الكرسي فكَّر في ذلك الشاب آشبي الذي تخلَّى عن حياته. رغم امتلاكه كلَّ ما يمكن أن يعيش من أجله في هذا العالَم ذهب وألقى بنفسه من أعلى منحدرٍ. بدا الأمر غير منطقي. هل كان الأبوان يُمثِّلان كل هذه الأهمية؟

«لا، لقد كان مسكينًا، وأنت ستحلُّ محلَّه في إدارة لاتشتس على نحوٍ أفضل كثيرًا.»

سكب ماءً باردًا في الحوض واغتسل بقوة؛ كان ذلك أحدَ الأشياء التي تدرَّب عليها في دار الأيتام التي بقِيَت معه أمدًا طويلًا مثل تدريبات الخدمة العسكرية. وبينما كان يُجفِّف نفسه بالمنشفة التركية المهترئة — كانت قديمة لدرجةِ أنها صارت مُرتخية ومُبلَّلة قبل أن يجف — فكَّر في نفسه: «لن يَروقني الأمر، على أي حال. الخَدَم، ومثل هذه الأشياء.» كانت فكرته عن حياة الطبقة المتوسطة الإنجليزية مأخوذةً من الأفلام الأمريكية.

على أي حال، كان الأمر مُحالًا.

وكان من الأفضل أن يتوقَّف عن التفكير فيه.

قال أحد الأشخاص ذات مرة إنك إذا فكَّرت في الشيء المُستحيل وقتًا طويلًا بما يكفي، فإنه يُصبِح مقبولًا ومنطقيًّا إلى حدٍّ كبير.

لكنه كان سيذهب في وقتٍ ما ويرى تلك الصور التي أخبرَه بها لودينج. فلم يكن هناك ضَير في ذلك.

لا بد أن يرى كيف كان يبدو «توءمه».

لم يَرُقه لودينج كثيرًا، لكن الذهاب لُمقابلته لا يمكن أن يَضيره في شيء؛ كما أنه كان يريد حقًّا أن يرى صورًا للاتشتس.

أجل، سيذهب لرؤية لودينج.

ربما يومَ بعدَ غدٍ؛ بعد أن يزور لويس.

أو حتى غدًا.

الفصل السادس

كان السيد ساندال، بمكتب كوسيت وثرينج ونوبل، على وشْك إنهاء عمله المسائي وبدأ عقله في جدله اليومي بخصوص ما إذا كانت حافلة الساعة الرابعة وخمسٍ وخمسين دقيقة أم حافلة الخامسة والربع هي التي ستحمِله إلى المنزل. كان هذا هو الجدل الوحيد تقريبًا الذي يخوضُه عقلُ السيد ساندال في حياته. كان مُوكِّلو مكتب كوسيت وثرينج ونوبل من نوعَين لا ثالث لهما: هؤلاء الذين توصَّلوا إلى قرارٍ بخصوص مشكلةٍ ما وأخبروا مُحاميهم بنبرةٍ حاسمة عن الإجراء الذي أرادوا اتخاذَه، وأولئك الذين ليس لديهم أي مشكلة. لم يكن هناك خبرٌ مفاجئ أو أحداث مشئومة تُسرِّع من إيقاع المكتب ذي الطراز الجورجي المُستظل بظل أشجار الدُّلْب. حتى وفاة أحد المُوكلين لم يكن خبرًا: فكان متوقعًا من العملاء أن ينقضيَ أجلهم، وحينئذٍ ستكون الوصية المناسبة في خزانة المستندات المناسبة وستسير الأمور كما كانت من قبل.

محامو الأَسَر؛ هكذا كان مكتب كوسيت وثرينج ونوبل. مُتعهِّدون بالحفاظ على الوصايا والتكتم على الأسرار؛ لكنهم لا يتخذون موقفَ المُصارعين أمام المشكلات. وكان هذا هو السبب الذي جعل السيد ساندال بأي حالٍ أفضلَ شخصٍ يتلقَّى ما يأتيه.

سأل مساعده، الذي كان يقود ضيفًا إلى الخارج: «أذلك كل شيء يا ميرسر؟»

«يُوجَد موكِّل واحد يجلس في غرفة الانتظار يا سيدي. السيد آشبي الصغير.»

«آشبي؟ مِن لاتشتس؟»

«أجل يا سيدي.»

«حسنًا؛ حسنًا. هلا تُحضِر إبريق شاي يا ميرسر؟»

«أجل يا سيدي.» ثم توجَّه إلى المُوكِّل قائلًا: «هلا تتفضَّل بالدخول يا سيدي؟»

دخل الشاب.

قال السيد ساندال، مُصافحًا إيَّاه: «سايمون، سعدت برؤيتك يا عزيزي. هل أتيتَ في مهمة عمل، أم فقط ...»

تلاشى صوتُه في حَيرة، ثم حدَّق، وتوقَّفت ذراعه في منتصف المسافة وهو يُشير بها إلى أحد المقاعد كي يجلس.

فقال: «يا إلهي، أنت لست سايمون.»

«نعم. لست سايمون.»

«لكن ... لكنك من عائلة آشبي.»

«إذا كنت تعتقد ذلك، فهذا سيسهل عليَّ الأمر كله.»

«حقًّا؟ اعذرني إن كنتُ مرتبكًا قليلًا. لم أعلم أن هناك أبناء عمومة في عائلة آشبي.»

«لا يُوجَد بالفعل، حسب علمي.»

«حقًّا؟ إذن، أستميحك عذرًا، أي فرد من عائلة آشبي أنت؟»

«باتريك.»

فغر السيد ساندال فاه الصغير ثم أغلقه فأصبح كفَّاه سمكةً ذهبية.

لم يَعُد ذلك الحالِم الغارق في عالَمِه الهادئ المريح، وتحول إلى مجرد محامٍ صغير يعصف به القلق والذهول.

للحظة استمرَّت طويلًا نظر في عينَي آشبي الفاتحتَين القريبتَين للغاية من عينَيه دون أن يجد أي كلماتٍ تبدو مناسبةً للموقف.

وأخيرًا قال: «أرى أنه من الأفضل أن نجلس.» وأشار إلى مقعد الزائرين، ثم استكنَّ في مقعده في سعادةٍ كمن وجد مرساة في عالَمٍ صار فجأة وسط بحر.

قال: «والآن، دعنا نستوضح الموقف. لقد مات باتريك آشبي الوحيد الذي أعرفه في عمر الثالثة عشرة؛ أي منذ — دعني أرى — ثماني سنوات مضت.»

«ما الذي يجعلك تعتقد أنه قد مات؟»

«لقد انتحر، وترك رسالة وداع.»

«هل أشارت الرسالة إلى انتحار؟»

«أخشى أني لا أستطيع تذكُّر نص الرسالة.»

«ولا أنا أتذكَّرها على وجه التحديد. لكن يُمكنني أن أوضح لك فحواها. قالت: «لم أعُد أطيق الاحتمال أكثرَ من ذلك. لا تغضبوا مني.»»

«أجل. أجل، كان ذلك فحوى الرسالة.»

«وأين الإشارة إلى الانتحار في ذلك؟»

«إيحاء الرسالة بكل تأكيد هو ما قد يستشفُّ منه المرء ذلك بطبيعة الحال. لقد عُثر على الرسالة أعلى المنحدَر مع معطف الصبي.»

«طريق المنحدر هو طريق مُختصرٌ إلى الميناء.»

«الميناء؟ أتقصد ...»

«كانت رسالة هروب؛ وليس انتحار.»

«لكن ... لكن ماذا عن المعطف؟»

«لا يمكنك أن تترك رسالةً في الهواء الطلْق. الطريقة الوحيدة لتركِها هي وضعُها في جَيب شيءٍ ما.»

«هل تُلمح جِديًّا إلى أنك ... أنك ... أنك باتريك آشبي، وأنك لم تنتحِر نهائيًّا؟»

نظر الشابُّ إليه بعينَيه اللتَين لا تُفشيان أي شيء. ثم قال: «عندما دخلتُ حسبتَني أخي.»

«صحيح. كانا توءمين. ليسا توءمين مُتطابقين، لكن بالطبع كانا في غاية ...» وصارت الدلالة المباشرة لما كان يقوله واضحةً تمامًا له. «يا إلهي، هكذا حسبت. هكذا حسبت.»

جلس لحظة أو لحظتَين يُحدِّق في حيرة وعجز. وبينما كان يُحدِّق دخل ميرسر جالبًا الشاي.

سأله السيد ساندال: «هلا تتناول بعض الشاي؟» وكان السؤال مجرد ردِّ فِعل تلقائي لوجود صينية الشاي.

قال الشاب: «شكرًا لك. من دون سُكر.»

قال السيد ساندال، بأسلوبٍ استعطافي نوعًا ما: «هل تُدرك حقًّا أن ادعاءً مفاجئًا و... وخطِرًا إلى هذا الحد كادعائك هذا لا بد أن يخضع للبحث والتحقيق؟ ليس بإمكاني، كما تفهم، أن أكتفيَ بالموافقة على روايتك.»

«لا أتوقَّع منك ذلك.»

«رائع. هذا رائع. مُنتهى الحكمة منك. ربما من المُمكن في وقتٍ لاحق أن نحتفل بعودتك احتفالًا ضخمًا، لكن الآن علينا أن نتصرَّف بحكمة. أظنُّك تُدرك ذلك بالفعل. هل تريد حليبًا؟»

«شكرًا.»

«على سبيل المثال: هربت، كما تقول. أظنُّك هربت إلى البحر.»

«أجل.»

«على أي سفينة؟»

«السفينة إيرا جونز. كانت راسية في ميناء ويست أوفر.»

«واختبأت في السفينة بالتأكيد.»

«أجل.»

سأل السيد ساندال، وهو يُدوِّن ملاحظاتٍ وقد بدأ يشعر بأنه لم يكن يُبلي بلاءً سيئًا رغم كل شيء: «وإلى أين اتجهَت بك السفينة؟» كان هذا أسوأ موقف مرَّ به في حياته، ولم يَعُد هناك الآن مجال للحاق بحافلة الساعة الخامسة والربع.

«جزر تشانيل. سانت هيلير.»

«هل اكتُشف وجودك على متن السفينة؟»

«لا.»

«نزلت من السفينة في سانت هيلير، دون أن يكتشفك أحد.»

«أجل.»

«وماذا فعلت هناك؟»

«استقللتُ قاربًا إلى سانت مالو.»

«اختبأت مرة أخرى؟»

«لا، دفعت أجرتي.»

«هل تتذكَّر اسم القارب؟»

«لا؛ كانت تابعة لخدمة العبَّارات العادية.»

«فهمت. ماذا بعد؟»

«ذهبت لاستقلال الحافلة. كانت الحافلات دائمًا تبدو لي أكثرَ إثارة من تلك العربة العائلية القديمة في لاتشتس، لكن لم تسنح لي فرصة لركوبها.»

قال السيد ساندال: «السيارة العائلية. آه، حسنًا.» ثم كتب: «يتذكر السيارة.» ثم أردف قائلًا: «وماذا بعد؟»

«دعني أتذكَّر. عملت فترةً عاملًا في مرأبٍ تابع لفندق في مكانٍ اسمه فيلديو.»

«لعلك تتذكَّر اسم الفندق؟»

«فندق دوفين، حسبما أظن. ومن هناك اتجهت إلى الجهة الأخرى من البلد ثم استقررت في هافر. وفي هافر حصلتُ على وظيفة عاملٍ مطبخ على باخرة تجارية حرة.»

«ما اسمها؟ هل تتذكره؟»

«لن أنسى اسمها أبدًا! كان اسمُها بارفلور. انضممتُ إليها تحت اسم فارار. ف–ا–ر–ا–ر. بقيتُ فيها حتى نزلتُ منها في ميناء تامبيكو. ومن هناك اتجهت شمالًا إلى الولايات المتحدة. هل تودُّ أن أُدوِّن لك الأماكن التي عملت فيها في الولايات المتحدة؟»

«سيكون ذلك لطفًا كبيرًا منك. هاك ... حسنًا، معك قلم. إذا تفضَّلت اكتبها هنا في قائمة. شكرًا لك. ثم عُدت إلى إنجلترا ...؟»

«في الثاني من الشهر الماضي. على السفينة فيلادلفيا. استقللتُها بصِفتي راكبًا. أخذت غرفة في لندن وعشت هناك من ذلك الحين. سأكتب لك العنوان؛ ستحتاج إلى التأكُّد من ذلك أيضًا.»

«أجل. شكرًا لك. أجل.» خالج السيد ساندال إحساسٌ غريب بأن هذا الشاب — الذي كان في النهاية تحت المجهر، إن جاز القول — هو مَن كان يسيطر على زمام الموقف، كما ينبغي حتمًا، وليس هو. لكنه استجمع قواه.

«هل حاولت التواصُل مع ... أقصد، مع الآنسة آشبي؟»

قال الشاب بلطف: «لا، هل الأمر صعب؟»

«ما أقصده هو ...»

«لم أتَّخِذ أي خطوة بشأن أُسرتي، إن كان ذلك ما تقصده. أعتقد أن هذه كانت أفضل طريقة.»

«منتهى الحكمة. منتهى الحكمة.» وحينئذٍ وجد نفسه مرةً أخرى مجبرًا على الوقوف كالجوقة، يُردِّد ما يُقال بلا حيلةٍ منه. «سأتواصَل مع الآنسة آشبي في الحال، وسأُخبرها بزيارتك.»

«أجل، أخبرها بأني على قيد الحياة.»

«أجل. قطعًا.» أكان الشاب يستهزئ به؟ بالتأكيد لا.

«في تلك الأثناء هل ستُواصِل إقامتك في هذا العنوان؟»

«نعم، سأكون هناك.» ونهض الشاب، آخِذًا زمام المبادرة منه مرة أخرى.

قال السيد ساندال في محاولة أن يكون صارمًا: «إذا ثبتت صحة شهادتك وبياناتك، فسأكون أولَ المرحِّبين بعودتك إلى إنجلترا وإلى منزلك. بالرغم من أن هروبك قد تسبَّب في حُزنٍ عميق لجميع مَن يُهمهم أمرك. لا أجد مُبررًا لامتناعِك عن التواصُل مع أُسرتك من قبل.»

«ربما أحببتُ فكرةَ كوني ميتًا.»

«كونك ميتًا!»

«على أي حال لطالَما لم تجِد لأفعالي مبررًا، أليس كذلك؟»

«أكنت كذلك؟»

«كنتَ تظن أني بكيت في ذلك اليوم في أوليمبيا لأنني كنت خائفًا، أليس كذلك؟»

«أوليمبيا؟»

«لم يكن الأمر هكذا. لقد بكيتُ لأن الخيول كانت آية في الجمال.»

«أوليمبيا! تقصد ... لكن ذلك كان ... تتذكر، إذن ...»

«أنتظر أن تُعْلِمَني يا سيد ساندال، عندما تتحقَّق من إفاداتي.»

«ماذا؟ أوه، نعم؛ نعم، بالتأكيد.» يا إلهي، حتى هو نفسه كان قد نسي حفل الأطفال في دورة الألعاب الملكية بأوليمبيا. ربما كان حذِرًا أكثرَ مما ينبغي بوجهٍ عام. إذا كان هذا الشاب — مالك لاتشتس — يا إلهي! ربما لم يكن عليه أن يكون ...

بدأ قائلًا: «آمُل ألا تظن ...»

لكن الشاب كان قد انصرف؛ إذ خرج بحسمٍ هادئ وإيماءة رأس سريعة إلى ميرسر.

جلس السيد ساندال في مكتبه الداخلي ومسح جبينه.

أما برات، فكان مذهولًا حين وجد نفسه مبتهجًا وهو يسير في الشارع. كان يتوقَّع أن يشعر بالقلق والخزي بعض الشيء. ولكن لم يكن الأمر يبدو كذلك بتاتًا. بل كان واحدًا من أكثر الأشياء التي فعلها في حياته إثارة على الإطلاق. كان عملًا مذهلًا أشبَهَ بالسير على حبلٍ مشدود. فقد جلس هناك وكذب كذبته دون أن يُدرك حتى أنه كان يكذب؛ كان الأمر مُثيرًا للغاية. كان أشبهَ بركوب خيل حرون؛ نفس الشعور بالحذَر والارتباك؛ ونفس الشعور بالرِّضا عند تفادي حركة غير متوقعة تقضي عليك. لكنه لم يَمتطِ من قبلُ شيئًا منحَه المتعة النفسية — نشوة الإنجاز التي تنتابك بعد بلوغِه — التي منحه إيَّاها هذا الأمر. كان في مُنتهى النشوة والحماسة.

وكان في غاية الدهشة أيضًا.

خطرَ له أن هذه المتعة هي الدافع الذي يُعيد المجرمين إلى حيَلِهم وطرائقهم القديمة في غياب أي احتياج مادي. تلك الإثارة المُبهرة المُثيرة للحماسة؛ ذاك الشعور بالانتشاء الذي ينتابك بعد بلوغ إنجازٍ ما.

ذهب لاحتساء الشاي، طبقًا لتعليمات لودينج؛ لكن لم يستطِع أن يأكل. شعر وكأنه قد أكل وشرب بالفعل. لم تمنحه أيُّ تجربةٍ سابقة خاضها من قبل مثل هذه النتيجة التي

جاءت مُرضيةً على نحوٍ غريب. عادةً، بعد الانتهاء من الأمور الحياتية المُثيرة — كركوب خيل، أو مضاجعة، أو عملية إنقاذ، أو النجاة بأعجوبة من موقف عصيب — كان يشعر بجوعٍ شديد. لكنه الآن اكتفى بالجلوس والنظر إلى الطعام أمامه تغشاهُ السعادة. لم تدَعِ الحماسةُ بداخله أي مُتسعٍ للطعام.

لم يتبعه أحدٌ إلى المطعم، ولم يبدُ أنه قد أثار اهتمام أو فضول أحد قط.

دفع حسابه ثم خرج. لا أحد كان يتلكأ في أي مكان؛ كان الرصيف عبارة عن تيار طويل من أفرادٍ مهرولين. ومن ثَم اتجه إلى كابينة هاتفٍ في شارع فيكتوريا.

قال لودينج: «خيرًا؟ كيف سارت الأمور؟»

«في غاية الروعة.»

«هل كنت تشرب؟»

«لا. لماذا؟»

«تلك هي المرة الأولى التي أسمعك تستخدم فيها صيغة مُبالغة.»

«أنا سعيد فحسب.»

«يا إلهي، لا بد أنك كذلك. هل يظهر ذلك عليك؟»

«يظهر؟»

«هل هناك أي تغيير ولو طفيف في وجهك الجامد؟»

«كيف لي أن أعرف؟ ألا تريد أن تعرف ما حدث عصر اليوم؟»

«أعرف أهم شيء.»

«وما ذاك؟»

«أنك لم تُسلَّم إلى الشرطة.»

«هل توقَّعت أن يحدث ذلك لي؟»

«كان احتمالًا قائمًا طوال الوقت. لكن لم أتوقَّعه حقًّا. ليس مع ذكائنا المشترك.»

«أشكرك.»

«هل عانقك الرجل العجوز بحرارة؟»

«لا. كاد أن يسقط أرضًا. كان ردَّ فعلٍ ملائمًا ودقيقًا للغاية.»

«كل شيء سيخضع للتحقيق.»

«أجل.»

«كيف استقبلك؟»

«حسبني سايمون.»

سمع ضحكة تندُّر من لودينج.

«هل تمكَّنت من استغلال حفلِه في دورة الألعاب؟»

«نعم.»

«يا إلهي، لا تكن مُقتضبًا معي. لم تُضطرَّ إلى إثارة الموضوع، أليس كذلك؟»

«نعم. كان ذِكره مناسبًا بدقة بالغة.»

«هل كان متأثرًا؟»

«جعله على وشْك الاستسلام.»

«ولكن لم يُقنعه؟»

«لم أنتظر حتى أرى. كنت في طريقي إلى الخارج.»

«أتقصد، أنك ختمت المشهد بذلك؟ عزيزي، دعني أرفع القبعة لك. أنت مُدهش لأقصى الحدود. بعد أن عشتُ برفقتك طوال الأسبوعين الماضيين ظننتُ أنني قد بدأت أعرفك. لكنك لا تزال تُفاجئني إلى أبعدِ حدٍّ.»

«أنا أفاجئ نفسي، إن كان في ذلك عزاءٌ لك.»

«لا أشمُّ رائحةَ استياءٍ في تلك العبارة، هل أنا مُحق؟»

«نعم. مجرد شعور بالمفاجأة فحسب. عظيم.»

«حسنًا؛ لن نتقابل خلال الفترة المقبلة. كانت معرفتك شرفًا لي يا عزيزي. لن أسمع سيرةَ حدائق كيو تُذكر دون أن أتذكرك بالخير والحب. وأتطلع، بالطبع، إلى نيل مزيدٍ من الشرف بمعرفتك مُستقبلًا. في الأثناء، لا تتَّصِل بي إلا إذا لم يكن هناك أي بديل عن ذلك إطلاقًا. أنت الآن مُلم بكل شيء قدْر ما استطعت. من الآن فصاعدًا أنت مسئول عن نفسك.»

كان لودينج مُحقًّا: فقد كان توجيهُه له بشأن التفاصيل رائعًا. فعلى مدار أسبوعَين كاملَين، من الصباح الباكر إلى الساعة السابعة مساءً، ومهما كانت الظروف، كانا يجلِسان في حدائق كيو ويراجِعان العادات في لاتشتس وكلير، وتاريخ أفراد عائلتَي آشبي وليدينهام، ومعالِم أرضٍ لم يرَها قط من قبل. وكان ذلك مُثيرًا للغاية أيضًا. كان دائمًا «كفؤًا في الاختبارات» كما يُطلقون على أمثاله، ودائمًا ما كان يُقبِل على ورقة الامتحان بإحساسٍ طفيف من المتعة كذلك الذي يُراود مُدمنًا للتجمُّعات التي تُمارَس فيها لعبة الأسئلة القصيرة. وقد كانت تلك الأربعة عشر يومًا في حدائق كيو ميدانًا رائعًا لممارسة تلك اللعبة. في الواقع، كانت الأيام القليلة الأخيرة تحمِل جزءًا من الإثارة الخطِرة التي ميَّزت عصر

اليوم. «بأي ذراع كنت تلعب البولينج؟» «اذهب إلى الإسطبلات من الباب الجانبي.» «هل كنت تُغنِّي؟» «هل بإمكانك أن تعزف على البيانو؟» «مَن كان يعيش في منزل كلير؟» «ما لون شعر والدتِك؟» «كيف كوَّن والدُك أموالَه، بعيدًا عن الضيعة؟» «ما اسم شركته؟» «ماذا كان طعامك المُفضَّل؟» «ما اسم صاحب متجر الحلوى في القرية؟» «أين كان مقعد عائلة آشبي في الكنيسة؟» «اذهب من غرفة الجلوس الكبيرة إلى حجرة مؤنِ كبيرِ الخَدَم في منزل كلير.» «ما اسم مُدبِّرة المنزل؟» «هل كان بإمكانك ركوب دراجة؟» «ما الذي يُمكنك رؤيته من النافذة الجنوبية في غرفة السطح؟» كان لودينج يقذفه بوابلٍ من الأسئلة على مدى الأيام الطوال، وكان ذلك في البداية مُسليًا، ثم صار يجد إثارة في تفادي إرباكه بالأسئلة.

كانت كيو فكرةَ لودينج. «لا مفرَّ من خضوع حياتك منذ وصولك إلى لندن إلى أقصى درجات التدقيق والتمحيص، إن كنت ستتغاضى عن ذلك التعبير الشائع. لهذا لا يمكنك أن تأتيَ وتعيش معي كما اقترحتُ. بل لا يمكن حتى أن يراك معي أحدٌ ممن نعرفهم. ولا يُمكنني أن آتيَ إلى مسكنك في بيمليكو. لا بد أن تبقى بلا زوَّار مثلما كنتَ حتى وقتنا هذا.» وهكذا نشأ مُخطَّط كيو. كانت حدائق كيو، على حدِّ قول لودينج، مخبأً مثاليًّا وميدانًا رائعًا للرماية. لم يكن في لندن مكانٌ بإمكانك أن ترى فيه الوجوه تقترب منك بمثل تلك المسافة الصغيرة وتظلُّ غير ملحوظ. لم يكن في لندن مكان يوفِّر أماكنَ لقاء متنوعة، وهدوءًا لا يعكر صفوه شيء، مثل حدائق كيو.

وهكذا في كل صباحٍ كان كلاهما يصِل وحدَه، ومن بوابات مُتفرقة، ويلتقيان عند نقطةٍ جديدة ثم ينصرفان إلى منطقةٍ مختلفة؛ وطوال أسبوعَين كان لودينج قد زوَّدَه بالصور الفوتوغرافية، والخرائط، والخُطط، والرسومات، ومخططات بقلمِ رصاص. كان قد بدأ بخريطةٍ من هيئة المساحة بمقياس بوصة لكلير والمناطق المحيطة بها، ثم تدرَّج إلى خرائطَ أكبرَ حجمًا، ثم إلى مخططات المنزل؛ بحيث بدا الأمر أشبه نوعًا ما بالهبوط في طائرة من الأعلى. فبدأ أولًا بتضاريس القرية، ثم تفاصيل الحقول والحدائق، ثم لقطة مُقربة للمنزل حتى يُصبح الأمر برُمَّته في ذهنه من البداية، وكان عليه فقط الإشارة إلى التفاصيل على صورة كانت محفورة بالفعل للمنزل. كان توجيهه له منهجيًّا متأنيًا، وكان ذلك محلَّ تقدير من برات.

لكن الجزء المهم بالطبع كان الصور الفوتوغرافية. ومن الغريب أن صُوَر توءمه لم تكن هي ما استحوذ على انتباهه بمجرد أن رآها كلها. فصورة سايمون، بكل تأكيد، كانت تُشبهه على نحوٍ غير عادي، وبثَّت فيه شعورًا غريبًا، يغلب عليه الارتباك، من النظر إلى

الوجه المصوَّر الذي يُشبِه وجهه تمامًا. لكن لم تكن صور سايمون هي التي لفتت انتباهه؛ إنما صورة الطفل الذي لم يحيا حتى يكبر؛ الصبي الذي كان سيأخذ مكانه. لقد انتابه شعور غريب بالتشابُهِ مع باتريك.

حتى هو نفسه لاحظ هذا، ووجده أمرًا غريبًا. كان يجب أن يملأه شعور بالذنب عند التفكير في باتريك. لكن الشعور الوحيد الذي طغى عليه كان شعورًا بالتماهي؛ شعورًا يغلب عليه التوافق والتوحُّد.

عند عبور الساحة في مدينة فيكتوريا بعد أن أجرى مكالمته الهاتفية، تساءل ما الذي حملَه على قولِ ما قاله عن بكاء باتريك. كان لودينج قد أخبرَه فحسب أن باتريك قد بكى لسبب غير معلوم (كان في عمر السابعة حينها) وأن ذلك أصاب ساندال العجوز بالاستياء ولم يصطحب الأطفال قطُّ إلى الخارج مرة أخرى. كان لودينج قد ترك له القصة ليستخدِمها حسبما وحينما يظنُّ أنها مناسبة في السياق. ما الذي حملَه على قول إن باتريك قد بكى من جمال الخيول الشديد؟ أكان ذلك هو السبب الذي أبكى باتريك؟

لا مجال للتراجُع الآن، شاء أم أبى. لقد حارب ذلك الصوت المُلِح الذي كان يتحدث إليه في عتمة غرفته من أجل استمالته والسيطرة على عقله، وقد نال ما أراد. كلُّ ما كان بوسعه أن يفعله هو أن يجلس على السَّرج ويأمُل خيرًا. لكنها على الأقل ستكون رحلةً تحبس الأنفاس، رحلة نادرة ومثيرة للغاية. لقد اعتاد أن يُعرِّض حياته إلى الخطر واعتاد العرَج؛ لكن ما كان أكثر إثارةً بكثير هو الخطَر العقلي الجديد، هذا الاختبار لذكائه وقُدراته العقلية.

هذا الخطَر على روحه الخالدة، كما كانت ستُطلِق عليه دار الأيتام. لكنه لم يكن يؤمن قط بروحه الخالدة.

لم يكن بإمكانه الذهاب إلى لاتشتس كشخصٍ مُبتزٍّ، ولن يذهب مستجديًا، لكنه كان سيذهب حتمًا كشخصٍ مُعتدٍ محتل.

الفصل السابع

كانت أسلاك التلغراف تتحرك بسرعة وكأنها توشك على السقوط من أعمدتها والتفَّت الأرض حول نافذة العربة، بينما كان عقل بي يدور ويلتفُّ معها.

قال لها السيد ساندال على الهاتف: «كنت سآتي لمُقابلتك بالطبع.» ثم تابع قائلًا: «ليس من مبادئي تمامًا أن أتعامَل مع مثل هذه الأمور الشائكة عبر الهاتف. لكنِّي خشيتُ أن حضوري ربما يوحِي للأطفال بأن ثمة أمرًا خطِرًا يحدث. وسيكون من المؤسف أن أُكدِّرهم إذا كان هناك احتمال أن تكون ... أن تكون الأزمة مؤقتة.»

كم كان السيد ساندال رقيقًا. كان في غاية الطيبة؛ فقد سألها إن كانت جالسة، قبل أن يبلغها بالخبر؛ ثم قال: «أنت لا تشعرين بالدُّوار، أليس كذلك يا آنسة آشبي؟» عندما أبلغها بخبرِه الصادم.

لم تكن تشعر بالدُّوار. كانت قد جلست فترةً طويلة حتى تسمح لركبتَيها باستعادة قوَّتهما، ثم ذهبت إلى غرفتها وبحثت عن صور باتريك. كان يبدو أنه لم يكن لدَيها أي صورٍ له عدا مجموعة صور التُقطت في استديو للتصوير عندما كان سايمون وباتريك في العاشرة من عمرهما وإلينور في التاسعة. فلم تكن من الأشخاص الذين يحتفظون بالصور.

كانت نورا شغوفةً بتجميع صور أطفالها، لكنها كانت ترفض استخدام ألبومات الصور، التي كانت تراها «مضيعةً كبيرة للوقت والمساحة.» (لم تكن نورا تُضيِّع أي شيءٍ قط؛ وكأنها كانت شِبه مُدركة أن أجلَها في الدنيا قصير.) كانت قد احتفظت بها جميعًا في مظروف من ورق المانيلا ممزقٍ ومهترئ مكتوبٍ عليه: «في خدمة صاحبة الجلالة»، وكان يُرافقها إلى أي مكانٍ تذهب إليه. وقد رافقها إلى أوروبا في تلك الإجازة، وكان جزءًا من ذلك الانفجار الذي وقع على ساحل كينت.

نظرًا لفقدانها الصور، صعدت بي إلى غرفة الأطفال القديمة، وكأنها بذلك ستُصبح أقرب إلى باتريك الطفل، رغم أنها كانت تعلم جيدًا أنه لم يتبقَّ بها أي شيءٍ لباتريك. فقد حرق سايمون كل شيء. وكان ذلك الدليل الوحيد الذي قدَّمه سايمون على أن موت توءمه كان حدثًا يفوق احتماله. كان سايمون قد سافر للالتحاق بالمدرسة بعد وفاة باتريك، وعندما كان يعود لقضاء إجازات الصيف كان يتصرَّف بأسلوبٍ طبيعي، إن اعتبرنا أن عدم التطرُّق إلى سيرة باتريك في مثل هذه الظروف أمر عاديٌ بما يكفي. ثم ذات يوم وجدَته بي يُراقب مشعلةً كان الأطفال يمارسون عندها لعبة «الهندي الأحمر» ويُقيمون حولها حفلات سمر، خلف شجيرة، وفي النار كانت ألعاب باتريك ومتعلقات صغيرة أخرى. لاحظت كذلك أنه حتى كتب التدريبات قد أُلقي بها لتكون وقودًا للنيران. كتب ورسومات طفولية والحصان البسيط الذي كان مُعلقًا في طرف فراشه؛ كان سايمون يحرقها جميعًا.

كان غاضبًا لرؤيتها. فخطا نحوها في المساحة بينها وبين النار، واقفًا على مسافةٍ بعيدة، إن جاز القول، ونظر مُحدِّقًا إليها في غضب.

قال وهو يكاد يصرخ: «لا أريدها حولي.»

فأجابت قائلة: «أتفهَّم ذلك يا سايمون»، ثم انصرفت بعيدًا.

وهكذا لم يتبقَّ أي أثر لباتريك في غرفة الأطفال القديمة تحت سقف المنزل؛ ولا الكثير من متعلقات بقية الأطفال، على أي حال. عندما كانت هذه الغرفة مِلكًا لبي في طفولتها، كانت قبيحةً ومنعزلة، وأثَّثت مساحة كبيرة منها من الأشياء غير المرغوب فيها في الأجزاء الأخرى من المنزل. كان بها مُشمَّع مُزيَّن بنقوش، وسجادة بالية، وساعة وقواق، وكراسي متكسرة من الخيزران، ومَنْشَر ملابس، ومائدة خشبية يُغطيها مفرش أحمر من قماش مضلع ذو حواف مُزيَّنة بكراتٍ من القماش وملطخ ببقع حبر، ومطبوعات ملونة تحمل شكل «فقاعات» وأعمال فنية مشابهة مُعلَّقة على ورق حائط منقوش بزهور السنتيفوليا. لكن نورا جدَّدت المكان، حتى أصبح صورةً مأخوذة من إحدى مجلات ربَّات البيوت، فأضفت لونًا أزرقَ فاتحًا مع اللون الأبيض، مع ورق حائط مُزين بشخصياتٍ من أغاني الأطفال. والشيء الوحيد الذي بقِي من الغرفة القديمة هو ساعة الوقواق.

كان الأطفال يعيشون فيها في سعادة، لكنهم لم يتركوا أيَّ أثر فيها. والآن بعد أن صارت خاوية ومُرتَّبة، بدت تمامًا مثل غرفةٍ معروضةٍ في واجهة معرض أثاث.

عادت إلى غرفتها، حائرةً تعيسة، وحزمت حقيبةً صغيرة حتى تستخدِمها في الصباح. فلا بد أن تذهب غدًا إلى المدينة وتواجِهَ هذا الأمر الطارئَ المستجدَّ في تاريخ عائلة آشبي.

سألته: «هل تُصدِّق، أنت بنفسك، أنه باتريك؟»

لكن السيد ساندال لم يستطِع أن يمنحها تأكيدًا.

فأقر قائلًا: «لا يحمل سيماء شخص مُخادع. وإذا لم يكن باتريك، فمن هو إذن؟ طالما كان التشابُهُ بين أعضاء عائلة آشبي قويًّا على نحوٍ غير طبيعي. ولا يُوجَد ابنٌ آخر من هذا الجيل.»

قالت: «كان باتريك سيكتب لنا.»

تلك هي الفكرة التي كانت ترجع إليها دائمًا. لم يكن لباتريك أبدًا أن يتركها في حزن وشكٍّ طوال كل تلك السنوات. كان باتريك سيكتُب لها. لا يمكن أن يكون باتريك.

إذا لم يكن باتريك، فمن كان هذا الشخص؟

كان عقلها يدور ويدور في دوَّامة من الأفكار.

قال السيد ساندال: «ستكونين أفضلَ مَن يفصِل في هذا الأمر. فأنت الأكثر درايةً بالصبيِّ من بين الباقِين على قيد الحياة الآن.»

فأجابت: «هناك سايمون.»

«لكن سايمون كان صبيًّا صغيرًا حينها والصِّبية ينسَون، أليس كذلك؟ أما أنتِ، فكنتِ بالغة.»

وبذلك حملت المسئولية على عاتقها. لكن كيف لها أن تعرف؟ هي التي أحبَّت باتريك لكنها بالكاد يُمكنها الآن أن تتذكَّر هيئتَه في الثالثة عشرة من عمره. أي اختبار قد يُجدي؟

أم إنها ستعرف في الحال عندما تراه أنه باتريك؟ أو ليس ... هو؟

وإذا لم يكن هو وظلَّ مصرًّا أنه هو، ماذا سيحدث؟ هل سيُقيم دعوى؟ هل سيتَّخِذ إجراءً قضائيًّا؟ أو سيجرجرهم إلى ضجة إعلامية في الصحافة اليومية؟

وإذا كان هو باتريك، ماذا عن سايمون؟ كيف سيستقبل عودة أخٍ لم يرَه طوال ثماني سنوات إلى الحياة؟ وخسارة ثروةٍ. هل سيُسعده الأمر، سواء في وجود ثروة أو عدمها، أم إنه سيكره أخاه؟

كان لزامًا تأجيل الاحتفال ببلوغ سن الرشد، كان ذلك أمرًا واضحًا. كانوا قد اقتربوا كثيرًا من الاحتفال به لدرجةٍ تمنعُهم من اتخاذ قرارٍ بشأن أي شيءٍ بحلول موعد الاحتفال. فما الحجة التي سيتذرَّعون بها؟

لكن يا إلهي، لو كان من المُمكن، بمعجزةٍ ما، أن يكون باتريك، لتحرَّرَت من ذلك الخوف الذي يُطاردها، من فكرة الصبي الذي ندم متأخرًا جدًّا لدرجةٍ تحول بينه وبين عودتِه.

ظلَّ عقلها يدور ويدور بينما كانت تصعد درجات السُّلَّم متجهةً إلى مكتب كوسيت وثرينج ونوبل.

قال السيد ساندال: «مرحبًا آنسة آشبي. إنه لمأزق صادم. واقعة لم يُسمَع بها من قبل؛ تفضَّلي بالجلوس. لا بد أنكِ متعبة. إنها محنة مريعة بالنسبة إليك. اجلسي، اجلسي. ميرسر، أحضِر بعض الشاي للآنسة آشبي.»

سألته: «هل ذكر سببَ انقطاعه عن المراسلة، طوال كل تلك السنوات؟» فكانت تلك هي أهم نقطة تشغَل عقلها.

«قال شيئًا بخصوص أنه «ربما كان يُفضِّل أن يبقى ميتًا».»

«يا إلهي!»

قال السيد ساندال، مهوِّنًا: «أزمة نفسية، بلا شك.»

«أتُصدِّق إذن أنه باتريك حقًّا؟»

«أقصد، أنه إذا كان باتريك، فإن «تفضيله البقاء ميتًا» لا شكَّ أنه نتاج الأزمة النفسية نفسها التي أسفرت عن هروبه.»

«صحيح. أتفهَّم ذلك. وأفترض هذا. لكن هذا ليس من طبع باتريك. ألا يكتب، هذا ما أقصده.»

«لم يكن من طبعه الهروب.»

«أجل؛ بالضبط. لم يكن ميالًا للهروب بطبيعته بتاتًا. كان طفلًا حسَّاسًا لكن كان في غاية الشجاعة. لا بد أن خطأ شنيعًا قد حدث.» جلست في صمتٍ برهة. ثم أردفت قائلة: «وها هو ذا قد عاد الآن.»

«نأمُل ذلك؛ نأمُل ذلك.»

«هل كان يبدو لك طبيعيًّا تمامًا؟»

أجاب السيد ساندال، بشيءٍ من الفتور في نبرة صوته: «إلى أبعدِ ما يكون.»

«بحثت عن صورٍ لباتريك، لكن لا يُوجَد أحدثُ من هذه.» وأخرجت صورة الاستديو الجماعية. ثم تابعت قائلة: «كانت تُلتقَط صور بالاستديو للأطفال بانتظام كل ثلاث سنوات، منذ أن كانوا صغارًا. وهذه كانت آخِر صورة لهم. وهذه الصورة الحديثة ربما التُقطت لهم في صيف السنة التي لقي فيها بيل ونورا مصرعهما؛ السنة التي اختفى فيها باتريك. هنا كان باتريك في العاشرة من عمره.»

راقبت السيد ساندال بينما كان يتفحص الوجه الصغير الطفولي.

وأخيرًا قال: «لا، من المُستحيل أن نجزم بأي شيء من صورة قديمة كهذه. كما قلتُ من قبل، التشابُه بين أفراد العائلة قوي جدًّا. في تلك المرحلة العمرية كانوا مجرد أطفال صغار من عائلة آشبي، أليس كذلك؟ لم يكن هناك قدْر كبير من التفرُّد في شخصياتهم.» رفع بصره عن تفحُّص الصورة ثم أردف قائلًا: «آمُل عندما ترين بنفسك الصبي — أقصد الشاب — ألَّا يساورك شكٌّ بشكلٍ أو بآخر. ففي النهاية، المسألة ليست مسألة تشابُه بحتة، إنما مسألة قدرة على التمييز، أليس كذلك؟ ثمة هالة … هالة تُحيط بالشخصية.»

«لكن … لكن إذا لم أكن متأكدة؟ ماذا سيحدث إذا لم أكن متأكدة؟»

«بخصوص ذلك: أعتقد أني توصَّلتُ إلى حلٍّ. لقد تناولت العشاء الليلة الماضية مع صديقي الشاب كيفين ماكدرموت.»

«مستشار جلالة الملك؟»

«بالضبط. كنتُ، بالطبع، مهمومًا بشدة، فأخبرتُه بمشكلتي، وأراحني كثيرًا عندما أكَّد لي أن إثبات الهوية ستكون مسألة بسيطة تمامًا. الأمر مُتعلق فحسب بالأسنان.»

«الأسنان؟ لكن أسنان باتريك كانت عادية تمامًا.»

«أجل، هذا صحيح. لكن لا شكَّ أنه قد ذهب إلى طبيب أسنان، وأطباء الأسنان لديهم سجلات. في الواقع، إن أغلب أطباء الأسنان يتمتعون بنوعٍ من الذاكرة البصرية، كما أفهم، للأفواه التي عالجوها — فكرة مزعجة للغاية — وسوف يُميزون الفم بالنظر. لكن السجل سيُظهِر ذلك بالتأكيد …» ثم أدرك النظرة المرتسِمة على وجه بي وتوقف. «ما الخطْب؟»

«ذهب الأطفال إلى هاموند.»

«هاموند؟ صحيح؟ هذا أمر بسيط، أليس كذلك؟ إذا استعصى عليك التعرُّف بصورة قاطعة على الصبي بأنه باتريك، فليس علينا سوى …» ثم توقف فجأة. ثم قال بهدوء: «هاموند! أوه!».

قالت بي، بنبرة مقتضبة مُتوافقة مع نبرة صوته: «نعم.»

«يا إلهي يا للنحس. يا للنحس الشديد.»

خلال الصمت الذي خيَّم بعدها قال السيد ساندال في بؤس: «أعتقد أنه من الواجب أن أخبرك بأن السيد كيفين ماكدرموت يرى أن الولد يكذب.»

قالت بي غاضبةً: «السيد ماكدرموت لا يعرف شيئًا عن الأمر. إنه حتى لم يرَه من قبل!» وعندما واصل السيد ساندال الجلوس في صمت بائس، تابعت قائلة: «ماذا إذن؟»

«لم يكن ذلك إلا رأي كيفين بشأن الموضوع.»

«أعرف، لكن لماذا ظن ذلك؟»

«قال إن ... إن «توجُّهه مباشرةً إلى محامٍ به شيء من التضليل والاحتيال».»

«يا له من هراء! ما فعله كان عين العقل.»

«أجل. كانت هذه وجهة نظره. يرى أن ما فعله كان عقلانيًّا أكثر مما ينبغي. كان ملائمًا أكثر مما ينبغي. كل شيء، كما قال كيفين، كان أكثر ملائمةً من أن يحوز إعجابه. قال إن صبيًّا يعود بعد غياب سنوات كان سيعود إلى المنزل مباشرة.»

«إذن فهو لا يعرف باتريك. هذا بالضبط ما كان باتريك ليفعله: يفجر الأمر برفق بذهابه إلى محامي العائلة أولًا. طالما كان أكثر المخلوقات إيثارًا ومراعاة للآخرين. لا أعتقد كثيرًا في التحليل الفذ للسيد ماكدرموت.»

قال السيد ساندال بنبرة لا تزال بائسة: «شعرت أن من الصواب فحسب أن أُخبرك بكل شيء.»

قالت بي بلطف، مُستعيدةً هدوء أعصابها: «أجل، بالتأكيد. هل أخبرت السيد ماكدرموت بأن باتريك ... أقصد ذلك الصبي تَذكَّر بكاءه في أوليمبيا؟ أقصد، بأنه تطوع بالإدلاء بتلك المعلومة.»

«أخبرته؛ أجل.»

«وهل ظلَّ معتقدًا أن الولد يكذب؟»

«كان ذلك جزءًا من «الملاءمة» التي أقرَّ بأنها لم تُعجبه.»

أصدرت بي صوتًا خافتًا من أنفها. ثم قالت: «يا لعقله!» وأردفت: «أفترض أن هذا ما تُمارسه المحاكم.»

«إنه عقل مُحايد؛ ذلك كلُّ ما في الأمر. شخصٌ غير منخرط عاطفيًّا مثلنا في الأمر. يجدُر بنا أن نُبقيَ عقولنا محايدة.»

قالت بي برصانة: «أجل، بالتأكيد. حسنًا، الآن بعد أن أصبح هاموند العجوز المسكين بلا جدوى لنا ... هل عرفت أنهم لم يعثروا عليه قط؟ كل شيء ذهب أدراجَ الرياح.»

«نعم. نعم، سمعت بذلك؛ مسكين.»

«أما ولم يَعُد لدينا أي دليل مادي، أعتقد أن علينا الاعتماد على قصة الصبي. أقصد، على التحقق منها. أظن أن ذلك يمكن فِعله.»

«أوه، يمكننا القيام به بسهولة تامة. الأمر بسيط تمامًا في ظل وجود التواريخ والأماكن. هذا ما رآه كيفين أيضًا ... أجل. أجل. بالطبع يمكن التحقق منه. وبالطبع أثق أن ذلك سيثبت صحةَ الأمر. فلم يكن ليُعطينا معلوماتٍ سيثبت أن لا أساس لها.»

«إذن لا يُوجَد حقًّا ما يدعو إلى الانتظار.»

«لا، أنا ... لا.»

تحاملت بي على نفسها.

«ما أقربُ وقت يمكنك أن تُرتِّب لي فيه لقاء معه؟»

«حسنًا، كنت أفكر في الأمر، ولا أرى، كما تعرفين، أنه يجب ترتيب أي لقاءٍ نهائيًّا.»

«ماذا؟»

«ما أودُّ فعله — بعد موافقتك وبالتعاون معك — هو، إذا جاز التعبير، مباغتتُه بالزيارة. أن تذهبي وتقابلِيه دون سابق علم. وبذلك سترينَه كما هو وليس كما يُريدك أن ترَيه. إذا حدَّدنا موعدًا للقاء هنا في المكتب، فسوف...»

«أجل، فهمت. فهمت. وأتفق معك في ذلك. هل بإمكاننا الذهاب الآن؟»

قال السيد ساندال بتلك النبرة الحزينة التي يستخدمها المحامون عندما لا يُمكنهم تبيُّن أي سبب يمنعهم من شيء: «لا أرى سببًا يمنعنا. لا أرى حقًّا أي سبب يمنعنا. هناك بالتأكيد احتمال أن يكون بالخارج. لكن بوسعنا على الأقل أن نذهب ونرى. آه، تفضلي الشاي! هل ستشربينه بينما يطلب ميرسر من سيمبسون أن يطلب من ويليت إحضار سيارة أجرة لنا؟»

سألت بي: «أليس لديك أي شيء أقوى؟»

«أخشى أنه ليس لدي؛ أخشى أنه ليس لدي. لم أستسلم قطُّ إلى عادة الاحتفاظ بزجاجة في المكتب، الآتية عبر الأطلسي. لكن ويليت سيحضر لكِ أي شيء قد ...»

«أوه، لا، أشكرك؛ لا بأس من هذا. سأشرب الشاي. يقولون إن تأثيره يدوم أطول بكثيرٍ على أي حال.»

بدا السيد ساندال كما لو أنه أراد أن يُربِّت على كتفَيها على سبيل التشجيع، لكنه لم يستطِع أن يُقرر اتخاذ تلك الخطوة. كانت تراه رجلًا عطوفًا ضئيل البنية، لكنه ... لكنه لم يكن يصلح كثيرًا لأن يكون سندًا.

سألت عندما جلسا في السيارة الأجرة: «هل فسَّر لك سبب اختياره لاسم فارار؟»

أجاب السيد ساندال، ملتجئًا إلى نبرته الجافة: «لم يُفسِّر أي شيء.»

«هل استشففْت من حديثه أنه مُتعسر ماليًّا؟»

«لم يذكر أي شيء عن المال، لكنه بدا مُهندمًا للغاية ويرتدي ملابس ذات طابع غير إنجليزي قليلًا.»

«أكان هناك تلميح باحتياجه لسُلفة؟»

«لا، إطلاقًا. يا إلهي، لا.»

فقالت: «لم يَعُد إذن لمجرد أنه مفلس.» ثم شعرت بشيءٍ من السرور. واستراحت في جِلستها واسترخت قليلًا. لعل كل شيء سيسير على ما يرام.

قال السيد ساندال، قاطعًا حالة الصمت أثناء سيرهما في الشوارع ذات الشرفات الفخمة: «لم أفهم مُطلقًا لمَ تدنَّى المستوى الاجتماعي في بيمليكو بهذه السرعة. إن بها شوارعَ واسعة راقية، وحركة مرور محدودة، ومع ذلك لم يَعُد هناك أقذر من المناطق المجاورة لها. لِمَ هجرها الأثرياء وأقاموا في بلجرافيا؟ شيء مُحيِّر جدًّا.»

قالت بي، في محاولةٍ لمجاراته في حديثه الجانبي القصير: «ثمة قوة جاذبة في مسألة الهجرة. لقد تسبَّبت السيدة الحديدية المحلية في حدوث تيَّار النزوح برحيلها، وتبِعها بقية الناس الأقل أهمية. وتوافد السكان الأفقر حالًا من كِلا الجانبين لملء هذا الخَواء. هل هذا هو المكان؟»

تملَّكها خوفها من جديدٍ عندما نظرت إلى واجهة المنزل الكئيبة، وإلى الطلاء المُتقشِّر والزخارف الجصية الملطخة بالبقع، ومجموعة الستائر الباهتة المُعلَّقة على النوافذ، والمدخل المُتسخ ورقم المنزل الممحو على العمود المريع.

كان الباب الأمامي مفتوحًا فوَلَجا إلى الداخل.

أشارت البطاقات المختلفة على كل باب في الرَّدهة إلى أن المنزل كان يُستأجر كغرف فردية.

قال السيد ساندال: «العنوان هو ٥٩ كيه. أعتقد أن كيه هو رقم الغرفة.»

قالت بي: «تبدأ الغُرف من الدور الأرضي وتتدرَّج إلى الطوابق العلوية. هذه الغرفة بجانبي هي رقم بي.» ومن ثَم صعدا إلى أعلى.

قالت بي، وهي تُدقِّق النظر في أحد أبواب الطابق الأول: «هذه إتش. إذن الغرفة في الطابَق التالي.»

كان الطابق الثاني هو الطابق الأخير. فوقفا معًا على بسطة الدَّرج المظلمة يُرهِفان السمع إلى الصمت. إنه بالخارج، هكذا فكَّرت، إنه بالخارج، وسيتعيَّن عليَّ القيام بكل هذا مرة أخرى.

قالت: «ألديك غرفة مطابقة؟»

فقرأت على بابَي الغرفتَين الأماميَّتَين: «آي وجيه.»

إذن فهي الغرفة الخلفية.

وقفا في الظلام برهةً يُحدِّقان إليها. ثم تحرك السيد ساندال في عزمٍ إلى الأمام وطرق الباب.

صدر صوت قائلًا: «ادخل!» كان صوتًا صبيانيًّا عميقًا، مختلفًا تمامًا عن نغمات صوت سايمون الخفيفة الراقية.

كان بإمكان بي، التي كانت أطول من السيد ساندال بفارق نصف رأس، أن ترى من أعلى كتفَيه؛ كان أول إحساسٍ داهمها هو الإحساس بالصدمة من التشابُه الشديد بينه وبين سايمون أكثر بكثير مما كان يبدو باتريك. كان عقلها مُمتلئًا بصورٍ لباتريك: صور مشوشة غير واضحة حاولت جاهدة أن تجعلها واضحة حتى تتمكن من مقارنتها بشكل الشخص البالغ الماثل أمامها. كان كيانها كلُّه منشغلًا بباتريك على مدار الأربع والعشرين ساعة الماضية.

وفي تلك اللحظة صار هناك شخص يُشبه سايمون تمامًا.

نهض الصبي من حيث كان جالسًا على حافة السرير، ودون عجلةٍ أو ارتباك خلع من يده اليسرى الجورب الذي كان يرتقه. عجزتْ عن أن تتخيل سايمون يرتق جوربًا.

قال: «صباح الخير.»

أجاب السيد ساندال: «صباح الخير. آمُل ألا تمانع: جئت إليك بزائرٍ.» ثم تحرَّك جانبًا حتى يسمح لبي بالدخول. «هل تعرف مَن هذه؟»

دقَّ قلب بي في ضلوعها بقوةٍ ما إن التقت بنظرة الصبي الهادئة الوديعة وراقبتْه وهو يتعرَّف عليها.

قال: «صرتِ تُصفِّفين شعرك بطريقةٍ مختلفة.»

أجل، بالتأكيد؛ فقد تغيَّرت طرق تصفيف الشعر في تلك السنوات الثماني، وبالطبع كان سيرى اختلافًا.

قال السيد ساندال: «هل تعرفها إذن؟»

«أجل، بالطبع. إنها العمة بي.»

انتظرته يُقبل عليها ليرحِّب بها، لكنه لم يتحرك قيد أنملة. وبعد لحظةِ توقُّف استدار ليجد مقعدًا لها.

قال وهو يمسك بأحد تلك الكراسي الصلبة وكان له ظهرٌ مُقوَّس أسود ومقعد مسفوع من أثر الشمس به ثقوب صغيرة: «أخشى أنه لا يُوجَد سوى كرسي واحد. يفضَّل ألا تستندي للوراء.» لم تجد بي غضاضة في الجلوس عليه.

قال للسيد ساندال: «هل تمانع بالجلوس على الفراش؟».

أجابه السيد ساندال في نبرة متعجلة: «سأقف، شكرًا، سأقف.»

لم تكن تفاصيل الوجه تُشبِه تفاصيل وجه سايمون نهائيًّا، هكذا رأت بينما كانت تُراقِب الصبيَّ وهو يُثبِّت الإبرة بعناية في الجورب. كان الانطباع العام يوحي بأن الملامح واحدة، لكن بمجرد النظر إليه عن كثَب يختفي هذا التشابُه اللافت للنظر، ويبقى فقط التشابُه العام مع أفراد العائلة.

قال السيد ساندال: «لم تستطِع الآنسة آشبي انتظار اللقاء في مكتبي؛ لهذا أحضرتها إلى هنا. لا سيما وأنت لا تبدو ...» وسمح للجملة بأن تتحدث عن نفسها.

نظر الصبي إليها بأسلوبٍ جادٍّ وَدودٍ ثم قال: «لست واثقًا للدرجة من الترحاب بي.»

كان وجهًا جامدًا على نحوٍ غريب. وجهٌ يشبِهُ رسمة طفلٍ، هذا ما جال بخاطرها في تلك اللحظة. كل شيء في المكان الصحيح وبالنِّسب الصحيحة، لكنها تفتقر إلى الحيوية. حتى الفم كان له خط مُستقيم ثابت جعله يُشبه فمَ طفلٍ صغير.

توجَّه ليضع الجوارب على منضدة الزينة، فلاحظت أنه كان أعرج.

سألته: «هل جرحت ساقك؟»

«بل كُسرت. في الولايات المتحدة.»

«لكن هل من المفترض أن تسيرَ عليها إذا كانت لا تزال ضعيفة؟»

فقال: «إنها لا تؤلِمني. لقد أصبحَت قصيرةً فحسب.»

«قصيرة! أتقصد أنها صارت قصيرة إلى الأبد؟»

«على ما يبدو.»

كانت شفتاه مُعبِّرتَين، كما لاحظت، رغم نحافتهما؛ فقد أفشتا شخصيتَه عندما قال ذلك.

قالت: «لكن من الممكن فِعل شيء حيال ذلك. هذا يعني فحسب أنها عُولجت بطريقةٍ خاطئة. أتوقَّع أنك لم تحظَ بجرَّاح ماهر.»

«لا أتذكَّر أي جراح. ربما فقدت الوعي. لكنهم قاموا بجميع الإجراءات الصحيحة: علَّقوا أوزانًا في نهايتها، وما إلى ذلك.»

بدأت قائلة: «لكن يا بات ...» لكنها عجزت عن أن تكمل اسمه.

خلال هذا التوقف قال: «لست مضطرة إلى أن تدعوني بأي اسم حتى تتأكدي.»

فقالت محاوِلةً التغطية على هذا التوقف: «إنهم يصنعون المعجزات في العمليات الجراحية هذه الأيام. كم مرَّ منذ حدوث ذلك؟»

«عليَّ أن أتذكَّر. مر قُرابة سنتين الآن، على ما أظن.»

لم يكن لطريقةِ حديثه أي سمةٍ مميزة، فيما عدا نطقه لأحد الحروف بلكنة أمريكية.

«حسنًا، لا بد أن نرى ما بوسعنا أن نفعله بخصوص ذلك. كان بسببِ خيلٍ، صحيح؟»

«نعم. لم أكن سريعًا بما يكفي. كيف علمتِ أنه بسببِ خيل؟»

«لقد أخبرتَ السيد ساندال أنك كنت تعمل مع الخيول. هل استمتعتَ بذلك؟» جال بخاطرها أن هذا الحديث يُشبه تمامًا المحادثات القصيرة التي تدور في عربة السكة الحديدية.

«إنها الحياة الوحيدة التي أستمتع بها حقًّا.»

نسِيتْ كل شيء بشأن المحادثات القصيرة. وقالت في سعادة: «حقًّا؟ أكانت تلك الخيول الغربية جيدة؟»

«كان أغلبها خيولًا عادية بالطبع. لكنها كانت من نوع جيد للغاية بالنسبة إلى نوعية عملها؛ ما يعني في نهاية الأمر أنه حصان جيد، حسب ظنِّي. لكن من حين لآخر يصادفك خيل أصيل. ولبعضها جمالٌ آسِر. جمال يفوق في تفرُّده ما أذكره عن جمال الخيول الإنجليزية بكثير.»

«ربما أننا في إنجلترا نُروِّضها بتجريدها من تفرُّدها. لم أفكِّر في ذلك من قبل. هل تملك حصانًا بأي حال؟»

«أجل، كان لديَّ حصان. سموكي.»

لاحظت تغيرًا في صوته عندما قال ذلك. كان مسموعًا بقدرِ ما تُسمع النغمة الخفيضة في الجرس المكسور ضمن مجموعة أجراس.

«أكان رماديًّا؟»

«نعم، كان رماديًّا داكنًا له بُقَعٌ سوداء. ليس لون الحديد القوي. بل لونٌ دخاني هادئ. عندما كانت تُصيبه نوبة غضب كان يبدو كسحابة دخان تتحرك في شكلٍ دائري.»

سحابة دخان تدور في شكلٍ دائري. كان بإمكانها أن تتخيَّلَه. لا بدَّ أنه يُحب الخيول حتى يُمكنه تخيُّلها على هذا النحو. لا بد أنه كان يُكِنُّ لحصانه سموكي محبةً خاصة.

«ماذا حدث لسموكي؟»

«بِعتُه.»

يجب على المرء ألا يقتحمَ خصوصيات الآخرين. ولم تكن لتقتحِم خصوصياته وتجرح مشاعره أكثرَ من ذلك. من المُحتمَل أن يكون قد اضطُر إلى بيعه حين كُسِرت ساقُه.

بدأت تأمُل بقوة أن يكون هذا الشاب هو باتريك.

أعادتها هذه الخاطرة إلى الموقف الذي كان قد بدأ يغيب عن بالها. ونظرت إلى السيد ساندال بارتياب.

عندما لمح الانجذابَ في نظرتها، قال السيد ساندال: «الآنسة آشبي على استعدادٍ لدعمك بلا شك، لكنك ستتفهَّم أن المسألة تحتاج إلى مزيدٍ من الاستجلاء. لو كانت المسألة مجرد عودة غائب إلى منزله، لكان قبول عمَّتك لك كافيًا بلا أدنى شك لأن يُعيدك إلى أحضان عائلتك. لكن المسألة في الوضع الحالي تتعلَّق بممتلكات. مسألة المصير النهائي لثروة. وسيحتاج القانون إلى دليلٍ حاسم على هويتك قبل أن يُسمح لك بأن ترث أي شيء كان من نصيب باتريك آشبي. أتمنَّى أن تتفهَّم موقفنا.»

«أتفهَّم تمامًا. وسأظلُّ هنا بالتأكيد حتى تنتهوا من تحرياتكم وتصلوا إلى قناعة مُرضية.»

قالت بي وهي تنظر باشمئزازٍ إلى الغرفة وأنابيب المداخن المُحتشدة خلف النافذة: «لكن لا يمكنك البقاء هنا.»

«أقمتُ في أماكنَ كثيرة أسوأ من ذلك.»

«ربما. لكن ذلك ليس مبررًا لبقائك هنا. إن كنت بحاجة إلى المال بإمكاننا أن نُعطيك بعض المال.»

«سأظل هنا، شكرًا.»

«هل لمجرد أنك تشعر بالاستقلالية؟»

«لا. المكان هنا هادئ. وقريب. والمنزل يتمتَّع بخصوصية شديدة. عندما تعيشين في استراحات عمال، ستُقدِّرين الخصوصية بشدة.»

«عظيم، فلتبقَ هنا. هل هناك أي شيء آخر يُمكننا ... يُمكننا أن نوفره لك؟»

«أحتاج إلى بذلة أخرى.»

«عظيم. السيد ساندال سيُقدِّم لك كلَّ ما يلزمك من أجل ذلك.» وتذكَّرَت فجأة أنه إذا ذهب إلى مُصمم ملابس عائلة آشبي، فربما ستحدث ضجة. لهذا أضافت قائلة: «وسيُعطيك عنوان مصمم الملابس الخاص به.»

قال الصبي: «ولِمَ لا أذهب إلى متجر والترز؟»

عجزت عن الكلام برهةً.

«ألم يعودوا موجودين؟»

«أوه، أجل؛ لكن ربما سيكون هناك مجال لتبريراتٍ كثيرة إذا ذهبتَ إلى والترز.» لا بد أن تُسيطر على نفسها. فبوسع أي أحد أن يعرف مَن كان مصمم ملابس عائلة آشبي.

«أجل، لا بأس. فهمت.»

لجأت بي إلى محادثةٍ جانبية قصيرة لتجاوز هذا الأمر وبدأت في الاستئذان للانصراف.

قالت أثناء استعدادها للانصراف: «لم نُخبر الأسرة عنك. رأينا من الأفضل ألا نفعل ذلك، حتى ... حتى تتضح الأمور مثلما قال السيد ساندال.»

تجلَّت في عينَيه نظرةُ تندُّر خاطفة عند سماع ذلك. وللحظة جمعت بينهم ضحكة خفية.

«أتفهَّم ذلك.»

استدارت عند الباب لتُودِّعه. كان يقف في وسط الغرفة يُراقبها وهي ترحل، تاركًا المجال للسيد ساندال حتى يقودها إلى الخارج. بدا بعيدًا ووحيدًا. وفكَّرت: «إذا كان هذا باتريك فعلًا، فهذا يَعني أن باتريك قد عاد إلى الوطن مرة أخرى، وسأتركه أنا على هذا الحال، وكأنه معرفة عابرة ...» كان التفكير في وحدة الصبي تفوق احتمالَها.

رجعت إليه، أخذت وجهه برفقٍ في يدِها التي تلبَس فيها قفازًا، وقبَّلت وجنته. ثم قالت: «مرحبًا بعودتك يا عزيزي.»

الفصل الثامن

وهكذا بدأ مكتب كوسيت وثرينج ونوبل تحرياتهم، وعادت بي إلى لاتشتس للتعامُل مع مشكلة تأجيل حفل البلوغ.

أكان عليها أن تُخبرَ الأطفال الآن، قبل أن يُصبح الأمر مؤكدًا؟ وإن لم تفعل، أي عذر يمكن أن تُقدِّمه لتبرير عدم إقامة الحفل في موعده المحدَّد؟

ولكن كان السيد ساندال مُعارضًا لإبلاغ الأطفال. كان يبدو أن رأي كيفين المجهول قد أثَّر عليه، وكان متأهبًا تمامًا لاكتشاف أي خطأ في الملفِّ المُتكامل الذي سلَّمه إليهم. فمن غير المستحسَن، في رأيه، إدخالُ الأطفال في هذا الأمر حتى يُمحِّص الادعاء بأقصى قدرٍ من الدقة.

اتفقتْ معه في هذه النقطة. فإذا مرَّ الأمر — أي إذا كان ذلك الصبيُّ في الغرفة الخلفية في بيمليكو ليس باتريك — فلا داعي أبدًا أن يعرفوا أي شيء بشأنه. ربما كان لزامًا إخبار سايمون، حتى يأخذ حذره من أي محاولاتِ خداعٍ مُستقبلًا، لكن في ذلك الوقت لن يعدو الأمر مجرد اهتمامٍ سطحي؛ مجرد مسألة لا تمتُّ لشخصِه بصلةٍ تمامًا. كانت المشكلة الحالية التي تُواجهها هي كيف ستُرأب الصدعَ بين جهل الأطفال بالأمر وبين تأجيل الاحتفالات.

كان الشخص الذي أنقذها من هذه المعضلة هو العم الأكبر تشارلز، الذي أرسل برقيةً يُخبرهم فيها بتقاعُده (الذي تأخَّر طويلًا عن موعده)، ورغبته في حضور حفل بلوغ ابن ابن أخيه. كان في طريق عودته من الشرق الأقصى، ونظرًا لرفضه السفر جوًّا، كان من المُحتمَل أن تكون رحلة عودته إلى الوطن رحلةً طويلة، لكنه كان يأمُل أن يحتفظ سايمون بزجاجات الشامبانيا مغلقةً لحين مجيئه.

عادةً لا يكون لأعمام الأب المتبقِّين على قيد الحياة أهميةٌ كبيرة لدى عائلاتهم، لكن العمَّ تشارلز الأكبر كان بالنسبة إلى عائلة آشبي أكثرَ من مجرد عمٍّ أكبر: كان اسمًا يعرفه الجميع. كان التفكير في هدية العم الأكبر تشارلز تجعل كلَّ عيد ميلاد مناسبةً مميزة وكل احتفالٍ بعيد الميلاد المجيد يحمل توقعاتٍ مثيرة. كان ثمة سقف معقول للهدايا المحتملة من الآباء؛ وكانت الهدايا في عيد الميلاد المجيد مجرد استجابة لطلبات شراء.

أما هدايا العمِّ تشارلز الأكبر فلم تكن تربطها أي صلةٍ بالعقل ولا بسقف التوقعات. فقد أرسل ذات مرة مجموعةً من عيدان الطعام، أفسدت نظام غرفة الأطفال أسبوعًا. وذات مرة كانت الهدية جلدَ ثعبان، وتسبَّبت زهوة امتلاك جلد ثعبان في حالة من النشوة والانبهار لسايمون أيامًا. أما إلينور، فكانت لا تزال تركض جَيئةً وذهابًا إلى حمَّامها بخُفَّين من الجلد لهما رائحة غريبة تلقَّتْهما في عيد ميلادها الثاني عشر. وهكذا أصبح العم تشارلز الأكبر العنصر الأهم في عائلة آشبي أربع مراتٍ في العام على الأقل، وعندما تكون الأهم على الإطلاق أربع مراتٍ في العام طوال عشرين سنة، فهذا يعني أنك ذو أهمية بالغة. قد يتذمَّر سايمون وقد يعترض الآخرون قليلًا، لكنهم بلا شك سينتظرون عمَّهم الأكبر تشارلز.

إلى جانب ذلك، راودتها فكرةٌ ماكرة من أن سايمون لن يكون راغبًا في الإساءة إلى آخرِ مَن تبقَّى من عائلة آشبي من جيله. لم يكن تشارلز ثريًّا — إذ كان شديد السخاء طوال حياته — لكنه كان ميسور الحال، بينما كان سايمون، رغم طبيعته اللامبالية وجاذبيته الفطرية، كان شخصًا عمليًّا إلى أقصى الحدود.

لهذا تلقَّت العائلة نبأ التأجيل بالإذعان، وتلقَّته كلير بهدوءٍ وأناة. فقد اعتُبر أنه من اللائق تمامًا أن تنتظر عائلة آشبي حتى يتسنَّى للرجل العجوز الحضور. وأمضت بي وقت فراغها بعد العشاء في تغيير التاريخ على بطاقات الدعوة، وتشكر الرب على رأفته بها بظهور تلك الفرصة.

قضت بي هذه الأيام في صراع مع نفسها. كانت ترغب في أن يكون هذا الصبي هو باتريك؛ لكنها شعرت أنه سيكون من الأفضل كثيرًا لجميع الأطراف المعنية أن يَثبُت أنه ليس باتريك. كان الجزء الأكبر منها يرغب في عودة باتريك، ذلك الشاب اللطيف، المحبوب المفعم بالحيوية؛ أرادت ذلك بشغف. أما الجزء المتبقي فَجَفَل من الاضطراب الذي قد تجلبه عودته على حياة آشبي السعيدة. حينما ضبطَتْ هذا الجزء المنشقَّ يوسوس إليها، زجرتْهُ

وشعرتْ بالخزي من نفسها بالقدْر الكافي، لكنها عجزت عن إخماده. لذا بدت شاردةً ومنفعلة؛ فقالت روث لجين، تعليقًا على حالها:

«أتعتقدين أن بداخلها حزنًا خفيًّا لا يعلمُه أحد؟»

أجابت جين: «أتوقَّع أن تكون دفاتر الحسابات غير متوازنة. إنها لا تُجيد جمع الأرقام تمامًا.»

كان السيد ساندال يوافيها بتطوُّر التحريات من وقتٍ لآخر، وكانت التقارير مُتسقة وتسير على وتيرةٍ واحدة. كل شيء بدا يؤكد رواية الصبي.

قال السيد ساندال: «أكثر ما يُشجِّع في هذا الأمر، إذا استخدمنا كلمة «يشجِّع» بمدلولها الباعث على الاطمئنان، أن ذلك الشاب ليس لدَيه أي معارف منذ عودته إلى إنجلترا. فقد أقام في ذلك العنوان منذ وصول السفينة فيلادلفيا، ولم تصِلْه كذلك أي خطابات ولم يأتِه زائرون. السيدة صاحبة المنزل تسكن في غرفةٍ من الغرف الأمامية في الطابق الأرضي. إنها واحدة من السيدات اللاتي لا يفعلنَ شيئًا سوى الجلوس في استرخاء ومُراقبة جيرانها. فحياةُ المستأجِرين تبدو ككتابٍ مفتوح أمام تلك السيدة الطيبة. اعتادت كذلك انتظارَ ساعي البريد وجمْع الخطابات التي يُوصِّلها. لا شيء يفُوتها. كان وصفها لي، كما أتفهَّم، بالكاد يحمل مجاملة، لكنه كان مؤثرًا تمامًا في دقته. لذا من الصعب أن يأتي زائرٌ لهذا الشاب من دون أن تعلم بوجوده. كان يقضي اليوم كله بالخارج بالطبع، شأنه شأن أي شابٍّ في لندن. لكن لا يُوجَد أي دليل على أن هذا الاطلاع عن قربٍ قد يُوحي بأي تواطؤ. ولم يكن لدَيه أصدقاء.»

جاء الشاب بمحض إرادته إلى المكتب وأجاب عن الأسئلة بطلاقة وانسيابية. وبعد موافقة بي، حضر كيفين ماكدرموت أحدَ هذه الاجتماعات في المكتب، وحتى كيفين صُدِم. فقد قال: «إن صدمتي ليست نابعة من إلمام الشاب بالموضوع — فجميع المُحتالين البارعين عفويون — إنما من أسلوبه بوجهٍ عام. فهو صريح تمامًا بخلافِ ما توقَّعت. بعد قضائك فترةً قليلة في مهنتي، تتطوَّر لديك قدرة على تشمُّم رائحة المجرم. وهذا الشابُّ وضعَني في حيرة من أمري. لا أشمُّ فيه رائحة مُحتال، ولكني أشم رائحة مكيدة كريهة.»

وهكذا جاء اليوم الذي أُخطرت فيه بي من قِبل السيد ساندال بأن مكتب كوسيت وثرينج ونوبل قد صار مُستعدًّا الآن للاعتراف بأن المُدعِي هو باتريك آشبي، الابن الأكبر لويليام آشبي من لاتشتس، وتسليمه كل مُستحقاته. وستُتَّخذ إجراءات قانونية شكلية بالطبع، نظرًا لحقيقة افتراض وفاته منذ ثماني سنواتٍ مضت؛ لكنها ستكون إجراءاتٍ

تلقائية. وبالنسبة إلى كوسيت وثرينج ونوبل، فقد صار لباتريك آشبي مُطلَق الحرية في الذهاب إلى المنزل وقتما يشاء.

وهكذا حانت اللحظة الحاسمة، وأصبحت بي مُطالَبَةً بإبلاغ العائلة بالخبر.

مالت في قرارة نفسها إلى إخبار سايمون أولًا على انفراد، لكنها شعرت بأنه يجب تجنُّب أي شيء يُميِّزه عن الآخرين في مسألة الترحيب بعودة أخيه. ومن المُستحسَن التسليم بأن الخبر سيكون مبعثَ سعادة لا حدَّ لها لسايمون وللآخرين كذلك.

كان الوقت المُقرَّر لإخبارهم بعد غداء يوم الأحد.

قالت: «لدي شيء أود أن أُخبركم به سيكون صدمةً لكم إلى حدٍّ ما. لكنها صدمة من نوع لطيف.» ومضت في حديثها انطلاقًا من تلك النقطة. «لم ينتحِر باتريك كما ظنُّوا. إنما هرب فحسب. وقد عاد الآن. كان يعيش في لندن منذ فترة قصيرة لأنه كان مُضطرًّا بالطبع لأن يُثبت للمحامين أنه باتريك. لكن لم يواجِه أيَّ صعوبةٍ في ذلك. والآن سيعود إلى المنزل.»

تحاشت النظرَ إلى وجوهِهم أثناء حديثها؛ فكان أسهل عليها أن تتحدَّث في الفراغ، دون النظر لأحدٍ بعينِه. لكن في خضمِّ الصمت الذي أعقب سرْدَ قصتها من جرَّاء الصدمة، نظرت إلى سايمون في الجهة المقابلة، ولوهلةٍ لم تعرفه. لم يكن هناك ذرةُ شبهٍ بين ما رأتْه أمامها من وجهٍ شاحب مُنقبضٍ وعينَين مُتقدتَين وبين سايمون الذي كانت تعرفه. لكنها سرعان ما أشاحت بنظرها بعيدًا.

سألت جين بأسلوبها المعتاد الذي يفتقر إلى الكياسة: «هل هذا يعني أن هذا الأخ الجديد سيأخذ كل المال الذي يملكه سايمون؟»

قالت إلينور بصراحة حادة: «حسنًا، أرى أن ما فعله كان بشِعًا.»

«أي شيءٍ تقصدين؟»

«الهروب وترْكنا جميعًا نظنُّ أنه ميت.»

«لم يكن يُدرك ذلك بالطبع. أقصد: لم يكن يُدرك أننا سنفهم معنى رسالته أنه سيقتُل نفسه.»

«وحتَّى مع ذلك. تركَنا كل ذلك دون كلمةٍ واحدة لـ... لـ... لِكَم سنة؟ سبع سنوات؟ ثماني سنوات تقريبًا. ثم يعود الآن في يومٍ ما دون سابق إنذار، ويتوقَّع منَّا أن نُرحِّب به.»

سألت روث: «أهو لطيف؟»

سألت بي وهي سعيدة أن روث تُبدي اهتمامًا بالجانب الشخصي ولو لمرة واحدة: «ماذا تقصدين بلطيف؟»

«هل لطيفٌ النظر إليه؟ وهل يتحدث بأسلوبٍ جميل أم له لهجة مُخيفة؟»

«النظر إليه لطيف للغاية، ولا يتحدَّث بأي لهجة.»

سألت إلينور: «وأين كان كل ذلك الوقت؟»

«المكسيك والولايات المتحدة، في الأغلب.»

قالت روث: «المكسيك!» وأردفت: «يا له من رومانسي! هل يرتدي قبعة بحَّار سوداء؟»

«يرتدي ماذا؟ لا، بالطبع لا يرتديها. إنه يرتدي قبعةً كالتي يرتديها أي شخصٍ آخر.»

سألت إلينور: «كم مرة رأيتِه يا عمة بي؟»

«مرة واحدة. منذ أسابيع قليلة.»

«ولماذا لم تُخبرينا بالأمر حينها؟»

«بدا أنَّ من الأفضل الانتظار حتى يُنهي المحامون كلَّ شيء معه ويكون مُستعدًّا للعودة إلى المنزل. لم يكن بالإمكان أن تُهرعوا جميعًا إلى لندن لرؤيته.»

«لا، لا أعتقد ذلك. لكن أتوقَّع أن سايمون كان سيُحب أن يذهب ويراه، أليس كذلك يا سايمون، ولم نكن لنمانع؟ لقد كان باتريك توءمه رغم كل شيء.»

قال سايمون، بصوتٍ مُختنق متأنٍّ كان أسوأ من الصراخ: «لا أُصدِّق ولو لحظة أنه باتريك.»

قالت إلينور: «لكن يا سايمون!»

جلست بي في صمت ممزوج بالفزع. فقد كان هذا أسوأ ممَّا توقَّعتْه.

«لكن يا سايمون! العمة بي رأته. لا بدَّ أنها تعرف.»

«يبدو أن العمة بي قد تبنَّته.»

أسوأ كثيرًا مما توقَّعتْه.

«من تبنَّوه يا سايمون هم كوسيت وثرينج ونوبل. شركة لا تعرف للعاطفة طريقًا بتاتًا، أعتقِد أنك ستتَّفِق معي في ذلك. لو كان هناك أدنى شك في أنه باتريك، لكان كوسيت وثرينج ونوبل قد اكتشفوا ذلك أثناء تلك الأسابيع. فهم لم يتركوا جزءًا من حياته منذ أن ترك إنجلترا دون استيضاح.»

«أيًّا كانت هويته، فقد عاش حياةً يمكن التحقُّق منها بالطبع! ماذا كانوا يتوقعون؟ لكن ما السبب الذي يمكن أن يدفعهم لتصديق أنه باتريك؟»

«حسنًا، جزء من السبب أنه نسخة طبْق الأصل منك.»

كان هذا مفاجئًا بكل وضوح. فقال بغموض: «نسخة طبق الأصل مني؟»

«أجل. بل إنه يُشبهك الآن أكثر مما كان وقتَ رحيلِه.»

عادت الدماء إلى وجه سايمون وما كان يكسو عظامه بدأ يُشبه اللحم مرةً أخرى، لكنه في تلك اللحظة بدا أحمقَ، مثل مُلاكمٍ يتلقى ضربات عنيفة للغاية.

قالت: «صدقني يا عزيزي سايمون. إنه باتريك!»

«ليس هو. أعرف أنه ليس هو. أنتم جميعًا مُضلَّلون!»

قالت إلينور: «لكن يا سايمون! لِمَ تعتقد ذلك؟ أعرف أنه لن يكون من السهل عليك عودة باتريك — ولن يكون الأمر سهلًا على أيٍّ منَّا— لكن لا فائدة من تضخيم الأمر وإحداث ضجة بشأنه. لقد بات واقعًا وليس علينا سوى تقبُّله. أنت لا تزيد الوضع إلَّا سوءًا بمحاولتك إنكاره.»

«كيف تمكَّن هذا ... هذا المخلوق الذي يقول إنه باتريك، كيف نجح في دخول المكسيك؟ كيف غادر إنجلترا؟ ومتي؟ وأين؟»

«غادر من ميناء ويست أوفر على متن سفينة تُسمَّى إيرا جونز.»

«ويست أوفر! مَن قال ذلك؟»

«هو. وطبقًا لمدير المرفأ، هناك سفينة بذلك الاسم أبحرت بالفعل في تلك الليلة التي تغيَّب فيها باتريك.»

ولما بدا أن ما قيل قد جعل سايمون عاجزًا عن التفوُّه بكلمة، واصلت حديثها قائلةً: «وكل شيء فَعله منذ ذلك الحين فصاعدًا جرى التحقُّق منه. الفندق الذي عمل فيه في نورماندي لم يَعُد موجودًا، لكنهم وجدوا السفينةَ التي أبحر عليها من هافر — هي سفينة شحن، لكنها مملوكة لشركةٍ في مدينة بريست — وقد عُرضت صور فوتوغرافية لها على أناس هناك وتعرَّفوا عليها. وعلى المنوال نفسه، تم التحقُّق من كل شيءٍ حدث له حتى عودته إلى إنجلترا. حتى اليوم الذي جاء فيه إلى مكتب السيد ساندال.»

سألت إلينور: «أهكذا عاد؟» وأردفت: «هل ذهب لمقابلة السيد ساندال العجوز؟»

«أجل.»

«حسنًا، عليَّ القول إن ذلك يثبت أنه باتريك، إن كان أحد منكم يُساوره شكٌّ في ذلك. لكني لا أدري لِمَ من المُفترَض أن يكون لدَينا شكوك حيال ذلك بأية حال. ففي النهاية، سيكون من السهل للغاية اكتشاف أمره إن لم يكن باتريك، أليس كذلك؟ جميع أمور العائلة التي لن يعرفها ...»

«ليس باتريك.»

قالت بي: «أعرف أنها صدمة لك يا عزيزي سايمون. وكما تقول إلينور، لن يكون سهلًا عليك. لكن أظن أنه سيكون أسهلَ عندما تراه. أعني أنَّ تَقبُّله سيُصبح أسهل. إنه واحد من نسل آشبي بلا أدنى شك، ويُشبهك كثيرًا.»

«لكن باتريك لم يكن يُشبهني كثيرًا.»

كانت إلينور المُنقذ لبي من الاضطرار للرد على ذلك. «كان يُشبهك يا سايمون. بالطبع كان يُشبهك. لقد كان توءمك.»

سألت روث: «لو هربتُ سنواتٍ وسنوات، هل كنتِ ستصدِّقين أني أنا الشخص نفسه يا جين؟»

أجابت جين: «لن تظلِّي بعيدةً سنواتٍ وسنواتٍ، على أي حال.»

«ما الذي يجعلك تظنِّين ذلك؟»

«لأنك ستعودين إلى المنزل في لمح البصر.»

«لِمَ أعود إلى المنزل؟»

«حتى تري كيف استقبلَ الجميع نبأ هروبك.»

سألت إلينور: «متى سيأتي يا عمة بي؟»

«يوم الثلاثاء. على الأقل ذلك ما اتفقنا عليه. لكن إذا كنتم ترغبون في التأجيل قليلًا ... أقصد إلى أن تُصبحوا أكثرَ تآلُفًا مع الفكرة ...» ونظرت إلى سايمون، الذي كان باديًا عليه الاستياء والحيرة. في أكثر لحظات القلق التي مرَّت بها لم تتصوَّر قطُّ ردَّ فعلٍ بهذه الفظاظة.

قال سايمون: «إذا كنتِ تُهوِّنين على نفسك بأني سأعتاد الفكرة، فأنت مُخطئة. لن يحدُث أي فارق معي عندما يأتي هذا الشخص. هو بالنسبة إليَّ ليس باتريك ولن يكون أبدًا.»

ثم خرج من الغرفة. وأثناء سيره، لاحظت بي أنه لم يكن مُتزنًا، وكأنه كان ثمِلًا.

قالت إلينور حائرةً: «لم أرَ سايمون من قبلُ في مثل هذه الحالة قط.»

«كان من المُفترَض عليَّ أن أُبلغه بالخبر بأسلوبٍ مختلف. أخشى أنَّ الخطأ خطئي. كل ما أردتُه ... ألَّا أُميزه عن أي أحدٍ آخر.»

«لكنه كان يُحب باتريك، أليس كذلك؟ لماذا لم يُسعِده الخبر؟ ولو قليلًا.»

قالت جين: «أظنُّه أمرًا بشِعًا أن يأتيَ أحدٌ ويأخذ مكان سايمون دون سابق إنذار هكذا. أمر بشع حقًّا. لهذا لا أتعجَّب من غضب سايمون.»

قالت روث: «عمَّة بي، هل يُمكنني ارتداء فستاني الأزرق يوم الثلاثاء عند قدوم باتريك؟»

الفصل التاسع

انتظرت بي حتى انتهاء صلاة الغروب، ثم اتجهت عبر الحقول إلى منزل القس. ظاهريًّا، كانت ذاهبةً لتُطلِعهم على الأخبار؛ لكنها في الواقع كانت ذاهبةً لتُفضي إلى جورج بيك بمشكلاتها. كان جورج يُصبح شخصًا مريحًا تستطيع التحدُّث إليه عندما يستطيع الانسحاب بعقلِه بما يكفي من العالَم الكلاسيكي ليُوجِّه تركيزَه إلى العالم الحاضر. كان شخصًا غير عاطفي ومُحصَّنًا ضد الصدمات. كانت بي تعتقِد أن إلمامًا خاصًّا بالسلوكيات التقليدية، يُتوِّجه شفاء للأرواح في أبرشية ريفية، هو ما هيأه لتلقِّي الصدمات لدرجةِ أنه اكتسب منذ فترةٍ طويلة مناعةً ضد أي هجومٍ آخر. لم تكن الخطايا القديمة ولا الانحدار الإنجليزي المعاصر يُدهشانه. لذا لم تكن تحمل قلبها المُضطرِب إلى صديقتها نانسي، وإنما إلى القس. كانت نانسي ستُطوقها بعطفٍ وتعاطف، لكن ليس التعاطف هو ما كانت بحاجةٍ إليه؛ بل كانت حاجتها إلى الدعم. كذلك، إذا كانت ترغب أن تجد التفهُّم والاستيعاب لِما يلمُّ بها، فلن يكون ذلك مع نانسي، التي نسيت وجودَ باتريك من الأساس، بل مع جورج بيك، الذي كان سيتذكَّر بكل تأكيدٍ الصبيَّ الذي كان يُعلِّمه.

لذا سارت تحت ضوء الشمس بين الحقول، مرورًا بساحة الكنيسة، ثم دخلت حديقةَ منزل القس عبر البوابة الحديدية الصغيرة التي تسبَّبت في وقوع ذلك النزاع المريع في عام ١٧٢٣. كان كل شيء في هذه الليلة في غاية الهدوء، وكذلك كان السلام يعمُّ الحدادين المتنافسين، الذين كانوا يرقدون في نطاق اثنتي عشرة قدمًا بين كلٍّ منهم هناك في الزاوية على أرض كلير الخصبة. جال بخاطرها وهي مُتوقفة ويدُها على الحلية الحلزونية الحديدية الرقيقة التي تُزيِّن البوابة أن متاعبها هي الأخرى ستُصبح، في القريب العاجل، مجرد ذكرى قديمة؛ لهذا لا بد أن نُحاول ألا نُهوِّل الأمور. لكن ذلك كان حديث عقلها إلى قلبها، ولم يكن قلبها ليُنصت له.

وجدت القس في المكان الذي كانت تعرف أنها ستجده فيه. كان من عادته دائمًا بعد صلاة الغروب الذهاب والتحديق إلى شيءٍ ما في الحديقة، وعادةً ما يكون هذا الشيء في أقصى أطراف الحديقة حيث لا يمكن لشيء أن يُعيده بسهولة للنظر في سفاسف الالتزامات الاجتماعية. في هذا المساء كان يُحدق إلى زهرة ليلك بنفسجية ويُلوِّث الهواء العَطِر بغليونه الذي كانت رائحته تُشبه نارًا خافتةً خانقة. وكما قالت زوجته: «ينبغي أن يكون هناك قانون داخلي يمنع الغلايين على شاكلة غليون جورج»، والنموذج الحالي لم يكن استثناءً. وهذا ما أثار مزيدًا من الإحباط.

رفع بصرَه إلى أعلى على نحوٍ خاطف عند قدومها عبر الممر، ثم عاود التحديق إلى زهرة الليلك. وقال: «لونها مُذهل بحق. من الغريب الاعتقاد بأن ذلك اللون هو مجرد خداع بصري. تُرى ماذا يكون لون الليلك عندما لا تنظرين إليها؟»

تذكَّرت بي أن القس كان قد أخبر الأختَين التوءمتَين بأن الساعة لا تُصدِر دقات إذا لم يكن هناك أحدٌ في الغرفة. وكانت قد وجدت روث تختبئ في الرَّدهة، وعندما سُئلت روث عن سبب هذا الزحف الصامت، أجابت بأنها «تحاول التسلُّل نحو ساعة غرفة الجلوس.» أرادت أن تضبط الساعة وهي لا تدق.

وقفت بي بجانب القس في صمتٍ برهةً وهي تنظر إلى روعة الزهرة وتحاول ترتيب أفكارها. لكنها لم تكن لتُرتَّب.

وأخيرًا قالت: «جورج، تتذكر باتريك، أليس كذلك؟»

قال: «بات آشبي؟ بالطبع.» والتفت لينظر إليها.

«حسنًا، إنه لم يمُت على الإطلاق. بل هرب فحسب. ذاك ما كانت تعنيه رسالته. وسيعود الآن. وسايمون غير سعيد برجوعه.» فرَّت دمعة مُخزية كبيرة من عينها وسالت على وجنتها. فمسحتها عن ذقنها وواصلت تحديقها إلى زهرة الليلك.

بسط جورج سبَّابته النحيلة وضغط بلطفٍ على مقدمة كتفها.

ثم قال: «اجلسي.»

جلست على مقعدٍ كان خلفها، أسفل قوسٍ من نبات العسلة الخضراء النضِر اليافع، وجلس القس بجانبها. وقال: «الآن، أخبريني.» فأخبرته. روت له القصةَ المُحيِّرة كاملة، بالترتيب الصحيح وبكامل تفاصيلها؛ مكالمة السيد ساندال، ورحلتها إلى المدينة، الغرفة الخلفية في الطابق العلوي في بيمليكو، وتحريات مكتب كوسيت وثرينج ونوبل، وطوق النجاة الذي منحها إيَّاه العمُّ الأكبر تشارلز، والمواجهة الأخيرة للحقائق وإعلانها إلى العائلة، ورد فعلهم.

«إلينور غير مُبالية قليلًا تجاه الأمر، لكنها عقلانية كعهدها دائمًا. لقد بات الأمر واقعًا بالنسبة إليها وستستفيد منه أقصى استفادةٍ مُمكنة. أما جين، فهي مُتحيزة بالطبع، وتشعر بالأسف من أجل سايمون، لكنها ستتجاوز ذلك عندما تقابل أخاها وجهًا لوجه. فهي ودودة بطبيعتها.»

«وروث؟»

قالت بي بحدةٍ: «روث تُخطِّط لثيابها التي سترتديها من أجل يوم الثلاثاء.»

ابتسم القس قليلًا. «أسعدُ أهل الأرض مَن يحملنَ اسم روث.»

«لكن سايمون ... كيف لي أن أجد مبررًا لسايمون؟»

«لا أظن أن الأمر معقدٌ لهذه الدرجة. كان يجب أن يكون سايمون قديسًا حتى يُرحِّب بأخٍ له كان سيحلُّ محلَّه. إضافة إلى ذلك، أنه أخٌ مات بالنسبة إليه منذ أن كان في الثالثة عشرة.»

«لكن يا جورج، هذا توءمه! لقد كانا لا يفترقان.»

«في رأيي أن الفجوة بين سنِّ الثالثة عشرة وسنِّ الحادية والعشرين أوسع بكثير من الفجوة بين أي مراحل أخرى في الحياة مُتساوية في البعد. إنه عمر آخر. الارتباط الذي انتهى في عمر الثالثة عشرة لا يحمل سوى قيمة عاطفية للصبي ذي الواحد والعشرين عامًا. كانت لاتشتس لسايمون طوال — طوال كم عام؟ — ثماني سنوات؛ لقد عرف لثماني سنوات أنه سيرث أموال والدتِهِ عند بلوغه الحادية والعشرين: أن يُجرَّد من كل ذلك دون إنذار من شأنه أن يُزعج شخصيةً أكثرَ قوة من شخصية سايمون.»

قالت بي: «أتوقَّع أن أكون قد أسأتُ التصرُّف. أقصد الطريقةَ التي أخبرتهم بها. كان عليَّ أن أخبر سايمون أولًا على انفراد. لكني أردتُ حقًّا أن أساويَ بينهم جميعًا. أن أزعم أنهم جميعًا سيسعدون بالخبر بالقدْر نفسه. لكن الانفراد بسايمون وإخباره قبل الآخرين كان ... كان سيصبح ...»

«توقعًا للبلاء قبل وقوعه.»

«بالضبط. شيء من هذا القبيل، على ما أظن. أعتقد أنني كنتُ أعرف تمامًا أن ردَّ فِعله سيكون ... سيكون مُختلفًا عن الآخرين. وأردت فحسب أن أُخفِّف من حدة الاختلاف. لكني لم أتخيَّل قطُّ ولو لوهلةٍ أن ردَّ فِعله سيكون بهذا العنف. ولم أتخيَّل أن يصِل إلى حدِّ إنكار أن باتريك على قيد الحياة.»

«هذه هي طريقتُه في دفع حقيقةٍ غير مُرحَّب بها بعيدًا عنه.»

تمتمتْ بي قائلة: «غير مُرحَّب بها.»

«أجل، غير مُرحَّب بها. ومن الطبيعي تمامًا أن تكون غير مُرحَّب بها. أنت تُصعِّبين الأمورَ على نفسك لو لم تتقبَّلي تلك الحقيقة الجوهرية. أنت تتذكَّرين باتريك بعقلك الراشد، ويُسعدك أنه لا يزال على قيد الحياة.» وأدار رأسه لينظر إليها. «أوَليس كذلك؟»

قالت بتأكيدٍ بدا قاطعًا أكثرَ مما ينبغي: «بالطبع سعيدة لذلك!» لكنه تغاضى عن ذلك.

«سايمون لا يتذكَّره بعقلِ بالغٍ أو مشاعرِ بالغ. هو بالنسبة إلى سايمون شعورٌ في الذاكرة، وليس شعورًا حاليًّا. إنه لا يحمِل في قلبه حبًّا حاليًّا ليقاوم به كُرْهه الحالي له.»

«آهٍ يا جورج.»

«أجل؛ الأفضل هو مواجهة الأمر. سيحتاج الأمر غالبًا إلى حُبٍّ شِبه إلهي لمقاومة مشاعر السخط التي يشعر بها سايمون حتمًا الآن؛ وسايمون لم يكن لدَيه قطُّ أدنى قدْرٍ من الحب الإلهي. مسكين سايمون. إن ما حدَث له فاجعة.»

«بل وحدَث في أسوأ لحظةٍ على الإطلاق. ونحن نستعدُّ للاحتفال.»

«هذه على الأقل إجابة عن شيءٍ طالما حيَّرَني طوال ثماني سنوات.»

«ما هو؟»

«حقيقة انتحار باتريك. لم أستطِع قطُّ تقبُّل حدوث ذلك مع باتريك الذي عرفته. كان باتريك طفلًا حسَّاسًا، لكن كان له نصيب وافر من رجاحة العقل؛ كان لدَيه اتزان. كان أكثر رزانة كثيرًا، على سبيل المثال، من سايمون الأقل حساسيةً لكنه أكثر ذكاءً. إلى جانب ذلك، كان يتمتَّع أيضًا بحسٍّ شديدٍ من الالتزام. لو أن لاتشتس صارت فجأةً ودون أسباب مِلكًا له، لربما كان سيرتبِك إلى حدِّ الهروب، لكن ليس مُختلًّا لدرجة إنهاء حياته.»

«لماذا تقبَّلنا جميعًا نظريةَ انتحاره من دون مساءلةٍ أو نقاش هكذا؟»

«بسبب المعطف على قمة المنحدَر. الرسالة التي كان مضمونها، بلا شك، يبدو كرسالة انتحار. عدم وجود أي شخصٍ رآه بعد آبل العجوز الذي قابلَه بين تانبيتشس والمنحدر. إصرار المنتحِرين على اللجوء إلى ذلك الجزء تحديدًا من الساحل لإنهاء حياتهم. كان ذلك هو الاستنتاج الطبيعي الذي يمكن التوصُّل إليه من كل تلك الملابسات. لا أذكر أننا شكَكْنا في الأمر من قبل. لكن طالما ترسَّخ في عقلي أنه أمرٌ غير مُبرَّر. ليست الطريقة، وإنما حقيقة أن باتريك كان مضطرًّا لإنهاء حياته. كان ذلك مُخالفًا لكل شيءٍ عرفته عن باتريك. والآن نكتشف أنه، بعد كل ذلك، لم يفعل شيئًا كهذا.»

كانت بي تقول لنفسها: «أُغلق عينيَّ ولا أجد لزهرة الليلك لونًا؛ ثم أفتحهما فأجدها بنفسجية»؛ كانت تلك طريقتها لحبس دموعها. تمامًا مثل عَدِّ الأشياء عندما تكون عرضةً للبكاء عند مشاهدة المسرحيات.

«أخبريني، هل تشعرين بالارتياح مع باتريك الذي عاد وقد صار بالغًا؟»

«أجل. أجل، أشعر بالارتياح. إنه يُشبه باتريك الذي اختفى في عدة أشياء. بل يُشبِهه تمامًا. هادئ للغاية. متحفِّظ. مراعٍ لمشاعر الآخرين بشدة. هل تتذكَّر كيف كان باتريك معتادًا الالتفاتَ وقول: «هل أنتِ بخير؟» قبل أن يبدأ أي شيءٍ كان ينوي فِعله بمفرده؟ لا يزال يفكر في الآخرين. فلم يُحاول ... استعجالي، واعتبار الترحيب به أمرًا مُسلَّمًا به. ولا يزال يحتفظ بأوقاته العصيبة لنفسه. كان سايمون دائمًا يأتي مُهرولًا إلى أحدِنا بأحزانه وشكاواه، لكن باتريك كان يتعامَل مع أحزانه وحدَه. ويبدو أنه لا يزال قادرًا على التعامُل معها بمفرده.»

«هل تعتقدين إذن أنه مرَّ بوقتٍ عصيب؟»

«استشففْتُ أن الحياة لم تكن وردية. نسيتُ أن أُخبرك بأنه أعرج.»

«أعرج!»

«نعم. قليلًا فحسب. تعرَّض لحادث مع حصان. لا يزال مُولعًا بالخيول.»

قال جورج: «سيُسعدك ذلك.» قالها بسخريةٍ قليلًا؛ إذ لم يكن من مُحبِّي ركوب الخيل.

وافقتْه بي الرأيَ وقابلت سخريته بابتسامةٍ باهتة: «أجل، من الجيد أن تذهب لاتشتس لُحبٍّ حقيقي لها.»

«تعتبرين سايمون محبًّا زائفًا؟»

«ليس زائفًا. ربما غير مُبالٍ. الخيول بالنسبة إلى سايمون هي وسيلة لإمداده بالحماسة والإثارة. لتعزيز وجاهته. وسيلةٌ للتجارة؛ للوصول إلى مقايضةٍ مُربحة. أشكُّ إن كان الأمر يتعدَّى ذلك. أما الخيول بصفتها ... بصفتها كائنًا حيًّا، إن كنتَ تُدرك ما أقصده، فمشاعره نحوَها ضئيلة. مَرضُها يُضجِره. إلينور تسهر لياليَ مُتواصلةً مع خيلٍ مريض، وتشارك جريج مهامَّ التمريض بالتساوي. الوقت الوحيد الذي يُجافي فيه النوم عينَ سايمون عندما يُريد أن يمتطيَ خيلًا، أو يقفز به، أو يخرج به للصيد ويكون هذا الخيل مُصابًا.»

قال القس متأمِّلًا: «مسكين سايمون. ليس بالطبيعة التي تجعله ينجح في مقاومة الغيرة. إنها شعورٌ مُدمِّر للغاية.»

قبل أن تتمكَّن بي من الإجابة، ظهرت نانسي.

فقالت: «بي! من الرائع أن أجِدك هنا. أكنتِ في صلاة الغروب، وهل رأيتِ آخِر حادث غير مُتوقَّع من مدرستنا المحلية لُمحبي الفضائح؟ مُراهقان يدرُسان «الخرافات الإنجليزية الشائعة»؛ أقصد كنيسة إنجلترا. صبيٌّ بدا لي كثيفَ الشعر بالنسبة إلى صبيٍّ في الرابعة عشرة، وفتاة معها أحد عشر مشطًا انتزُع منها خصلات كثيرة. علامَ يدُلُّ هذا الشغف بالأمشاط؟ أهو إحساس بعدم الأمان؟»

قال القس: «جاءت بياتريس بخبرٍ رائع للغاية.»

«لا تُخبريني بأن سايمون قد خطب.»

«لا. الأمر لا يخصُّ سايمون. إنما يخصُّ باتريك.»

قالت نانسي بتردُّد: «باتريك؟»

«إنه على قيد الحياة.» وأخبرتْها بالقصة.

قالت نانسي، وهي تُطوِّق صديقتها بذراعَيها: «أوه، نانسي يا عزيزتي، إنه خبر رائع لكِ. لن تكوني بحاجةٍ إلى التعجُّب والتساؤل بعد الآن.»

كان أوَّل ردِّ فعلٍ لنانسي أن تذكَّرت ذلك الكابوس السِّري الذي كان يراودها، ما جعل بي تنهار تمامًا.

قالت نانسي بحيوية: «أنت بحاجةٍ إلى شراب. تعالي إلى الداخل وسنأتي على ما تبقَّى في زجاجة الشيري.»

قال القس: «عذْرٌ بائس لاحتساء الشيري.»

«أيُّ عذر؟»

«أن يكون المرء «بحاجة إلى شراب».»

«ثمة عُذرٌ أكثر بؤسًا، وهو أننا إذا لم نشربه فستشربه السيدة جودكين. لقد شربتْ أغلب ما تبقَّى من الزجاجة. تعالي.»

شربتْ بي الشيري في بيت القس، وظلَّت منصتةً بينما كان جورج يوضح لنانسي تفاصيلَ عودة باتريك آشبي. وبعد أن شاركت معلوماتها التي كانت عبئًا عليها مع أفرادٍ من جيلها، صار العبء فجأةً أخفَّ. فمهما كانت الصعوبات المُنتظَرة، فسيقف جورج ونانسي بجانبها لدعمها ومواساتها.

سألت نانسي: «متى سيأتي باتريك؟» والتفت القس إلى بي.

أخبرتهما بي: «يوم الثلاثاء. لكني لم أستطِع أن أُقرِّر أفضلَ سبيلٍ لنشر الخبر في المقاطعة.»

قالت نانسي: «ذاك أمرٌ سهل. ليس عليك سوى إخبار السيدة جلوم.»

كانت السيدة جلوم تُدير متجرًا في القرية لبيع الحلوى، والتبغ، والصحف. كان اسمُها الحقيقي بلوم، لكن تلذُّذها بسماع المصائب والكوارث جعلها معروفةً باسم جلوم، وكان أطفال ليدينهام وآشبي هم أول مَن أطلقوا عليها هذا الاسم، ثم صار الجميع دون استثناءٍ يدعونها به.

«أو بإمكانك إرسال بطاقة بريدية لنفسك. مكتب البريد على نفس القدْر من البراعة تقريبًا في ذلك. ذلك ما فعله جيم بودين عندما قطع علاقته بفتاة هايوود. أرسل لوالدته برقيةً ليُعلن عن زفافه. وأحدث الخبر ضجة في كل مكان قبل عودته.»

قالت بي: «أخشى أننا سنكون مِحورَ الضجَّة نفسها إلى أن يفتُر اهتمام الناس بالخبر ويصبح في طيِّ النسيان. لا بد أن نصبر فحسب.»

قالت نانسي، مهونةً عليها: «حسنًا يا عزيزتي، لكنها ضجةٌ من النوع اللطيف.»

«أجل. لكن الموقف غير ... غير مُتوقَّع تمامًا. إنه يُشبه ... يشبه ...»

علَّقت نانسي مُتفقةً معها: «أعرف. إنه يُشبه السيرَ على الهلام.»

«كنت سأقول السير بحذرٍ على سطح أحد المُستنقعات، لكني أرى الهلام وصفًا أبلغ.»

قال القس فجأةً بينما تهمُّ بي بالانصراف: «أو على واحدة من تلك الأرضيات غير المستوية في مدن الملاهي.»

سألته زوجته: «وكيف عرفت بمدن الملاهي يا جورج؟»

«أتذكَّر على ما يبدو أنهم كانت لديهم واحدة في كرنفال ويست أوفر منذ عامٍ أو عامَين. أكثر دراسة مثيرة للاهتمام في التلذُّذ بتعذيب الذات.»

قالت نانسي أثناء سيرها مع بي نحو بوابة الحديقة: «أظنك قد أدركتِ الآن سببَ تمسُّكي بجورج. بعد ثلاثة عشر عامًا لا أزال أكتشف عنه أشياء. لم أكن لأُصدق أنه يعرف مدن الملاهي. أيُمكنكِ تصوُّر جورج مُستغرقًا في تأمُّل ملاهي جيانت ريسر؟»

لكن لم يكن جورج زوج نانسي هو مَن كانت تُفكِّر فيه وهي تبتعِد عبر باحة الكنيسة، بل كانت تفكر في أرضية مدينة الملاهي التي قُدِّر لها أن تسيرَ عليها خلال الأيام المقبلة. اتجهت نحو رواق الكنيسة الجنوبي ووجدت الباب الكبير المصنوع من خشب البلوط لا يزال موصدًا. غمرت أشعة الغروب المدفنَ الرماديَّ بالدفء، وكان المبنى كله يحمل بين

جنباتِهِ سلامًا مثلما يحمِل الفنجان الماءَ بداخله. جلست على مقعدٍ بجانب الباب وأرهفتِ السمع إلى الصمت الذي يعمُّ الأجواء. كان صمتًا مؤنسًا تقاسمتْه مع الصور على المقابر، واللافتات المُهترئة، والأسماء المنقوشة على الجدار، وعَلم المملكة المتحدة المُبهرَج الخاص بالجيش، والدقات البطيئة لإحدى الساعات. كانت المقابر كلها لعائلة ليدينهام: من مقابر المُحاربين الصليبيين المتواضعة إلى المقابر الرخامية التي تشي بالترَف والفخامة التي تواري ساسة العائلة من القرن الثامن عشر. لكن لم يكن لدى آشبي مُحاربون صليبيون ولا مقابر فاخرة. كانت نُصُبهم التذكارية مجرد ألواح حجرية معلَّقة على الجدران. جلست بي هناك وقرأتها للمرة الألف. كانت عبارة «من لاتشتس» بمثابة لازمة في كل الألواح. «من لاتشتس في هذه الأبرشية.» ليس هناك مارشالات، ولا مستشارون، ولا شعراء، ولا مُصلحون. لا يُوجَد سوى بساطة فلاحي لاتشتس؛ لا يُوجَد سوى حسِّ الاكتفاء لدى صغار مُلاك لاتشتس.

والآن صارت لاتشتس مِلكًا لهذا الصبي المجهول القادم من النصف القاصي من العالم.

كان القسيس قد قال متحدثًا عن باتريك كما يتذكَّره: «لديه حسٌّ شديد بالالتزام.» وكان ذلك هو باتريك الذي تذكرته هي أيضًا. وهو باتريك الذي كان يُفترَض أن يُراسِلَهم ليُطمئنَهم عليه.

كانت تعود دائمًا إلى تلك الفكرة في عقلها. باتريك الذي عرفوه لم يكن له أن يتركهم أبدًا في حزنٍ وشكٍّ طوال ثماني سنوات.

كان السيد ساندال قد قال: «أزمة نفسية.» وفي النهاية هرب. شيء مُستبعَد تمامًا عن باتريك. لعل الخزيَ تملَّكه عندما عاد إلى رُشدِه.

ولكن. ولكن.

ذلك الطفل الرقيق القلب الذي كان يسأل بكل تلقائية: «هل أنت بخير؟»

أهذا هو الطفل الذي كان لدَيه «حس شديد بالالتزام»؟

الفصل العاشر

بينما كانت بي جالسةً تُحدق إلى الألواح الحجرية لعائلة آشبي في كنيسة كلير، كان برات فارار يقف في الغرفة الخلفية في بيمليكو في حلةٍ جديدة وقد انتابتْه حالة من الذُّعر.

كيف ورَّط نفسه في هذا الأمر؟ فيمَ كان يُفكِّر؟ هو، برات فارار. كيف رأى أن بوسعه المضيَّ قُدمًا في هذا الأمر؟ كيف ارتضى من الأساس أن يُسخِّر نفسه لخطَّةٍ مثل هذه؟

كانت الحلة هي ما صدمته وجعلته يُدرك الواقع. كانت الحلة إثمًا تجسَّد في صورة ملموسة. كانت حلةً رائعة. كانت من النوع الذي طالما حلم بامتلاكه؛ حلة عادية تمامًا، لا تُخطئها العين بمجرد أن تلاحظها: التصميم الإنجليزي الخفي في أبهى صوره. لكنه وقف ينظر إلى نفسه في المرآة في حالةٍ من الهلع.

لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك، ذلك كلُّ ما في الأمر. لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك فحسب.

كان سيختفي، قبل أن يفوت الأوان.

كان سيعيد هذه الحلة الملعونة إلى مصمم الملابس، ويبعث برسالةٍ إلى تلك السيدة التي عاملته بلطفٍ شديد، ويختفي عن الأنظار فحسب.

قال الصوت الذي بداخله: «ماذا! وتُفوِّت أعظم مغامرةٍ في حياتك؟ أعظم مغامرة حدثت لأي رجلٍ في ذاكرة البشرية؟»

«أغامر بنفسي. ما تلك إلا مَحض أكاذيب.»

لن يُكلفوا أنفسهم عناء البحث عنه. لكن سيُريحهم تمامًا أن يتخلَّصوا من إزعاجه. كان بإمكانه أن يختفيَ من دون أن يترك أثرًا.

قال الصوت: «وتترك ثروةً وراءك؟»

«نعم، وأترك ثروةً ورائي. مَن يريد ثروة على أي حال؟»

كانوا سيَحُوزون خطابه ليُحصِّنهم ضد أي مُضايقات أخرى من جانبه، وكانوا سيدعونه يمضي إلى حال سبيله. كان سيكتب إلى تلك السيدة التي، لِلُطْفها، قبَّلَتْه قبل أن تتأكد من هويته، ويقرُّ لها بذنْبه ويعتذر، وينتهي الأمر.

«وتُفوِّت فرصة امتلاك مزرعة خيول؟»

«مَن يريد مزرعة خيول؟ العالم مليء بالخيول.»

«لكن ربما تمتلك بعضًا منها؟»

«ربما أمتلكها يومًا ما. ربما.»

«هيهات.»

«اخرس.»

كان سيكتب إلى لودينج ويُخبره بأنه لن يكون طرَفًا في هذا المُخطَّط الإجرامي.

«وتُضيِّع كل تلك المعلومات؟ وكل ذلك التدريب؟»

«لم يكن ينبغي أن أبدأه.»

«لكنَّك بدأتَه. وأنهيتَه. لقد أُعدِدتَ على أكمل وجه بمعلوماتٍ تزن ثروة. لا يُمكنك أن تُضيِّعَ ذلك بالتأكيد.»

كان لزامًا ألا يكون لودينج واثقًا من نَيلِ ما أراده. كيف خطر له أن يترك نفسه أداةً في يدِ محتالٍ مثل لودينج!

«مُحتال مُسلٍّ وذكي. على أعلى مستوًى من الخداع. لا يُوجَد ما يدعو إلى الخجل، صدقني.»

كان سيذهب إلى وكالة سفريات صباح الغد ويحصل على سريرٍ في سفينة تُغادر البلاد. أي مكانٍ خارج البلاد.

«حسبتك تريد البقاء في إنجلترا؟»

كان سيضع البحرَ بينه وبين هذا الإغواء.

«هل قلتَ إغواء؟ لا تُخبرني أنك لا تزال مُترددًا!»

لم يكن ما تبقَّى معه كافيًا لرسوم السفر إلى أمريكا، لكن كان معه ما يكفي ليأخذه إلى مكانٍ بعيد تمامًا. ربما تَعرِض عليه وكالة السفر مجموعة من الأماكن. العالم رحْب ولا يزال به الكثير من المتعة. بحلول صباح يوم الثلاثاء سيكون خارج إنجلترا، وهذه المرة سيبقى خارجها.

«ولا ترى لاتشتس نهائيًّا؟»

سيجد شيئًا … «ماذا قلت؟»

«قلت: ولا ترى لاتشتس نهائيًّا؟»

حاول أن يفكِّر في إجابة.

«حيَّرْتُك، أليس كذلك؟»

لا بد أن هناك إجابة.

«المال، والخيول، والمتعة، والمغامرة تغييرٌ عاديٌّ. يمكنك أن تحظى بهم في أي مكانٍ في العالم. لكن إذا فوَّتَّ لاتشتس الآن فستضيع عليك إلى الأبد. لن يكون هناك أي مجال للعودة.»

«لكن ما علاقة لاتشتس بي؟»

«أنت منْ تسأل هذا السؤال؟ أنت بوجهك الآشبي، وبِنيتك الآشبية، ومُيولك الآشبية، ولون بشرتك الآشبي، ودماؤك الآشبية.»

«ليس لديَّ أي دليل نهائيًّا على كوني …»

«قلت، ودماؤك الآشبية. عجبًا، أيها اللقيط الصغير المسكين، لاتشتس هي موطنك، ولدَيك جرأة أزلية لتدَّعِي أنك غير مُهتم بها ولو بمثقال ذرة.»

«لم أقُل إنني لستُ مهتمًّا. بالطبع أنا مُهتم.»

«لكنك سترحل عن هذا البلد غدًا، وستترك لاتشتس وراءك؟ إلى الأبد؟ لأن هذا هو نتاج ما ستفعله يا عزيزي. ذاك هو الخيار الذي أمامك. أن تسلك طريقَ مغامرة كبرى وترى لاتشتس صباح يوم الثلاثاء. أو تختفي، وبذلك لن تراها إلى الأبد.»

«لكني لست مُحتالًا! لا يُمكنني أن أرتكب عملًا إجراميًّا.»

«صحيح؟ لقد كنتَ تُمثِّل تمثيلًا بارعًا خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية. وكنت مُستمتعًا به أيضًا. تذكَّر كم كنتَ مُستمتعًا بتلك المهمة الخطِرة في تلك الزيارة الأولى إلى ساندال العجوز؟ وكيف استمتعتَ بكلِّ الزيارات الأخرى؟ حتى مع وجود أحد مُستشاري الملك جالسًا في الجهة المقابلة من المنضدة يفعل شيئًا أشبه بتفحُّصك بأشعةٍ سينية في عقله. وأحببت ذلك. كلُّ ما أنت فيه الآن هو مجرد خوف. اضطراب. أنت تريد أن ترى لاتشتس أكثر من أي شيءٍ أردتَه من قبل. تريد أن تعيش في لاتشتس كأحد أفراد عائلة آشبي. تريد الخيول. تريد المغامرة. تريد أن يكون لك حياة في إنجلترا. فلتذهب إلى لاتشتس يوم الثلاثاء وكل ذلك سيصير مِلكًا لك.»

«لكن …»

«لقد أتيت من النصف الآخر من العالم من أجل ذلك اللقاء مع لودينج. أكانت تلك مجرد صدفة؟ بالطبع لا. كل شيء كان مقصودًا. قدَرُك في لاتشتس. قدَرُك أنت. ما وُلدتَ من أجله. قدَرُك. في لاتشتس. أنت أحد أفراد آشبي. لقد جئت من نصف العالم الآخر قاصدًا مكانًا لم تسمع عنه قط من قبل. لا يمكنك أن تُفرِّط في قدَرِك ...»

خلع برات حلَّته الجديدة ببطء، وعلَّقها بالنظام الذي تتبِعه دار الأيتام على شماعتها الجديدة الأنيقة. ثم جلس على حافة سريره ودفن وجهَهُ بين يدَيه.

كان لا يزال جالسًا هناك عندما حلَّ الظلام.

الفصل الحادي عشر

كان يومًا جميلًا، ذلك اليوم الذي جاء فيه برات فارار إلى لاتشتس، لكن ثمة رياح خفيفة لا تهدأ ظلَّت تُقلِّب أوراق الشجر حتى صار العالَم بالرغم من ضوء الشمس والهواء المنعش مشحونًا بقلقٍ مُبهم ونُذُرٍ بهبوب عاصفة.

فكَّرت بي وهي تنظر إلى المشهد من نافذة غرفة نومها بعد الإفطار: «الجو مشمس جدًّا!» وأردفت: ««سيكون هناك دموع ليلًا قبل النوم» كما اعتادت المُربية أن تقول حين ترى طفلًا يقفز من شدة الإثارة أو الفرح. لا يهم. سيصِل على الأقل في ضوء الشمس.»

كانت قد تدرَّبت كثيرًا في عقلها على التعامُل مع أمرِ وصوله ذاك. كان من المُفترض أن يتَّخِذ طابعًا غيرَ رسمي قدْر المُستطاع؛ وهو ما اتفق عليه جميع الأفراد المعنيِّين. أحدُهم سيستقبله في المحطة ويأتي به إلى المنزل، وسيُقام غداء يقتصر الحضور فيه على الأسرة. لكن كان السؤال: مَن سيستقبله؟ رأت الأختان التوءمتان أن الأسرةَ بأكملها يجب أن تذهب إلى المحطة، لكن ذلك، بالطبع، لم يكن واردًا. كان من الصعب استقبال العائد بعد غيابٍ على الملأ على رصيف محطة جيسجيت أمام موظفي السكة الحديدية والمسافرين العابرين بين ويست أوفر وبيورز. ولم يكن بإمكانها أن تذهب بنفسها دون أن يُوحي ذلك بأن باتريك عائد في حمايتها؛ وهو شيء كان يجب تَفادِيه مهما كلَّف الأمر. فلم تنسَ سخرية سايمون بشأن «تبنِّيها» لباتريك. أما سايمون — الخيار البديهي لتولي دور المُرحِّب — فلم يكن مُتاحًا؛ فمنذ إعلانها الخبرَ يوم الأحد نام في المنزل لكنه لم يُشارك في أيٍّ من نشاطات لاتشتس، وعبثًا حاولت بي التحدُّث إليه في غرفته في وقتٍ متأخِّر من مساء يوم الإثنين لكن دون جدوى.

لذا شعرت بارتياحٍ عندما عرضت إلينور أن تقود مسافة الأميال الأربعة إلى المحطة في جيسجيت وتأتي بباتريك.

كان العبء الجاثم على عقلها هو الغداء العائلي الذي سيُقام بعد وصوله. إذا لم يحضُر سايمون فكيف سيُبرَّر غيابه؟ وإذا حضر فكيف ستكون أجواء الغداء؟

نزلت لتُجري تدريبًا آخرَ مع الطاهي — كان ذلك هو ثالث طاهٍ لهم خلال الاثني عشر شهرًا الأخيرة — حينما كانت «مساعِدتُهم» لانا في انتظارها. قدِمت لانا من القرية، وكان لها شعر ذهبي وأظافر مطلية وتتألق بالنسخة المحلية من أحدث صيحات التجميل. لم تعمل في المنزل إلا لأن «صديقها» كان يعمل في الإسطبلات. كانت ستكنس وتزيل التراب، كما أوضحت عند مجيئها لأول مرة؛ لأن تلك المهام «لا بأس منها»، لكنها لن تُقدِّم الطعام لأن ذلك عملٌ «وضيع.» كانت بي تتمنَّى لو أخبرتها أن لا أحدَ له مثل يدَيها، أو نفسِها، أو رائحتها، أو تصرُّفاتها، سيُسمَح له بمناولة طبقٍ لأحد أفراد آشبي، لكنها تعلَّمت أن تكون دبلوماسية. فأوضحت لها أنه لا مجال، بأي حالٍ، أن تُقدِّم الطعام؛ فدائمًا ما يتناول آل آشبي طعامهم بأنفسهم.

كانت لانا قد جاءت لتُخبرها أن «المكنسة تلفظ الأتربة بدلًا من شفطها»، فتكالبت هموم الأعمال المنزلية مرةً أخرى على رأس بي وصارت غارقةً في مأساة مهامِّ المنزل. وقد ظهرت في الوقت المناسب لترى إلينور وهي تستقلُّ سيارتها الصغيرة ذات المقعدَين.

سألتها: «ألن تأخُذي السيارة؟» كان المقصود ب «السيارة» سيارة العائلة، أما سيارة إلينور البالية فكانت معروفة باسم «البرغوث».

أجابتها إلينور: «لا. سيكون عليه أن يتقبَّلنا كما نحن.»

لاحظت بي أنها لم تكلِّف نفسها عناءَ تغيير ملابسها لترتديَ فستانًا. كانت ترتدي السروال والواقي اللذَين ارتدتهما في الصباح.

قالت روث وهي تُسرِع الخُطى على الدَّرج متجهةً نحو السيارة: «مهلًا، خُذيني معكِ، خُذيني معكِ!» لكن بي لاحظت مدى حِرصها على إبعاد «فستانها الأزرق» عن الهيكل المعدني للبرغوث الذي يكسوه الغبار.

قالت إلينور بحزمٍ: «لا.»

«أنا متأكدة أنه سيُحب وجودي هناك. أقصد وجودَ واحد من جيلي. فهو يعرفك على أي حال. ولن يجدَ أيَّ إثارة في أن يراكِ على النحو الذي يفترض أن يراكِ به ...»

«لا. وابتعدي إذا كنتِ تريدين ألا يتَّسخ ثوبك الرائع.»

قالت روث، وهي تنفض الغبار عن كفَّيها بينما كانت تُراقِب السيارة وهي تتوارى بين أشجار الليمون: «أرى حقًّا أنها أنانية من إلينور. تريد أن تنفرد بالإثارة لنفسها.»

«هذا هراء. كان الاتفاق أن تنتظري أنت وجين هنا. أين جين، بالمناسبة؟»

«في الإسطبل، على ما أظن. ليست عابئةً بأمر باتريك.»

«آمُل أن تأتيَ في الموعد المناسب لتَحضُر الغداء.»

«ستفعل. ربما لا تكون مهتمةً بأمر باتريك، لكنها مستعدة دائمًا لتناول طعامها. هل سيكون سايمون موجودًا على الغداء؟»

«أتمنى ذلك.»

«تُرى ماذا سيقول لباتريك؟»

إذا كانت أجواء الهدوء والسعادة التي تنعم بها لاتشتس ستتبدَّد لتُصبح أجواء من الخلاف والتشاحُن، فلا بد أن تذهب الأختان التوءمتان إلى المدرسة. كانتا ستذهبان إلى المدرسة خلال عامٍ أو عامين، على أي حال؛ فكان من الأفضل لهما الذهاب الآن عن العيش في جوٍّ يملؤه التوتر والكراهية.

سألت روث في أمل: «هل تعتقدين أن ثمة ضجة ستحدُث؟»

«بالطبع لا يا روث. أتمنى ألا تُهَوِّلي الأمور.»

لكنها تمنَّت أيضًا لو أن بوسعها التأكد من عدم حدوث أي ضجة. وكانت إلينور وهي في طريقها إلى المحطة تتمنَّى الشيء نفسه. كانت متوترة نوعًا ما من لقاء هذا الأخ الجديد، وانزعجت من نفسها لتوترها ذاك. كانت ملابسها العادية التي ترتديها هي طريقتها في الاعتراض على شعورها بالحماسة والإثارة؛ كانت بمثابة ادعاءٍ بأن لا شيء في الوقت الحالي على وشْك الحدوث.

كانت جيسجيت، التي تخدُم ثلاث قرى دون المدن، محطَّة صغيرة على جانب الطريق تشغلها أنشطة تجارية بها نشاط تجاري يعتمِد على السلع الثقيلة إلى حدٍّ ما، لكن حركة الركَّاب فيها كانت محدودة؛ لذا حينما نزل برات من عربته لم يكن على الرصيف سوى سيدة ريفية بدينة، وحمَّال يتصبَّب عَرقًا، ومُحصل التذاكر، وإلينور.

قالت: «مرحبًا. تُشبه سايمون كثيرًا.» ثم صافحَتْه باليد. لاحظ أنها لا تضع أيَّ مساحيق تجميل. إلا من قليلٍ من بودرة إخفاء النَّمش تناثرت على قصبة أنفها.

قال وقد تعرَّفها: «إلينور.»

«أجل. ماذا عن أمتعتك؟ ليس معي إلا السيارة الصغيرة لكن المقعدَ الخلفيَّ يتَّسع لأغراضٍ كثيرة إلى حدٍّ كبير.»

فقال: «لا أحمل سوى هذه»، مُشيرًا إلى «حقيبته.»

«هل ستأتي بقية الأمتعة في وقتٍ لاحق؟»

«لا، هذا كلُّ ما أمتلكه.»

ابتسمت ابتسامةً خفيفة وقالت: «لا عليك. لا يُوجَد طحالب.»

قال: «لا يُوجَد طحالب»، وبدأ يُعجَب بها كثيرًا.

«السيارة بالخارج في الباحة. من هذا الطريق.»

قال مُحصِّل التذاكر، وهو يقبل تذكرته: «هل كنت بالخارج يا سيد آشبي؟»

«نعم، كنت بالخارج.»

عند سماع صوته رفع محصل التذاكر بصرَه حائرًا.

قالت إلينور عندما استقلَّا السيارة: «لقد حسبتُك سايمون»؛ ثم ابتسمت ابتسامةً عريضة. كانت سنَّاها الأماميَّتان بارزتَين قليلًا، ما أضفى على وجهها طفوليةً مُحبَّبة. كان وجهها لطيفًا، وعنيدًا، وصغيرًا عندما تكون جادة. قالت وهما يمشيان على حصى باحة المحطة ويفران إلى المناطق الخضراء: «لا يُوجَد وقت من العام أفضل من ذلك للعودة إلى الوطن.»

جال بخاطره: «وطن». كان شعرها له لون الذُّرة الشديدة النضج حتى إنه كاد يبدو أبيضَ. كان فاتحًا، ذا ملمسٍ حريري، وجميلًا للغاية. كان مُصففًا إلى الوراء في شكل عقدة، وكأنها لم يكن بوسعها أن تُكلف نفسها عناء تصفيفه بأي شكلٍ آخر.

«الأزهار بدأت تتفتح. والمهور البكر هنا.»

كانت رُكبتاها في الثياب ذات القماش المُضلَّع المهترئ تشبهان ركبتَي صبي. لكنَّ الذراعَين العاريتَين البارزتَين من المعطف، الذي كانت ترتديه وكان متدليًا فوق كتفَيها، كانتا مُستديرتَين بنعومة.

«هَنِي لها مُهرة سيُسجِّلها التاريخ. انتظر حتى تراها. لن تعرف «هَنِي» بالطبع. لم تكن موجودة قبل رحيلك. اسمُها الحقيقي «جريك هَنِي». جاءت من جبال الهيميتوس من فرسٍ تُدعى «ماني فور جام». آمُل أن تحوز خيولنا إعجابَك.»

قال: «أتوقَّع ذلك.»

«تقول العمَّة بي إنك لا تزال مُهتمًّا بها. أقصد بالخيول.»

«لمْ أمارس جانب التربية كثيرًا بالطبع. كنتُ أُعِدُّها فحسب للعمل.»

وصلا إلى القرية.

كانت هذه كلير. هذا الكيان الدافئ المُبهج النابض بالحياة الذي كانت تُمثِّله المساحات المربَّعة الأفقية الصغيرة على الخريطة. هناك كان فندق وايت هارت؛ وهناك حانة بيل. أما في الخلف فهناك، على تلِّها، الكنيسة المُعلَّق فيها ألواح آشبي التذكارية.

قالت إلينور: «القرية تبدو جميلة، أليس كذلك؟ لم تتغيَّر ولو قليلًا حسبما أتذكَّر. لم تتغيَّر منذ زمن الفيضان، إن جاز القول. أسماء الناس المُدوَّنة على المنازل تسير على الترتيب نفسه إلى آخر الشارع كما كانت في عهد ريتشارد الثاني. لكنك تعرف ذلك بالطبع! ما زلت أحسبك زائرًا.»

كان يعرف أن خلف القرية تقع البوابات الضخمة لحديقة كلير. انتظر، في فضولٍ نوعًا ما، حتى يرى المدخل المؤدي للبيت الذي كان ملكًا لأليك لودينج. تبين أنه مُنحنٍ عريض من الزخارف الحديدية المُفرغة يحدُّه على الجانبَين عمودان ضخمان يحمل كلٌّ منهما أسدًا رافعًا قدمه الأمامية. وعلى جانب الأسد الأبعد كان هناك صبيٌّ صغير يرتدي دثارًا من جلد النمر له حدود خضراء من الجوخ الأخضر، ودلو بحر ارتداه كأنه خوذة، ولم يظهر أي شيء آخر. وكان هناك قضيب نُحاسي طويل للغاية يقف مُتخذًا وضعيةَ الرمح من مسنده على قدمه الحافية.

قالت إلينور: «لا بأس. لقد رأيتها.»

«ذلك يُريحني كثيرًا.»

«هل عرفت أن منزل كلير صار مدرسة حاليًّا؟»

كاد يجيب بنعم، حينما تذكَّر أن هذا الأمر كان مجرد أحد الأمور التي أخبره بها لودينج، وليس أحد الأمور التي من المُفترض أن يكون على علمٍ بها.

«أي نوعٍ من المدارس؟»

«مدرسةٌ للمراوغين.»

«للمراوغين؟»

«أجل. أي شخصٍ يكره العمل بجدٍّ وله أب يمتلك ما يكفي من المال لدفع المصروفات يسرع مباشرة وفورًا إلى كلير. لا أحد يُجبَر على تعلُّم أي شيءٍ في كلير. ولا حتى جدول الضرب. الفكرة أنك يومًا ما ستشعر بالحاجة إلى جدول الضرب وستُسيطر عليك رغبة جامحة في تعلُّم جدول ضرب العدد تسعة. الأمر بالطبع لا يسير كذلك مطلقًا.»

«صحيح؟»

«بالطبع لا. ليس لأحدٍ يتهرب من جدول العدد تسعة أن يحلُم بأن يتعلَّمه بمحض إرادته.»

«إذا كانوا لا يتلقَّون دروسًا، فماذا يفعلون طوال اليوم؟»

«يُعبِّرون عن شخصياتهم. يرسمون أشياء؛ أو يصنعون أشياء؛ أو يقومون بطلاء استراحة الطريق؛ أو يتنكَّرون مثل أنتوني توسيلي. ذلك الصبي الذي عند الأسد هو توني. لقد درَّبت بعضهم على ركوب الخيل. فهم يُحبون ذلك. أقصد ركوب الخيل. أظن أنهم يشعرون بملل شديد من الأشياء السهلة لدرجةِ أنهم ينبهرون بأي شيءٍ يجدونه أصعب قليلًا. لكن لا بد أن يكون شيئًا خارجًا عن المألوف بالطبع. أقصد الشيء الصعب. إذا كانت صعوبته من النوع الذي يُفترَض أن يتغلب عليها الجميع، فلن يُثير اهتمامهم. فهذا من شأنه أن ينحدِر بهم إلى المستوى العادي لك ولي. ولن يُصبحوا «مميزين» بعد الآن.»

«أشخاص لطفاء.»

«إنهم يُدرُّون أرباحًا مجزية للاتشتس، على أي حال. وها هي ذي لاتشتس.»

قفز قلب برات في حلقه. اتجهت إلينور ببطءٍ نحو المدخل الأبيض بين أشجار الليمون.

وحسنًا فعلت أن كانت تسير ببطء؛ إذ لم تكد تدخل الممرَّ الأخضر حتى اندفع من بين سيقان الشجر شيءٌ أشبه بفراشة زرقاء عملاقة أخذت تتراقَص بحركاتٍ جامحة أمام السيارة.

ضغطت إلينور على المكابح وأخذت تُطلق سِبابًا في آنٍ واحد.

صاحت الفراشة: «مرحبًا! مرحبًا!» وأخذت تتراقَص على الجانب الذي يجلس فيه برات في السيارة.

قالت إلينور: «أيتها المُغفَّلة الصغيرة. أنت تستحقِّين القتل. ألا تعرفين أنه ليس بوسع سائقٍ أن يرى بوضوح من ضوء الشمس عند دخوله الشارع؟»

«مرحبًا! مرحبًا يا باتريك! هذه أنا! روث. يسرُّني لقاؤك. أتيتُ لأركب معك. أعني إلى المنزل. هل لي أن أجلس على ركبتك؟ ليس هناك مُتَّسع في سيارة إلينور البشعة تلك، ولا أريد أن يتغضَّن فستاني. آمُل أن يُعجبك. لقد ارتديتُه خصيصى احتفالًا بعودتك. تبدو وسيمًا للغاية، أليس كذلك؟ هل أبدو كما توقَّعتني؟»

انتظرَتْ ردًّا على سؤالها، لهذا أجاب برات بأنه لم يكن قد فكَّر في ذلك حقًّا.

قالت روث، في ضيق شديد: «يا إلهي.» ثم قالت بنبرة توبيخ: «لقد كنا نفكر فيك. لم يتحدَّث أحدٌ عن أي شيءٍ آخر سواك لأيام.»

قال برات: «عظيم، عندما تهربين سنواتٍ وسنوات سيتحدث الناس عنك أنتِ ولا أحدَ سواك.»

قالت روث بقسوة: «لا ينبغي لي أن أتصوَّر ارتكاب أي شيءٍ بهذا الشذوذ.»

سألت إلينور: «أين سمعتِ تلك الكلمة؟»

«إنها كلمة دقيقة للغاية. السيدة بيك تستخدِمها.»

شعر برات بأنَّ عليه أن يُلقيَ معلومة تتعلق بشيءٍ من المكان لإضفاء المصداقية بقوله: «كيف حال أسرة بيك، بالمناسبة؟» لكن لم يكن لدَيه أي استعدادٍ لأي تحايُل أو خداع. فقد كان في انتظار اللحظة التي تنحسر فيها أشجار الليمون ويرى فيها لاتشتس.

في انتظار اللحظة التي سيُصبح فيها وجهًا لوجهٍ أمام «توءمه.»

سمع روث تقول: «سايمون لم يَعُد حتى الآن»، ورآها تنظر شزرًا إلى إلينور. كانت صدمته من تلك النظرة تفوق صدمته من المعلومة ذاتها.

إذن لم يكن سايمون ينتظر على عتبة الباب ليستقبله. لقد ذهب سايمون إلى مكانٍ ما والعائلة قلقة لغيابه.

كان أليك لودينج قد حرَّره من وهمِ أنه سيكون في انتظاره في لاتشتس مجموعةٌ من العامِلين الإقطاعيين، وأنه سيكون هناك صفٌّ من الخَدَم، يترأسهم رئيس الخدم سينزلون في ترتيبٍ صارم حتى أصغر خادمة، للترحيب بالسيد الصغير في منزل الأسلاف. فتلك المراسم تبدَّدت سريعًا، على حد قول لودينج، ولاتشتس لم يكن لديها يومًا رئيسٌ للخدم على أي حال. كان قد عرف أيضًا أنه لن يكون هناك أي حشدٍ من الأقارب. فوالد الأطفال كان ابنًا وحيدًا وله أخت واحدة، وهي العمة بي. ووالدة الأطفال كانت ابنة وحيدة أيضًا وكان لها أخوان: كلاهما قُتل على يد الألمان قبل أن يبلغا العشرين من عمرهما. كان القريب المقرب الوحيد لعائلة آشبي هو العم الأكبر تشارلز، الذي أخبره لودينج بأنه في تلك اللحظة يقترب من سنغافورة.

لكن لم يخطر له أن جميع أفراد آشبي المتبقِّين ربما لن يكونوا هناك. ولم يخطر له أنه ربما قد يكون هناك معارضون لوجوده. فالارتياح الذي بعثَه لقاؤه مع إلينور في نفسه خدعَه. بعبارة مجازية، وضع يدَيه على اللجام الذي كان يلتفُّ حول رقبته ويسيطر على الموقف.

خرجت السيارة مسرعة من المساحة الخضراء الزاهية الضيقة من الشارع لتدخل إلى النطاق الفسيح أمام المنزل، وهناك في ضوء الشمس الشديد المتوهِّج وقف منزل لاتشتس؛ كان منزلًا في غاية الهدوء، في غاية الود، في غاية الشموخ. كانت الواجهة ذات الجملون للمبنى الأصلي قد تغيَّرت من قِبل أحد أفراد عائلة آشبي من القرن الثامن عشر لتُواكب

الزمن، ولم يتبقَّ من ملامحه التي تعكس عمره وأصله سوى السطح المُغطَّى بالقرميد. بُني المنزل في أواخر عهد الملكة إليزابيث، وصار الآن يتَّخِذ طراز «الملكة آن» على استحياء. وقف المنزل هناك على أرضه العشبية، بلا أي زخارف قانعًا بحاله؛ لم يكن بحاجةٍ إلى حديقة لتعزيز جماله. فقد كانت أزهار نباتات الحديقة الصغيرة تملأ قلبها امتدادًا إلى المنزل نفسه، وزراعة أي نباتات أخرى كان سيُصبح ضربًا من التكرار لا حاجة له.

بينما كانت إلينور تنعطف بالسيارة في اتجاه المنزل، رأى برات بياتريس آشبي تخرج إلى عتبة الباب، فتملَّكه خوف مفاجئ؛ رغبة جنونية في أن يبُوحَ بالحقيقة إليها ويتراجع فورًا؛ قبل أن يضع قدمَه على عتبة الباب؛ وقبل أن يُصبح «داخل» المشهد فعليًّا. سيكون مشهدًا صعبًا وغريبًا إلى درجةٍ بغيضة ولم يكن لدَيه أدنى فكرة كيف سيؤدِّيه.

كانت روث مَن أنقذته من أسوأ اللحظات المُحرجة. فقبل أن تتوقَّف السيارة كانت تزفُّ انتصارها إلى العالَم، ومن ثَم جاء قدوم برات نوعًا ما في مرتبةٍ ثانية بعد إنجازها.

«قابلتُهُ في النهاية يا عمة بي! قابلتُهُ في النهاية. أتيتُ من البوابة معهما. أنتِ لا تُمانعين، صحيح؟ تمشَّيتُ فحسب إلى البوابة وعندما وصلتُ هناك رأيتهما قادِمَين، فتوقَّفا وأوصلاني وها نحن أولاء هنا وقابلتُه في النهاية.»

علَّقت ذراعَها في ذراع برات ثم نزلت معه من السيارة بخُطًى مُتعثرة وهي تسحبُه وراءها وكأنه اكتشافٌ خاصٌّ بها. وهكذا حيَّا برات وبي بعضهما بعضًا بلا مبالاة متبادلة بهذا التعارف. اجتمع شملهم في تلك اللحظة في بهجةٍ يُرثى لها، ومع انتهاء تلك البهجة انتهت اللحظة أيضًا.

قبل أن يعودَ طوفان الحرج ليغمره، ظهر شيءٌ ثانٍ شتَّتَ الانتباه. كانت جين على مقربةٍ شديدة من المنزل مُمتطيةً حصانها فوربوستر في طريقها إلى الإسطبلات. وكان توقُّف يديها المفاجئ على اللجام حينما رأت الجَمْع المُحتشِد عند الباب دليلًا على أنها لم تكن تنتوي أن تكون واحدةً من ذلك الجمع. لكن فات أوان التراجُع، حتى لو كان التراجُع ممكنًا. فلم يكن من الممكن أبدًا الابتعاد عن أي شيءٍ قد يُبدي فوربوستر اهتمامًا به؛ لم يكن له صوت لكن كان لديه فضول لا يُشبَع. لذا تقدَّمت جين المتردِّدة على ظهر مُهر يطغى عليه اهتمامٌ شديد. وعندما توقَّف فوربوستر انزلقت من فوق ظهره بهدوء وكياسة على الأرض ووقفت هناك في خجل وتحفُّظ عدائي. حين قدَّمتها بي وضعت يدَها الصغيرة الضعيفة في يد برات وبعد لحظة سحبتَها.

سأل برات، مُدركًا نفورها: «ما اسم مُهرِك؟»

قالت روث، مستحوذةً على مُهر جين: «هذا فوربوستر. يُسمِّيه القس إيكوين أومنيباص.»

مدَّ برات يده إلى المهر، الذي أبدى رفضه لمحاولة تقرُّب برات بالانسحاب خطوةً إلى الوراء والنظر باحتقارٍ من أسفل أنفه الروماني. كانت إيماءةً فكاهية بحتة؛ فهي إيماءةُ رفضٍ مأخوذة من الدراما الفيكتورية.

علَّق برات: «كم هو مضحك»؛ فضحكت بي، التي سرَّها فهْمه لما فعله المهر.

قالت جين، بأسلوب رادع نوعًا ما ودفاعي نوعًا ما عن صديقها: «هو لا يحب الناس.»

ولكن برات أبقى يدَه ممدودة، وفي تلك اللحظة طغى فضول فوربوستر على موقفه المتحفظ فخفض رأسه إلى اليد المُنتظِرة. أولاه برات الكثيرَ من الاهتمام، حتى استسلم فوربوستر تمامًا وداعبه بأنفه بمرحٍ كمرح الأفيال.

قالت روث، وهي تُراقبه: «عظيم! إنه لا يفعل ذلك مع أحد قط!»

خفض برات بصرَه إلى الوجهِ المتوتر الصغير الذي يقف بجانب مرفقه، وإلى اليدين المُتَّسِختَين الصغيرتَين المُتشبثتَين باللجام بكل قوة.

قال: «أتوقَّع أنه يفعل ذلك مع جين حين لا يُوجَد أحد في المكان.»

قالت بي: «جين، حان الوقت الذي كنتِ تُنظفِّين فيه نفسك من أجل الغداء»، ثم استدارت لتتقدَّم الطريقَ إلى الداخل.

وتبِعها برات إلى داخل المنزل.

الفصل الثاني عشر

قالت بي: «لقد خصصتُ لك غرفة الأطفال القديمة. آمُل ألا تُمانع ذلك. يُقيم سايمون في الغرفة التي كان يتشاركها مع ... التي كنتَ تتشاركها معه.» يا إلهي، يا لها من زلة، هكذا فكَّرت؛ هل سأقدِر يومًا ما على التفكير فيه بصفته باتريك؟ «وإعطاؤك إحدى غرف الضيوف كان يعني مُعاملتك كزائر.»

قال برات إنه سيسعده الإقامة في غرفة الأطفال.

«هل ستصعد الآن، أم ستتناول مشروبًا أولًا؟»

قال برات: «سأصعد الآن.» ثم استدار مُتوجهًا نحو السُّلَّم.

كان يعلم أنها تنتظر هذه اللحظة؛ تنتظر اللحظة التي لا بد أن يُظهِر فيها معرفته بالمنزل. لهذا انصرف عنها واتجه نحو السُّلَّم؛ صعد إلى بسطة السُّلَّم الأولى الكبيرة، ثم اتجه إلى الممرِّ الضيق المؤدِّي إلى الجناح الشمالي، ثم إلى غرف الأطفال المُواجِهة لغرب الجناح. فتح الباب الثالث ضمن أربعة أبواب ووقف في الغرفة التي كانت نورا آشبي قد أعدتها للأطفال عندما كانوا صغارًا. كانت إحدى النوافذ تُطلُّ على الغرب على إسطبلات الخيول، والأخرى تطلُّ على الشمال على قمة التل. كانت الغرفة في الجانب الهادئ من المنزل، بعيدًا عن الإسطبلات والمدخل المؤدي إلى المنزل من الطريق. وقف عند النافذة يتطلَّع إلى زرقة السماء الإنجليزية الناعمة، ويُفكِّر في الجبال المُذهلة القابعة وراء الغبار المُنتشِر في الغرب، وكان يعي تمامًا أن بي آشبي تقف وراءه.

ثمة شيء آخَر كان لا بد أن يُبادر بشأنه.

قال: «أين سايمون؟» والتفت إليها ليكون في مواجهتها.

أجابته: «مثل جين. يتأخَّر على موعد الغداء. لكنه سيحضُر في أي لحظة.»

مرَّ الموقف بسلام، لكنه لاحظ خجلَها من سؤاله المفاجئ، وكأنه ضربها بسوط. لم يأتِ سايمون لمقابلته؛ لم يكن سايمون موجودًا في لاتشتس ليستقبله؛ سايمون شخص صعب المِراس، هكذا استنتج.

وقبل أن يتمكَّن من استكمال الموضوع أخذت منه زمام المبادرة.

«يمكنك الانفراد بحمَّام غرفة الأطفال كله لنفسك، لكن أيمكنك أن تكون رشيدًا في استخدام الماء الساخن؟ فالوقود مشكلة مريعة. والآن اغتسِل وانزل في الحال. لقد أرسلت أسرةُ بيك بعضًا من شراب الشيري من منزل القس.»

«ألن يأتوا إلى الغداء؟»

«لا، سيأتون إلى العشاء الليلة. الغداء يقتصر على الأسرة فقط.»

راقبته وهو يتَّجِه إلى الباب الرابع، الذي كان يعرف أنه باب حمَّام جناح الأطفال، ثم انصرفت وقد بدا عليها الارتياح. كان يعرف سببَ ارتياحها: لأنه عرف طريقَه عبْر أرجاء المنزل. وشعر بالذنب وعدم الارتياح. فخداع السيد ساندال — في وجود مُستشار للملك جالس في الجهة المقابلة له يتفحَّصه بعينَين أيرلنديتَين مُتشكِّكتَين — كان شيئًا مُختلفًا؛ كان خداع السيد ساندال أمرًا مُمتعًا. أما خداع بي آشبي فكان شيئًا آخر تمامًا.

اغتسل في شرود، مُقلِّبًا الصابون بين يدَيه وعيناه مُستغرقتان في تخيُّل المستقبل. هناك كان المرْج الأخضر الذي أراد امتطاء الخيل عليه؛ المرْج الأخضر الذي باع نفسه من أجله. الآن سيأتي بخيلٍ ويذهب إلى هناك ويمتطيه في هذه الأجواء الهادئة، بعيدًا عن العلاقات الإنسانية، ولعبة المقامرة البشرية الغريبة الأطوار هذه، وهناك سيبدو الأمر مرةً أخرى مشروعًا ويستحقُّ العناء.

عاد إلى غرفته فوجد فتاةً شقراء جريئة ذات زينة صارخة ترتدي ثوبًا حريريًّا ضيقًا منقوشًا بالورود تُشذِّب زهور المنثور في وعاء على عتبة النافذة.

قالت الشقراء: «مرحبًا. مرحبًا بعودتك إلى المنزل، وكل هذه الأشياء.»

قال برات: «شكرًا.» أكانت هذه الفتاة شخصًا من المُفترَض أنه يعرفه؟ بالطبع لا!

«تُشبِه أخاك كثيرًا، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك.» أخرج فُرَشَهُ من «حقيبته» ثم وضعَها على المزينة؛ في دلالةٍ رمزية على التملُّك.

«لن تعرفني بالتأكيد. أنا لانا آدامز من القرية. كان آدامز النجار والدي. أساعد في أعمال المنزل؛ لأن صديقي يعمل في الإسطبل.»

إذن هذه الفتاة كما اعتقد: الخادمة. نظر إليها وشعر بالأسف على صديقها.

«تبدو أكبر كثيرًا من أخيك، أليس كذلك؟ أعتقد أن السفر حول العالَم هو ما تسبَّب في ذلك. عليك أن تهتمَّ بنفسك، وكل هذه الأشياء. ولا تكن مُدللًا مثل أخيك. ستعذُرني لقول ذلك لكنه مُدلل. لهذا أثار كلَّ هذه الضجة حول عودتك. أرى هذا سخفًا. ليس على المرء سوى النظر إليك ليعرف أنك من عائلة آشبي. أعتقد أنه لا مجال لادعاء أنك لستَ منهم. لكن خُذ بنصيحتي وقِف في وجهه. فهو لا يمكنه احتمال أن يتصدَّى أحدٌ له. لقد كان مُدللًا طوال حياته، أؤكد لك. لا تدَع ذلك يُحبطك.»

وبينما كان برات يتابع إفراغ حقيبتِه مُلتزمًا الصمت، توقَّفت، وقبل أن تتمكَّن من المواصلة جاء صوت إلينور الهادئ من المدخل قائلًا:

«هل أحضروا لك كل ما تريد؟»

قالت الشقراء على عجلٍ: «كنتُ أُرحِّب بعودة السيد باتريك فحسب»، وبعد أن رَمَت برات بابتسامةٍ مشرقة، خرجت من الغرفة بحركةٍ سريعة رشيقة.

تساءل برات في نفسه إلى أي مدًى سمِعت إلينور ما قيل.

قالت إلينور: «غرفة لطيفة، فيما عدا أن شمس الصباح لا تصِل إليها. ذلك السرير من كلير بارك. باعت العمَّة بي الأسِرَّة الصغيرة واشترت ذلك السرير في مزاد كلير. إنه لطيف، أليس كذلك؟ إنه السرير الذي كان في غرفة أليك ليدينهام. فيما عدا ذلك فالغرفة كما هي لم يتغيَّر فيها شيء.»

«أجل؛ وورق الحائط القديم، كما ألاحظ.»

«روبنسون كروزو والرفاق. نعم. كنتُ مغرمةً بشدة بشخصية هيروارد اليقظ. كانت له ملامحُ جذابة.» وأشارت إلى مكان هيروارد في نقوش الأبطال الخياليِّين التي كانت نورا قد اختارتها لتسلية أطفالها ليلًا.

«ألا تزال ورقة أغاني الأطفال في الغرفة المجاورة؟»

«نعم، بالتأكيد. تعالَ وانظر بنفسك.»

ذهب معها، لكن بينما كانت تسرُد القصص المصوَّرة كان عقله منشغلًا بما باحت به الفتاة القروية عن سايمون ومفارقة أنه سينام في فراش أليك لودينج.

إذن كان سايمون يرفض تصديقَ أنه باتريك. «أرى أنه لا مجال للادِّعاء بأنك لستَ منهم.» لم يكن ذلك ليعني غير أن سايمون، بالرغم من كل الأدلة، رفض أن يتقبَّله.

لِمَ؟

تبِع إلينور إلى الطابَق السفلي، وهو لا يزال غارقًا في تساؤلاته.

قادته إلينور إلى غرفة جلوس كبيرة مُشمِسة حيث كانت بي تصبُّ الشيري، وروث تختار لحنًا لتعزفه على البيانو.

سألت روث، كالعادة: «هل تودُّ سماعي وأنا أعزف؟»

قالت إلينور: «لا، لا يود.» ثم قالت لبي: «كنَّا ننظر في ورق الحائط القديم. كنت قد نسِيت كم كنتُ شغوفة بهيروارد. من الجيد أني خُلِّصت منه في الوقت المناسِب وإلا ربما كان سيُصبح مصدرَ هوسٍ أو شيئًا من هذا القبيل.»

قالت روث: «لم تُعجبني قط رسومات الأطفال تلك التي على الجدران.»

قالت إلينور: «أنت لا تقرئين أبدًا؛ ولذلك لم يكن بإمكانك معرفة أي شيءٍ عنهم.»

قالت بي: «توقَّفْنا عن استخدام جناح الأطفال حين توقفنا عن الاستعانة بمُربية للتوءمين. لقد كان بعيدًا جدًّا عن بقية المنزل.»

قالت إلينور: «كان الأمر يستغرق مسيرةَ يومٍ للنداء على التوءم في الصباح؛ ولأن روث كانت تحتاج دائمًا إلى النداء عليها عدة مرات، كان علينا أن ننقلهما إلى مُحيط الأسرة الطبيعي.»

قالت روث: «الأشخاص الضعفاء البنية يحتاجون إلى النوم وقتًا أطول.»

سألت إلينور: «ومنذ متى كنتِ ضعيفة البنية؟»

فأجابت مُستعطفة جين: «المسألة ليست أنني ضعيفة البنية إنما جين هي التي تتمتَّع بقوة أكبر، أليس كذلك يا جين؟» كانت جين قد تسلَّلت إلى داخل الغرفة، والشَّعر على صدغَيها لا يزال مُبتلًّا من اغتسالها السريع.

لكن عيني جين كانتا على بي.

قالت بصوتٍ خافت: «سايمون هنا»؛ ثم قطعت الغرفةَ لتقف بجانب بي وكأنها تطمئنها.

سادت لحظة من الصمت التام. وفي اللحظة التي توقَّفت فيها الحركة لم يتحرك سوى روث. اعتدلت روث في جِلستها في ترقُّب شديد.

ثم تحرَّكت يد بي مرةً أخرى وواصلت ملء الكئوس. قالت: «هذا خبر سارٌّ كثيرًا. لن نحتاج إلى الاحتفاظ ببعض الغداء جانبًا.»

حُبِك الموقفُ بأسلوبٍ بارع لدرجة أن برات، على معرفته بما يعرفه في تلك اللحظة، شعر برغبة في التصفيق على سبيل الإشادة.

سألت إلينور بغير اهتمام: «أين سايمون؟»

فأجابت جين: «كان في طريقه إلى الطابق السفلي.» ثم عادت عيناها إلى بي.

انفتح الباب ودخل سايمون آشبي.

توقَّف للحظة، قبل أن يغلق الباب وراءه، ناظرًا إلى الجهة المقابلة نحو برات. وقال: «ها قد أتيت.»

لم تكن كلماتُه تحمل أيَّ تشديد، ولم يكن في نبرة صوته أي عاطفة واضحة.

سار ببطءٍ عبْر الغرفة إلى أن أصبح وجهًا لوجه أمام برات بجوار النافذة. كانت له عينان رماديَّتان بارزتان على نحوٍ غير عاديٍّ وإطارٍ أغمق يُحيط بقزحية عينَيه، لكن كانتا خاليتَين من أي تعبير. ولم تكن ملامحه الشاحبة تعكس أيَّ تعبير أيضًا. رأى برات أنه كان أشبَهَ بوترٍ مشدودٍ تمامًا، حتى إنك إذا نقرتَهُ بإصبعك اهتز.

ثم وعلى نحوٍ مُفاجئ تمامًا اختفى هذا الشد.

وقف وهلةً يتفرَّس في وجه برات، ثم ارتخت عضلات وجهه فجأةً في ارتياح الراحة.

قال في تشدُّق بعض الشيء: «أكانوا سيُخْفون عليك؟ لكني كنت مُستعدًّا لإنكار أنك باتريك حتى آخر نفس. والآن بعد أن رأيتك أتراجع عن كلِّ ما قلتُه. أنت باتريك بكل تأكيد. مرحبًا بعودتك.» ومدَّ يدَه إليه مصافحًا.

انكسر السكون وراءهما مُتحولًا إلى موجةٍ من الحركة والأصوات المتنافسة. ساد ضجيج يعجُّ بالتهاني المتبادَلة، ورنين الكئوس وأصوات الضحك. حتى روث كظمت خيبةَ أملها، على ما يبدو، لحرمانها من المشاركة في هذه الميلودراما، وكرَّست مواهبها للتملُّق والملاطفة من أجل انتزاع المزيد من الشيري في كأسها، بدلًا من «الرشفة» التي كانت هي نصيب التوءمتَين من أجل شُربٍ آمن على صحتهما.

لكن برات، الذي شرب النبيذَ وشكر الرب على انقضاء هذه اللحظة، كان متحيرًا. كان يفكر، لِمَ هذا «الارتياح»؟

ما الذي كان يتوقَّعه آشبي؟ ما الذي كان يخشاه؟

لقد كان يُنكر احتمالية أن يكون برات هو باتريك. أكان ذلك مجرد تحصينٍ ضد الأمل؛ وسيلة تأمين ضد خيبةِ أملٍ محتومة؟ هل حدَّث نفسه قائلًا: لن أُصدِّق أن باتريك على قيد الحياة، حتى، عندما يثبُت أنه ليس باتريك، لا أكونُ قد علقتُ أملًا على أي شيء؟ وهل كان هذا الارتياح الذي غمره منذ لحظة مضت لإدراكِه فحسب أنه باتريك في النهاية؟

لم يكن الموقف متسقًا.

راقب سايمون كونه نجم الحفل، واندهش لأمره. كان آشبي منذ لحظات قليلة متأهبًا بكل قواه لمواجهة أمرٍ ما، وفي تلك اللحظة بدا أنه … أنه قد أُعفي منه. هكذا كان الحال. كان ذلك هو سبب الارتياح المفاجئ الذي بدا عليه. ردُّ فعلِ شخصٍ متأهِّب لمواجهة الأسوأ وفجأةً انتابتْهُ راحة مؤقتة.

لماذا من المفترض أن يشعر بالراحة؟

أخذ اللغز الصغير معه إلى الغداء، وزجَّ به في مؤخرة عقله بينما كان يتعامَل مع المشكلات التي واجهته في الحديث مع عائلة آشبي ويُجيب عن أسئلتهم المتلاحِقة.

قال الصوت بداخله في نبرة انتصار ونشوة: «صرتَ واحدًا منهم! صرتَ واحدًا منهم! ها أنت ذا تجلس بموجب القانون على مائدة آل آشبي، وجميعهم في مُنتهى السعادة بذلك.»

حسنًا، ربما ليس جميعهم. كانت جين، المُخلصة إلى سايمون، كواحةٍ صغيرة هادئة وسط الحديث الدائر. ولم يكن متوقعًا أن سايمون نفسَه، رغم استسلامه، كان سعيدًا بأي قدْرٍ كبير. لكن بي، التي لم تتوقَّف البتة لتحليل هذا الاستسلام، كانت مُتهلِّلة، وإلينور كانت تتحوَّل لحظةً بعد لحظةٍ من إظهار الأدب أثناء الحوار إلى إبداء اهتمامٍ صريح.

«لكن لجام الكومانشي هو نوع من الزِّيار، أليس كذلك؟»

«لا؛ إنه مجرد مُباعد للفكَّين. يمر الحبل من الفم بالطريقة التي تُمرَّر بها الشكيمة. إنه الأفضل لخيول نقل البضائع. سيتبع خُطاك ليخفِّف من ضغط الشد.»

بعد أن صفحت عنه روث تمامًا لعدم تخمينه شكلَها، أولته تودُّدًا متواصلًا، وكانت الوحيدة التي تدعوه باسم باتريك.

أصبح هذا ملحوظًا أكثرَ مع مُضي فترة الغداء، وكان إقحامها المستمر لاسم «باتريك!» عندما كانت تسترعي انتباهه يتعارَض مع تجنُّب الآخرين شِبه الواعي لذكر اسمه. تمنَّى برات لو كان «المريد» الوحيد له هو جين وليس روث. لو كانت له أخت صغيرة لأحبَّها تمامًا كما أحبَّ جين. كان مُنزعجًا من الصعوبة التي يجدُها في الالتقاء بعينَي جين. وكان يتكبَّد من العناء في مقابلة التفاتها إليه باتزانٍ ما كان يتكبَّده في الالتقاء بالعينَين اللتَين في اللوحة القابعة وراءها. كانت جدران غرفة الطعام مُغطاةً فعليًّا باللوحات الشخصية، واللوحة التي كانت وراء جين كانت لويليام آشبي السابع، مُرتديًا زيَّ كتيبة الدفاع في جيش ويست أوفر، الذي اعتزم التصدي لغزو نابليون الأول مُرتديًّا إياه. كان برات قد حفظ تاريخَ تلك اللوحات عن ظهر قلب، وهو جالس تحت المعبد البوذي في حدائق كيو، وفي كل مرة يرفع

فيها عينَيه إلى لوحات ويليام آشبي السابع تلك، كان يُداهمه ذلك التصوُّر السخيف بأن ويليام على علمٍ بكل شيء عن المعبد البوذي.

غير أن شيئًا واحدًا ساعده كثيرًا في هذا اللقاء الأول الصعب مع عائلة آشبي. فالقصة التي كانت لدَيه ويرغب في سردِها عليهم، كما أشار له لودينج أثناء ذلك الغداء الذي جمعهما في فندق جرين مان، كانت حقيقية، فيما عدا بداياتها؛ فقد كانت قصة حياته الشخصية. ونظرًا لأن العائلة كلها بالإجماع تفادت أيَّ إشارةٍ إلى الأحداث التي دفعته دفعًا إلى تلك الحياة، كان أساس الحوار الذي سار عليه ثابتًا. ولم تكن ثمَّة حاجةٌ إلى تفادي شيء أو التحايل في شيء.

لم تكن ثمة حاجة كذلك إلى «الانتباه إلى سلوكياته»، وذلك ما أثنى عليه أليك لودينج ثناءً شديدًا أيضًا. فقد بدا أنه لم يكن هناك تدريب أكثر حزمًا على تحرِّي التهذُّب عند تناول الطعام مما كان يفترض أن يُوجَد في دار أيتام رفيعة المستوى، فيما عدا وجود مُربية من الطراز الأول وفي غاية الحزم. كان لودينج قد قال له: «يا إلهي، إذا كان لديَّ أي نقود مُتبقية من شراء دفعة من المشروبات، فسأرسلها إلى تلك الدار التي كنتَ تُقيم فيها، تعبيرًا عن امتناني لكونك لم تنشأ في واحدةٍ من الضواحي الأرستقراطية. فالأرستقراطية متأصِّلة فيك فعليًّا، يا بُني. ومهما كان ما يُحتمَل أن يفعله بات آشبي، فمن غير المُحتمَل تمامًا أنه كان يمدُّ إصبعه الصغير للأمام عندما يشرب.»

لذا لم يكن لدى برات أيُّ عادات اجتماعية ليتخلَّص منها. في الواقع، كانت استقامته الصارمة مُحبطة قليلًا لروث، التي كانت تبحث عن الشخص المُبهر اللافت للأنظار.

قالت: «أنت لا تأكل بشوكتك»؛ وعندما بدا حائرًا، أضافت قائلة: «بالطريقة التي يأكلون بها في الأفلام الأمريكية؛ فهم يقطعون الطعامَ بسكاكينهم وشوكهم ثم ينقلون الشوكة إلى اليد الأخرى ويأكلون بها.»

علَّق قائلًا: «ولا أمضغُ العلكة أيضًا.»

قالت بي: «أتعجَّب كيف نشأت تلك الطريقة المُعقَّدة كثيرًا للتعامُل مع طعامهم.»

قالت إلينور: «ربما أن السكاكين كانت نادرة في البدايات.»

قال سايمون: «كانت السكاكين ذات نفعٍ كبير لدرجةٍ يستحيل معها أن تكون نادرة في مجتمعٍ رائد. الاحتمال الأرجح أنهم عاشوا أمدًا طويلًا على الطعام المفروم، حتى إنهم حين أتاهم الطعام على هيئة شرائح حملتهم فِطرتهم على تقطيعها قِطَعًا صغيرة في أسرع وقتٍ ممكن.»

فكَّر برات، وهو ينصت إليهم، كيف أن كل ذلك ذو طابع إنجليزي أصيل. ها هو ذا عائد من الموت، وهم يناقشون آداب الطعام الأمريكي بكل هدوء. لم تكن هناك مساحة للمبالغة في اللطف، والإصرار على الحديث عن الموقف بتبادل التهاني كما قد يحدُث في منزلٍ عبر المحيط الأطلسي. لقد تحاشوا فكرةَ استرجاع الذكريات بالقدْر نفسه من التصميم الذي كان الأمريكيون سينغمسون فيه. وحين تذكَّر أصدقاءه من مزرعة ليزي واي، فكَّر كم كان سيصبح ذلك استعراضًا دقيقًا لعجرفة الإنجليز من وجهة نظر بيت، وهانك، وليفتي.

لكن ربما كانت السعادة التي على وجه بي ستثير إعجاب ليفتي كذلك.

سألت بي عندما صبَّت القهوة: «هل تدخن؟» ثم دفعت إليه بعلبة السجائر. لكن برات، الذي أعجبه الصنف الخاص بها، أخرج علبته وعرض محتوياتها عليها.

قالت بي: «أقلعت عنها. أصبح لديَّ رصيد في البنك عِوضًا عنها.»

وعرض العلبة كذلك على إلينور.

توقَّفت إلينور وأصابعها تلمس السجائر، ثم مالت إلى الأمام لتقرأ شيئًا كان محفورًا على العلبة من الداخل.

فقالت: «برات فارار. من ذاك؟»

قال برات: «أنا.»

«أنت؟ أوه، حسنًا؛ فارار بالطبع. لكن لماذا برات؟»

«لا أعرف.»

«أكانوا يدعونك كذلك؟ أقصد، برات؟»

«أجل.»

«لِمَ برات؟»

«لا أعرف. أظن لأنني كنت صغير الحجم.»

قالت روث في سرور: «برات! هل تُمانع أن أناديَك برات؟ هل تمانع؟»

«لا. لم أُنادَ بأي اسم آخَر على مدار أغلب حياتي.»

انفتح الباب وظهرت لانا لتُبلغهم بأن شابًّا قد جاء لمقابلة الآنسة آشبي وأنها استضافته في المكتبة.

قالت بي: «أُفٍّ، يا للإزعاج. ماذا يريد، هل تعرفين؟»

قالت لانا: «يقول إنه صحفي. لكن لا يبدو لي أنه صحفي. يبدو مهندمًا ونظيفًا ومهذبًا للغاية.» كانت خبرة لانا عن الصحافة، مثل معرفة برات بحياة الطبقة المتوسطة، مُستقاة من الأفلام فحسب.

قالت بي: «لا! ليست الصحافة. بالتأكيد ليست هي.»

«يقول إنه من صحيفة «ويست أوفر تايمز».»

«هل ذكر سبب مجيئه؟»

قالت لانا، موجهةً إبهامها في اتجاه باتريك: «جاء بخصوص السيد باتريك، بالطبع.»

تذمَّر سايمون مُمتعضًا: «يا إلهي، لم نهنأ بالاحتفال بعدُ. أظن أن هذه اللحظة كانت ستأتي حتمًا عاجلًا أم آجلًا!»

شربت بي ما تبقَّى من قهوتها. ثم قالت، وهي تمدُّ يدَها وتجذبه ليقف على قدمَيه: «هيا يا برات! ربما من الأفضل لنا أن نذهب وننهيَ الأمر. وأنت أيضًا يا سايمون.» تقدَّمت برات إلى خارجَ الغرفة، وهي تضحك عليه، ولا تزال يدُها في يده. بثَّت فيه الألفةُ الدافئة لقبضتها فورةً من شعور عجزَ عن تحديده. لم يكن كأيِّ شيءٍ شعر به حتى هذه المرحلة من حياته. وكان منشغلًا بأفكارٍ عن الصحفي لدرجةٍ منعتْه من التوقف لتحليل هذا الشعور الذي انتابه.

كانت المكتبة هي الغرفة المظلمة في الجانب الخلفي من المنزل حيث احتفظت بي بمكتبها ذي الغطاء المنزلق، ودفاتر حساباتها، ومراجعها. كان ثمَّة شابٌّ صغير يرتدي بذلةً زرقاء أنيقة يتأمل حائرًا في كتابٍ عن أنساب الخيول. عند دخولهما ألقى الكتاب وقال بلهجة جلاسجو العميقة: «آنسة آشبي؟ اسمي ماكالان. أعمل في صحيفة «ويست أوفر تايمز». أعتذِر بشدة عن المجيء هكذا من دون دعوة، لكني أظنُّ أنكم قد انتهيتم من تناول الطعام بعد مرور هذا الوقت الطويل.»

قالت بي: «حسنًا، بدأنا في وقتٍ متأخر، وأخشى أننا قضينا وقتًا طويلًا في بعض الأمور.»

قال السيد ماكالان بتفهُّم: «أجل. إنها مناسبة خاصة جدًّا. لا يحق لي أن أفسدها عليكم، لكن شعاري هو «أول مَن يجلب آخِر الأخبار»، وفي هذه اللحظة تحديدًا أنتم آخِر الأخبار.»

«أعتقد أنك تقصد عودة ابن أخي إلى المنزل.»

«بالضبط.»

«كيف علمتَ بالخبر بهذه السرعة يا سيد ماكالان؟»

«سمِع أحد معارفي بالخبر في إحدى حانات كلير.»

قالت بي: «كلمة بائسة.»

قال السيد ماكالان، متحيرًا: «أهي كلمة حانة؟»

«لا. معارف.»

قال السيد ماكالان بأسلوبٍ لطيف: «أخ، إذن، أحد عملائي، إذا كانت تلك الكلمة تروق لك أكثر. هل لي أن أسأل، أيٌّ من هذَين السيدَين الشابَّين هو الضال العائد؟»

قدَّمت بي برات وسايمون. كان شيء من التوتر المُمتزج بالفتور قد عاد إلى وجه سايمون؛ لكن برات، الذي كان موجودًا عندما قطع نات زوكو حلْقه في مطبخ مطعم زوجته السابقة وشهِد نشاطات الصحافة الأمريكية في ذلك الحدث، انبهر بهذه السرعة في جمعِ الأخبار في بريطانيا. أجاب عن الأسئلة البديهية التي طرحها عليه السيد ماكالان وتساءل إن كان هناك أي اقتراحٍ بالتقاط صورةٍ فوتوغرافية. وإذا كان هناك، فلا بد أن يتهرب من ذلك بطريقةٍ ما.

لكن بي هي مَن أنقذته من ذلك المأزق. غير مسموح بالتقاط صور، هكذا قالت بي. ممنوع التقاط أي صور منعًا باتًّا. كان مسموحًا بالإدلاء بجميع المعلومات التي أراد أن يسأل عنها، لكن الصور لم يكن مسموحًا بها.

تقبَّل السيد ماكالان هذا، ولكن على مضض. فقد تذمَّر قائلًا: «قصة التوءم المفقود ستكون أقل إثارة بكثيرٍ دون صورة فوتوغرافية.»

قالت بي: «لن تُطلِق على الخبر «التوءم المفقود»، أليس كذلك؟»

قال سايمون، متحدثًا لأول مرة: «لا؛ سيُطلَق عليه «العائد من الموت».» حلَّت كلماته المتشدقة على الغرفة كأنما ظلٌّ مظلِم قد حلَّ عليها.

اتجهت عينا السيد ماكالان الزرقاوان الفاتحتان نحوه، واستقرَّتا وهلةً عليه تتفرسانه بتمعُّن، ثم عادتا مرةً أخرى إلى بي. ثم قال: «فكَّرت في عنوان «حدث مُثير في كلير». لكنني قلِق من أن صحيفة «ويست أوفر تايمز» لن تتقبله. فهي جريدة محافظة للغاية. لكنني أتوقَّع أن جريدة «ديلي كلاريون» ستكون استجابتها أفضل.»

قالت بي: «صحيفة «كلاريون!» إحدى صحف لندن! لكن ... لكن آمُل ألا يكون ذلك واردًا. فهذا شأنٌ محلي تمامًا ... بل شأن عائلي كليًّا.»

قال السيد ماكالان: «هكذا كانت القضية التي وقعت في شارع هيلدروب كريسنت.»

«أيُّ قضية؟»

«كان يطلَق عليها قضية كريبن. صحافة العالَم قائمة على القضايا الأُسرية يا آنسة آشبي.»

«لكن هذه المسألة ليست مثارَ اهتمامٍ مُحتمَل لأي شخصٍ آخر سوانا. عندما اختفى ابن أخي، منذ ثماني سنوات، ذكرت صحيفة «ويست أوفر تايمز» الخبرَ على نحوٍ عارض تمامًا.»

«أجل، أعرف. بحثت عنه. فقرة صغيرة في نهاية الصفحة الثالثة.»

«أعجز عن تبيُّن السببِ في أن تحظى عودةُ ابن أخي بأي اهتمامٍ أكثر من اختفائه.»

«إنها الإثارة مرة أخرى. الناس يرحلون عن الدنيا كلَّ يوم، لكن عددَ مَن يعودون من الموت ضئيل حقًّا يا آنسة آشبي. لا تزال العودة من الموت، رغم تقدُّم العلم الحديث، حدثًا مثيرًا. ولهذا السبب ستُبدي صحيفة «ديلي كلاريون» اهتمامًا به.»

«لكن كيف سمعوا بالخبر؟»

قال السيد ماكالان بذُعر حقيقي: «سمِع بالخبر! آنسة آشبي، هذا سبْقي الصحفي، ألا ترين ذلك.»

«أتقصد أنك ستُرسِل القصة إلى صحيفة «كلاريون»؟»

«من دون شك.»

«سيد ماكالان، يجب ألا تفعل ذلك؛ يجب ألا تفعل ذلك حقًّا.»

قال السيد ماكالان في صبر: «اسمعي يا آنسة آشبي. لقد وافقتُ على منع التصوير، وسأحترم الاتفاق؛ فلن أتسلَّل إلى الريف لأحاول التقاطَ صورٍ للشابَّين في غفلةٍ منهما، أو أي شيءٍ من هذا القبيل، لكن لا يُمكنكِ أن تَطلُبي منِّي التنازل عن سبْقٍ صحفي مثل هذا. لا يمكن أن أترك سبْقًا صحفيًّا يليق له أن يتصدر«صحيفة يومية في لندن».» وبينما كانت بي مترددة، مُحاصرة في شِراك رغبتها الفطرية في أن تكون منصفة، أضاف قائلًا: «حتى لو لم أرسل القصة إليهم، لا شيء سيمنع مساعد محرر من سرقة القصة من صحيفة «ويست أوفر تايمز» ليجعلها خبرًا في صدر الصفحة الأولى. ولن يكون الموقف أفضلَ بالنسبة إليك بأي حال، ولكنني سأخسر فرصتي في أن أفعل شيئًا جيدًا لنفسي.»

قالت بي في إقرار ضمني بأنه على حق: «عزيزي، أعتقد أن ذلك يعني وفود جحافل من رجال الصحافة من لندن.»

«أوه، لا. ليس سوى صحيفة «كلاريون». إذا كان الخبر يخص صحيفة «كلاريون»، فلن يزعجك أيٌّ من الصحف الأخرى. فجميعهم رجال باليول كوليدج، حسب علمي.»

بهذه الملاحظة الساخرة على الصحافة الإنجليزية، بحث السيد ماكالان عن قبَّعته ولوَّح بالمغادرة.

«ممتنٌّ بشدة لكِ، ولكَ يا سيد آشبي، لما أبديتماه من مرونةٍ في مسألة الإدلاء بالمعلومات. لن أُعطلَكم أكثر من ذلك. اسمحوا لي بأن أهنئكم بهذا الحدث السعيد» — ولثانية استقرت العينان الزرقاوان الفاتحتان في لطف رقيق على سايمون — ثم أردف: «وشكرًا لكَ على لطفك.»

قالت بي في صيغة حوار، بينما كانت تسير معه إلى الباب الأمامي: «تبعُد عن موطنك بمسافة طويلة، أليس كذلك يا سيد ماكالان؟»

«موطني؟»

«اسكتلندا.»

«آه، فهمت. كيف عرفتِ أنني اسكتلندي؟ أوه، من اسمي، بالطبع. أف، إنها مسافة بعيدة إلى جلاسجو؛ لكنها المسافة نفسها بالضبط للعودة إلى لندن، إن صح القول. إذا كنت سأعمل في صحيفة إنجليزية، فمن الجيد أن أعرف شيئًا عن الـ... الـ...»

اقترحت بي: «السكان الأصليين؟»

قال السيد ماكالان برصانة: «كنت سأقول، الأوضاع المحلية.»

قالت بي وهي تنظر إلى الامتداد الخاوي أمام الباب: «أليس معك سيارة؟»

«تركتُها متوقفة في نهاية ممر السيارات الخاص بكم هناك. لم أعتَد قطُّ اجتياحَ منازل الغرباء وكأني أملكها.»

وبهذا التواضُع اللافت للنظر انحنى الرجل الشاب، وارتدى قبَّعته، وانصرف.

الفصل الثالث عشر

في المكتبة، عندما خفتت أصوات بي والسيد ماكالان في الرَّدهة بالأسفل ثم في الخارج، عمَّ الصمت. واتجه برات، الذي لم يكن متيقنًا من طبيعة ذلك الصمت، نحو الأرفف وأخذ يتأمل الكتب.

قال سايمون وهو يقف باسترخاء عند النافذة: «حسنًا، خطرٌ آخر تم التعامُل معه ودرؤه بسلام.»

انتظر برات، محاولًا تحليل وقع الكلمات بينما لا تزال عالقة في الهواء.

وأخيرًا قال: «خطر؟»

«العقبات والصعوبات في معضلة العودة. لا بد أن الأمر استلزم بعض الشجاعة، إذا ما وضعنا كل شيء في الاعتبار. ما الذي دفعك إلى ذلك يا برات ... الحنين إلى الوطن؟»

كان هذا أولَ سؤال صريح وُجِّه إليه، وفجأة ازداد إعجابه بآشبي بسبب سؤاله ذاك.

«ليس كذلك بالتحديد. بل إدراكي أن مكاني هو هنا، رغم كل شيء.» شعر برات بنبرة صلاح وبِر في وقع كلماته، ثم أضاف قائلًا: «أقصد، أن مكاني في العالَم كان هنا.»

أعقب هذا صمتٌ آخر. مضى برات يتفقَّد الكتب وتمنَّى ألا يُحب آشبي الصغير. فقد كان ذلك من شأنه أن يُمثِّل إشكالية غير متوقَّعة. كان من المزعج بما يكفي ألا يقدِر على مواجهة الشخص الذي كان بصدد أن يحلَّ محله، بعد أن تُرك وحدَه في غرفةٍ معه؛ لكن أن يجد نفسه معجبًا بذلك الشخص كان من شأنه أن يجعل الموقف غير مُحتمَل.

كانت بي هي مَن كسرت الصمت.

قالت أثناء دخولها: «أظن أنه كان علينا أن نُقدِّم لهذا الشاب المتواضع مشروبًا. ولكن فات الأوان الآن. يُمكنه أن يحصل على مشروبٍ من «معرفته» في حانة وايت هارت.»

قال سايمون: «أظنه سيحصل عليه في حانة بيل.»

«لماذا حانة بيل؟»

«خادمتنا لانا تتردَّد على تلك الحانة بدلًا من حانة وايت هارت.»

«آه، حسنًا. كلما عرف الناس أسرع، انتهت الضجة أسرع.» وابتسمت إلى برات لتُخفِّف من وطأة الكلمات عليه. ثم أردفت: «هلا نذهب ونرى الخيول؟ أمعك أيُّ ملابس لركوب الخيل يا برات؟»

قال برات، ملاحظًا كيف أنها، لحُسن الحظ، قد وجدت المبرِّر لئلا تدعوه باسم باتريك: «لا تمتُّ بصلة لملابس ركوب الخيل المتعارف عليها في لاتشتس.»

قال سايمون: «تعالَ معي إلى أعلى، سأجِد لك شيئًا.»

قالت بي وقد بدت سعيدة به: «جيد، سوف آتي بإلينور.»

سأل سايمون، سابقًا برات إلى الطابق العلوي: «هل راقَ لك حصولك على غرفة الأطفال القديمة؟»

«راقني كثيرًا.»

«أظنك لاحظتَ أن ورق الحائط القديم لا يزال كما هو.»

«أجل.»

«هل تتذكَّر الليلة التي لعبنا فيها معركةَ إيفانهو-هيروارد؟»

«لا؛ لا أتذكر ذلك.»

«لا. بالطبع لم تكن لتتذكَّرها.»

مرةً أخرى علِقت الكلمات في أجواء الصمت، تُداعِب أذن برات بصداها.

تبِع آشبي الصغير إلى غرفته التي كان يشاركها مع أخيه، ولاحظ أنه لا يُوجَد في الغرفة ما يوحي بأن شخصًا آخر كان يُشاركه فيها. بل، على النقيض، كانت الغرفة خاصة تمامًا بسايمون؛ إذ كانت مفروشة بمقتنياته وأغراضه إلى الحد الذي جعلها تبدو كغرفة جلوس أكثرَ منها غرفة نوم. أرفف من الكتب، صفوف من الكئوس الفضية، رسومات مؤطرة للخيول على الجدران، مقاعدُ وثيرة، ومكتب صغير عليه هاتف فرعي.

اتجه برات إلى النافذة بينما كان سايمون يبحث في ملابسه عن ثياب مناسبة. كانت النافذة، كما عرف، تطلُّ على الإسطبلات، لكنَّ سياجًا أخضرَ من أشجار الليلك والقوطيسوس حجب الرؤيةَ عن المبنى. أعلاها، في منتصف المسافة، يظهر برج كنيسة كلير. افترض أنه سيُصطحب يوم الأحد لحضور القداس هناك. خطرٌ آخر. كان اختيار آشبي الصغير لكلمة خطر غريبًا بلا شك، أليس كذلك؟

خرج سايمون من خزانة الملابس بسروال قصير ومعطف من صوف التويد.

قال وهو يُلقِيهما على الفراش: «أظن أنهما سيُناسبانك. سأجد لك قميصًا.» وفتح أحد أدراج الخزانة التي تحمل مرآته وأغراض المرحاض. كانت الخزانة قائمة إلى جانب النافذة، اتَّجه برات، الذي ما زال لا يشعر بالراحة في وجوده بالقرب من آشبي، إلى المدفأة وأخذ ينظر إلى الكئوس الفضية على رفِّ المدفأة. كانت جميعها جوائز في الفروسية، وتنوَّعت من سباق الحواجز عند نقطة محلية إلى أخرى حتى سباق أوليمبيا. كانت جميعها، عدا جائزة واحدة، في تاريخ متأخر كثيرًا لدرجةٍ لم تجعلها مثارَ اهتمام باتريك آشبي؛ أما الاستثناء الوحيد فكان كأسًا صغيرة ومتواضعة، كان سايمون آشبي قد مُنِح إيَّاها على الحصان «بيشانس» لفوزه في فئة القفز لليافعين في معرض «بيورز آجريكلتشرال شو» في العام الذي سبق حادث انتحار باتريك آشبي.

ابتسم سايمون حين نظر حوله وشاهد الكأس الصغيرة في يد برات، ثم قال: «أخذت هذا منك، إذا كنت تتذكَّر.»

قال برات، بعفوية: «منِّي؟»

«كنت ستفوز على الحصان أولد هاري لولا أني حرمتك من الفوز بأداء ممتاز في الجولة الثانية.»

قال برات: «أها، أجل». ولكي يأخذ الحديث في مسارٍ جديد قال: «يبدو أنك تُحقِّق نجاحًا منذ ذلك الحين.»

قال سايمون وقد عاد انتباهه إلى دُرج قمصانه: «لا بأس. لكني سأُؤدي أداءً أفضل كثيرًا. في بولزبريدج وجميع المحطات المؤدية إلى أوليمبيا.» قيل ذلك بذهنٍ شارد، وإن لم يخلُ من الثقة؛ وكأنَّ المال الذي سيشتري به الخيول الماهرة سيتوافر تلقائيًّا. تعجَّب برات قليلًا، لكنه شعر أن هذه اللحظة ليست مناسبة لمناقشة المستقبل المالي.

سأل سايمون بلا مبالاة وهو يغلق دُرج القمصان: «هل تتذكر الشيء الذي اعتدت أن تعلِّقه في طرَف فراشك؟»

قال برات: «الحصان الصغير؟» ثم أضاف قائلًا، ذاكرًا اسمه وعِرقه الزائف: «أجل، بالتأكيد. ترافيستي. صنعه فلاحٌ أيرلندي من خشبِ بلوطٍ سبخي.»

انصرف عن المعروضات على رفِّ المدفأة، قاصدًا أخذ الملابس التي كان آشبي يبحث له عنها، لكن عندما استدار رأى وجه آشبي في المرآة، وأوقفته الصدمة الواضحة على ذلك الوجه متجمدًا في موضعه. كان سايمون بصدد غلق الدُّرج، لكنه توقَّف عن الفعل

في منتصفه. كان الأمر يُشبِه بالضبط ردَّ فعل شخصٍ سمِع رنين الهاتف؛ ذلك التوقف اللاإرادي لدى سماع الرنين ثم استئناف الحركة، هكذا جال بخاطر برات.

استدار سايمون ببطء ليقف أمامه، والقميص معلق على ساعِدِه الأيسر. قال، آخِذًا القميص في يده اليمنى مناولًا برات إيَّاه، لكنَّ عينَيه ظلَّتا مُستقرتَين على وجهه: «أظن أنك ستجد ذلك مناسبًا تمامًا.» لم تَعُد الصدمة باديةً على وجهه؛ لكنه بدا خاليًا من أي تعبيرٍ فحسب، وكأن ذهنه شارد في مكانٍ آخر. كان في تصوُّر برات كأنما يُجري عملياتٍ حسابية في ذهنه.

أخذ برات القميص، وجمع بقية الملابس، وعبَّر عن شكره، ثم اتجه نحو الباب.

قال سايمون الذي كان لا يزال مُحدقًا إليه بذلك التعبير الخاوي: «انزل وقتما تصبح جاهزًا. سنكون في انتظارك.»

وكان برات، الذي شقَّ طريقه نحو بسطةِ الدَّرج المؤدية إلى غرفته الخاصة في الجناح المقابل، مصدومًا بدوره. لم يتوقَّع آشبي أنه يعرف ذلك. بل كان آشبي واثقًا كل الثقة أنه لن يعرف أي شيء عن الحصان اللعبة لدرجة أنه صُدم لمَّا اتضح أنه كان يعرفه.

وماذا كان يعني ذلك؟

لم يكن يعني سوى شيء واحد.

كان يعني أن آشبي الصغير لم يصدِّق لحظةً أنه باتريك.

أغلق برات وراءه باب غرفة الأطفال القديمة الهادئة ووقف مُستندًا إليه، وتساقطت الملابس على الأرض ببطء من ذراعه المُرتخية.

لم تنطلِ الخدعة على سايمون. وذلك المشهد القصير المؤثِّر أثناء تناول الشيري لم يكن سوى تمثيل.

كانت فكرة صادمة.

لماذا كلَّف سايمون نفسه عناء التصنُّع؟

لماذا لم يقُل في الحال: «أنت لستَ باتريك ولا شيءَ سيجعلني أُصدِّق أنك هو»؟

كان ذلك هو اتجاهه الأول في التفكير، إذا كان لحديث لانا وأجواء الأسرة أيُّ معنًى. فحتى اللحظة الأخيرة كانوا غير مُتيقنِين من ردِّ فعله إزاء وصول برات؛ وقد أسعدهم جميعًا باستسلام صريحٍ وساحر.

لِمَ هذا الاستسلام غير المُبرَّر؟

أكان هذا ... أكان هذا فخًّا بشكلٍ من الأشكال؟ أكان التَّرحاب والإعجاب ليس سوى عشب وأوراق شجر خضراء تواري حفرةً حفرها له؟

لكن لم يكن بإمكانه أن يعرف أن برات ليس باتريك حتى يلتقيَ به فعليًّا وجهًا لوجهٍ. ويبدو أنه عرف في الحال أن الشخص الذي كان يقف أمامه لم يكن أخاه. لم يُجِب عليه إذن ...

انحنى برات ليلتقط الملابس من الأرض ثم اعتدل في وِقفته فجأة. لقد تذكر شيئًا. تذكر ذلك الاسترخاء الغريب من جانب سايمون في اللحظة التي نظر إليه فيها بدقةٍ. ذلك الإيحاء بالراحة. الإيحاء بأنه قد «تنفس الصعداء.»

هكذا كان الأمر إذن!

كان سايمون يخشى أن يكون هو باتريك بالفعل.

عندما وجد أنه في مواجهة مجرد أفَّاك، لا بد أنه واجه صعوبة في العزوف عن معانقته.

لكن ظل ذلك لا يُفسر هذا الاستسلام.

ربما كان مجرد تأجيل؛ خطة لتجميع حلفاء له. ربما أنه خطَّط «لنهاية» أكثر مأساوية؛ لمزيد من التشهير العلني.

فكَّر برات أنه لو كان الأمر هكذا، فثمة مفاجآت في انتظار السيد آشبي. وكلَّما فكر في تلك المفاجآت، تحسَّن شعوره نحو سير الأمور. وبينما كان يبدِّل ملابسه ليرتدي ملابس ركوب الخيل، تذكَّر، بشعورٍ أشبه بالمتعة، ذلك الوجهَ المصدوم في المرآة. لم يكن سايمون يعرف أن برات قد اجتاز أَي اختباراتٍ «عائلية». فلم يكن حاضرًا عندما اجتاز برات الاختبار الاستقصائي الدقيق لمعرفة طريقه عبْر أرجاء المنزل؛ ولم تُتَح له أي فرصة لإخباره بذلك. كل ما عرفه أن برات قد أقنع المحامين بهويته. وبعد أن أصبح في مواجهة أفَّاك صريح، من وجهة نظره، لا بد أنه قد تطلَّع بمكرٍ تلذُّذي إلى استدراج ذلك المخادع.

أجل؛ كان السيد آشبي على أُهبة الاستعداد لإيذائه أشدَّ الإيذاء.

كانت أول تجربة مبدئية له في ذلك معركة إيفانهو–هيروارد. شيء لم يكن ليعرفه سوى باتريك. لكنه أيضًا كان شيئًا قد ينساه بسهولة.

الحصان الخشبي الصغير كان شيئًا لم يكن ليعرفه سوى باتريك وكان شيئًا لم يكن بإمكان باتريك أن ينساه بأي حالٍ من الأحوال.

وكان برات يعرفه.

لا عجبَ في أن آشبي قد صُدِم. كان مصدومًا وحائرًا. لا عجب في أنه بدا وكأنه يُجري عمليات حسابية في ذهنه.

تذكَّر برات بالخير مُعلِّمه البارع، أليك لودينج. لم يكن لودينج يعمل بالمِهنة التي كان لا بد أن يعمل فيها؛ فقد كان بارعًا كمُعلِّم. لكن في وقتٍ ما، وفي مكانٍ ما، كان سيظهر شيءٌ ما ربما يكون أليك لودينج قد غفل عن إخباره به أو أنه هو نفسه يجهله؛ وستكون تلك اللحظة عصيبة للغاية؛ لكنه حتى الآن كان يحفظ دورَه بإتقان. حتى الآن كان دقيقًا في كل التفاصيل.

حتى فيما يتعلق بقصة ترافيستي.

كان شيئًا مصنوعًا من خشب البلوط السبخي الأسود. قال عنه لودينج: «بدائي وسريالي، لكن من السهل تمييزه كحصان.» كان في الأصل مربوطًا بعربة خيلٍ والعربة بأكملها كانت إحدى الهدايا التذكارية المصنوعة من خشب البلوط السبخي التي كان السائحون يعودون بها من أيرلندا قبل أن يُصبح إحضار اللحم المُقدَّد إلى المنزل أكثر استحسانًا. وسرعان ما واجهت العربة الصغيرة بأكملها، لكونها مصنوعة من أجزاءٍ وقطعٍ صغيرة، نفس مصير كل الأشياء الأخرى في غرفة الأطفال؛ لكن الحصان الصغير، الذي كان مُمتلئًا ومتينًا، نجا من هذا المصير وصار بالنسبة إلى باتريك تميمةً وشيئًا مُقدَّسًا. كان أليك لودينج هو مَن كان مسئولًا عن تسميته؛ كان ذلك في إحدى أمسيات الشتاء أثناء احتساء الشاي في غرفة الأطفال. كان هو ونانسي قد جاءا في زيارة سريعة إلى لاتشتس في طريقهما إلى المنزل عائدَين من أحد سباقات المهور، آمِلين في الحصول على مشروب؛ لكن عندما لم يجدا أحدًا في المنزل عدا نورا، التي كانت تحتسي الشاي في الطابق العلوي مع أطفالها، انضمَّا إلى حفل الشاي بغرفة الأطفال. وهناك، وبينما كانوا يُحضِّرون شرائح الخبز، أخذوا يبحثون عن اسمٍ لتميمة باتريك. وقُوبِلَت جميع الاقتراحات بالرفض من باتريك، الذي كان يُشير إليه دائمًا بـ «حصاني الأيرلندي الصغير» ولم يكن يرى أي داعٍ لنعتِه بوصفٍ أكثر تحديدًا من ذلك.

سألت الأم لودينج، الذي كان مُنهمكًا في تناول شرائح الخبز بالزبد ولم يعبأ بتسمية اللعبة: «بمَ كنت ستُسمِّيه يا أليك؟»

فأجاب أليك، مُحدقًا في اللعبة: «ترافيستي. صنعه فلاح أيرلندي من خشب البلوط السبخي.»

ضحك الكبار، لكن باتريك، الذي كان أصغر من أن يعرف معنى الكلمة، ظنَّ أن ترافيستي كان اسمًا راقيًا، ومدعاةً للفخر (كان يعني في الحقيقة المسخ). اسمٌ مُفعمٌ بوطء خيول الحرب وطفراتها، وبذلك فهو جديرٌ بهذه اللعبة السوداء الصغيرة التي يُحبها.

قال له لودينج وهما جالسان في غرفة الجلوس الفخمة ذات الطبع الملكي (كان الجو مُمطرًا في صباح ذلك اليوم): «كان يحتفظ به في جيبه. لكن عندما كبر على ذلك عُلِّق في طرَف سريره في شريطٍ مُهترئ من الترتان الملَكي الاسكتلندي مأخوذ من أحد صناديق حلوى إدنبره.»

حقًّا: لا عجب في أن سايمون كان مصدومًا حتى النخاع. فما كان لغريبٍ عن عائلة آشبي أن يعرف شيئًا عن ترافيستي.

أخذ برات يُغلق أزرار ثياب آشبي على جسده، ملاحظًا مدى ملاءمة قطعةٍ محاكة بإتقان حتى لهيئة غريبة، وتساءل عن الانطباع الذي كوَّنه سايمون عن المشكلة. لا شك أنه الآن قد عرف أن «الأفاك» لم يعرف فحسب عن وجود ترافيستي، بل تجوَّل عبر المنزل بثقة شخصٍ يحمل معرفةً طويلة بالمكان. سرت فورة طفيفة من الحماسة في نفس برات. تلك الحماسة نفسها التي جعلت لقاءاته مع السيد ساندال العجوز مُمتعة للغاية. على مدى الساعتَين الأخيرتَين — منذ وصوله إلى محطة جيسجيت — استُقبل بلطفٍ وحفاوة، وكانت النتيجة شعورًا طفيفًا بعدم الارتياح، أشبَهَ بانقباضٍ روحي. فما كان لعبة مقامرة بالنرد على رهانٍ كبير صار مجرد لعبة انتزاع حلوى من طفلٍ رضيع. والآن وقد أصبح سايمون خصمَه، صار الأمر منافسةً مرةً أخرى.

ليست مقامرة بالنرد، هكذا رأى برات، وهو يتأمَّل نفسه في المرآة. بل لعبة داما. أمرٌ يستلزم تحركات حذِرة، وتوقُّع الهجوم، وصد أي ضربةٍ مفاجئة. أجل؛ إنها لعبة داما.

نزل برات وقد تجدَّد لدَيه الأمل بتوقُّعٍ جديد. لن يُضطر بعد ذلك إلى أن يُدير ظهره إلى آشبي لأنه عاجزٌ عن مواجهته. لقد وُضعت قطع الداما على اللوحة وجلس الاثنان على طرفَيها أحدهما في مواجهة الآخر.

عبر باب الرَّدهة المفتوح على مصراعَيه، رأى أُسرة آشبي مُجتمعة في ضوء الشمس على درجات السُّلَّم فمضى نحوَهم لينضمَّ إليهم. كانت روث، بعينَيها اللتَين لا تكفَّان عن الحركة في كل اتجاه، أولَ مَن رأته.

قالت روث، وهي لا تزال تتودَّد إليه: «أوه، إنه يبدو جذابًا.»

كان برات يُدرك أنه يبدو «جذابًا» لكنه تمنَّى لو أن روث لم تلفت الانتباه إلى ملابسه الأنيقة المُستعارة. تساءل إن كان سبق لأحدٍ أن صفع روث آشبي.

قالت بي: «لا بد أن تحصل على ملابس لركوب الخيل من والترز في أسرعِ وقتٍ مُمكن. تلك الملابس مقاسها مناسب بما يكفي لاستخدامها كنموذج للتصميم. وهو ما سيُوفِّر عليك عناء الاضطرار إلى الذهاب إلى المدينة لمجرد أخذ المقاسات فحسب.»

قال سايمون، وهو ينظر إلى الملابس بفتور: «ذلك السروال ليس من والترز. إنه من جور وبراون. لم يُفصِّل والترز قط سروالًا متقنًا في حياته.»

كان مُتكئًا على الحائط بجانب المدخل، في استرخاءٍ وسلام واضح مع العالَم. تنقَّلت عيناه ببطءٍ لأعلى من حذاء برات حتى قميصه، ثم استقرَّتا، لم يزل الاهتمام غير المبالي نفسه مرتسمًا على وجهه.

قال بودٍّ وقد ابتعد عن الحائط: «حسنًا، لنذهب ونتفقد بعض الخيول.»

ليست لعبة داما، هكذا فكَّر برات. لا، ليست لعبة داما. إنها لعبة بوكر.

قالت بي: «سنُريك الإسطبلات عصر اليوم وسنرجئ تفقُّد الأفراس لِما بعد وقت الشاي.»

مدَّت ذراعها في ذراع برات وضمَّت سايمون في ذراعها الأخرى، وساروا نحو الإسطبل متشابكي الأذرع مثل أصدقاء قُدامى؛ بينما سارت إلينور والأختان التوءمتان في أعقابهم.

قالت: «جريج في أشد اللهفة لرؤيتك. لن تلاحظ عليه أي لهفة بالطبع. فوجهُه لا يسمح بشيءٍ مثل ذلك. ليس عليك سوى أن تُصدقني بأنه مُتحمس من الداخل.»

سأل برات: «ماذا حدث لمالباس العجوز؟» مع أنه قد علم بكل شيءٍ عن مالباس العجوز في عصر أحد الأيام خارج دفيئة البرتقال.

قالت بي: «أصبح ضعيف النظر للغاية. أقصد مجازًا. لم نستطِع التوافق معًا. لم يُعجبه تلقي أوامر من سيدة. لهذا تقاعد بعد أن تسلَّمتُ إدارة المُمتلكات بثمانية عشر شهرًا تقريبًا، وأصبح لدينا جريج منذ ذلك الحين. إنه كارهٌ للبشر، وكاره للنساء، وله مزاياه أيضًا، بالطبع؛ لكنه لا يسمح لأحدٍ بالتدخُّل في إدارة الإسطبلات. كان ثمة انخفاض ملحوظ في حساب العلف بعد رحيل مالباس العجوز. والمواطنون المحليون يستسيغون جريج أكثر؛ لأنه يشتري التبن مباشرةً من المزارعين وليس من خلال مُتعهد. وأرى عمومًا أنه سائس خيول أفضل من مالباس. فهو يملك مهارةً أكبر في الوصول بحصانٍ ضعيف إلى حالةٍ جيدة. وعبقري في معالجة الخيول المريضة.»

لماذا لا يشعر بالاسترخاء؟ هكذا كانت تُفكِّر حين شعرت بذراع الصبي مُتيبِّسة تحت أصابعها. لقد انقضت المحنة في تلك اللحظة بكل تأكيد. فلماذا لا يشعر بالاسترخاء؟

وكان برات من جانبه يشعر بأصابعها مُتشبثةً بساعده كما لم يشعر بيد امرأةٍ قطُّ من قبل. كان يشعر مرةً أخرى بتلك الفورة من مشاعرَ عجزَ عن تحديدها التي شعر بها عندما أخذت بي يده لتقوده إلى اللقاء مع السيد ماكالان.

لكن نظرته الأولى للإسطبل صرفت انتباهه عن أي مشكلات عاطفية أو معنوية.

كان ردُّ فِعله حين رأى ساحة الإسطبل في لاتشتس أشبهَ بردِّ فعل تاجر بحري عند تعرُّفه لأول مرة بواحدة من سفن صاحب الجلالة. كان نوعًا من التندُّر المشوب بالازدراء واللطف في وقتٍ واحد. تعجَّب من أن ذلك الشيء لم يُضَفْ إليه شرائط زينةٍ كلمسةٍ نهائية. لم يُقنعه شيء بأن المكان كان يُستَخدم فعليًّا إسطبلًا للخيول من الأساس سوى حقيقة أنَّ عددًا من رءوس الخيول كانت تبرز بفضولٍ من مقصوراتها. لم يكن يُشبه شيئًا بقدْر ما كان يُشبه واحدًا من نماذج اللعب التي رآها في متاجر اللعب الباهظة الثمن. طالما كان يَتخيَّل أن تلك النماذج الصغيرة المُبهجة بألوانها الزاهية وأزهارها القابعة في أحواض الزهور المُصاحبة لها قد صُنِّعت لتُناسب ذوق الأطفال. لكنها على ما يبدو كانت نسخًا مطابقة لشيء حقيقي. وكان في تلك اللحظة يتطلَّع إلى أحد تلك الأشياء، ويعتريه شعورٌ بدهشة شديدة.

حتى منتجع ركوب الخيل لم يُهيِّئه لمواجهة هذا. فقد كانت هناك وفرة من الألوان، لكن كان هناك كذلك تقليدٌ راسخ. لم يكن للقائمين على منتجع ركوب الخيل التفكير تمامًا في جز رُقعةِ العشب التي في المنتصف حتى تبدو كقطعة من الجوخ الأخضر، ذات حدود مُنسقة ومُشذَّبة لدرجةِ أن يبدو وكأنك ربما ستقوم بلفِّه وأخذِه معك. في منتجع ركوب الخيل، كان لا يزال هناك شيء من الوحل، والروث، والعَرق، والذباب الذي يُعَدُّ جزءًا لا يتجزأ من الحياة بجانب الخيول.

كان المبنى الصغير على يسار مدخل ساحة الإسطبل هو غرفة تخزين معدات ركوب الخيل، وداخل الغرفة كان سائس الخيل، جريج. كان جريج يحمل ذلك الإحساس بخيبة الأمل، في أعلى درجاته، الذي كان شائعًا بين أولئك الذين يكسبون قُوتَهم من العمل مع الخيول. لكنه أيضًا تحلَّى بصفة الحيوية ومظهر الشباب الدائم التي تُميِّز سائسي الخيول. لقد كان على الأرجح في الخمسين من عمره، لكن لم يكن مفاجئًا أن يُقال إنه في سنِّ الخامسة والثلاثين.

تقدَّم خطوتَين إلى الأمام وانتظرهم حتى يصلوا إليه. كانت تلكما الخطوتان هما التنازلَ الذي يُقدِّمه لإظهار حُسن الأدب، أما الانتظار فكان تأكيدًا على حقيقة أنه يستقبلهم

على أرضه. تفحَّصت عيناه الزرقاوان الصافيتان برات بينما كانت بي تقدم كلًّا منهما للآخر، لكن ظل التعبير المرتسم على وجهه مهذبًا وغامضًا. رحَّب ببرات ترحيبًا تقليديًّا وصافحه بقوة.

قال: «سمعت أنك كنت تركب خيولًا في أمريكا.»

أجاب برات: «خيول غربية فقط. خيول عاملة.»

قال جريج، مُميلًا رأسه ناحية المقصورات: «حسنًا، تلك الخيول تعمل.» كانت نبرة صوته وكأنها تقول لا يَعتريك أدنى شك في ذلك. بدا الموقف وكأنه قد فهم ارتياب برات بشأن نظافة الخيول ولمعانها. انتقلت عيناه من برات إلى إلينور التي كانت تقِف في الخلف ثم قال: «هل رأيتِ ما بداخل غرفة معدَّات ركوب الخيل يا آنسة إلينور؟»

من عتمَة غرفة معدَّات ركوب الخيل تجسَّدت هيئة صبي صغير، وكأنها إجابة عن سؤاله. تجسَّد الصبي أمامهما في تردُّدٍ نوعًا ما وكأنه غير متأكد من كونه موضعَ ترحيب. رغم اختلاف الزي تعرَّف عليه برات بأنه الصبي الذي كان يمتطي الأسد الحجري عند بوابات كلير. لم تكن ملابسه في ذلك الحين، رغم أنها أقل لفتًا للأنظار، مألوفةً أكثر من ملابسه المصنوعة من جلد النمر. كان يرتدي قميص كرة قدمٍ مخططًا كان مُلتصقًا بجسده النحيل الذي يُشبه الشرغوف، وسروالًا لركوب الخيل كان كبيرًا للغاية لدرجة أنه كان مُتدليًا في شكل طيةٍ فوق ركبتَيه الهزيلتَين، وقبعة خيَّال في سباق حواجز لها بطانة واقية من التصادُم بدت ظاهرة من الخلف، وخُفًّا قذرًا أحمر اللون.

قالت إلينور: «توني! توني. ماذا تفعل هنا؟»

أجاب توني، وعيناه تتحركان سريعًا جَيئةً وذهابًا كالسحالي بين أفراد المجموعة: «جئت من أجل ركوب الخيل.»

«لكنه ليس اليوم المُخصَّص لك لركوب الخيل.»

«أليس اليوم يا إلينور؟ حسبته كذلك.»

«أنت تعرف تمامًا أنك لا تركب الخيل يوم الثلاثاء.»

«حسبت أن اليوم هو الأربعاء.»

قالت إلينور دون انفعال: «أنت كاذب صغير مريع. كنت تعرف تمامًا أن اليوم ليس الأربعاء. ليس في الأمر سوى أنك رأيتني في سيارةٍ مع شخصٍ غريب، ولهذا جئتَ لتعرف مَن ذلك الغريب.»

تمتمت بي مُستنكرةً: «إلينور.»

قالت إلينور وكأن موضوع النقاش ليس مطروحًا: «أنت لا تعرفينه. إن فضوله يرقى إلى حدِّ الجنون. إنها الصفة البشرية الوحيدة تقريبًا فيه.»

قال سايمون، ناظرًا إلى الطفل توسيلي في نفور: «إذا اصطحبتِهِ اليوم، فلن يكون عليكِ اصطحابُه غدًا.»

قالت إلينور: «لا يُمكنه أن يأتيَ ويتوقَّع أن يركب الخيل عندما يحلو له ذلك! إضافة إلى ذلك، لقد قلتُ إنني لن أرافقه مجددًا بهذه الأشياء. أخبرتُكَ يا توني، أن تشتري حذاء طويلًا.»

توقَّفت العينان السوداوان عن الحركة وصارتا بِركَتَين تفيضان بالحزن. قال توني برعشةٍ في طبقة صوتِهِ يلين لها الحجر: «لا يقدِر أبي على شراء حذاء طويل لي.»

قالت إلينور بسرعةٍ: «أبوك يتمتع بإعفاء قيمته ١٢ ألف جنيه إسترليني سنويًّا من ضرائب الدخل.»

قالت بي: «إذا اصطحبتِهِ اليوم يا نيل، فسيكون لديك متسع من الوقت لمساعدتي غدًا عندما يأتي نصف سكان الريف لرؤية برات.» وعندما بدت إلينور مترددةً أردفت قائلةً: «وربما يكون من الأفضل إنجاز المهمة الآن ما دام أنه هنا.»

وقال سايمون مُتشدقًا: «وسيأتيكِ غدًا وهو لا يزال مُرتديًا خُفَّيه.»

علَّق توني بلطف: «الخيالة الهنود يرتدون الخف، وهم خيالة بارعون.»

«لا أظنُّ أن أباك المُعدِم سيسعد كثيرًا إذا ظهرتَ بالخُفِّ في سباق الرو. ستشتري زوجًا من الأحذية الطويلة. وإذا اصطحبتُك عصرَ اليوم يا توني، فلن يكون لك أن تُفكر أن بوسعك الاعتياد على هذا.»

«أبدًا، لن يحدث يا إلينور.»

«وإذا أتيتَ في يومٍ غير اليوم المُخصَّص لك مرة أخرى فستنصرف دون أن تركب الخيل.»

«مفهوم يا إلينور.» صارت عيناه كعينَي السحلية مرة أخرى، تتحرَّكان سريعًا وتنزلقان.

«حسنًا. اذهب واطلب من آرثر أن يضع لك السَّرج على سبادس.»

«شيء آخر يا إلينور؟»

قالت إلينور، وهي تُراقبه يمضي: «لا، شكرًا، ستلتزم بما قلتُه.»

سأل سايمون: «ما الغرض من خوذة الصدمات؟»

«يقول إن جمجمته رقيقة كالسلوفان ولا بد أن يَحميَها. لا أعرف كيف حصل على خوذةٍ بهذا الحجم. أظن أنه قد جاء بها من سيرك. ومع حنينه إلى الهنود، أظن أن عليَّ أن أكون ممتنَّةً أنه لا يأتي بعصابة رأس وريشة.»

قال سايمون: «سيفعلها يومًا ما، عندما يخطر بباله.»

قالت، مُبتسمةً له قليلًا: «حسنًا، أظن أنه من الأفضل أن أذهب وأضع السَّرج على باستر. أعتذر لك يا برات، لكن هذا الأمر في مصلحتنا حقًّا وإن لم يبدُ كذلك. فالمُهر الذي يمتطيه سيُصبح أقلَّ حيوية معه اليوم أكثر مما سيكون عليه غدًا، بعد قضائه يومًا في الإسطبل. ولست بحاجة إلى ثلاثة أشخاصٍ ليرافقوك في جولتك. سأتفقد حظائر الخيل معك بعد الشاي.»

الفصل الرابع عشر

في مكانٍ ما بين المقصورة الرابعة والخامسة تلاشى مَيل برات نحو التعليقات الاستعلائية على نظافة الخيول بسهولة وإلى الأبد. فالخيول الجميلة المُدلَّلة التي تهيَّأ لرؤيتها في تلكما المقصورتين لم تكن موجودة. لقد كان مصدر اللمعة على أشعار الخيول، الأصيل منها، والهجين، والقَزَم، وحتى المُهر الصغير، هو تهيئتها والاعتناء بها وليس تدليلها في إسطبلٍ دافئ؛ فقد عاش برات طويلًا بما يكفي مع الخيول ليُدرك ذلك. كانت الشرائط الوحيدة التي رُبطت على أعناق تلك الحيوانات على الإطلاق أوشحةً ذات لون أحمر أو أزرق أو أصفر؛ وكانت الأوشحة سليمة تمامًا داخل غرفة معدَّات ركوب الخيل.

قامت بي بمراسم الضيافة الرسمية، وكان جريج مساعدًا لها؛ لكن لمَّا كان من غير الممكن لأربعة فرسان أن يفكروا في أي حصانٍ بعينه دون الدخول في نقاش، سرعان ما فقدت المناسبة الطابعَ الرسمي البسيط الذي اتَّسمت به بداياتها وتحوَّلت إلى مناقشةٍ عامة ودِّية. في تلك الأثناء لاحظ برات، الذي كان دومًا منعزلًا قليلًا عن الأجواء المحيطة به، أنَّ بي كانت تترك زمام النقاش أكثر فأكثر لسايمون. فكان سايمون، وليس بي، هو مَن قال: «هذا خيل مطرود من إسطبل لخيول السباق تُدرِّبه إلينور ليكون حصان أجرة.» أو «هل تتذكَّر ثورا العجوز؟ هذا أحد أبنائها من الحصان كولد ستيل.» كانت بي تُبعد نفسها عن عمدٍ تمامًا.

سرعان ما أصاب المللُ الأختَين التوءمتَين واختفتا؛ فكان اختفاء روث لأن الخيول كانت تُشعرها بالضجر؛ أما جين فكانت تعرف كلَّ ما يمكن معرفته عن الخيول ولم تَرُقها فكرة أنها صارت مِلكًا لشخصٍ لم تعرفه. أما جريج، المُتحفظ بالفطرة، فتراجع أكثر فأكثر مع بي. وهكذا، وفي لمح البصر، صارت الفرصة مواتية لسايمون؛ بل مواتية لسايمون وبرات.

تصرَّف سايمون وكأنه لا يعبأ بأي شيءٍ في هذا العالَم. وكأن عصر هذا اليوم مجرد عصر يومٍ آخر عادي وبرات مجرد زائر آخر. زائر مُميَّز وواسع المعرفة نوعًا ما، ومرحَّب به من دون شك. أما برات، الذي كان يظهر في المشهد من حينٍ لآخَر من منطلق افتتانه بالخيول، فكان يستمع إلى هذا المُتشدِّق اللطيف يُناقش نَسَب خيل أو شكله أو شخصيته أو التوقعات المستقبلية له؛ ويراقب ملامحه الهادئة المطمئنة، ويتعجب. كان الصوت الهادئ يقول: «ساقاه الأماميتان ضعيفتان»، وكانت العينان القريرتان تمرَّان على الخيل وكأن ليس هناك شيء أهم يعكر الأجواء. «لكنه حصان جميل، ألا ترى ذلك؟» أو «هذا الحصان يجب أن يستريح ويتعافى في المرعى: لقد كان يُستخدَم في الصيد طوال الشتاء؛ لكنني سأشارك به في سباقات هذا الصيف. وبي شحيحة للغاية في إطعام الخيول على أي حال.»

وكانت بي تشارك برأيها ثم تختفي مرةً أخرى.

كانت بي هي مَن «تدير» لاتشتس، لكن الاهتمامات المختلفة التي يتخلَّلها الأمر كانت مُقسَّمة بين ثُلاثي آشبي. كانت اختصاصات إلينور الرئيسة هي خيول الأجرة وخيول الصيد، بينما كان سايمون مُختصًّا بخيول الصيد والخيول المشاركة في سباقات قفز الحواجز، أما بي فكان اهتمامها منصبًّا على الأفراس ومُهر الشتلاند. في حياة بيل آشبي، عندما كانت لاتشتس منشأة لتربية الخيول فقط، كانت خيول الأجرة وخيول الصيد في الإسطبلات لاستخدام العائلة والتسلية. أحيانًا، عندما يتصادف أن يكون هناك حصان مُميز في الإسطبل، كانت بي، التي كانت خيَّالة أفضل من أخيها، تأتي من لندن أسبوعًا أو أسبوعَين لتُدرِّبه وبعد ذلك تستعرض به نيابة عنه. وكانت تلك دعايا جيدة للاتشتس؛ ليس لأن لاتشتس كانت تُتاجر في الخيول المُدرَّبة، ولكن بسبب أن التكرار البسيط لاسمٍ ما هو أمر ذو قيمة في عالَم التجارة، كما اكتشف مؤلفو الإعلانات. وفي ذلك الوقت، كان الآشبيون الصغار، تحت إشراف بي، قد حوَّلوا الإسطبلات إلى منافس مربح لأفراس التربية.

قال عامل الإسطبلات لجريج: «السيد جيتس يسأل إن كان بإمكانه أن يتحدَّث إليك يا سيدي.» فاستأذن جريج في الانصراف وعاد إلى غرفة تخزين معدَّات ركوب الخيل.

جاء فوربوستر إلى باب مقصورته، وحدَّق ببرودٍ في برات لوهلة، ثم نكزه بأنفه الروماني على نحوٍ فكاهي.

سأل برات: «أكان دائمًا حصان جين؟»

أجابت بي: «لا، لقد اشتُرِي لسايمون في عيد ميلاده الرابع عشر. لكن سايمون كبر سريعًا حتى إنه في غضون عامٍ أو نحو ذلك كان قد صار كبيرًا عليه، وجين في عمر الرابعة

كانت تُطالب بالفعل بأن تَمتطيَ حصانًا «حقيقيًّا» بدلًا من مُهر الشتلاند. وبهذا انتقل من ملكيتِهِ إليها. إن كان قد اكتسب أي سلوكياتٍ فقد نسِيَها، لكن يبدو أن هناك تفاهمًا مُتبادلًا بينَه وبين جين.»

عاد جريج ليقول إن جيتس كان يريد مقابلة الآنسة آشبي. كان الأمر بخصوص السياج.

قالت بي: «حسنًا، سآتي.» وعندما انصرف جريج قالت: «ما يُريده حقًّا هو رؤية برات، لكنه سينتظر حتى الغد مثل بقية أهل الريف. من طبع جيتس أن يُحاول استباق الآخرين. فالانتهازية تسري في دمِه. إذا كنتما ستذهبان لتُجرِّبا أيًّا من الخيول، فلتعودا عند موعد الشاي. أريد أن أتفقَّد الحظائر مع برات قبل حلول الظلام.»

سأل سايمون، وهو يفتح باب مقصورة أخرى: «هل تتذكَّر جيتس؟»

«لا، لا أظن ذلك.»

«إنه مستأجر مزرعة ويجسيل.»

«وماذا حلَّ بفيدلر، إذن؟»

«مات. هذا الرجل كان مُتزوجًا من ابنة فيدلر، وكان لدَيه مزرعة صغيرة في الجهة الأخرى من بيورز.»

لقد أعطاه سايمون أوراق اللعب التي احتاج إليها في ذلك الوقت. نظر إلى سايمون ليُلاحظ كيف استقبل الأمر، لكن يبدو أن جُلَّ اهتمام سايمون كان الحصان الذي يقوده خارج المقصورة.

«هذه المقصورات الثلاث الأخيرة هي خيول مُقتناة حديثًا، اشتُرِيَت بعد مراقبتها عن كثَبٍ في حلقة عرض الخيول. لكن هذا أفضلُ خيل في المجموعة. يبلغ من العمر أربع سنوات من سلالة هاي وود من رحم فرس تُدعى شاوت آلاود. اسمه تيمبر.»

كان تيمبر مُهرًا أسود لا تخالطه شعرة بُنية واحدة. كان له شِيَة نجمية بيضاء غير مكتملة، وحلْقة من البياض على إكليلَي حافرَيه، وكان أكثر الخيول، التي تَعامَل معها برات عن قرب، وسامةً على الإطلاق. خرج من مقصورته بتشامُخ لطيف، وكأنه كان مدركًا حُسنه وسعيدًا بكونه محورَ الإشادة. فكَّر برات، وهو يُراقبه، أن ثمة خجلًا غريبًا فيه. لعلها الطريقة التي يقف بها، وقدماه الأماميَّتان متقاربتان. أيًّا كان السبب، فلم يتماشَ هذا مع عينَيه الواثقتَين الفاحصتَين.

قال سايمون: «من الصعب أن تجد به عيبًا، أليس كذلك؟»

كان برات مُستغرِقًا في إعجابه ببِنيته الجسدية، ولا يزال حائرًا بسبب ما رآه تصنُّعًا للخجل من جانب المُهر.

قال سايمون: «إن له واحدًا من أجمل الرءوس التي رأيتُها على حصان في حياتي. انظر إلى عظامه.» وأدار الحصان. «وذو حركة رائعة، أيضًا.»

ظلَّ برات ينظر في صمتٍ وإعجابٍ وحيرة.

قال سايمون، منتظرًا تعليق برات: «ماذا بك؟»

قال برات: «ألا يبدو متعجرفًا؟!»

ضحك سايمون.

«أجل، أظنه هكذا. لكن ليس من دون سبب.»

«أجل. إن له مظهرًا جذابًا فعلًا.»

«بل يفوق ذلك. فهو ركوبةٌ مُمتعة. إنه يستطيع القفز فوق أي حاجز حتى يكاد يلامس السماء.»

تقدَّم برات نحو الحصان وتودَّد إليه بحركاتٍ لطيفة. تقبل تيمبر اللفتة دون أن يستجيب. بدا سعيدًا لكن مع قليلٍ من الملَل.

قال برات: «لا بد أنه كان صداحًا.»

ردَّ سايمون: «صداحًا؟ آه، فهمت. الخيل المغرور.» تأمَّل الحصان من جديد. «أظنه معجبًا بنفسه نوعًا ما. لم يخطر ذلك في بالي من قبل. هل تودُّ أن تُجرب امتطاءه، بالمناسبة؟»

«أود ذلك بالطبع.»

«من المفترض أن يتدرَّب قليلًا اليوم لكنه لم يتلقَّ أيَّ تدريب إلى الآن.» نادى على أحد العاملين بالإسطبل. «آرثر، أحضِر سَرجًا لتيمبر.»

«أمرك يا سيدي. لجام مزدوج يا سيدي؟»

«لا؛ شكيمة.» وعندما انصرف العامل، وجَّه كلامَه إلى برات قائلًا: «له فمٌ كالقفاز.»

تساءل برات إذا كان مترددًا فحسب أن يُسلِّم ذلك الفم الرقيق إلى يدٍ خرقاء لشخص من الغرب الأمريكي يمسك بزمام كابح.

بينما كانوا يضعون السَّرج على تيمبر، ذهبا لتفقُّد «الفرسين الجديدتين» المتبقيتين. كانت إحداهما فرسًا طويلة الظهر ذات لون بني ضارب إلى الحُمرة، ولها رأس قوي وقائمتان خلفيتان («نهايتان قويتان تحلَّان محلَّ الخَصر.» على حد قول سايمون) وكان

اسمها سكابا؛ والأخرى شيفرون، وكانت من نوعٍ راقٍ ولها لون كستنائي زاهٍ وعينان مضطربتان.

سأل برات بينما كان سايمون يعيد شيفرون إلى مقصورتها: «ما الحصان الذي تركبه؟»

أغلق سايمون النصف الآخر من الباب ثم استدار ليواجهه.

قال: «أعتقد أنك ربما تُحب أن تأخذ جولة بنفسك.» وعندما عُقد لسان برات لحظة، متفاجئًا من ضربة الحظ التي واتته، قال سايمون: «لا تدَعْه يتحمَّس أكثر من اللازم، وإلا سيثور عندما يهدأ.»

قال برات: «لا، سأعيده هادئًا.» ثم طوَّح رجلَه نحو الجهة المقابلة من أول حصان إنجليزي يمتطيه.

أخذ أحد السوطين اللذَين كان آرثر يمدُّ يدَه بهما نحوه ليختار منهما، ثم أدار الحصان نحو الزاوية الداخلية من الفناء.

سأل سايمون، وكأنه متفاجئ: «أين ستذهب؟»

أجاب برات، وكأن سؤال سايمون قد انطبق على اختياره للمكان الذي سيذهب للتجول فيه بالحصان: «نحو التل، على ما أظن.»

لو كانت البوابة في الجانب الشمالي الغربي من الفناء لم تَعُد تُفضي إلى الطريق المختصر المؤدي إلى التلال، لتعيَّن على سايمون أن يُخبرَه حينها. وإذا كانت لا تزال تؤدي إلى هناك، كان سيُصبح لدى سايمون شيء آخر للقلق بشأنه.

قال سايمون برقة: «لم تختَر سوطًا قويًّا لتغلق به البوابات. أم إنك ستقفز فوق كل شيء يصادفك؟» كانت نبرة صوته كأنما يقول، أنت راعي بقرٍ بارع.

قال برات برصانة وهدوء: «سأُغلق أنا البوابات.»

بدأ يُسيِّر تيمبر نحو زاوية الفناء.

قال سايمون، كمن أدرك شيئًا متأخرًا: «إن له حِيَله، عليك الحذَر منه.»

قال برات: «سآخُذ حذري منه.» ثم سار بعيدًا نحو البوابة الداخلية حيث كان آرثر ينتظره ليفتحها له.

ابتسم له آرثر بودٍّ ثم قال بإعجاب: «إنه حصان طائر ذلك الحصان يا سيدي.»

عندما انعطف إلى يمينِه نحو الممر الضيق تأمَّل دلالة تلك الصفة الإنجليزية البحتة. مرَّ زمن طويل منذ أن سمع أي شيءٍ يُنعت بصفة الطائر. كانت صفة «الطائر» تدل على

«الروعة»، بالمفهوم الإنجليزي، وليس الأمريكي. كانت الطائر بالنسبة إليه صفةً تدل على الهامشية. كوب الشاي أو القهوة الذي يُشرَب سريعًا دونما إعداد. أو على شيء مخادع ينطوي في داخله على شيء من الذكاء.

كان تيمبر ذاك حصانًا طائرًا.

سار الحصان الطائر بهدوءٍ قاصدًا المسار بين المنحدرات الخضراء المكسوَّة بزهور البنفسج، وأذناه منتصبتان توقعًا لظهور العشب أمامهما. وعندما أبصرا البوابة عند النهاية البعيدة تراقص الحصان قليلًا. أوعزت إليه يدا برات بالتوقُّف، فتوقَّف في الحال. كان أحدهم قد ترك البوابة مفتوحةً، لكن نظرًا لوجود لافتة في منتصفها مطلية بدقة تقول «يُرجى غلق البوابة»، وجَّه برات تيمبر إلى الموضع المناسب لغلقها. بدا تيمبر على معرفة جيدة بالبوابات واستخداماتها مثلما يعرف جواد رعي الماشية استخدامات الحبل، لكن برات لم يسبق له قطُّ أن كان تحت يده حصان مُرهف وطيِّع بهذه الدرجة. كان تيمبر يمتثِل لأقَّل إشارة من يده أو كعبه مع غياب الاعتراض وبثقةٍ كانت جديدة على خبرة برات. خاض برات التجربة مع هذه القدرة الجديدة على التأقلم بدهشة وسرور. وتيمبر، حتى مع ظهور العشب أمامه، ومع وجوده أسفل قدمَيه، كان يتحرك بامتثالٍ ولطفٍ تحت يدَيه.

قال برات برقةٍ: «أنت مذهل!»

فأخذت أُذناه تتحركان نحوَه بحركةٍ سريعة.

قال: «أنت أعجوبة مُدهشة»، ثم ضمَّ ركبتَيه عندما اتَّجه لمواجهة التل. انطلق تيمبر يعدو على مهلٍ، قاصدًا الكتل الصغيرة من شجيرات الجولق والعرعر التي ميَّزت الأفق.

هكذا إذن يكون امتطاء خيلٍ إنجليزي أصيل، هكذا دار في خَلَده. هذا الوصال، أن تكون جزءًا من كيان كامل. هذه السلاسة. هذا السحر.

انزلق العشب القصير الأملس تحتهما، وكان من الغريب ألا يُرى تدفُّق ولو قليلٌ من الغبار عندما تضرب حدوةُ الحصان الأرض. إنجلترا، إنجلترا، إنجلترا، هكذا كان ينطق إيقاع حدوة الحصان وهي تضرب الأرض. كان كقرعٍ عذبٍ على العشب الإنجليزي.

لا أبالي، هكذا فكَّر، لا أبالي. أنا شخصٌ مجرمٌ ومُنحط، لكنني نِلتُ ما أردت، والأمر يستحق العناء. بحق الرب، يستحقُّ العناء. ولو متُّ غدًا، فالأمر يستحق العناء.

وصلا إلى القمة المستوية للتلِّ وصارا في مواجهة الصفِّ المزدوج من الشُّجَيرات التي شكَّلت ممرًّا طبيعيًّا وعرًا، يصِل عرضُه إلى نحو خمسين ياردة، على امتداد قمة التل. كان هذا من الأشياء التي أغفل أليك لودينج عن إخباره به، ولم يكن ظاهرًا أيضًا على الخريطة.

حتى هيئة المساحة لا يُمكنها ملاحظةُ شجيرات العرعر المتكتلة. فتوقف حتى يتأمَّلها. لكن تيمبر لم يكن في حالة مزاجية تدعوه إلى التأمُّل. فتيمبر كان يعرف كل شيء عن ذلك الامتداد المستوي من التل بين صفَّي الشجيرات.

قال برات: «حسنًا. لنرَ ما بوسعك أن تفعله»، وتركه يمضي.

كان برات قد ركب خيولًا طائرة من قبل. بل عشرات منها. ركب خيولًا عدَّاءة وربح أموالًا بها. كان يندفع بسرعةٍ اندفاعَ طائرة نفاثة. فلم تَعُد السرعة في حدِّ ذاتها تُدهشه. ما كان يُدهِشه هو رشاقة السير. كان الأمر يبدو وكأنه محمول في الهواء على ظهر حصانٍ مُعلَّق بلعبة دوَّامة الخيول.

تشتَّت الهواء العليل حول وجهه فدغدغ أذنَيه ثمَّ انطلق وراءهما، حاملًا رائحة العُشب المُشبع بالشمس ورائحتَي الجلد وشُجيرات الجولق. مَن يُبالي، مَن يُبالي، مَن يُبالي! هكذا نطقت القدمان الراكضتان. مَن يُبالي، مَن يُبالي، مَن يُبالي! هكذا نطقت الدماء المتدفِّقة في عروق برات.

لو مات غدًا لكان الأمر سيَّان عنده.

عندما وصلا إلى نهاية الممر الممتدِّ بدأ تيمبر في التوقف من تلقاء نفسه، لكن لم يكن من طبائع برات أن يسمح لحصانٍ باتخاذ القرارات، لهذا جعله يستمرُّ في السير، فأداره نحو نهاية الممر الأخضر جنوبًا، وحرَّكه بلُطفٍ نحو ممرٍّ ما، واستجاب تيمبر من دون اعتراض.

قال برات، مُمررًا أصابعه على العُرف الداكن: «عزيزي، أهناك خيول كثيرة مثلك في إنجلترا، أم إنك مُصنَّفٌ كخيلٍ مُميز؟»

أحنى تيمبر رأسه تأثرًا بملاطفته، لكن بإحساس مَن يَستوفِي حقَّه.

ولكن بينما كانا يسيران عائدَين على الجهة الجنوبية من السياج الأخضر الأشعث انصرف انتباه برات واهتمامه إلى امتداد الريف أسفل منهما. وفيما عدا أنه كان ينظر إليها بالمقلوب، إن جاز القول — أي كان يراها من الشمال، وليس من الجنوب مثلما تُرى بطبيعة الحال على الخريطة — كانت كلير كما عرفها أول مرة. كان كل شيءٍ مُمتدًّا تحت مَرآهُ بوضوحٍ ودقَّة كما وصفتها هيئة المساحة.

أسفل منه، إلى يساره قليلًا، كانت الأسقف القرمزية لمزرعة لاتشتس، مُقحمةً في المقصورات الأنيقة لحظيرة الخيول. وعلى مسافةٍ أبعدَ إلى اليسار كانت الكنيسة قائمة على تبَّتِها الصغيرة؛ وعلى يسارها مرة أخرى، كانت قرية كلير، على شكل مجموعةٍ من

الأسقف وسط أشجارٍ خضراء باهتة. وعند مَوضع ارتفاع الأرض عن القرية ليُشكل الجانب الجنوبي من الوادي الصغير، كان كلير بارك؛ منزل أبيض طويل يَحتمي من عواصف القنال الإنجليزي الجنوبية الغربية بالمنحدَر القائم وراءه.

في الجهة المقابلة له مباشرةً ارتفع ذلك الجزء المرتفع ليصير نسخةً أصغر حجمًا وأكثر وُعورة من التلِّ الذي كان يقف عليه؛ فكان تلًّا أخضر منخفضًا يُدعى تانبيتشس. كان عبارة عن مرعًى مفتوح مُمتد، يُميزه في منتصف الطريق مَحجرٌ قديم صار مُحاطًا بالعشب جعله أشبه بندبة خضراء، وتُكلِّله أشجار الزان. لم يكن هناك سوى سبع أشجارٍ من الزان في ذلك الوقت بدلًا من عشر، لكنَّ تكتلات الأشجار شكَّلت قمةً جمالية مُبهجة للجانب الجنوبي من الوادي.

أما الجانب الآخر من تل تانبيتشس، كما عرف من الخرائط، فامتدَّ بعيدًا في هيئة منحدَرٍ سهلٍ مسافةَ ميلٍ ونصف الميل حتى المنحدرات الصخرية. تلك المنحدرات التي أنهى عندها باتريك آشبي حياته. وراء التل الأكثر انخفاضًا في الوادي، على التل المقابل لتلة كلير بارك، كانت المزارع التي ظهرت على نحوٍ يصعُب ملاحظتها في نطاقِ ميلٍ أو ميلَين داخل ضواحي ويست أوفر. في الوادي الصغير الذي ميَّز تلةَ كلير بارك عن تل تانبيتشس كان هناك مسارٌ مؤدٍّ إلى الساحل. المسار الذي سلكه باتريك آشبي في مثل ذلك اليوم منذُ ثماني سنوات.

باتت الصورة فجأةً أكثرَ واقعية له من أي وقتٍ مضى حتى الآن: هذه الفاجعة التي كان يستغلُّها لصالِحِه. بل باتت أكثرَ واقعية عما كانت عليه في الجناح الذي عاش فيه باتريك. كان هناك في المنزل علاقات أخرى غير باتريك: علاقات أكثر حضورًا وحيوية. كانت هناك مُشتِّتات التواصُل الإنساني وحاجته الشخصية إلى التحلي بالحذر دائمًا. هنا في العراء والعزلة تجلَّى واقعٌ لم يتجلَّ من قبل قط. فعبْر ذلك المسار الشارد الممتدِّ على الجهة الأخرى من الوادي رحلَ صبيٌّ، مشحونًا بالبؤس لدرجةِ أن هذا العالم الإنجليزي بخَضَاره البهي لم يَعنِ له شيئًا. كان يملك خيولًا مثل تيمبر، وأصدقاء وعائلة، ومكانًا ينتمي إليه، ومع ذلك لم يعنِ له كل هذا شيئًا.

ولأول مرة وهو في عُزلته تلك أدرك برات بذاته فاجعةً أخرى. عندما أخبره لودينج بالقصة في أول مرة، في تلك الحانة بلندن، لم يشعر بشيءٍ سوى بالازدراء لهذا الصبيِّ الذي ملك الكثير ولم يستطِع الاستغناءَ عن ذلك الشيء الإضافي البسيط. مسكين، هكذا جال

بخاطره. ثم أحضر لودينج تلك الصور إلى حديقة كيو، وأراه باتريك، وحينها ساوره ذلك الشعور العجيب بالتماهي، ذلك الشعور بالتحيُّز إليه.

قال لودينج، وقدماه تستندان بأريحية على سور الحديقة، وقد ناوله الصورة: «ذلك بات آشبي. كان في عمر الحادية عشرة تقريبًا هنا.» كانت صورة التُقِطت بكاميرا من طراز براوني تو إيه، وقبِلها برات بفضولٍ حقيقي لكنه غير مُلِحٍّ.

لكن بات آشبي لم يكن «المسكين» المجهول الذي كان يحتفظ بصورته في ذهنه حتى الآن. إنما كان شخصًا حقيقيًّا. شخصًا حقيقيًّا جديرًا بالحب. شخصًا شعر برات أنه كان سيُصبح أثيرًا لدَيه. وهكذا تحوَّل عداؤه الغامض لباتريك إلى تحزُّب وتعاطف.

غير أن شعوره بالأسى نحوَه لم يكن له وجود حتى تلك اللحظة من السكون التي حظِيَ بها فوق لاتشتس.

جاء صوت صلصلة خافت من الوادي؛ فجالت عينا برات إلى أسفل من تل تابيتشس إلى الكوخ الواقع عند سفحه. كان ذلك هو كوخ الحدَّاد. كان يقع على بُعد ربع ميل غرب القرية. كان يظهر على الخريطة في شكلِ مُربعٍ صغير أسود على جانب الطريق؛ أما في تلك اللحظة فكان عبارة عن مبنًى صغير له مدخنة سوداء يصدر ساكنه أصواتًا موسيقية بمطرقة.

كان المشهد برُمته يُشبه كثيرًا الفيلم الذي اكتسب منه لغته الفرنسية المتواضعة. «ها هو ذا الحداد» (فوالا لو فورجيو). لم يكن ينقصُه سوى كاهن من الكنيسة. وساعي بريدٍ على دراجة يسير بين ورشة الحدَّاد والقرية.

انزلق برات من فوق ظهر تيمبر، وبحكم عادةٍ راسخة لدَيه منذ زمنٍ طويل أرخى رباط السَّرج وكأنه كان على متن الحصان لساعات، ثم جلس مُولِّيًا ظهره شجيراتِ الجولق والعرعر ليُمتِّع عينَيه بهذا المشهد الأوَّلِي للريف الإنجليزي.

الفصل الخامس عشر

مرَّت السُّحب الكبيرة ومضت، وومض ضوء الشمس وهرب، واقتربت الرياح الهادئة الحائرة من أشجار العرعر ثم ابتعدت عنها فأثارت أصوات حركة سريعة هادئة في العشب. وأصدر تيمبر أصواتًا قليلة بشكيمته، وقطع بعض العشب بأسلوبٍ حذرٍ ومتعجرف. بينما انغمس برات في خدَر السعادة والمتعة وتوقَّف تمامًا عن التفكير بعقلٍ واعٍ.

أفاقه اندفاعٌ سريعٌ لرأس تيمبر لأعلى، وفي اللحظة نفسها تقريبًا جاء صوتٌ نسائي من خلفِه قائلًا، وكأنها ترنيمة مقفَّاة:

«لا تلتفت،

لا تتحرك،

أغلق عينيك،

وخمِّن مَن أنا.»

كان صوتًا لندنيًّا نوعًا ما، وكان يقطر مكرًا.

مثل أي شخصٍ آخر في مثل هذه الظروف امتنع برات عن تلبية الأمر تلقائيًّا. نظر حوله ليجد أمامه وجهَ فتاةٍ في السادسة عشرة أو نحو ذلك. كانت فتاة ضخمةً ممتلئة، ذات شعر كستنائي لامع وعينَين زرقاوَين جاحظتَين. كانت العينان مُميزتَين بقُدرتهما على إظهار النَّهم والبلادة في آنٍ واحد. وعندما التقتا بعينَي برات كادتا تخرجان من محجريهما.

قالت الفتاة بصوت قارب الصراخ: «يا إلهي». وأردفت: «حسبتُك سايمون. أنت لست هو!»

وافقها برات، وقد همَّ بالوقوف على قدمَيه: «نعم، لست هو.»

لكن قبل أن يتمكن من الحركة كانت قد هوت على العشب بجواره.

«يا إلهي، لقد صدمتني. أظن أني أعرف مَن أنت. أنت الأخ الغائب منذ زمنٍ طويل، أليس كذلك؟ لا بد أنك هو؛ تُشبه سايمون كثيرًا. هذا هو أنت، صحيح؟»

قال برات إنه هو.

«حتى إنك ترتدي النوع نفسه من الملابس.»

قال برات إنها ملابس سايمون. «أتعرفين سايمون؟»

«بالطبع أعرفه. أنا شيلا بارسلو. إحدى تلميذات المدرسة الداخلية في كلير بارك.»

«أها.» مدرسة المراوغين، كما أسمَتها إلينور. المكان الذي لم يكن فيه أحدٌ مُضطرًّا إلى تعلُّم جدول العدد تسعة.

«أبذل قصارى جهدي لأُقيم علاقة مع سايمون، لكنها مهمة عسيرة.»

لم يكن برات يعرف الردَّ اللائق على ما قيل، لكنها لم تكن بحاجة إلى أي تشجيع لمواصلة الحديث.

«عليَّ أن أفعل شيئًا حتى أُنعش الحياة في كلير بارك. لا يُمكنك أن تتصوَّر الملَل القاتل فيها. لا يمكنك أن تتصوَّر حقًّا. لا يُوجَد شيء — ولكني لا أقصد «شيئًا» بذلك — أنت ممنوع من فِعله. ذات مرةٍ شعرت بيأسٍ شديد دفعني إلى خلع ملابسي بالكامل واتجهت نحو مكتب سيدريك — سيدريك هو قائدنا، لكنه لا يُحب أن يُطلَق عليه رئيس، لكن هذا دوره بالطبع — دخلت وأنا لا أرتدي شيئًا، عارية تمامًا، ولم يقُل سوى: «هل خطر ببالك يومًا اتباع حمية غذائية، يا عزيزتي شيلا؟» سدَّد نظرةً إليَّ فحسب ثم قال: «هل خطر ببالك يومًا اتباعُ حمية غذائية؟» ثم مضى يبحث عن أصلي وفصلي. دائمًا ما يبحث عن الأصل والفصل. لا تحظى حقًّا بفرصة كبيرة للوصول إلى كلير بارك إلا إذا كان والدك من الصفوة. أو والدتك، بالطبع. لم يكن أبي من الصفوة، لكنه كان من أصحاب الملايين، هكذا كان أبي، وهذا بديلٌ وافٍ تمامًا. فالملايين مدخلٌ جيد للغاية، أليس كذلك؟»

فقال برات إنها من المُفترَض أن تكون كذلك.

«لوَّحتُ بملايين أبي أمام سايمون؛ فهو يُكِن احترامًا جمًّا لأي استثمارٍ مُجدٍ وأملتُ أن يُعزِّز ذلك من جاذبيتي في عينَيه، إن صحَّ القول؛ لكن سايمون متغطرس مريع، أليس كذلك؟»

«أهو كذلك؟»

«ألا تعرف؟»

«لم أُقابله سوى اليوم.»

«أها، بالطبع. لقد عُدت لتوك. يا له من أمرٍ شائق لك. أتفهم أن سايمون ليس مبتهجًا كثيرًا بالطبع، لكن لا بد أن الأمر مُشوِّق لك أن تحلَّ محلَّه.»

تساءل برات إن كانت هي أيضًا قد تلذَّذت بتعذيبه.

«ربما صارت لي فرصة أكبر مع سايمون بعد أن جرَّدتَهُ أنت من ثروته. سيكون عليَّ أن أترصَّده في مكانٍ ما وأرى. حسبتُ أني أترصَّده الآن، عندما رأيت تيمبر. فهو غالبًا ما يأتي هنا لأنه مكانه المُفضَّل لتدريب الخيول. إنه يكره تانبيتشس.» ثم حرَّكت ذقنها فجأةً نحو الجهة المقابلة للوادي. «وهذا مكان مناسب للانفراد به. لهذا أتيتُ إلى هنا أملًا في أن يُحالفني الحظ، ثم رأيت هذا الحيوان الأسود، فظننتُ أنه صار تحت قبضتي. لكنه لم يكن إلا أنت.»

قال برات بوداعة: «أعتذر لك.»

نظرت إليه في تأمُّل.

قالت: «أظن أن محاولة إغوائك بدلًا منه غير مُجدية؟»

«أخشى أنها كذلك.»

«أهذا لأني لستُ نوعك المُفضَّل، أم إن هذا ليس توجُّهك؟»

«أخشى أنه ليس توجُّهي إلى حدٍّ كبير.»

قالت موافقة إيَّاه: «نعم، أظنك كذلك. لك وجهٌ يُشبه الرهبان. من المُضحك أنك تُشبه سايمون كثيرًا لكنك مختلف عنه تمامًا. سايمون ليس به أي شيءٍ من الرهبان، كما بوسع ابنة جيتس التي تعيش هناك في ويجسيل أن تُخبرك. لقد صنعتُ دمًى لابنة جيتس وغرزت فيها دبابيس على سبيل السحر، لكن الأمر لا يُجدي نفعًا. لا تزال متوردةً مثل زهرة فاونيا لفحتها الشمس وتفتنُهُ مثل شريط صائد للحشرات.»

كانت هي نفسها أشبه بزهرة فاونيا مزدهرة، هكذا فكَّر وهو ينظر إلى ثغرها المتورد الندي والأزرار التي تشدُّ ملابسها حول صدرها الممتلئ. لكنها كانت زهرة ذابلة ومُحبَطة بعض الشيء في تلك اللحظة.

سأل برات: «هل يعرف سايمون أنكِ مُغرمة به؟»

«مُغرمةٌ به؟ لستُ مغرمة به. لا أعتقد أنني أُحبه مطلقًا. أريد فقط أن أُقيم علاقة معه لأُضفِيَ بهجةً على هذه الفترة قليلًا. إلى أن أتمكَّن من مغادرة هذا المكان الممل.»

سأل برات بعقلانية: «إذا لم يكن بوسعك فِعل أي شيءٍ تُحبينه، لِمَ لا يُمكنك المغادرة الآن؟»

«حسنًا، لا أريد أن أبدوَ حمقاء كثيرًا، كما تعرف. كنت أرتاد مدرسةً في لينج آبي، وأحلت المكان جحيمًا حتى يُضطر أهلي إلى إبعادي وإرسالي إلى هنا. ظننتُ أني سأقضي أجمل أوقات حياتي هنا، بلا دروس، ولا جدول للحصص، ولا قواعد ولا أي شيء. لم يكن لديَّ فكرة أنه سيكون مضجرًا إلى هذا الحد. أكاد أبكي من فرط الملل.»

«ألا يُوجَد أحدٌ في كلير بارك يمكن أن تتَّخِذيه بديلًا عن سايمون؟ أقصد شخصًا أكثر ... أكثر لطفًا؟»

«لا، ألقيتُ نظرةً عليهم في البداية. جميعهم نحفاء وغزيرو الشعر ومثقفون. هل لاحظت من قبل كيف يميل المثقفون إلى الشعر الطويل؟ بعض الناس يستمتعون بهذا المنظر المثير للاشمئزاز، لكني لستُ من هؤلاء. أحبُّهم وُسَماء. ولا بد أن تقرَّ بأن سايمون وسيم للغاية. كان هناك مساعد بستاني في لينج آبي على القدْر نفسه من الوسامة تقريبًا، لكنه كان يفتقر إلى ذلك الشكل المُبهر الذي يخطف الأبصار الذي يتمتع به سايمون.»

«ألم يكن مساعد البستاني سببًا كافيًا للبقاء في آبي؟»

«لا، لقد فصلوه من العمل. كان ذلك أسهلَ عليهم من طردي وإثارة فضيحة. لكنهم اضطروا إلى طردي في جميع الأحوال؛ لذا ربما كان من الأفضل أن يحتفظوا بألبرت المسكين. كان أمهرَ بكثيرٍ في التعامُل مع أزهار اللوبيليا عن التعامل مع الفتيات. لكن بالطبع لم يكن متوقعًا منهم أن يعرفوا ذلك. أظنك لن تثنيَ عليَّ بكلمة أمام سايمون؟ سيكون من المؤسف أن يضيع كلُّ ما تكبَّدته من عذاب أثناء محاولتي إثارة إعجابه.»

«عذاب؟»

«ألا ترى أني تحمَّلت ساعاتٍ على تلك الحيوانات المريعة لمجرد التسلية فحسب؟ وفي وجود أخته العجفاء الباردة التي تنظر إليَّ بازدراء. تبًّا، نسيت: إنها أختك أنت أيضًا، أليس كذلك؟ لكنك ربما أطلتَ الغياب لدرجةٍ لا تجعلك تُفكِّر فيها مثلما يفكر صبي في أخته.»

قال برات: «بالتأكيد لا أفكِّر فيها هكذا»، لكنها لم تكن تنصت إليه.

«أظنك تركب الخيول منذ أن استطعت الحبو، وليس لديك أي فكرة كيف يبدو الأمر حين يرتطم جسدك على ظهر شيء مرتفع كثيرًا عن الأرض يبدو كجبل مهيب بلا معالم، وليس لديك شيء لتتشبث به. يبدو الأمر سهلًا للغاية عندما يفعله سايمون. فالحصان يبدو لطيفًا للغاية وعرْض ظهره ضيق عندما تكون واقفًا على الأرض. تظن أن بإمكانك ركوبه مثلما تركب الدراجة. فقط عندما تصعد تكتشف أن عرْض ظهره يصل إلى أفدنة ولا يسعك أن تُصدر أي انطباعٍ نهائيًّا وأنت على صهوته. ليس عليك سوى الجلوس والارتطام،

وتنزلق رجلاك إلى الخلف والأمام بدلًا من أن تظلا ثابتتَين مثل رجلَي سايمون، ثم تُصيبك بُثُور كبيرة تُعجِزك عن الجلوس في حوض الاستحمام لأسابيع. لا تبدو شبيهًا بالرهبان بتاتًا عندما تبتسم قليلًا.»

ألمح برات إلى أنه كان هناك بالتأكيد طرقٌ أفضل لجذب اهتمامٍ مُرضٍ من تجربة شيء لا تملِك فيه أي خبرة بينما الشخص الذي تسعى وراءه قد وصل فيه حدَّ الإتقان.

«لم أكن أعتقد أنني كنت سأجذبه بهذه الطريقة. لقد منحني ذلك مبررًا للوجود في الإسطبلات فحسب. فتلك الأخت ... أقصد أختك لا تطيق التسكع حول المكان إذا لم يكن لك شأن هناك.»

فكَّر: «أختك»، وأعجبه وقع الكلمة.

لقد صار لديه ثلاث أخوات الآن، اثنتان منهن على الأقل كانتا من النوع الذي كان ليتمناه. في ذلك الحين كان عليه أن يرحل ويلتقيَ بهنَّ كي يتعرَّف إليهن أكثر.

قال وهو ينهض واضعًا اللجام على رأس تيمبر: «أخشى أني مُضطر إلى الرحيل.»

قالت وهي تُشاهده يُحكِم الحزام: «أتمنَّى لو لم تكن مضطرًّا إلى ذلك. أنت ألطف شخص تحدَّثت إليه على الإطلاق منذ قدومي إلى كلير. من المؤسف أنك لستَ مهتمًّا بالنساء. ربما يمكنك أن تقطع علاقة سايمون بابنة جيتس، وعندئذٍ سيكون لدي فرصة أكبر معه. هل تعرف ابنة جيتس؟»

قال برات، وهو يصعد على ظهر تيمبر: «لا.»

«حسنًا، ألقِ نظرة عليها. إنها في غاية الجمال.»

قال برات: «سأفعل ذلك.»

«أما وقد عُدت إلى الوطن، فأظن أني سأصادفك في الإسطبلات.»

«أتوقَّع ذلك.»

«ألا تودُّ أن تُعطيَني حصةً من دروسي بدلًا من أختك؟»

«أخشى أنه ليس مجال اختصاصي.»

قالت وقد بدت متقبلةً للأمر: «حسنًا، لا بأس. تبدو جذابًا للغاية على ذلك الخيل. أظن أن ظهره عريض جدًّا أيضًا. جميعهم كذلك. إنها مؤامرة.»

قال برات: «إلى اللقاء.»

«أتعلم، أنا لا أعرف اسمك. أخبرَني أحدهم به بالطبع، لكني نَسيتُه. ما هو؟»

«باتريك.»

وعندما نطق بالاسم عاد بذهنه إلى المسار في الجهة المقابلة من الوادي، ونسي الآنسة بارسلو في لمح البصر. عدا بالخيل إلى الخلف ببطءٍ عبْر قمة التل حتى وصل إلى نفس المستوى مع لاتشتس، ثم بدأ في توجيه تيمبر جنوبًا. أسفل منه، كان ثمة طريق أخضر يمرُّ بحظائر الخيول متجهًا نحو الجهة الغربية من المنزل ومنها إلى الامتداد المفروش بالحصى في واجهته. من ذلك الطريق جاءت جين صباح ذلك اليوم، عندما أربكها استقباله عند الباب الأمامي. كانت البوابة المؤدية إلى الطريق مفتوحةً، وكانت البوابة في وضعٍ مستوٍ مع العوارض المتينة للحظيرة المتينة المحاذية للطريق. سار برات حتى النقطة التي استحال فيها مَيَلان التل إلى أرض منحدرة انحدارًا خفيفًا، ثم دفع تيمبر ليعدوَ ببطء. كان النفق الأخضر للطريق بأرضيته الناعمة مفتوحًا أمامهما، ولم يكن ينوي أن يفسد عليه الطريق بالتوقف لغلق بوابة أخرى كان شخصٌ آخر قد تركها مفتوحة.

لم يكن السبب في تأخُّر قدمِه اليسرى خمس دقائق كاملة هو عدم إجادته ركوب الخيل. بل كان ذلك يعود كليًّا إلى السنوات التي قضاها في ركوب الخيل بعنفٍ وخشونة، مما جعل استجاباته الجسدية أسرعَ من فكره الواعي. كان الانحراف مفاجئًا تمامًا وحماسيًّا حتى إن السياج الأبيض كان يحتكُّ بالسَّرج في الموضع الذي يُفترض أن تكون فيه رجله، قبل أن يُدرك أن رجله لم تكن هناك. فقد أبعدها قبل أن يسنح له الوقت بالتفكير في ذلك.

عندما ابتعد تيمبر عن قضبان السياج أرخى ظهرَه في مقعد السَّرج وأوقف الحصان. فتوقَّف تيمبر مُطيعًا.

قال برات، وهو يزفر نفسه المحبوس: «فوو!» خفض بصره إلى تيمبر الذي وقف في براءة وخجل في منتصف الطريق بالضبط.

فقال متندرًا: «مشاكس أنت.»

ظل تيمبر خجلًا لكنَّ أذنَيه كانتا مُنصتَتَين إليه. فكَّر برات أن ما حدث شيء تافه على نحوٍ يثير القلق.

قال برات: «أعرف رجالًا كانوا سيضربونك ضربًا مبرحًا على ذلك»، ثم أنزل أنف الحصان إلى أسفل مرةً أخرى. تراجع تيمبر في خطواته طائعًا، لكن كان واضحًا أنه غير راضٍ في قرارة نفسه. عندما كان بعيدًا بما يكفي عن البوابة قاده برات مرةً أخرى نحو فتحة النفق. لم يكن لدَيه مهماز ولا لجام، لكن انتابه الفضول أن يرى ماذا سيفعل تيمبر هذه المرة. انطلق تيمبر، كما توقَّع، بأدبٍ ليدخل إلى الطريق، متوسطًا المسافة بين كِلا السياجَين بمنتهى الدقة.

بدا وكأن لسان حاله يقول: «ماذا، أنا! أنا أفعل شيئًا كهذا عن عمد؟ أنا، بأخلاقي المثالية؟ بالطبع لا. لقد اختلَّ توازُني وهلةً فحسْبُ عند دخولي الطريق. هذا يحدث لأفضل الناس.»

فكَّر برات، جاذبًا إيَّاه نحو السير: «لا بأس، لا بأس.» ثم قال بصوتٍ عالٍ، مُسيِّرًا إياه عبْر الطريق: «تظن نفسك ذكيًّا. خيول أشدُّ ذكاءً منك حاولت الإطاحةَ بي من فوق صهواتها، صدِّقني. لقد أطاحت بي خيول كفيلة بأن تجعل قيمتك لا تتجاوز قيمة حلوى بخمسة سنتات.»

اهتزت الأذنان السوداوان، مُنصتتَين إليه، تحلِّلان درجةَ صوته ونبرته؛ فأصابتهما الحيرة.

اقتربت الأفراس من السياج لتشاهدهما وهما يمران، مسرورة من هذا الحدث الصغير الذي اقتحم حياتها الهادئة؛ أما المهور فأخذت تدور وتدور في حماسةٍ اشتعلت بداخلها من تلقاء نفسها. لكن تيمبر لم يلتفت إليها. كان قد فقد أيَّ اهتمامٍ فعليٍّ بالأفراس في مرحلةٍ عمرية مبكرة للغاية، وبدا جلُّ اهتمامه في تلك اللحظة بأن هناك مَن فاقه ذكاءً، وأن الشخص الذي فاقه ذكاءً قد أصدر أصواتًا لم يفهمها. كانت أذناه، اللتان كانتا من المفترض أن تنتصبا لمجرد فكرة اقترابه من الإسطبل، مُضطربتَين ومتسائلتَين.

سار برات نحو الجهة الأمامية من المنزل، مثلما فعلت حين ذلك الصباح، لكنه لم يرَ أحدًا. فاستكمل طريقَه إلى الإسطبلات فوجد إلينور تتجوَّل فقط بحصانٍ للنقل، بعد أن انتهت من إعطاء توني درسَه وتركته في كلير بارك.

قالت: «مرحبًا! هل كنت في الخارج مُمتطيًا تيمبر؟» بدت متفاجئة قليلًا. ثم أردفت: «أرجو أن يكون سايمون حذَّرك منه.»

«أجل، أشكركِ، حذَّرني.»

قالت بأسفٍ، وهي تنظر إلى تيمبر وهما يسيران جنبًا إلى جنب نحو الفناء: «إحدى صفقاتي غير الموفَّقة.»

فقال: «صفقاتك أنتِ؟»

«أجل. ألم يُخبرك سايمون بذلك؟»

«لا.»

«كان ذلك لطفًا منه. أتوقَّع أنه لم يُرِد أن تكتشف مدى حماقة أختك مبكرًا هكذا.» وابتسمت له قليلًا، كأنها كانت سعيدة لكونها أخته. «اشتريته من مزاد لريدج هانت. كان

تيمبر هو الذي قتل فيلكس العجوز. فيلكس هانتستانتون العجوز، صاحب الخيول، كما تعرف. هل أخبرك سايمون؟»

«لا. لا، أخبرني فحسب عن حيَله.»

«كان فيلكس العجوز يملك بعضَ الخيول الماهرة، وعندما عُرِضت للبيع اتجهتُ إلى هناك لأرى ما يمكنني اختياره منها. لم يكن أيٌّ من زبائن لرديج هانت الدائمين يزايد على تيمبر، لكني ظننتُ أن ذلك ربما يكون لشعورٍ وجداني. ظننتُ أنهم ربما لم يريدوا امتلاكَ الحصان الذي قُتل عليه سيده. وكأن هناك تدخلًا للعاطفة في تجارة الخيول! لم يكن ينبغي أن أُترك للتصرُّف بمفردي. ومع ذلك، كان عليَّ أن أتساءل لمَ اشتريتُه بثمنٍ زهيد هكذا، رغم هيئته ونَسَبه وأدائه. ولم نكتشف إلا بعد شرائه أنه قد فعل الشيء نفسه مع الصياد بعد أيام قليلة، كلُّ ما في الأمر أن الأغصان كانت صغيرة وانكسرت وأدَّت إلى موته، ولكن لم يضربه على رأسه أو يجرجره.»

قال برات، الذي بدأ الحديث: «فهمت.»

«على ما يبدو أن لا أحد كان بحاجةٍ إلى الإقناع. فلم يُصدِّق أحدٌ ممن كانوا هناك عندما قُتل فيلكس أنه كان مجرَّد حادث. كان في تجمُّعٍ لصيد الثعالب في لريدج كاسل، وقد عثروا على فريسة في إحدى غابات لريدج وظلوا يطاردونها عبر الغابة بأكملها. كانت منطقةً ريفيةً جيدة ومفتوحة بها أشجار منعزلة. ولكن تيمبر أخذ فيلكس تحت إحدى أشجار البلوط، وتلقَّى ضربةً بشعة، ومات قبل أن يرتطم بالأرض. لكننا بالطبع لم نعلَم بكل ذلك إلا لاحقًا. كلُّ ما كنت أعرفه حين تقدَّمتُ لشرائه من المزاد أن رأس فيلكس قد ارتطم بغصن شجرة أثناء الصيد. وهو شيء يحدُث للناس منذ عهد ويليام روفوس.»

«هل شاهد أحدٌ ما حدث بالفعل؟»

«لا، لا أظن ذلك. كان الجميع يعرف فقط أن وسط كل هذا المتنزَّه الرحيب لم يكن فيلكس ليختار السير بالخيل تحت شجرة بلوط. وعندما حاول فِعل الشيء نفسه مع سامس الصياد، لم يكن هناك أدنى شك في أنه مَن فعلها. لهذا وُضع في مزادٍ مع بقية المجموعة وتجمَّع كل زبائن لريدج في صمت يشاهدون إلينور القادمة من كلير تشتري مُهرًا.»

قال برات مُمسدًا عنق تيمبر: «لكنه مُهر أنيق للغاية دون شك.»

قالت إلينور: «إنه مُهر جميل.» ثم أضافت ولا تزال ترمق صفقتها غير المُوفَّقة بعينٍ حائرة: «ووثَّاب لا غبار عليه. هل جعلته يقفز اليوم بأي حال؟ لا؟ لا بد أن تفعل ذلك المرة

القادمة. إنه صاحب الوثبة الأكثر أمانًا لأن عقله مُشتَّت. فليس لدَيه وقت لتدبير أي شغب مؤذٍ. أمر غريب، أليس كذلك؟ لا يبدو عليه أنه غير جدير بالثقة.»

«لا.»

أدركت نبرة الصوت ثم قالت: «لا تبدو واثقًا من ذلك للدرجة.»

«حسنًا، لا بد أن أُقرَّ بأنه أكثر الخيول التي قابلتُها غرورًا على الإطلاق.»

بدت الفكرة جديدة بالنسبة إلى إلينور مثلما كانت جديدة بالنسبة إلى سايمون.

«مختال بنفسه، أليس كذلك؟ أجل، أظنه كذلك. أتوقَّع أن يُصيبني الغرور لو كنتُ خيلًا وكان لي ما يكفي من الذكاء لقتل رجل. هل حاول القيام بأي حِيَلٍ اليوم؟»

«انحرف عند مدخل الطريق، لكن لم يفعل شيئًا خلاف ذلك.» لم يذكر أنه استغل أول قطعة خشب متينة ليسحق رجلي فيها. فقد كان ذلك شيئًا بينه وبين الحصان. فهو وتيمبر بينهما معرفة طويلة، وبينهما الكثير ليُفضيا به بعضهما إلى بعض.

قالت إلينور: «يتصرف كملاكٍ أغلب الوقت. ذلك هو الشيء المؤذي فيه. سبق لنا جميعًا أن ركِبناه؛ سايمون وجريج وآرثر وأنا، ولم يُسئ التصرف إلا مرتَين. إحداهما مع سايمون والأخرى مع آرثر.» ثم أضافت بابتسامة: «لكننا بالطبع كنا ننأى بأنفسنا دائمًا عن الأشجار.»

«سيُحقق نجاحًا في الصحراء. حيث لا أسيجة ولا أغصان تتخلل الرحلة.»

نظرت إلينور بحزنٍ إلى الخيل الأسود بينما كان برات يسحبه ليسمح لها بأن تسير أمامه نحو الفناء. ثم قالت: «أتوقَّع أنه سيختلق حيلةً أخرى.»

ووافقها برات الرأي، مُمعنًا التفكير فيما قيل. كان تيمبر خيلًا نادرًا وسط الخيول: مشاغب متأنٍّ وذكي. حين يتوقف عن مرحه المعتاد، كان يختلق شيئًا جديدًا. لم يكن تيمبر بكائنٍ يُستَهانُ به.

ولم يكن سايمون يُستهان به. لقد أرسله سايمون على صهوة خيلٍ مشاغب سيئ السمعة، مع ملاحظة بسيطة عن الخيل بأن «له حِيَله.» كانت حيلةً بارعة لارتكاب جريمة قتل غير متعمَّد بالوكالة لم يأتِ بها أحد من قبل.

الفصل السادس عشر

نظرت بياتريس آشبي على مائدة العشاء إلى ابن أخيها باتريك وفكَّرت كم كان حاله جيدًا. لا بد أن الموقف كان في غاية الصعوبة عليه، لكنه كان يتعامل معه على نحوٍ جيد. لم يبدُ مرتبكًا أو مُفرط الحماسة. أضفى على الموقف ذلك الانعزال الهادئ نفسه الذي أظهره في لقائهما الأول في تلك الغرفة في بيمليكو. كانت تلك صفةً محضة من صفات البالِغين، وكان من المُدهش قليلًا أن يتحلى بها صبيٌّ لم يبلغ الحادية والعشرين بعد. إن باتريك آشبي يتحلَّى بوقار مهيب، هكذا جال بخاطرها وهي تُراقبه أثناء تعامُله مع القس. من المؤكد أن أحدًا لم يسبق له أن استطاع أن يكون صامتًا بطبعه إلى هذا الحد دون أن يبدوَ إما جافًّا أو أحمق.

كانت هي مَن تولَّت تربية سايمون، وكانت سعيدةً بثمرة تربيتها. لكن هذا الصبيَّ ربَّى نفسه بنفسه، وكانت ثمرته، كما بدت، أفضل. ربما كانت مسألة «تكريس الجهد في أول سبع سنوات» والبقية تأتي تلقائيًّا. أو ربما أن الطيبة في باتريك كانت فطريةً حتى إنه لم يحتَج إلى أي توجيهٍ آخر. لقد اتبع مُعتقداته وأفكاره، فكانت النتيجة هذا الشاب الهادئ الناضج ذا الوجه الساكن.

كان قناعًا لوجهٍ؛ قناعًا حزينًا في مُجملِه. كان وجهًا مناقضًا للملامح المُماثلة التي يحملها وجه سايمون المُعبِّر؛ حتى إنها تُذكِّرك بتلك الأقنعة القلابة ذات الوجهَين الكوميدي والتراجيدي المُستخدَمة لزخرفة صفحات عناوين المسرحيات.

كان سايمون منتشيًا للغاية الليلة، وكان قلب بي يتألم من أجله. كان هو أيضًا يبدو في حالٍ جيدة، وأحبَّته الليلة بلا أي تحفُّظ تقريبًا. كان سايمون يُقدِّم تنازلًا، ويُقدِّمه بسماحة وعفوية لم يكن لها أن تُصدِّق أنهما مُمكنان. شعرت بالذنب قليلًا أنها قد حطَّت من قدْره. فلم تكن تُقِرُّ بأن سايمون الأناني المادي له مثل هذه القدرة على نكران الذات.

كانوا يختارون اسمًا لُمهرة «هَنِي»، وكان الحوار يزداد بذاءةً. كانت نانسي مُصمِّمة على أن «هَنِي» هو اسم للمغازلة والتدليل، وسيُترجَم إلى «بوبيت» (بمعنى محبوب أو مدلَّل)، وقالت إلينور إنه ينبغي ألا يُبتلى حصان أصيل ببراعة مُهرة هَنِي الحالية باسمٍ مثل بوبيت. إذا كانت إلينور قد امتنعت عن ارتداء ثيابٍ متأنقة بمناسبة وصول برات، فإنها الآن قد تداركت الأمر. مر وقتٌ طويل منذ رأتها بي بهذا التألق أو بهذا الجمال. فقد كانت إلينور من نوعٍ لا يتألق بسهولة.

قالت إلينور: «برات مولَع بهَنِي.»

قالت نانسي: «أظن أن بي قد استدرجتك إلى حظائر الخيل قبل أن تتجاوز عتبة الباب. هل نالت إعجابك يا برات؟»

كانت هي الأخرى تستخدِم الاسم المستعار. وحدَه القس مَن كان يدعوه باتريك.

أجاب برات: «أنا مُولعٌ بالمجموعة كلها. وعثرت على صديقة قديمة.»

«حقًّا؟ مَن هي؟»

«ريجينا.»

قالت نانسي: «أها، أجل، بالتأكيد. ريجينا المسكينة العجوز. لا بد أنها شارفت على العشرين!»

قال سايمون: «ليست «مسكينة» لهذه الدرجة. كانت ريجينا سترًا وغطاء لنا على مدار جيلٍ بأكمله. من المُفترَض أن نكافئها.»

علَّقت إلينور: «إنها تأخذ مكافأتها في المرعى. طالما كانت أكولةً نَهِمة.»

قال سايمون: «عندما تستبعد مُهرةً مثل ريجينا من العمل عامًا بعد عامٍ دون توقُّف، يُصبح عليك عبء إطعامها بلا عائد من ورائها.»

كان سايمون يشرب كميةً أكبر من المعتاد، لكن بدا تأثيره عليه محدودًا. رأت بي أن القس كان ينظر إليه من حينٍ لآخر والشفقة في عينَيه.

كان برات كذلك جالسًا على الطرف الآخر من المائدة يُراقب سايمون، لكن من دون شفقة. لم تكن الشفقة شعورًا ينغمس فيه برات في أغلب الأحيان: فلم يكن يُشفق على الآخرين بسهولة مثل جميع مَن يكرهون الإشفاق على الذات؛ لكن لم يكن نفوره من الشفقة هو سبب عزوفه عن التعاطف مع سايمون آشبي. ولم يكن السبب كذلك أن سايمون كان عدوَّه المُبين؛ فقد كان يُعجَب بالأعداء قبل تلك اللحظة. كان السبب أن ثمة شيئًا في سايمون آشبي جعله ينفر منه. ثمة شيء يتعلق بسايمون لا تفسير له. جلس هناك،

في سرورٍ وبحضورٍ جذاب، وجلس أقاربُه وأصدقاؤه يُصفِّقون له في صمتٍ على نُبل أخلاقه وشجاعته. كانوا يُصفقون «لتمثيلية»، لكنهم جميعًا سيُصعقون عند معرفة التمثيلية التي يدَّعيها سايمون من أجل مصلحتهم.

وبينما كان برات يُراقبه وهو يستعرض مآثره وميزاته، شعر بأن سايمون يُذكِّره بشخص قابلَه مؤخرًا. شخص منحه الانطباع ذاته بحسن التربية، والأخلاق الرفيعة، وحسن المظهر، وذلك الشعور ... الشعور بالعجز عن إيجاد تفسير. مَن تُراه ذلك الشخص؟

كان إحساسه بأن الاسم على طرف لسانه يثير جنونه. في غضون ثانية أخرى سيتذكر. أكان لودينج؟ لا. شخصٌ ما كان معه على السفينة التي قدِم على متنها؟ احتمال مستبعَد. ذلك المحامي: مستشار الملك ماكدرموت؟ لا. إذن مَن عساه أن يكون ...

«ألا ترى ذلك يا باتريك؟»

كان المتحدث هو القس مرة أخرى. حدَّث نفسه بأنه لا بد أن يكون حذِرًا مع ذلك الرجل. كان خائفًا من لقاء جورج بيك أكثرَ من أي شخصٍ باستثناء سايمون. بعد أخٍ توءم ليس هناك مَن يُحتمل أنه يتذكَّر الكثير عنك أو أن يتذكَّر على نحوٍ جيد مثل الرجل الذي علَّمك. ثمَّة عدد من الأشياء الصغيرة سيعرفها جورج بيك عن باتريك آشبي لم تكن أمُّه تعرفها عنه. لكن اللقاء مضى جيدًا إلى حدٍّ كبير. قبَّلَته نانسي بيك على وجنتَيه ثم قالت: «عزيزي، لقد صرت ناضجًا ورزينًا للغاية!»

قال القس: «هكذا كان باتريك دائمًا»، ثم صافحه.

نظر إلى برات بتمعُّنٍ، لكن ليس بالقدْر غير المعتاد من رجلٍ يتفحص تلميذًا قديمًا له التقى به بعد عَقدٍ من الغياب. أما برات، الذي كان ينفر من رجال الدِّين، فوجد نفسه يُعجَب بالقس. كان لا يزال حذِرًا منه، لكن لم يكن سبب الحذر هو مهنته كقس، إنما بسبب معرفته بباتريك آشبي، وعينَيه اللتَين تُشعَّان ذكاءً وفطنةً في وجهه الذي يُشبه القردة.

بالنظر إلى ذلك الذكاء، كان برات سعيدًا بكونه مُجهزًا على نحوٍ جيد للغاية بكافة المعلومات المتعلقة بدراسة باتريك آشبي وتعليمه. فقد كان القس صهرًا لأليك لودينج، وكان لدى لودينج ما أسماه نظرةً مُستترة على تعليم التوءم آشبي.

أما بالنسبة إلى أخت لودينج، فكانت أجمل سيدة رآها برات في حياته. لم يكن قد سمع قط بنانسي ليدينهام ذات الصيت والشهرة، لكنَّ أخاها كان كثيرَ الحديث عنها. «كان بوسعها أن تتزوَّج من أي رجلٍ في العالم؛ أيُّ رجل كان سيسُرُّه الاحتفاظ بها لمجرد

النظر إليها فحسب، لكنها اضطُرت إلى اختيار جورج بيك.» اطلع على صور لنانسي في كل أنواع الثياب، من ثياب السباحة وحتى فستانها الذي ارتدته في حفل تقديمها إلى المجتمع الأرستقراطي، لكن لم يوفِّها أيٌّ من الصور حقَّها في إظهار جمالها الهادئ، وروحها المرحة، ورقَّتها بوجهٍ عام. شعر أن جورج بيك رائع حتمًا إذا كانت نانسي قد تزوَّجته.

قالت لإلينور: «هل ذلك الطفل توسيلي هو مَن كنتِ تُدرِّبينه بالخارج؟ ذلك الكائن الذي التقيتُ بكِ برفقتِهِ عصر اليوم؟»

قالت إلينور: «كان ذلك هو توني.»

«كم أعادني إلى أيام شبابي!»

«توني فعلَ ذلك؟ كيف؟»

«لن تتذكَّري، لكن كانت هناك وحدات تُسمَّى بكتائب سلاح الفرسان. وكان لكل كتيبة فريق ينفِّذ حِيلًا أثناء ركوب الخيل. وكان لكل فريقٍ للحِيَل فرد «مضحك». وكل فرد «مضحك» للفريق المنفذ للحيل كان يبدو شبيهًا بتوني.»

قالت بي مبتهجةً: «هكذا كانوا! ذلك ما ذكَّرني به عصر اليوم لكني عجزت عن تذكُّره حينها. تلك الغرابة المُتقنة في حركاته. تلك الثياب غير المتناسقة تمامًا.»

علَّقت إلينور قائلة: «ربما تتساءلين عن سببِ تدريبي له على ركوب الخيل من الأساس. لكنه بمثابة استراحةٍ حقيقية بعد شيلا بارسلو. سيُجيد توني ركوبَ الخيل تمامًا يومًا ما.»

قال القس ساخرًا بلطف: «كلُّ شيءٍ يهون في سبيل فارس المستقبل، أليس كذلك؟»

سأل سايمون: «ألا يشهد أداء الفتاة ابنة بارسلو أيَّ تحسن؟»

«لن يتحسَّن أبدًا. إنها تنزلق في السَّرج مثلما تنزلق قطعة ثلجٍ على طبق. قد أبكي من أجل الحصان طوال الوقت الذي نقضيه في الخارج. لحُسن الحظ أن الحصان تشيري بيكر يحظى ببنية متينة ومُتبلِّد المشاعر حرفيًّا.»

أضفى الانتقال من غرفة الطعام إلى غرفة المعيشة هبوطًا مفاجئًا على مجرى الأحداث. فقد توقف الانسياب السريع والسلِس للحديث وصار عبارة عن كلماتٍ تتدفَّق ببطء بلا هدف. شعر برات فجأةً بالتعب حتى إنه لم يقوَ على الوقوف. أمَل ألا يفاجئه أحدٌ بأي شيء في تلك اللحظة؛ فقد صار عقله القوي مشوَّشًا من النبيذ الذي لم يعتَد عليه، وأفكاره مُرتبكة وأصابها الشلل. ودَّعت التوءمتان الحضورَ من أجل النوم وصعدتا إلى الطابق

العلوي. وصبَّت بي القهوة التي وضِعت جاهزة في انتظارهم على طاولة مُنخفضة بجانب المدفأة، ولم تكن ساخنة كما ينبغي أن تكون. فكشَّرت بي في وجه نانسي بحركات بائسة.

سألت نانسي بنبرة تعاطف: «لانا خادمتنا، أليس كذلك؟»

«أجل. أظن أنها كان عليها مقابلة آرثر فعجزت عن الانتظار عشر دقائق أخرى.»

لزم سايمون الصمت كذلك، وكأن المجهود الذي كان يبذله بدا فجأةً لا يستحقُّ العناء. بدا أنَّ إلينور هي مَن أحضرت حالة الدفء والسعادة التي كانت تسود غرفة الطعام، تلك الحالة التي أنجحت العشاء. في لحظات الصمت التي تخللت التدفقات البطيئة للحديث تساقط المطر على النوافذ الطويلة بصوتٍ هادئ.

قالت إلينور: «كنتِ مُحقة بشأن الطقس يا عمَّة بي. قالت صباح اليوم إن الطقس اليوم هو ذلك الطقس الصحو للغاية الذي يأتي بالمطر قبل حلول الليل.»

قال القس، رامقًا إيَّاها بنظرةٍ يحمل نصفها ابتسامة، والنصف الآخر مباركة: «بي على حقٍّ دائمًا وأبدًا.»

قالت بي: «يبدو ذلك منفرًا.»

انتظرت نانسي حتى يتباطئوا في شرب قهوتهم ثم قالت: «كان يومًا حافلًا لبرات يا بي، وأتوقع أنكم جميعًا مرهقون. لن نُطيل البقاء الآن، لكنكم ستأتون في زيارةٍ لنا عندما يتسنَّى لكم الإفلات من تلك الأفواج المُتدافعة، أليس كذلك يا برات؟»

أحضر لها سايمون وشاحها ثم اتجهوا جميعًا إلى عتبة الباب ليُودِّعوا ضيوفَهم. وعلى عتبة الباب خلعت نانسي حذاء السهرة الخاص بها، ودسَّته تحت ذراعها، ثم ارتدت حذاءً مطاطيًّا كانت قد تركته خلف الباب. ثم أدخلت ذراعها الأخرى تحت ذراع زوجها، وسارا مُتضامَّين تحت مظلتهما الوحيدة، ورحلت معه في ظلام الليل.

قال سايمون: «نانسي العزيزة. لا يُمكنك أن تقِفي عائقًا أمام أحد أفراد ليدينهام.» كان يبدو من حديثه أنه ثَملٌ قليلًا.

قالت بي برقةٍ: «ناني العزيزة.» ثم دخلت إلى غرفة المعيشة وأخذت تتفقَّدها بعينَيها دون تركيز.

قالت: «أظن أن ناني مُحقة. حان الوقت لنذهب جميعًا إلى النوم. لقد كان يومًا مثيرًا لنا جميعًا.»

قالت إلينور: «لا نُريده أن ينتهي بهذه السرعة، أليس كذلك؟»

ذكَّرها سايمون: «لديك موعد مع ابنة بارسلو غدًا في التاسعة والنصف. رأيت ذلك في السجل.»

«ماذا كنت تفعل بسجلِّ ركوب الخيل؟»

«أودُّ التأكد أنكِ لا تتلاعبين في ضرائب الدخل الخاصة بك.»

قالت إلينور، بتثاؤب عريض فَرِح: «أها، لا بأس، لنذهب إلى الفراش. كان يومًا رائعًا.»

والتفتت إلى برات لتتمنَّى له ليلةً سعيدة، فانتابها شعور مفاجئ بالخجل، ومدَّت يدَها إليه ثم قالت: «ليلة سعيدة يا برات. نم جيدًا»، ثم انصرفت صاعدة لأعلى.

التفت برات نحو بي، لكنها قالت: «سآتي لرؤيتك عند صعودي.» فاستدار إلى الخلف مُواجهًا سايمون.

«ليلة سعيدة يا سايمون.» والتقت عيناه بتلكما العينَين الباردتَين الثاقبتَين على مستوًى واحد.

قال سايمون باديًا عليه التندُّر قليلًا: «ليلة سعيدة لك يا ... باتريك.» ونجح في أن يجعل وقْع الاسم يبدو وكأنه استفزاز.

سمِع برات بي تسأله عند صعوده الدَّرج: «هل ستصعد الآن؟»

«ليس بعد.»

«هل ستتأكد من إطفاء الأنوار، إذن؟ وتتأكد من غلق الأقفال؟»

«نعم، بالطبع سأفعل ذلك. ليلة سعيدة، حبيبتي بي.»

عندما انعطف برات نحو بسطة الدَّرج رأى ذراعَي بي تحاوطان سايمون. وطعنه شعور بغيرةٍ شديدة مُحبِطة أصابه بصدمة. فيمَ يعنيه ذلك؟

تبِعته بي إلى غرفة الأطفال القديمة في غضون لحظات معدودة. نظرت بعينٍ مُتمرسة إلى الفراش ثم قالت: «وعدَتْ تلك البلهاء بأن تضعَ زجاجة مياه ساخنة ونسِيَتْ.»

قال برات: «لا تقلقي. كنتُ سأخرجها مرة أخرى فحسب. فأنا لا أستخدِم تلك الأشياء.»

قالت: «لا بد أنك ترانا جمعًا من أشخاصٍ هادئين.»

قال: «بل أراكم جمعًا من أشخاصٍ لطفاء.»

نظرت إليه وابتسمت.

«هل أنت مُتعَب؟»

«نعم.»

«متعب إلى حدٍّ يمنعك من تناول الإفطار في الثامنة والنصف؟»

«يبدو موعدًا متأخرًا بالنسبة إليَّ إلى حدِّ الترَف.»

«هل استمتعت بها، بتلك الحياة الشاقة … يا برات؟»

«بالتأكيد.»

قالت: «أرى أنك لطيف أيضًا،» ثم قبَّلته برقة. «أتمنَّى لو أنك لم تغِب عنا هذه السنوات الطويلة، لكننا سعداء بعودتك. ليله سعيدة يا عزيزي.» وبينما كانت تتَّجه إلى الخارج: «لا فائدة تُرجى من دقِّ الجرس بالطبع؛ لأن لا أحد سيُجيبك. لكن إذا انتابتك رغبة مجنونة في تناول جمبري مقلي، أو شرب ماء مثلج، أو الحصول على نسخة من رواية «رحلة الحاج» أو شيء كهذا، فتعالَ إلى غرفتي. لا تزال على اليمين في الجهة الأمامية.»

قال: «طابت ليلتك.»

وقفت وهلةً خارج غرفته، ولا يزال مقبض الباب في يدِها، ثم انصرفت مُتجهةً إلى غرفة إلينور. طرقت الباب ودخلت. على مدار السنة الأخيرة أو نحو ذلك كانت إلينور مصدر راحةٍ كبيرة لها. لقد قضت أمدًا طويلًا بمُفردها في حاجتها إلى الفصل في كل شيءٍ وإيجاد حلولٍ حتى إنَّ طاقتها قد تجدَّدت حين حظيت بصحبةٍ من بني جنسها؛ حين صار رأي إلينور السديد المجرد من العاطفة متاحًا لها في أي وقتٍ تشاء.

قالت إلينور، وهي ترفع بصرها لأعلى من بين شعرها الذي كانت تُمشطه: «مرحبًا بي.» كانت قد بدأت في إسقاط لقب «العمة»، مثلما أسقطَه سايمون.

أرخَت بي ظهرها في كرسيٍّ وقالت: «حسنًا، ها قد انتهى اليوم.»

قالت إلينور: «أراه قد مر بنجاحٍ كبير. لقد أحسن سايمون التصرُّف. مسكين سايمون.»

«صحيح. مسكين سايمون.»

«ربما سيعرض عليه برات — باتريك — شراكة من نوعٍ ما. هل تعتقدين ذلك؟ فرغم كل شيء، أسهم سايمون في إنشاء الإسطبل. ولن يكون من الإنصاف أن يأتيَ ويقتنص الثروة بعدما صرف اهتمامه عنها سنواتٍ وسنوات.»

«لا. لا أعرف. آمُل ذلك.»

«تبدين مجهدة.»

«ألسْنا جميعًا هكذا؟»

«أتعرفين يا بي، لا بدَّ أن أعترف بأنني أجد صعوبةً بالِغةً في الربط بين الاثنين.»

«الاثنين؟ سايمون وباتريك؟»

«لا. باتريك وبرات.»

حلَّت لحظةٌ من الصمت، ملأها صوت المطر الهادئ وضربات فرشاة إلينور الخفيفة.

«تقصدين أنك ... أنك تعتقدين أنه ليس باتريك؟»

توقفت إلينور عن تمشيط شعرها ورفعت بصرَها لأعلى، وقد اتسعت عيناها من المفاجأة. ثم قالت في اندهاش: «بالطبع إنه باتريك. مَن عساه أن يكون؟» ثم وضعت الفرشاة وبدأت تعقد شعرها بشريط أزرق. «كلُّ ما في الأمر أنني لا أشعر بأنني قد قابلتُه من قبلُ قط. إحساس غريب، أليس كذلك؟ في حين أننا قضَينا ما يقرُب من اثني عشر عامًا من حياتنا معًا. أنا أُحبُّه؛ ألا تُحبِّينه؟»

قالت بي: «بلى. أُحبه.» هي الأخرى لم يُساورها شعورٌ بأنها قابلتْهُ من قبلُ قط، ولم تفهم كذلك «مَن عساه أن يكون».

«ألم يكن باتريك يبتسِم كثيرًا؟»

«نعم؛ كان طفلًا جادًّا.»

«عندما يبتسم برات تنتابني رغبة في البكاء.»

«يا إلهي، إلينور.»

«يمكنك الاندهاش كما تشائين، لكني أتوقع أنكِ تعرفين ما أعنيه.»

رأت بي أنها تفهم ما تعنيه.

«ألم يُخبرك بسبب امتناعه عن مراسلتنا كل تلك السنوات؟»

«لا. لم تُتَح فرصة لتناول أي أسرار.»

«ظننتُ أنكِ ربما سألتِه عندما كنت تتجوَّلين معه عبر الإسطبلات مساء اليوم.»

«لا. كان مُهتمًّا أشدَّ الاهتمام بالخيول.»

«تُرى لِمَ عزف عن الاهتمام بنا بعدما رحل عنَّا؟»

«لعلَّه كان يكنُّ لنا ما اعتادت أن تُسمِّيَه المُربية القديمة «بغضاء شنيعة». وهذا ليس مفاجئًا للدرجة، بطريقةٍ ما، في ظل حقيقة أنه هرب من الأساس. لا بد أن الدافع الذي كان لدَيه ليُلقي لاتشتس وراء ظهره كان ساحقًا.»

«أجل. أظن ذلك. لكنه كان دائمًا إنسانًا طيب القلب: هكذا كان بات. وكان مولعًا بنا جميعًا. ربما لم يرغب في العودة، إنما يمكنك الاعتقاد أنه كان يريد أن يُخبرنا بأنه بخير.»

ولَمَّا كان هذا لغزًا بالنسبة إليها شخصيًّا، لم يكن بيد بي ما تقدِّمه.

قالت إلينور، وهي تُمرِّر الفرشاة في شعرها: «لا بد أن العودة كانت خطوةً صعبة. بدا مجهدًا بشدة الليلة، حتى إنه بدا كرجلٍ «ميت». لا ينبض وجهه بالحيوية في أفضل الأوقات، أليس كذلك؟ إذا قطعتِهِ من وراء الأُذنَين وعلَّقتِهِ على الحائط، فلن يُدرك أحد الفرق.»

كانت بي تعرف إلينور جيدًا بالدرجة الكافية التي تُمكِّنها من تفسير ذلك بنجاح، واتفقت معها تمامًا.

«ألا تعتقدين أنه سيرغب في الرحيل مرةً أخرى بمجرد انطفاء حماسة العودة؟»

«أبدًا، لا، أنا واثقة تمامًا أنه لن يفعل ذلك.»

«أترَين أنه سيظل هنا إلى الأبد؟»

«بالطبع أرى ذلك.»

لكن برات كان يتساءل عن تلك المسألة تحديدًا وهو واقف في الظلام أمام نافذة غرفته المفتوحة يتأمَّل انحناءة التل في ضوء النجوم الذي يتخلَّله المطر. لقد نجحت الخطة بما يفوق أكثر وعود لودينج إفراطًا، فماذا بعد؟

إلى أين سيذهب بعد ذلك؟ كم من الوقت سيمرُّ حتى يقع تحت قبضة سايمون؟ وإذا فشل سايمون، فإلى متى يُمكنه الاستمرار في حياةٍ قد يدمرها أي شخصٍ في أي لحظة؟

كان ذلك بالطبع ما عزم على تنفيذه. لكنه بطريقةٍ ما لم يفكر فيما بعد المراحل الأولى. لم يكن بمقدوره أن يصدِّق في قرارة نفسه أنه سينجح. والآن بعد أن حالفه النجاح انتابه شعور شخصٍ صعد إلى قمةٍ عالية ولا يُمكنه النزول مرة أخرى. انتابه شعور بالفرح والنشوة وإن لم يخلُ من الهواجس.

ابتعدَ عن النافذة وأضاء المصباح. كانت صاحبة المنزل الذي كان يسكن فيه في بيمليكو تقول دائمًا إنها «مجهدة لدرجة أنها تشعُر بأنها كانت في معصرة»، وأدرك في تلك اللحظة كم كان ذلك الوصف بليغًا. كان ذلك بالضبط ما يشعر به. معتصرًا خائر القوى. كان ضعيفًا حتى إنَّ رفْعَ يدِه لخلع ملابسه كان مجهودًا شاقًّا. خلع حُلته الجديدة الأنيقة — الحلة التي أشعرتْهُ بالذنب في تلك الحياة الأخرى في لندن — وحمل نفسه على تعليقها. نزع ملابسه الداخلية تدريجيًّا ثم ارتدى منامته القديمة الباهتة بصعوبة. تساءل لوهلةٍ إن كانوا سيُمانعون إذا دخلت مياه الأمطار ولطَّخت السجادة، لكنه قرَّر المجازفة. فترك النافذة مفتوحةً على مصراعيها وذهب إلى الفراش.

ظل لوقتٍ طويلٍ مضطجعًا في فراشه يُنصت إلى صوت الأمطار الهادئ ويتأمَّل الغرفة. كانت تلك اللحظة هي موعد قدوم شبح بات آشبي إلى الغرفة ليُضفي برودةً عليها. انتظر الشبح لكنه لم يأتِ. كانت الغرفة دافئة ولطيفة. وبدت صور الشخصيات على ورق الحائط، الصور التي كبر معها هؤلاء الأطفال، لطيفةً ومُحتفظةً برَونقها. أدار رأسه ليتأمَّل مجموعات الصور بجانب الفراش. ليتأمَّل الصورة التي كانت إلينور مغرمةً بها. الرجل المصوَّر من الجانب. وتساءل إن كانت واقعة في غرام أي شخصٍ الآن.

انتقلت عيناه إلى خشب الفراش، وتذكَّر أن هذا الفراش هو فراش أليك لودينج، وسُرَّ مرةً أخرى من سخرية القدَر. كان ملائمًا إلى حدٍّ مذهل أن يأتيَ إلى لاتشتس لا لشيء إلا لينام في فراش أليك لودينج. لا بد أن يُخبِرَه بذلك يومًا ما. فهذا من الأشياء التي كان لودينج سيُقدِّرها.

تساءل ما إذا كانت إلينور أم بي هي مَن وضعت الزهور في الوعاء. زهورٌ للترحيب بعودته.

لاتشتس، هكذا حدَّث نفسه مُتأمِّلًا الغرفة. هذه هي لاتشتس. أنا هنا. هذه هي لاتشتس.

كان لِوقْع الكلمة تأثير مُخدِّر، مثل تمايُل أرجوحةٍ شبكية. مدَّ يدَه وأطفأ النور. لكن صوت المطر بدا في العتمَة أكثر صخبًا.

في صباح هذا اليوم نهض وارتدى ملابسه في تلك الغرفة الخلفية تحت البلاط الصخري، وأنابيب المداخن المُتراصَّة خلف النافذة. وها هو هنا سيخلد إلى النوم في لاتشتس، ورائحة التل الباردة العذبة التي تُعبِّق الهواء الرطب تهبُّ عليه من النافذة.

بينما كان النوم يغلبُه انتابَه شعورٌ غريب بالطمأنينة. شعورٌ بأنَّ بات آشبي لم يُمانع وجوده هناك؛ بل بالعكس أسعده كلُّ ما جرى.

استفاق قليلًا جراء بُعد هذا الاحتمال، واتجهت أفكاره المتواصِلة ما بين استحسان الاحتمال واستهجانه، إلى بي. ما ذلك الشعور الذي انتابه عندما أخذت بي يدَه لتقودَه إلى المقابلة في عصر ذلك اليوم؟ ما الفرْق هذه المرة عن آلاف المصافحات الأخرى التي حظِيَ بها طوال حياته؟ ما سبب ذلك الدفء الذي غمر قلبه، وأي نوع من المشاعر ذاك على أي حال؟ لقد مرَّ بتلك المتعة الغامضة ذاتها عندما دسَّت بي ذراعَها في ذراعِهِ في طريقهما إلى الإسطبل. ما المُميز إلى هذا الحد في أن تضع امرأة يدها على ذراعه؟ إلى جانب ذلك، فهيَ امرأة لم يكن مُغرَمًا بها، ولم يكن واردًا أبدًا أن يُغرَم بها.

كان ذلك لأنها امرأة بالطبع، لكن ما جعل الأمر مميزًا مرةً أخرى كان شيئًا آخر. كان الأمر متعلقًا بتقبُّلها له كحقيقةٍ واقعة مُسلَّمٍ بها. لم يسبق لأحدٍ أن أخذ يدَه بهذه الطريقة تحديدًا. طريقة عابرة لكن ... لكن بلا إيحاء بالتملك. كثيرون هم مَن عاملوه بتملك، ولم يكن يشعر بأي رضًا إطلاقًا. طريقة عابرة لكن ... ماذا؟ الإحساس بالانتماء. كان الأمر متعلقًا بالانتماء. لقد أخذته تلك اليد كحقيقة واقعة بسبب انتمائه إليهم. ودٌّ عفوي من امرأة تجاه أحد أفراد عائلتها. أكان ذلك لأنه لم يشعر قط بإحساس «الانتماء» من قبل، لدرجةٍ جعلت من لفتةٍ عادية نوعًا من المباركة؟

ظل يفكِّر في بي بينما كان يستغرق في النوم. نظرتها الجانبية عندما تفكِّر في شيء؛ شجاعتها؛ الطريقة التي استعدَّت بها للقائه في ذلك اليوم في الغرفة الخلفية في بيمليكو؛ الطريقة التي قبَّلته بها قبل أن تتأكد من هويته، تحسبًا أن يكون هو باتريك؛ الطريقة التي تعاملت بها مع حالة الترقُّب لغياب سايمون عندما وصل اليوم.

كانت بياتريس آشبي امرأة جميلة، وقد أحبَّها.

كان قد استغرق في النوم عندما انتابته صحوة مفاجئة.

لقد تذكَّر شيئًا.

عرف من ذلك الذي ذكَّره به سايمون آشبي.

كان تيمبر.

الفصل السابع عشر

في صباح يوم الأربعاء أخذته بي برفقتها لزيارة مُستأجري المزارع الثلاث: فرنش لاند، وآب إيكرز، وويجسيل. قالت بي: «سيكون جيتس هو الأخير؛ لإعلامه فحسب.» كان جيتس الأخير في الأهمية أيضًا؛ إذ كانت ويجسيل أصغرَ المزارع الثلاث. كانت في الأصل المزرعة الرئيسة للاتشتس وتقع خلف منزل القس مباشرة، على المنحدَر الواقع في شمال القرية. كانت المزرعة أصغر من أن تُعيل نفسها، لكن جيتس كان يدير متجرًا للجزارة في القرية (يعمل مرتَين أسبوعيًّا) ولم يكن يعتمد على ما يكسبه من ويجسيل.

سألت بي بينما كانا يستعدَّان ليستقلَّا السيارة: «هل تجيد القيادة يا برات؟»

«نعم، لكني أُفضِّل أن تتولَّي القيادة. فأنت تعرفين» — كان قد قال تقريبًا كلمة «الطريق» ثم تداركها — «السيارة أفضل منِّي.»

«لُطف منكَ أن تُسميَها سيارة. أتوقَّع أنك مُعتاد القيادةَ جهة اليسار.»

«أجل.»

«آسفة أننا اضطُررنا إلى ركوب الخنفساء. لا تتعطَّل السيارة منَّا كثيرًا. لقد أخرج جامسون كلَّ ما بداخِلها على أرضية المرأب، ويُجري فحصًا لها في غضبٍ مكظوم.»

«أحبُّ الخنفساء. جئتُ بها من المحطة بالأمس.»

«جئتُ بها بالفعل. يبدو وكأنَّ وقتًا طويلًا قد مرَّ منذ ذلك الحين. هل يبدو هكذا لك؟»

«أجل.» بل بدا وكأن سنواتٍ قد مرت.

سألت بينما كانا يَسيران مُسرعَين عبر الشارع بالسيارة على صوت الخنفساء الذي يُشبه صوت «ماكينة الخياطة»: «هل علمتَ أنَّنا أفلتْنا من صحيفة «كلاريون»؟»

«لا.»

قالت بي، التي كانت تتناول الفطور في الساعة الثامنة: «ألستَ ممَّن يُطالِعون الصحف على الفطور؟»

«لم أعِش قطُّ في مكانٍ تتوفَّر لنا فيه الصحف لنقرأها على الفطور. كنا نُشغِّل الراديو فحسب.»

«أوه يا إلهي، نعم. نسيت أن جيلك ليس مضطرًّا إلى القراءة.»

«كيف أفلتنا؟»

«أنقذَنا ثلاثة أشخاصٍ لم نسمع عنهم قط، ولا يُحتمَل مطلقًا أن نلتقِيَ بهم. الزوجة الرابعة لطبيب أسنان بمانشستر، وزوج سيدة تؤدي دورَ الصبيِّ الرئيسي في عرض البانتومايم، وصاحب صندوق للتخزين من الجلد الأسود.» ضغطت على بوق السيارة ثم انعطفت ببطءٍ إلى اليمين خارج الشارع. «صاحِبُ صندوق التخزين تركه في تشارينج كروس وبداخله ذراعا شخصٍ ما ورجلاه. أو بالطبع ربما تكون لصاحب الصندوق. أتوقَّع أن تشغل هذه القضية صحيفة «كلاريون» في الفترة القادمة. أما زوج السيدة التي تؤدي دور الصبي الرئيسي فيرفع دعوى بتُهمة الخيانة الزوجية، ولم يكلِّف أيٌّ من أطراف القضية الثلاثة المَعنية نفسَه عناء ضبط النفس، وهو شيء رائع لصحيفة «كلاريون». فمنذ أن حُذفت التفاصيل الزائدة من تقارير قضايا الطلاق تُعاني صحيفة «كلاريون» إحباطًا، وقضية خيانةٍ زوجية هي بمثابة هديةٍ من السماء لهم. لا سيما عندما تكون القضية خاصة بتاتي ثاكر.» تأمَّلت بسعادة أجواءَ الصباح. ثم أردفت: «أحبُّ حقًّا أجواءَ الصباح بعد نزول المطر.»

«ألا يزال هناك طرَف مُتبقٍّ؟»

«أي طرف؟»

«الزوجة الرابعة لطبيب أسنان مانشستر.»

«أوه. أجل. لقد استُخرجت جثة تلك البائسة المسكينة من قبر باهظ الثمن ومُتقن الصنع ووُجِدَ أنها مُحمَّلة بالزرنيخ. ووُجِد أن زوجَها مُتغيِّب.»

«وفي رأيكِ أن صحيفة «كلاريون» ستكون منشغلةً بالدرجة التي يستحيل معها أن تشغل نفسها بأمرنا؟»

«أنا واثقة من ذلك. فليس لدَيهم مساحة كتلك المُخصَّصة لما يريدون فِعله مع قضية تاتي. لقد أفردت لها صفحة كاملة في إصدار هذا الصباح. إذا شغلوا أنفسهم بخبر عائلة آشبي كانوا سيطبعون التقرير في فقرةٍ صغيرة أسفل إحدى الصفحات، وكان سيقرؤها

خمسة ملايين شخص ولن يستطيعوا أن يُخبروك بعد دقيقتَين بفحوى الخبر. أظن أننا في مأمنٍ تمامًا. أما صحيفة «ويست أوفر تايمز» فستنشر الخبر في واحدة من فقراتها الرصينة المُعتادة صباح هذا اليوم، وسينتهي الأمر.»

ها هي مشكلةٌ أخرى أُزيحت من طريقه. في تلك الأثناء لا بدَّ أن يُعمِلَ ذكاءه أثناء زياراته إلى فرنش لاند وآب أكيرز. فكان من المُفترَض أنه يعرف هؤلاء الناس.

كان القائم على أعمال الزراعة في فرنش لاند رجلًا عجوزًا طويلًا مُتورِّدَ البشرة وأخته الطويلة المُتقعة الوجه. قال عنها لودينج: «كان الجميع يرتعد خوفًا من الآنسة هاسيل. كان لها وجه كوجه ساحرة، ولسانٌ سليط كالسَّوط. لم تكن تتحدث؛ يكفي أن تعلِّق تعليقًا واحدًا فتجد نفسك مُهانًا.»

قال السيد هاسيل العجوز، مُقبلًا نحو بوابة الحديقة ومتطلعًا إلى الشخص الذي كان برفقة بي: «مرحى، إن هذا لشرفٌ لي. سيد باتريك، سررت بلقائك. أنا في مُنتهى السعادة لرؤيتك.» ثم أخذ يدَ برات في قبضته العجوز المُجعَّدة وأطبق عليها بقبضة يدِه الأخرى. لم يكن هناك أدنى شكٍّ في أنه سعيد برؤية باتريك آشبي مرةً أخرى.

كان من الصعب تبيُّن إن كانت الآنسة هاسيل سعيدةً أم لا. نظرت إلى برات وهي تُصافحه ثم قالت: «هذه سعادة لم تكن على البال.» أُعجب برات باستخدامها الجاف للعبارة التقليدية وملاءمتها الخبيثة للموقف.

قالت، وهي تُنظم الكئوس في صالة الاستقبال الصغيرة المزدحمة: «لا يبدو أن البلاد الأجنبية قد غيرتك كثيرًا.»

قال برات: «تغيرتُ بشكلٍ ما.»

«أتغيرتَ حقًّا؟» لم تكن تنوي إرضاء غروره بالسؤال عن الشكل الذي تغيَّر به.

«لم أعُد أخاف منكِ.»

ضحِك السيد هاسيل العجوز.

«سبقتَني يا ولدي. لا تزال تزرع بداخلي الخوف من الرب. إذا تأخرتُ نصف ساعة عن العودة إلى المنزل من السوق أتسلَّلُ خانعًا إلى الحارة وكأنني سارقُ غنَم.»

لم تُعلِّق الآنسة هاسيل بشيء، لكن برات رأى اهتمامًا جديدًا يلمع في عينَيها؛ وكأنها كانت سعيدةً به. وذهبت وأحضرت من المطبخ بعضَ البسكويت الذي كان واضحًا أنها لم تكن تنوي أن تُحضِره قبل ذلك.

شربوا صنفًا من النبيذ يُسمَّى وايت بورت، وتجاذبوا أطراف الحديث عن سلالة دجاج رود آيلاند الأحمر.

في مزرعة آب إيكرز لم يكن هناك سوى السيدة دوكيت ذات الجسد المُمتلئ، وكانت منشغلةً بصُنع الزبد في معمل الألبان في الخلف.

نادت: «ادخل، أيًّا مَن تكون!» فاتجهوا من الباب الأمامي المفتوح نحو الممر البارد المُغطَّى بالقرميد، ودخلوا معمل الألبان البارد.

قالت، وهي تلتفت إليهما: «لا يُمكنني إيقاف هذا. الزبد ... يا إلهي، لم أكن أعرف! ظننتُ أنه أحد العابرين فحسب. فالأطفال جميعهم في المدرسة وكاري بالخارج في الحظيرة و... يا إلهي! لم يخطر ببالي!»

أخذت بي مكانها تلقائيًّا عند الممخضة بينما كانت تصافح برات.

قالت السيدة دوكيت الطيبة ذات الجسم المُمتلئ: «حسنًا، حسنًا، أنت آشبي الوسيم الجذاب. أصبحت أكثر شبهًا بالسيد سايمون عما كنت من قبل.»

ظن برات أن بي رفعت بصرَها لأعلى باهتمامٍ عندما قالت ذلك.

«إنه يوم سعيد لنا جميعًا يا آنسة آشبي، أليس كذلك؟ أكاد لا أصدق. قلت لجوي إنني لا أُصدِّق، هكذا قلت. هذا من الأشياء التي تحدُث في الروايات. وفي الأفلام والمسرحيات. لكن ليس من الأشياء التي قد تحدُث لقوم هادئين مِثلنا في مكانٍ هادئ مثل كلير، قلت ذلك. ولكن ها أنت هنا وقد تحقَّق ذلك حقًّا. عزيزي السيد باتريك، سرَّني لقاؤك مرةً أخرى، وأن أراك على خيرِ ما يرام وبأفضل صحة.»

سأل برات مشيرًا إلى الممخضة: «هل لي أن أُجرِّب هذا؟ لم يسبق لي قطُّ أن تعاملتُ مع أيٍّ من تلك الأشياء.»

قالت السيدة دوكيت والدهشة بادية عليها: «لكنك بالطبع تعاملتَ معها! اعتدتَ المجيء خصيصى صباح أيام السبت لتُجرِّبها.»

توقَّف قلب برات لحظة. قال: «حقًّا؟ لقد نسيت.»

كان لودينج قد نصحه بأن يقول دائمًا بصراحة تامة إنه لا يتذكر. فليس لأحد أن يُنكر أنك لا تتذكَّر، لكنهم سينقضُّون عليك بكل تأكيد إذا حاولتَ ادِّعاء أي شيء.

سمِع بي تقول بينما كانت تُفسح له الطريق إلى الممخضة: «ظننتكِ تصنعينه بالكهرباء الآن.»

قالت السيدة دوكيت: «نفعل كل شيءٍ آخر بالكهرباء بالطبع. لكني لا أُصدِّق أنها تُنتج زبدًا جيدًا. ليس له ذلك المذاق البيتي المُميَّز شأنه شأن الذي تشترينَه من سوق إنترناشونال في ويست أوفر. أحيانًا عندما أكون في عجالة من أمري أدير الكهرباء، لكن دائمًا ما أشعر بالندم بعدَها. إنها آلة ميكانيكية بغيضة. ليس فيها أي براعة.»

شربوا شايًا أسودَ ساخنًا وتناولوا كعك السكوني الخفيف الناعم وتناقشوا في تعليم الأطفال.

قالت بي عندما انصرفا مُستقلَّين السيارة: «إن السيدة دوكيت امرأة محبوبة. أظنُّ أنها لا تزال تعتقد في قرارة نفسها أن الكهرباء هي أحد اختراعات الشيطان.»

لكن برات كان مُستغرِقًا في التفكير. لا بدَّ أن يمنع نفسه عن التطوُّع بالتعليق. لم يكن لمسألة المخضة أي أهمية، لكن ربما كان من السهل للغاية أن تكون أمرًا بالغَ الأهمية. لا بد أن يكون أقل إقدامًا.

قالت بي، في طريقهما للعودة إلى كلير وإلى مزرعة ويجسيل: «بالنسبة إلى يوم الجمعة يا برات.»

قال برات وقد استفاق من استغراقه في التفكير: «ماذا سيحدُث يوم الجمعة؟»

التفتت بي وابتسمت له. وقالت «عيد ميلادك.»

بالطبع. لقد صار الآن صاحبَ عيد الميلاد.

سألته: «هل نسيتَ أنك ستبلغ عامك الحادي والعشرين يوم الجمعة؟»

«لقد نسيتُ تقريبًا.» ولمح نظرتها الجانبية إليه. وبعد وقفةٍ قصيرة قالت: «أظنك قد بلغتَ سنَّ الرشد منذ وقتٍ طويل.» قالت ذلك دون أن تبتسِم، ولم يكن ما قالتْه على سبيل السؤال.

أكملت حديثها قائلة: «بالنسبة إلى يوم الجمعة، أظنُّ أنه نظرًا لتأجيلنا الاحتفالات من أجل العم تشارلز، لن نُقيم حفلًا يوم الجمعة. السيد ساندال سيأتي بالأوراق التي يريد منك توقيعها؛ لهذا سندعوه إلى الغداء، ونجعله مجرد حفلٍ عائلي هادئ.»

أوراق ليُوقِّعها. أجل، كان يعرف أن هناك أوراقًا سيُوقِّعها عاجلًا أو آجلًا. حتى إنه قد تعلَّم أن ينقش الحروف الكبيرة من اسمه بالطريقة التي كان يكتُبها بها باتريك، وذلك بفضل كتاب تدريباتٍ قديم كان لودينج قد اكتشفه وسرقَهُ من منزل القس. وفي النهاية، فإن توقيع ورقة لن يجعلَه أكثرَ حقارةً مما كان عليه في تلك اللحظة. بل سيضعه فحسب في موضعٍ أكثر أمانًا في نظر القانون، مما يجعل الأمر لا رجعةَ فيه.

«أهكذا كنتَ تودُّ أن يكون؟»

«أي شيء؟ آه، حفل عيد الميلاد. أجل، بالطبع. لا أريد حفلًا. لا أريد احتفالًا إذا كان ذلك ضروريًّا. ألا يُمكننا أن نعتبِرَ بلوغ سن الرشد أمرًا عاديًّا؟»

«لا أظنُّ أن أهل المنطقة سيسعدون كثيرًا إذا فعلنا ذلك. فهم جميعًا يتطلَّعون إلى أي حفلٍ بشكلٍ أو بآخر. أرى أن علينا أن نُقيم لهم حفلًا. حتى بطاقات الدعوة جاهزة. فقط عدَّلت التاريخ ليُصبح بعد أسبوعين من وصول تشارلز. فمن المنتظر أن يصل في غضون ثلاثة وعشرين يومًا تقريبًا. لهذا ينبغي عليك أن «تتحمَّل» الأمر، كما اعتادت المُربية القديمة أن تقول.»

أجل، كان عليه أن يتحمَّل الأمر. على أي حال، كان بإمكانه أن يستريحَ الآن ويسترخيَ قليلًا. فلم يكن من المُفترض أنه يعرف عائلة جيتس.

كانا في طريق عودتهما إلى القرية الآن؛ فكانت الأسْيِجَةُ البيضاء للإسطبلات الجنوبية على يسارهما. كان صباحًا نديًّا ومشرقًا، لكن كان له بريق مقلق لا يبعث على الراحة. كانت السماء لامعة، والضوء يُحيط به لونٌ فضي.

عندما اجتازا المدخل المؤدِّي إلى منزل القس قالت بي: «جاء أليك لودينج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع من وقتٍ ليس بعيدًا.»

«حقًّا؟ فيمَ يعمل الآن؟»

«لا يزال يؤدي أدوارًا مُبتذلة في روايات مسرحية كوميدية ومسرحيات هزلية صغيرة مريعة. جميعها على نفس النمط: أربع شخصيات، خمسة أبواب، وسرير واحد. لم أره، لكن نانسي قالت إنه قد تحسَّن.»

«بأي شكلٍ تحسَّن؟»

«صار أكثر اهتمامًا بالآخرين. أكثر عطفًا. بل إنه بذل مجهودًا أكبرَ حتى يتآلف مع جورج. ظنَّت نانسي أن السنَّ قد بدأ يُحدِث أثره. كان سعيدًا تمامًا بالجلوس ساعاتٍ بصحبة كتابٍ في مكتب جورج عندما كان جورج بالخارج. وعند حضور جورج كانا يتسامران بسعادةٍ بالغة. وسُرَّت نانسي لذلك. كانت دائمًا مُغرمة بأليك، لكنها اعتادت أن تشعر بالقلق من زياراته. كان الريف يُصيبه بالمَلَل وكان جورج يُصيبه بمللٍ أكبر، ولم يُكلِّف نفسه أبدًا عناء إخفاء ذلك الشعور. لهذا كان التغيير مُستحسنًا.»

عند منتصف الطريق عبْر القرية انعطفا إلى الحارة المؤدِّية إلى ويجسيل.

سألت بي: «لا تتذكَّر إيمي فيدلر، أليس كذلك؟ لقد نشأت في مزرعة ويجسيل، وتزوَّجت من جيتس عندما امتلك مزرعةً على الجهة الأخرى من بيورز. وعندما تُوفي

والدُها، استعان جيتس بوكيل لإدارة مزرعته واستحوذ على ويجسيل. وبالطبع على متجر الجزارة. لهذا فهم ميسورو الحال. لم يستطِعِ الصبيُّ أن يتحمَّل والده، وحصل لنفسه على وظيفةٍ في مكانٍ ما بميدلاندز في مجال الهندسة. لكن الفتاة تعيش بالمنزل، وهي قُرة عين أبيها. التحقت الفتاة بمدرسة داخلية غالية، حيث تُعرف باسم مارجوت حسب علمي. أما اسمها فهو بيجي.»

انطلقا إلى مدخل المزرعة ثم توقَّفا على الأحجار المستديرة الصغيرة القديمة للفناء. اندفع نحوهما كلبان في عنفوان جامح، ينبَحان معلنَين قدومهما.

قالت بي التي كانت كلابها مُدرَّبة جيدًا مثل خيولها: «أتمنَّى حقًّا لو أن جيتس يُدرِّب كلبَيه.»

جاء صوت النباح العالي بالسيدة جيتس إلى الباب الأمامي. كانت امرأةً صغيرة الحجم شاحبة الوجه وهادئةً للغاية، تُوحي ملامحها بأنها كانت ولا بد آيةً في الجمال ذات يوم.

نادت بلا جدوى: «جلين! جوي! اهدآ!» ثم تقدَّمت إلى الأمام لتُرحِّب بهما. لكن قبل أن تصِل إليهما كان جيتس قد اقترب كثيرًا من المنزل، وببضع خطواتٍ واسعة كان قد سبقها. غرقت سعادتها بقدومهما، التي كانت أصدق، وسط صخب ترحيبه المُبالَغ فيه، فوقفت تبتسِم إلى برات بلطفٍ بينما كان زوجُها يصدح عاليًا مُعبِّرًا عن سعادتهما لرؤية باتريك آشبي على عتبة بابهما مرةً أخرى.

كان جيتس رجلًا ضخمًا فظًّا، لكن برات افترض أنه ذات يومٍ كان يتمتع بحيوية وثقة الشباب اللتَين تجتذِبان الفتيات الجميلات الرقيقات من أمثال إيمي فيدلر.

قال لبرات: «أخبَروني بأنك كنتَ تجني ثروةً من الخيول هناك.»

أجاب برات: «كنتُ أتكسَّب عيشي منها.»

بدأ يقودهما عبر الطريق إلى الجهة الخلفية من المنزل: «تعالَيَا لتُشاهدا ما يحتوي عليه الإسطبل الخاص بي.»

اعترضت زوجته قائلة: «لكن يا هاري، لا بد أن يدخُلا ويجلِسا قليلًا.»

«سيجلسان بعد قليل. سيُفضِّلان كثيرًا رؤيةَ خيلٍ أصيل على تفاهاتك تلك. تعالَ يا باتريك. تعالَي يا آنسة آشبي.» ثم صاح عاليًا وهم يسيرون عبر الفناء. «ألفريد! أحضر للآنسة آشبي ذلك الحصان الجديد حتى تراه.»

وجدت السيدة جيتس نفسها وهي تسير خلفهم أنها تسير جنبًا إلى جنب مع برات. قالت بهدوء: «أنا سعيدة للغاية بما حدث. سعيدة للغاية بعودتك. أتذكَّر عندما كنت

صغيرًا؛ عندما كنتُ أعيش هنا أيام والدي. لم أُغرَم قطُّ بصبيٍّ صغير، باستثناء ابني، مثلما كنتُ مغرمة بك.»

«الآن يا سيد باتريك، ألقِ نظرةً على هذا الخيل هنا، ألقِ نظرةً على هذا! أخبرني إذا كان لا يُمتِّع عينيك.»

مرَّر جيتس إحدى ذراعَيه الكبيرتَين على باب الإسطبل حيث كان ألفريد يقود خيلًا بُنيًّا إلى الخارج بدا على نحوٍ غريب في غير محلِّه في فناء المزرعة الصغير، بل وفي منطقةٍ حيث كان كل مُزارعٍ صغير يحتفظ بدابة تحملِه عبر البلدة في الشتاء. وكان الخيلُ البنيُّ استثنائيًّا بلا شك.

«ها هو! ما رأيك في ذلك، ها؟ ما رأيك في ذلك؟»

قالت بي بعد أن ألقت نظرة: «لكن ذلك بالتأكيد هو الحصان الذي فاز به ديك بوب بسباق القفز في «باث شو» العام الماضي.»

قال جيتس بلا مبالاة: «هو بعينه. ولم يفُز في سباق القفز فحسب. بل فاز بكأس أفضل حصان في العرض. لقد كلفَني مبلغًا وقدرُه، لكن بوسعي تحمُّل ثمنِه ولا شيء يغلو على ابنتي. أوه نسيت! لقد اشتريتُه من أجل بيجي. فلن يقوى ذلك الحصان على حملي.» ثم أطلق ضحكةً صاخبة مفاجئة، أو على الأقل ظنَّ برات أنها كانت ضحكة. «لكنَّ ابنتي الآن خفيفةٌ خِفَّةَ الريشة في السَّرج. لست بحاجة لأن أخبرك بذلك يا آنسة آشبي؛ لقد رأيتِها. لا أحدَ في البلدة يستحق حصانًا أصيلًا كهذا أكثرَ من ابنتي بيجي، ولا أستخسر المال فيه.»

قالت بي بحماسة في صوتها أدهشت برات: «لقد حصلت على حصانٍ أصيل بالتأكيد.» نظر إليها وتساءل لمَ تبدو بهذه السعادة. فقد كان هذا الحصان البُني، في النهاية، خصمًا محتملًا لتيمبر، ولجميع خيول لاتشتس.

«لست في حاجة لأن أخبركما بأنني حصلتُ على شهادة من الطبيب البيطري معه. أنا لا أشتري سمكًا في الماء.»

«هل ستشارك بيجي في العرض هذا العام؟»

«بالطبع ستشارك، بالطبع ستشارك. لِمَ اشتريتُه إذن إن لم تشارك في العرض؟»

بدا وجه بي سعيدًا تمامًا. قالت: «كم هو لطيف!» وبدت البهجةُ في صوتها.

قالت بيجي جيتس عند ظهورها إلى جانب برات: «هل أعجبكِ يا آنسة آشبي؟»

كانت بيجي رائعة الجمال. جمعت ملامحها بين ألوان الوردي والأبيض والذهبي. فكَّر برات أنه لو أمكن أن يدمج الآنسة بارسلو وإلينور معًا فمِن المُرجَّح أن تُصبح النتيجة هي

بيجي جيتس. تقبَّلت تقديمها إلى برات بهدوء، لكنها نجحَتْ في أن تُعطيَ انطباعًا بأن من دواعي سرورها الشخصي عودةَ باتريك مرة أُخرى. استقرَّت يدُها الصغيرة في يده بضغطة رقيقة اتسمت بالحميمية أكثرَ مما اتسمت بالود. فصافحها برات بحرارةٍ وقاوم رغبةً في مسح راحة يدِه في فخذه.

تقبَّلت تهاني بي على اقتنائها ذلك الحصان، مما أفسح المجال لفاصلٍ زمنيٍّ لطيف آخر لمزيدٍ من التأمُّل فيه، ثم باستعراضٍ لمهارتها الاجتماعية كان جديرًا بالإعجاب، نقلت العائلة بأكملها من الفناء إلى صالون المنزل. كان يُطلَق عليه الصالون، وكان أثاثه موحيًا بذلك، لكن بي التي تذكَّرت أنه كان من قبلُ صالة استقبال السيدة فيدلر، ارتأت أنَّ الألوان المائية وورق الحائط المنقوش بنباتات اللوستارية كان بديلًا رديئًا عن الأباريق اللامعة والمنقوشات المؤطَّرة التي كانت موجودة في زمن السيدة فيدلر.

شربوا نبيذ الماديرا الرائع المذاق وتحدثوا عن عرض بيورز آجريكالتشرال.

وعادا بالسيارة إلى المنزل ولم تزل بي تبدو وكأنَّ أحدًا قد ترك لها ثروة. لمحت نظرة برات المتأمِّلة إليها ثم قالت: «ماذا؟»

قال: «تبدين كقطةٍ أُعطيت قطعةً من القشدة.»

رمقته بنظرةٍ جانبية مُتندِّرة. ثم قالت: «قشدة وسمكة وكبدة» لكنها لم تُخبره بتفسير ذلك.

قالت: «عندما تنقضي ضجة يوم الجمعة يا برات، لا بدَّ أن تذهب إلى المدينة وتشتريَ لنفسك مجموعةً كاملة من الملابس. سيستغرق والترز أسابيعَ ليحيك ملابس السهرة الخاصة بك، وستحتاج إليها لحضور الاحتفال عندما يصِل العم تشارلز إلى المنزل.»

سأل وقد انتابَهُ التردُّد والحيرة لأول مرة: «ماذا سأشتري؟»

«سأترك الأمر لوالترز لو كنت مكانك.»

قال برات: «ملابس لشابٍّ إنجليزيٍّ وسيم.»

رمقتْهُ بي بنظرةٍ جانبية مرة أخرى، متفاجئة من النبرة الجديدة في صوته.

الفصل الثامن عشر

دخلت إلينور غرفة الجلوس بينما كانت بي تفتح بريد منتصف النهار، وقالت: «لقد قفزتْ!»

رفعت بي بصرَها لأعلى نظرةً مشوشة، ولا يزال عقلها منشغلًا بمحتويات بريدها.

«أقول لكِ قفزتْ. قفزتْ مسافةَ خمسينَ ياردة بأكملها كفارسٍ ماهر.»

«ابنة بارسلو؟ أوه، تَهانِيَّ لك يا عزيزتي نيل.»

«لم أعتقد قطُّ أنني سأعيشُ حتى أرى هذا اليوم. ألا يتناول أحد الشيري؟»

«شربتُ أنا وبرات صباح اليوم مشروباتٍ غريبة تكفينا بقيةَ الأسبوع.»

سألت إلينور وهي تصبُّ لنفسها بعض الشيري: «كيف سارت الزيارات يا برات؟»

أجاب برات مُراقبًا يدَها النحيفة البارعة وهي تتعامَلُ مع الكئوس بمهارة: «ليس بالسوء الذي كنت مهيئًا له.»

«هل أخبركِ دوكيت كيف أُصيب بجرحِه؟»

أجابت بي: «كان دوكيت في السوق. لكننا تناولنا كعك سكوني ساخنًا بالزبد من السيدة دوكيت.»

«السيدة دوكيت العزيزة. وماذا قدَّمت لكما السيدة هاسيل؟»

«بسكويتًا ناعمًا. لم تكن تنوي أن تُقدِّمه لنا، لكنها استسلمت أمام جاذبية برات.» لقد لاحظت بي ذلك.

قالت إلينور وهي تنظر إلى برات من فوق كأسها: «لستُ مندهشة. وماذا عن ويجسيل؟»

«هل تتذكَّرين ذلك الحصان البُني الذي كان يمتلِكُه ديك بوب؟ الحصان الذي فاز به بجميع الجوائز في عرض باث شو العام الماضي؟»

«بالتأكيد.»

«لقد اشتراه جيتس لبيجي.»

توقفت إلينور عن رشف الشيري وفكَّرت في هذا الأمر في صمتٍ لحظةً أو لحظتَين.

«اشتراه لبيجي لتُشارك في العرض.»

«أجل.»

قالت إلينور ببطء: «حسنًا، حسنًا!» ثم بدت مُبتهجة ومُستغرقة في التفكير. نظرت إلى بي، فالتقت نظراتهما، ثم أشاحت بنظرها بعيدًا مرةً أخرى. قالت مرةً أخرى: «حسنًا، حسنًا!» ثم واصلت رشف الشيري. بعد فترة صمتٍ لم يقطعها سوى تمزيقِ الورق عندما فتحت بي الأظرُف، قالت: «لا أدري إن كانت خطوةٌ كتلك موفقةً للغاية.»

فأجابت بي دون أن ترفع بصرها: «لا.»

«سأذهب لأغتسل. ماذا لَدَينا على الغداء؟»

«جولياش.»

«ما دامت السيدة بيتس هي مَن أعدَّته، فهو مجرد يخنة.»

عادت التوءمتان من دروسهما في منزل القس، وعاد سايمون من الإسطبلات، ودخلوا جميعًا لتناول الغداء.

كان سايمون قد نزل مُتأخرًا جدًّا لتناول الفطور حتى إن الحديث الوحيد الذي دار بينه وبين برات في ذلك اليوم كان ليتمنَّى له صباحًا سعيدًا. بدا ودودًا ومُسترخيًا، واستفسر بما بدا أنه اهتمامٌ حقيقيٌّ عن نجاح مُهمتهما في الصباح. أمدَّتْه بي بتقريرٍ عما حدث، مع تأكيدٍ من برات من وقتٍ لآخر. وعندما تطرَّقت إلى ويجسيل، قاطعَتْها إلينور لتقول:

«هل علمتِ أن جيتس اشترى لبيجي حصانًا جديدًا؟»

قال سايمون، رافعًا بصرَه باهتمامٍ طفيف: «لا.»

«اشترى لها ذلك الحصان البُني الذي كان مِلكًا لديك بوبي.»

«رايدينج لايت؟»

«أجل. رايدينج لايت. ستُشارك به في العرض هذا العام.»

لأول مرة يرى برات حمرةً في وجه سايمون آشبي منذ أن التقى به. توقَّف وهلةً، ثم أكمل غداءه. تلاشت الحمرة رويدًا رويدًا واستعاد وجهه الشاحب اللامبالي هدوءه المعتاد. تحاشت كلٌّ من إلينور وبي النظر إليه بينما كان يستوعِب الخبر، لكن روث تفحَّصته باهتمام.

أما برات، الذي كان يأكل جولياش السيدة بيتس، فتفحَّصه بعقله. كان مُفترضًا أن سايمون آشبي مولعًا بالفتاة ابنة جيتس. لكن هل أسعدَه أن تُهدى الفتاة حصانًا جيدًا؟ لا. لقد كان ثائرًا. وما زاد على ذلك أن سيدتَي منزلِه أدركتا أنه سيغضب من ذلك. كانتا تعلَمان مُسبقًا أنه كان سيجد دخولَ بيجي منافسًا أمرًا لا يُغتفَر. لم تكن لديهما رغبة، على نحوٍ مفهوم، في أن تستمرَّ قصتُه مع ابنة جيتس أو أن تأخذ مَنحًى جِديًّا؛ وأدركت كلتاهما في الحال أن امتلاك بيجي لرايدينج لايت قد أنقذهم. أيُّ صنف من البشر كان سايمون آشبي هذا الذي لا يُطيق أن يُهزَم من الفتاة التي يُحبُّها؟

تذكَّر سعادةَ بي المُفرطة بالحصان البُني. ورأى مجددًا ابتهاج إلينور المتأني بالخبر. لقد عرفتا في الحال أن تلك هي نهاية قصة بيجي. لقد اشترى جيتس ذلك الحصان ليكون «واعدًا» مع خيول لاتشتس؛ لكي يمنح ابنته حصانًا بمهارة أي حصانٍ يمتلِكه ذلك الرجل الذي كان يأمُل أن يتزوج ابنته. واتضح أن كلَّ ما فعله هو أنه قد بدَّد أي فرصة لبيجي لتكون سيدة لاتشتس.

حسنًا، لم يَعُد سايمون سيد لاتشتس، فلن يهمَّ أسرةَ جيتس امتعاضُ سايمون من امتلاك بيجي الحصانَ. لكن أي صنفٍ من الحقراء كان سايمون حتى يعجز عن أن يُحب منافسًا له؟

سمِع إلينور تقول: «أيُّ حصان سيمتطيه برات في عرض بيورز شو؟» فأعاد انتباهه إلى طاولة الغداء.

أجاب سايمون: «جميعها.» وعندما أعادت إلينور سؤالها قال: «جميعها خيوله.»

كان هذا أحدَ الأشياء التي لا يُفصح عنها الإنجليز. فلا بد أن سايمون كان حانقًا لتخلِّيه عن عادةٍ لازمته طوال حياته.

قال برات: «لن «أستعرض» أيَّ خيل. إذا كان ذلك ما تقصدينه. هذا يتطلَّب مهارة فنية، وأنا لم أكتسبها.»

قالت بي: «لكنك طالما كنتَ بارعًا للغاية.»

«حقًّا؟ حسنًا، مضى وقتٌ طويل على ذلك. لا أريد حقًّا أن أستعرض أيَّ خيولٍ في حلبة بيورز.»

قالت إلينور: «لن يُقام استعراض الخيول حتى ثلاثة أسابيع تقريبًا. بإمكان بي أن تُدرِّبك يومًا أو يومَين، وستُصبح ماهرًا كما كنت دائمًا.»

لكنَّ برات لم يكن ليتزعزع عن رأيه. سيكون مُمتعًا أن يرى ما بوسعِه أن يفعل أمام فرسان إنجليز، وكان من المُمتع تحديدًا أن يقفز بخيول لاتشتس وربما يفوز معها؛ لكنه لم يكن ينوي أن يظهر علانيةً بصفته باتريك آشبي سيد لاتشتس لو كان الأمر بيده.

قالت روث: «بإمكان برات أن يَمتطيَ خيلًا في السباقات. السباقات التي ينتهي به المطاف إليها. بإمكانه أن يهزمَ أيَّ أحدٍ على تيمبر، أليس كذلك؟»

قال سايمون، مُتحدثًا في طبقه: «لن يُطرَح اسم تيمبر في أي سباقٍ ريفي إذا كان لا يزال لي أي قول في هذا الشأن. سيذهب إلى أوليمبيا، هذا هو المكان المناسب له.»

قال برات: «أتفق معه.» وزال التوتر من الأجواء. أرادت جين أن تعرف السبب الذي جعل الكسور اعتيادية، وأرادت روث إطار دراجةٍ جديدًا، وصار الحوار مثل أي حوار عائلي طبيعي يدور في أي منزل وقت الطعام.

قبل انتهاء الغداء وصل أول الزائرين، ومضت الأحداث في مجراها الثابت المعتاد، بدءًا من احتساء القهوة بعد الغداء، مرورًا بتناول الشاي، وانتهاءً بتناول مشروبات الساعة السادسة. كانوا جميعًا قد جاءوا لرؤية برات، لكنه لاحظ أن مَن كانوا يعرفون باتريك آشبي جاءوا يحملون في ترحيبهم بعودته سعادةً حقيقية. كان لدى كلٍّ منهم ذكرى صغيرة عنه ليرويها، وجميعهم كانوا لا يزالون يتذكَّرونه جيدًا؛ لأنهم أحبوا باتريك آشبي وحزنوا من أجله. ووجد برات نفسه منشرحًا بطريقةٍ عبثية وتملُّكية، وكأن الثناء موجهًا لشخصٍ من المُقربين إليه. إن الضوء الذي أُلقي على سايمون صباح اليوم جعله نصيرًا لباتريك أكثر من أي وقتٍ مضى. كان من الخطأ تمامًا أن يُفترَض طوال كل تلك السنوات أن لاتشتس مِلكًا لسايمون. لقد كانت إرثًا لباتريك وكان خطأً تمامًا ألا يكون باتريك هنا ليَرِثَها. كان باتريك شخصًا جيدًا. لم يكن الغضب سيتملَّك من باتريك؛ لأن فتاته الأثيرة اقتنت حصانًا أفضلَ من حصانه. كان باتريك شخصًا جيدًا.

لهذا قَبِل تلك المجاملات اللفظية الصغيرة بالنيابة عن باتريك وكان سعيدًا وراضيًا.

في الوقت الذي اختلطت فيه فناجين الشاي بكئوس النبيذ ظهر الطبيب المحلي، ولم يَعُد برات حينها سعيدًا، وتحوَّل اهتمامُه إلى ردود فعل إلينور تجاه الطبيب. بدت إلينور مُعجبةً بالطبيب كثيرًا، وفي الحال اقتنع برات، الذي لم يكن يعرف أيَّ شيءٍ عنه، بأنه ليس مناسبًا لها بالقدْر الكافي. كان الضيوف المُتبقُّون في تلك اللحظة هم الكولونيل سموليت، وقائد شرطة المقاطعة، والآنستين بيرن، اللتَين تسكنان المنزل الجاكوبي في أقصى أطراف

القرية، ووفقًا لبي، كانت جدران المنزل مُعلقًا عليها «أطباق ومقالي تسخين، وغير ذلك من أدوات المطبخ»، والطبيب سبينس. كان الطبيب سبينس شابًّا نحيلًا، ذا شعر أحمر، وكان لدَيه نمش وذا أسلوب ودود. كان خليفةَ طبيب البلدة السابق الذي تربَّت على يدَيه عائلة آشبي بأكملها، وكان أذكى وأمهر من أن يظلَّ في عيادة قرية صغيرة مثلما أسرَّت بي في وقتِ صبِّ الشاي. تساءل برات إن كان قد بقِيَ من أجل إلينور؛ فقد بدا معجبًا بها كثيرًا.

قال الكولونيل سموليت وهو يُحييه: «لقد تسبَّبْتَ لنا في الكثير من القلق، أيها الشاب»؛ وكان برات سعيدًا بصراحته بعد المراوغات المُهذبة التي تلقَّاها من الآخرين حتى الآن. ومثلما استقى فِكرتَه عن الطبقة الوسطى الإنجليزية من الأفلام الأمريكية، كذلك كانت فكرته عمن يحملون لقب كولونيل مُستقاة من الصحافة الإنجليزية، وكلتاهما كانت مغلوطةً بالدرجة نفسها. كان الكولونيل سموليت رجلًا ضئيل البنية، نحيف القوام، ذا أنفٍ مُدبَّب وأسلوبٍ متواضع يميل للانزواء. وكان أكثر ما هو ملحوظ فيه أناقته غير العادية وعينيه الزرقاوين اللامعتين.

أوصل الكولونيل الآنستين بيرن بسيارته، لكن الطبيب بقي، ولم يستجمع شتات نفسه وينصرف إلا عندما طلبت بي منه البقاء لتناول العشاء.

قالت بي على العشاء: «مسكين دكتور سبينس. أشعر بالأسف أنه لم يبقَ. أنا واثقة من أن صاحبة المنزل الذي يسكن فيه تُجوِّعه.»

قال سايمون الذي كان قد استعاد مزاجه الهادئ وكان متألقًا ومرحًا طوال فترة العصر: «هراء؛ فذلك النوع النحيل ذو الشعر الأحمر دائمًا ما يبدو أنه يُعاني سوءَ تغذية. إلى جانب ذلك، لم يكن سيأكل، على أي حال. فكلُّ ما يُريده هو الجلوس والنظر إلى إلينور.»

وهو ما أكَّد أسوأ مخاوف برات.

ولكن كان كلُّ ما علَّقت به إلينور هو: «لا تكن سخيفًا»؛ وقالتها بلا عصبية وبلا اهتمام.

كانوا جميعًا قد أصابهم التعبُ بحلول موعد العشاء؛ لهذا ساد العشاء أجواءٌ هادئة. خبت الحماسة لعودة برات وتحوَّلت إلى تقبُّلٍ لوجوده، ولم يَعُد أحدُهم يعاملُه بصفته وافدًا جديدًا. حتى جين المُتحفظة توقَّفت عن توجيه الاتهام إليه بعينَيها. لقد أصبح جزءًا من المشهد. كان أمرًا باعثًا على الراحة، على نحوٍ مدهش، أن تُصبح جزءًا من المشهد مرة أخرى. ولأول مرة منذ وصوله إلى لاتشتس يشعر بالجوع.

لكن عندما استعدَّ للذهاب إلى النوم حَارَ فكرُه طويلًا في مشكلة سايمون. سايمون، الذي كان واثقًا تمام الثقة أنه ليس باتريك، لكنه لم تكن لدَيه نية للإفصاح عن ذلك. (لماذا؟ هل لأن لا أحدَ كان سيُصدقه، وكان سيُعزَى سبب اعتراضه إلى استيائه من عودة أخيه؟ أكان لأن لدَيه خططًا لكشف أمره بأسلوبٍ مُثير؟ هل لأن لدَيه أسلوبًا أفضلَ للتعامل مع مُحتال لم يكن ليُكتشف أمره؟) سايمون، الذي كان منافقًا بارعًا حتى إنه تمكَّن من تضليل أُسرته عن مشاعره الدفينة. سايمون، الذي كان طابعه الأنانية والغرور، لدرجةِ أن وقوفك حائلًا بينه وبين الشمس كان بمثابة إهانة له. سايمون، الذي كان يحظى بجاذبية تكفي عشرة رجال، وسيماء جذابة توحي بالضَّعف والحساسية لأقل شيء. سايمون، الذي كان يُشبه تيمبر.

وقف مرةً أخرى عند النافذة المفتوحة في الظلام، متأملًا انحناء التل أمام السماء. ربما لأنه كان أقلَّ إجهادًا تلك الليلة ولم يَعُد خائفًا بشدة؛ لكن سايمون كان لا يزال هو العنصر الذي لا يمكن توقُّعه في تلك الحياة الجديدة التي كان يُفترض أنه سيحياها.

تساءل برات: إذا كان سايمون مستاءً إلى هذا الحد من امتلاك بيجي جيتس حصانًا أفضل من حصانه، فكيف يمكن أن يكون ردُّ فِعله إزاء توريث لاتشتس فجأةً إلى باتريك؟

تمعَّن في هذه المسألة مدةً طويلة، مُحدقًا في الظلام.

وعندما استدار في النهاية ليشعل النور، حدَّثه هاتفٌ في عقله: أتساءل أين كان سايمون عندما صعد باتريك إلى المنحدر الصخري وألقى بنفسه.

لكنه انتبه لبشاعة هذه الخاطرة في الحال بالطبع. إلامَ يُلمِّح؟ حادث قتل؟ في لاتشتس؟ في كلير؟ على يد صبي في عمر الثالثة عشرة؟ كان يسمح لكراهيته تجاه سايمون أن تسيطر على منطقه وتدفعه إلى التحامُق.

كان انتحار باتريك آشبي قضيةً من اختصاص الشرطة. قضية تضمَّنت استجوابات وأدلة. لقد أُجري تحقيق في الواقعة، واقتنعت الشرطة بأن ما حدث كان واقعة انتحار فعلية.

أكانت قانعة بذلك؟ أم إنها لم تستطِع إقامة دليل ضد أحد؟

أين يمكن أن يكون تقرير مُحقِّق الوفيات المشكوك في أمرها الآن؟ أظن أنه في سجلات الشرطة. وليس سهلًا على مَدَنيٍّ أن يقنع الشرطة بإشباع فضولٍ تافه؛ فهم أناس مشغولون بالعمل.

لكن لا بد أن الصحافة المحلية قد كتبت عن الواقعة. لا بد أنها كانت حدثًا محليًّا مُدويًا. سيكون هناك تقرير بتفاصيل التحقيق في موضعٍ ما في الملفات، وبرات فارار سينقب عنه ويجده مع أول فرصة تسنح له.

بصرف النظر عن وجود كراهية من عدمها، أو وجود منطق من عدمه، لقد أراد أن يعرف أين كان سايمون آشبي عندما صعد توءمه فوق جروف ويست أوفر الصخرية.

الفصل التاسع عشر

كان من المقرَّر أن يأتيَ السيد ساندال ليل الخميس على أن يبقى لِما بعد الغداء يوم الجمعة.

في صباح يوم الخميس قالت بي إنها ستذهب إلى ويست أوفر لتتسوَّق بعض الأشياء الخاصة من أجل الوجبات التي سيتناولها السيد ساندال، وسألت عما يرغب برات في أن يفعله خلال يومِه.

أجابها برات بأنه يودُّ مرافقتَها ويرى ويست أوفر مرة أخرى، وبدت بي سعيدة بذلك.

قالت بي: «يُمكننا التوقُّف على الطريق عبْر القرية، وندَع السيدة جلوم تُلقي نظرةً سريعة عليك. ستُعفى بذلك من مقابلة شخصٍ واحد بعد قداس يوم الأحد.»

لذا توقَّفا عند متجر بيع الصحف، وقُدِّم برات، ورشفت السيدة جلوم آخرَ قطرة سعادة من وعاء دراما عودته، وضحكا معًا عليها وهما يتَّجهان مُسرعَين نحو البحر.

قالت بي بعد قليل: «إن الأشخاص الذين يعجزون عن الغناء هم أشخاص شديدو الإحباط.»

اعتبر برات هذا كلامًا لا يتسق مع الموقف. فقال مُقدِّمًا ردًّا غير مُتسق بدوره: «أعلى جبلٍ في بريطانيا هو جبل بن نيفيس.»

ضحكت بي على ذلك وقالت: «لا، كنت أقصد فقط أني أودُّ الغناء بأعلى صوتي، لكن لا أجيد سوى النعيق. هل تجيد الغناء؟»

«لا. أنا أيضًا أنعِق. بإمكاننا أن ننعِق معًا.»

«أشكُّ إن كان النعيق قانونيًّا في منطقة آهلة. لا أحد يدري أبدًا في هذه الأيام. وعلى أي حال، ها هو ذاك.» ولوَّحت بيدِها تجاه لافتة كبيرة كُتب عليها:

> تنبيه إلى سائقي السيارات. يُرجى الامتناع عن استخدام بُوق السيارة. هذا مُستشفى.

نظر برات لأعلى نظرةً سريعة إلى المبنى المُقام على المنحدر أعلى المدينة، وأشار إلى أن الموقع رائع على نحوٍ استثنائي لمستشفى.

«أجل؛ أقل ترويعًا بكثير عن المكان الطبيعي. من المُحزن كثيرًا أن يُسمح بحدوث ذلك.» وأشارت بذقنها بحركةٍ سريعة نحو صفِّ المتاجر الرخيصة على الجهة المقابلة من الطريق، التي لم يكن بعضها أكثرَ من أكواخٍ صغيرة. مقاهٍ قذرة، متجر لإصلاح الأحذية، «مستودع» للدراجات، بائع أكاليل وصُلبانٍ، بائع زهور منافس، متجر بقالة، شركات مجهولة لها نوافذ مطليٌّ نصفها العلوي وإعلانات غريبة مثبتة بمسامير في النافذة.

كانا يسيران مُسرعَين عبر المنحدر متجهين إلى المدينة، وكان هذا القطاع التجاري المتنوع الواقع على جانب الطريق آخر الضواحي الأكثر فقرًا الآخِذة في الانحسار عن الأعين. ومن ورائها كانت ويست أوفر الحقيقية: ويست أوفر النظيفة الجميلة المتلألئة في الضوء المنعكس من البحر.

عندما دخلت بي موقفَ انتظار السيارات قالت: «لست بحاجة إلى اتباعي لتفقد «المأكولات البحرية» من أجل طعام السيد ساندال. اذهب وروِّح عن نفسك، وسنلتقي على الغداء في مطعم أنجل في حوالي الساعة الواحدة إلا ربعًا.»

كان بعيدًا بعضَ الشيء عندما نادته ليعود مرةً أخرى. «نسيتُ أن أسألك إن كنتَ بحاجةٍ إلى نقود. يُمكنني أن أقرضك إذا كنت ...»

«أوه، لا، شكرًا؛ لا يزال معي بعض مما أعطيتموني إيَّاه كسلفةٍ مقدَّمة على حدِّ تعبير كوسيت وثرينج، وعلى حدِّ تعبيرك أنتِ أيضًا.»

اتجهَ أولًا إلى الميناء ليرى المكان الذي يُفترَض أنه قد انطلق منه منذ ثماني سنوات. كان مُمتلئًا بسفن الشحن الساحلية ومراكب الصيد، وبدا متلألئًا للغاية في الضوء المتراقص. استند إلى أحجار حاجز الأمواج الدافئة وأخذ يتأمَّل المكان. هنا المكان الذي جلس فيه أليك لودينج ليرسم «سفينته الصغيرة القديمة» في اليوم الأخير من حياة بات آشبي. ومن فوق تلك المنحدرات الصخرية الشاهقة على اليمين سقط باتريك آشبي ليَلقَى حتفه.

دفع نفسه مبتعدًا عن حاجز الأمواج وذهب ليبحث عن مكتب صحيفة «ويست أوفر تايمز». استغرق منه البحث بعضَ الوقت حتى عثر عليه؛ لأنه بالرغم من أن جميع قاطني ويست أوفر يقرءون الصحيفة المحلية، فإن قلةً قليلة منهم هم مَن اضطروا إلى البحث عنها في مقرها. كان مقرها على مسافة قريبة من الميناء، في منزل صغير قديم بشارع صغير قديم أيضًا لا يزال محتفظًا بأحجاره المُستديرة الأصلية. كان المدخل منخفضًا بشدة لدرجةٍ أن برات خفض رأسه دون تفكير عند دخوله. كان وراء هذا المدخل ظلامٌ دامس يعمُّ الأجواء بعد ضوء الشمس المشرق في الخارج. لكن جاء من العتمَة الصوتُ الصبيانيُّ الذي لا تُخطئه أذن لساعي المكتب: «تحت أمرك؟»

أخبره برات بأنه يودُّ مقابلة السيد ماكالان.

قال الصوت إن السيد ماكالان بالخارج.

«أعتقد أنه ليس بوسعك أن تُخبرني أين يمكنني العثور عليه؟»

«المنضدة الرابعة في الطابق العلوي على اليسار عند بلو بيرد.»

«ذلك واضح.»

«لا يمكن تغيير الثوابت؛ ذاك هو مكانه. ذاك هو المكان الذي يُوجَد فيه دائمًا في هذا الوقت من اليوم.»

كانت بلو بيرد، على ما يبدو، مقهًى قريبًا من واجهة الميناء. وكان السيد ماكالان بالفعل يجلس على المنضدة الرابعة في الطابق العلوي على اليسار، التي كانت بجانب النافذة البعيدة. كان السيد ماكالان يجلس وأمامه فنجان قهوة شُرِب نصفه، ويحملق في عبوس إلى الواجهة المشرقة. غير أنه رحَّب ببرات بلطفٍ كترحيبِ صديقٍ قديمٍ بصديقه، ثم سحب كرسيًّا له.

قال برات: «أخشى أنني لم أكن ودودًا كثيرًا معك.»

قال السيد ماكالان: «الطريقة الوحيدة التي سأتصدر بها الصفحة الأولى من صحيفة «كلاريون» على الإطلاق هي في صندوق التخزين.»

«صندوق تخزين؟»

«في جثةٍ مقطعة إلى أجزاء. ولا يسعني أن أمنع نفسي من الشعور بأن الخبر سيكون قاسيًا قليلًا.» وفَرَد عددَ هذا الصباح من صحيفة «كلاريون» حتى صارت الطباعة الشديدة السواد تكاد تخرج صارخة من المنضدة. كانت جريمة القتل في صندوق التخزين لا تزال تتصدَّر الصفحة الأولى بعد مرور ثلاثة أيام، بعد أن اكتُشف أن الرِّجْلَين اللتَين في الصندوق

هما لشخصَين مختلفَين؛ وهو تعقيدٌ جعل القضية الحالية لا منافسَ لها في فئة جرائم صناديق التخزين.

قال السيد ماكالان متأملًا: «الأمر البشع في جريمة القتل ليس أنها تحدث، إنما أنها تحدُث لعمتك أجنيس، إذا كنت تفهمني. من فضلكِ! يا آنسة! فنجان قهوة لصديقي هنا. يذهب الأخ جوني إلى الحرب فيُقتل ويُصبح كل شيء مُحزِنًا للغاية، لكن لا أحد يتعرَّض لصدمة؛ فهذه هي الحضارة المدنية. لكن إذا قَتَل أحدٌ العمةَ أجنيس ذات ليلةٍ في طريق عودتها إلى المنزل فتلك هي الصدمة. فهذا النوع من الأشياء لا يحدُث للأشخاص الذين تعرفهم.»

«لا بد أن الأمر يكون أسوأ عندما يقوم شخص تعرفه بقتل عمة شخصٍ ما.»

قال السيد ماكالان وهو يُلقي بملعقةٍ أخرى ممتلئة بالسكر في قهوته شبه الباردة ويقلب بشدة: «من المؤسف أنني شهدتُ بعضًا من تلك الجرائم. في العائلات كما تعرف. ويظلُّ الأمر واحدًا دائمًا: يعجزون عن التصديق فحسب. لا يُصدقون أن فتاهم المدلَّل هو مَن فعلها. ذلك هو مصدر الرعب في القتل. أن يأتيَ من الأقرباء.» ثم أخرج علبة سجائره وقدَّمها له ليأخذ واحدة. «كيف ترى كونك رجلَ كلير الأثير؟ هل أنت سعيد بالعودة؟»

«لا يُمكنك أن تتصوَّر مدى سعادتي.»

«بعد تلك الحياة الحرة الرائعة التي قضيتها في أريزونا أو تكساس أو أينما كنت؟ هل تعني أنك تفضل هذا حقًّا؟» حرَّك السيد ماكالان رأسه فجأة نحو واجهة ويست أوفر المكتظة بالمتسوقين الهادئين. ثم، عندما أومأ برات برأسه، قال: «فلتتنزل الرحمة هنا! أكاد لا أصدِّق ذلك.»

«لماذا؟ ألا يعجبك المكان؟»

خفض السيد ماكالان بصره ناظرًا إلى الإنجليز الجنوبيين وهم يتجوَّلون في ضوء الشمس الإنجليزية الجنوبية، ثم بصق مَجازيًّا. ثم قال: «إنهم في غاية السعادة بأنفسهم لدرجةٍ تُعجزني أن أُشيح ببصري عنهم.»

«راضون بحظِّهم في الحياة، أهذا ما تقصده؟ ولمَ لا؟»

«لا شيء في هذا العالَم نشأ من الرِّضا.»

قال برات: «باستثناء الجنس البشري.»

ابتسمَ السيد ماكالان. «سأوافقك على ذلك.» لكنه واصل التحديق إلى أسفل مُتجهِّمًا في مشهد الميناء المشرِق. «أنظر إليهم وأفكر: «هؤلاء القوم جعلوا اسكتلندا تُحارب أربعمائة سنة»، ولا أستطيع أن أتوصَّل إلى إجابة.»

«الإجابة بالطبع أنهم لم يفعلوا ذلك.»

«حقًّا؟ دعني أُخبرك بأن بلدي …»

«لقد كانوا منشغلِين كثيرًا على مدار الألف سنة الماضية بحماية سواحل إنجلترا. لكن بالنسبة إليهم فبلدك اسكتلندا كانت ستُصبح جزءًا من إسبانيا اليوم.»

كانت هذه الفكرة على ما يبدو جديدةً على السيد ماكالان. لكنه قرَّر أن يتجاهلها.

«لم تكن تبحث عنِّي، صحيح؟ عندما جئت إلى مقهى بلو بيرد؟»

«بلى. ذهبت إلى المكتب أولًا فأخبروني بأنك ستكون هنا. ثمة أمرٌ أريدُه وظننتُ أنك ربما ستُساعدني فيه.»

قال السيد ماكالان بنبرةٍ جافة: «أظنُّ أنه ليس من أجل حملة دعاية.»

«لا، أريد أن أقرأ نعيي.»

«يا رجل، ومَن لا يريد ذلك! فأنت شخص مُميز يا سيد آشبي، شخص مميز كثيرًا.»

«أظنُّ أن صحيفة «ويست أوفر تايمز» تحتفظ بالأعداد القديمة من الصحيفة.»

«أوه، صحيح، هذا العدد صدر في ١٨ يونيو ١٨٢٧. أم إنه كان في يوم ٢٨؟ لقد نسيت. إذن تريد أن تطَّلع على الملفات. لا بأس، لا تحوي الكثير، لكنك ستجد الأمر مُثيرًا للاهتمام بالطبع. فلا بد أن حادثَ وفاة المرء هو موضوع مُشوِّق للقراءة عنه.»

«قرأت عنه، إذن؟»

«أجل. بحثت عن خبر وفاتك بطبيعة الحال قبل الذهاب إلى لاتشتس يوم الثلاثاء.»

نزلا يتلمَّسان طريقَهما عبْر درجات السُّلَّم المُظلم نحو القبو القابع أسفل مكاتب صحيفة «ويست أوفر تايمز»، وتمكَّن السيد ماكالان من وضْع يدِه على النسخة المطلوبة في الحال ودون أن يُثير الغبار المتراكِم على مدار مائةٍ وخمسين عامًا في وجهيهما.

قال السيد ماكالان، باسطًا المجلدَ مفتوحًا تحت الضوء الواضح على المكتب المائل القديم الطراز: «سأتركك معه. أتمنَّى لك وقتًا مُمتعًا. إن كان هناك أي شيء آخر يمكنني أن أفعله من أجلك، فأخبرني به فحسب. ولتأتِ وقتما تشاء.»

هرول صاعدًا على درجات السُّلَّم الحجري، وتلاشى صوت قرع نِعاله وهو مُتجهٌ لأعلى إلى عالم البشر، وتُرك برات وحدَه مع الماضي.

كانت صحيفة «ويست أوفر تايمز» تصدُر مرَّتَين في الأسبوع: أيام الأربعاء والسبت. كان حادث وفاة باتريك آشبي قد وقع يومَ سبت، وبذلك حمل إصدارٌ واحد ليوم الأربعاء كلًّا من خبر وفاته وتقريرًا عن التحقيق الشرطي في القضية. بالإضافة إلى الإعلان المُعتاد

الذي وضعتْه العائلة في صحيفة الوفيات، نُشِر خبر صغير في الصفحة الوسطى. كانت صحيفة «ويست أوفر تايمز» مملوكة لعائلة من ويست أوفر، وكانت تحت إدارتِهم منذ تأسيسها، وكانت لا تزال مُحتفظةً بأبَّهتها، وسموِّها، وتحفُّظها مثل عربة قديمة يجُرُّها حصان واحد مملوكة لطبيبٍ إدواردي تجوب بين شارع هارلي ستريت ونايتس بريدج. أعلنت الصحيفة عن الخبر الحزين وقدَّمت مواساتها إلى العائلة في هذا المُصاب الجلَل الذي حلَّ بهم بعد فترةٍ قصيرة من فاجعةِ فقْدهم للسيد آشبي وزوجته في حادث تحطُّم طائرة. لم تُقدِّم أيَّ معلوماتٍ خلاف حقيقة أنه في غضون عصر أو مساء يوم السبت لقي باتريك آشبي حتفَه إثر سقوطه من فوق المنحدَر الصخري غرب المدينة. وكان هناك بيانٌ عن التحقيق في الصفحة الخامسة.

في الصفحة الخامسة كان هناك عمود كامل عن التحقيق. ولم يكن عمودٌ واحد كافيًا بالطبع ليوفِّيَ التحقيق حقَّه بالتفصيل، لكنه حوى جميع الحقائق البارزة، ومن حينٍ لآخر يرِدُ أحد الأدلة ساردًا كلمةً بكلمة.

كان عصر يوم السبت إجازةً لأطفال آشبي وكانوا مُعتادين في الصيف أخذَ «عملة معدنية» معهم وممارسة اهتماماتهم المختلفة في الريف حتى يحين وقت العودة إلى المنزل لتناول وجبة العشاء. لم يُثَر أي قلقٍ بشأن غياب باتريك في المساء حتى مرَّ على تغيُّبه عدة ساعات. كان الاعتقاد البديهي أنه ذهب إلى أبعدَ مِما كان ينوي وهو يُمارس أحدث هواياته في مُراقبة الطيور، وأنه تأخَّر فحسب. عندما حلَّ الظلام وما زال لم يَعُد إلى المنزل، أُرسِلت استفسارات بالهاتف إلى جميع أرجاء الريف في محاولةٍ للعثور على شخصٍ يكون قد رآه، حتى إذا أصابه حادث يُمكن توجيه فريق إنقاذ إلى الموقع الصحيح. ولمَّا لم تؤتِ الاستفسارات أيَّ جدوى، أُعدَّ فريقُ بحثٍ ليجوب الأماكن المحتملة كافة بحثًا عن الصبيِّ المفقود. أُجري البحث سيرًا بالخيول وعلى الأقدام على حدٍّ سواء، وبالسيارة عبْر الطرق، دون أن يُكلَّل بأي نجاح.

مع أول شعاع ضوء في الصباح الباكر عَثر على معطفِ الصبي أحدُ جنود خفر السواحل الذي كان في دوريةٍ عبْر المنحدرات الصخرية. أدلى ألبرت بوتيكاري، جندي خفر السواحل المعني، بشهادة تفيد بأن المعطف كان على مسافةِ نحو خمسين ياردة من حافة المنحدر الصخري، حيث يبدأ المسار من تانبيتشس في الانحدار عبْر الفجوة المؤدية إلى الميناء في ويست أوفر. كان المعطف على بُعد بضع ياردات عن المسار الواقع على الجانب الأقرب من المنحدر، وكان مُثبَّتًا في مكانه بواسطة حجر. كان مبللًا بالندى عندما التقطه، وخلَت

جيوبه من أي شيءٍ عدا رسالة مكتوبة بقلم حبر ذي سنٍّ رفيعة. وكانت الرسالة هي التي دلَّت عليه في تلك اللحظة. أبلغ الجندي الخبر إلى الشرطة عبْر الهاتف وعلى الفور بدأ البحث عن جثة على الشاطئ. لكن لم يُعثَر على أي جثةٍ. كانت الليلة السابقة قد شهدت مدًّا بلغ ٢٩:٧، وإذا كان الصبي قد سقط في الماء، أو إذا كان قد سقط قبل ارتفاع الماء بحيث يكون التيار قد سحب جثمانه، فلم يكن تيار المد ليجرفه مرة أخرى إلى شاطئ ويست أوفر. فلم يغرَق أحدٌ في ضاحية ويست أوفر وقد جُرف لمكان أقربَ من كاسلتون، التي تقع بعيدًا جهة الغرب؛ وأغلبهم يُجرف غربًا لمناطق أبعدَ من تلك. لذلك لم يكن هناك أملٌ في العثور على أي جثةٍ عندما بدأ البحث. فلم يكن إلا إجراءً روتينيًّا.

تبيَّن أن آخر شخص رأى باتريك آشبي كان آبل تاسك، راعي الغنم. كان قد التقى بالصبي في بداية العصر، في منتصف الطريق تقريبًا بين تانبيتشس والمنحدر الصخري.

س: ماذا كان يفعل؟

ج: كان مُستلقيًا على بطنه فوق العشب.

س: أكان يفعل أي شيء؟

ج: ينتظر طائر قُبَّرة.

س: أي نوعٍ من القُبَّرة؟

ج: القُبَّرة الإنجليزي.

س: تقصد أنه كان يُراقِب الطيور. هل بدا بحالته الطبيعية؟

نعم، هكذا أجاب آبل؛ فقد بدا بات آشبي كالمعتاد حسبَ تقديره. فلم يكن في أي وقتٍ «ثرثارًا». أكان صبيًّا هادئًا؟ نعم، كان صبيًّا لطيفًا هادئًا. تناقشا في الطيور قليلًا ثم افترقا. كان آبل تاسك في طريقه إلى ويست أوفر من مسار المنحدَر الصخري، وكان أيضًا في إجازته الشخصية لنصف اليوم. ولم يَعُد حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل ولم يَسمع عن عملية البحث عن الصبي حتى صباح يوم الأحد.

سُئل إن كان الكثير من الناس يرتادون مسار المنحدر الصخري فأجاب بالنفي. كانت هناك حافلات من القرية توصِلك إلى ويست أوفر في عُشر الوقت، لكنه لم يكن يعوِّل على تلك الحافلات. فقد كان السير على ذلك الجزء الصخري من المسار صعبًا، ولم يكن مناسبًا لنوع الحذاء الذي يَرتديه الذاهبون إلى المدينة. لهذا لم يكن أحدٌ سيُفكِّر في الذهاب إلى ويست أوفر من ذلك الطريق غير شخصٍ مثله كان على جانب البحر من تل تانبيتشس.

أدلت بي بشهادتها بأن وفاة والدَيه كانت صدمةً كبيرة للصبي، لكنه تقبَّل الأمر وكان يبدو أنه يتعافى. لم يكن لدَيها مُبرِّر يدفعها إلى الاعتقاد بأنه كان يُفكِّر في إنهاء حياته. لقد

تفرَّق الأطفال عصر يوم السبت؛ لأن اهتماماتهم كانت مختلفة؛ لهذا لم يكن بقاء باتريك وحدَه أمرًا استثنائيًّا.

س: ألم يُرافقه توءمُه؟

ج: نعم. كان باتريك مُغرمًا بالطيور، لكن ميول سايمون كانت ميكانيكية.

س: هل رأيتِ الرسالة التي عُثر عليها في معطف الصبي، وهل تعرفتِ الخطَّ بأنه خطُّ باتريك ابن أخيك؟

ج: نعم. كان لباتريك طريقةٌ مميزة للغاية في كتابة الحروف الأولى من اسمه. وكان هو الشخص الوحيد الذي أعرفه يكتب بقلَم حبر.

أوضحت طبيعة قلم الحبر. كان القلم الذي يمتلكُه باتريك من مطاطٍ مقسًّى أسود، وله لولب حلزوني رفيع أصفر أسفل الأنبوب. أجل، كان ضائعًا. كان يحمِلُه معه دائمًا؛ فقد كان من مقتنياته المحبَّبة إليه.

س: هل يمكنك التفكير في أي سببٍ يُفسِّر سيطرة هذه الرغبة المفاجئة عليه في إنهاء حياته، في حين أنه بدا إلى صديقه، راعي الغنم، سعيدًا كعادته على نحوٍ عادي وقت العصر؟

ج: لا يسعني سوى أن أفترض أنه كان سعيدًا على نحوٍ طبيعي أثناء العصر، لكن عندما حان وقت العودة إلى المنزل، كانت فكرة العودة إلى منزلٍ غاب عنه مَن جعلوا الحياة رائعةً له فوق احتماله، وتملَّكتْه رغبة عارمة كانت وليدةَ لحظةٍ من اليأس.

وكان ذلك هو قرار المحكمة أيضًا. أن الصبيَّ استسلمَ لرغبةٍ عارمة عابرة في لحظةٍ اختل فيها ميزان عقله.

كانت تلك هي نهاية العمود ونهاية باتريك آشبي. قَلَّب برات صفحات الإصدار التالي، الذي كان زاخرًا بالتفاصيل الصغيرة المهمة عن ويست أوفر في فصل الصيف: عروض، مسابقات بولينج، دورات ألعاب تنس، اجتماعات المجلس، الجولات التجارية؛ لكن لم يَرِد أي ذكرٌ لبات آشبي. لقد صار بات آشبي مُنتميًا إلى الماضي.

اضطجع برات مُسترخيًا في الهدوء المُطبِق الذي ساد القبو وأمعن التفكير في الأمر برُمته. كان الصبي مُستلقيًا على عشب الصيف في انتظار هبوط طيور القُبَّرة المُحبَّبة له من السماء. ثم حل الليل. ولم يَعُد أيُّ صبيٍّ إلى منزله عبر تل تانبيتشس.

اهتمامات ميكانيكية، هكذا قالت في وصفها لكيفية قضاء سايمون لعطلة نصف اليوم. افترض أن المقصود بذلك كان مُحرِّك الاحتراق الداخلي. ففي عمر الثالثة عشرة يبدأ الشغف بالسيارات. كان سايمون على الأرجح يعبث ببراءةٍ في مرأب لاتشتس. ولم تَرِد بالطبع أيُّ إشارةٍ في التحقيق، كما نُقل في الصحافة، إلى أن مكانه كان موضع شك.

عندما انضمَّ إلى بي لتناول الغداء في مطعم أنجل كان مُتلهفًا لكي يسأل بي بصراحةٍ عن المكان الذي كان فيه سايمون في عصر ذلك اليوم. لكنه بالطبع لم يَستطِع أن يقول: «أين كان سايمون عصر اليوم الذي هربتُ فيه من المنزل؟» كان سؤالًا لا معنًى له على الإطلاق. لا بد أن يختلق طريقةً أخرى ليطرح الموضوع للحوار. شتَّت انتباهه رئيس النُّدُل العجوز في مطعم أنجل، الذي كان يعرف جميعَ أبناء آشبي وبدا وقد اقشعرَّ بدنُه حتى النخاع من عودة باتريك غير المُتوقَّعة. فقد ارتجفت يداه الهرمتان عندما وضعتا الأطباق المتنوِّعة أمامه، وكان كل طبقٍ يُوضَع يُصاحبه عبارة «السيد باتريك، سيدي» بصوت مرتجِف، وكأن استخدام الاسم يُسعده. لكن جاءت ذروة الأحداث مع طبق التحلية. كانت التحلية فطيرةَ فواكه، وكان قد قدَّمها بالفعل إلى بي وبرات، لكنه عاد في الحال وبحماسةٍ شديدة وضعَ حلوى مرينج كبيرة على طبقٍ فضي أمام مكان برات. حدَّق برات فيها بدهشة ثم رفع بصرَه ليجد الرجل العجوز في انتظار تعليقِه بابتسامةٍ واسعة وعيناه مغرورقتان بالدموع. لكن ذهنه كان مُنشغلًا بسايمون حتى إنه لم يكن سريع الاستجابة بالدرجة الكافية، وكانت بي هي مَن أنقذت الموقف.

قالت: «كم هو رائع من دانيال أن يتذكَّر أنك كنت دائمًا تتناول تلك الحلوى!» فحذا برات حذوَها وانصرف الرجل العجوز سعيدًا وتحرَّك، مُكفكفًا دموعَه بمنديلٍ أبيض رائع بدا كبيرًا بحجم ملاءة سرير.

قال برات لبي: «شكرًا لكِ، لم أكن أتذكر ذلك.»

«دانيال العجوز العزيز. أعتقد أن الأمر ربما يبدو له أشبَهَ برؤية ابنه عائدًا. كان له ثلاثة أبناء، كما تعرف. وجميعهم ماتوا في حربٍ واحدة، وجميع أحفاده ماتوا في الحرب التي تلتها. كان مغرمًا بِكُم وأنتم أطفال؛ لهذا أتوقَّع أن يكون الأمر رائعًا له كثيرًا أن يرى أي شخصٍ أحبَّه وقد عاد من الموت. ماذا كنت تفعل بصباحك؟»

«كنت أقرأ نعيي.»

«يا لكآبتك. لكن لا، بالتأكيد، الأمر ليس كئيبًا. هذا ما نُريد جميعًا أن نفعله. هل قابلتَ السيد ماكالان؟»

«قابلته. أرسل إليكِ أطيب التحيات. عمة بي ...»

«أنت أكبر من أن تبدأ نداءك لي بالعمة.»

«بي، ماذا كانت «الاهتمامات الميكانيكية» لسايمون؟»

«لم يكن لسايمون أي اهتمامات ميكانيكية على حدِّ علمي.»

«هكذا ذُكِرت في التحقيق.»

«أقلت ذلك؟ لا أتصور ماذا يمكن أن تكون تلك الاهتمامات. ماذا كانت مناسبةُ ذلك؟»

«لتُفسِّري عدم قيامِنا بأشياءَ معًا عصر يوم السبت. ماذا كان يفعل سايمون عندما كنت أذهب لمراقبة الطيور؟» حاول أن يجعلَ السؤال يبدو كمحاولةٍ لتذكُّر نمَط حياةٍ قديم.

«أتوقع أنه كان يتسكع. طالما كان سايمون مُتسكعًا. لم تدُم له هواية قطُّ أكثر من أسبوعَين على أقصى تقدير.»

«إذن لا تذكُرين الهواية التي كان سايمون يُمارسها في اليوم الذي هربت فيه؟»

«هذا سُخف منِّي يا عزيزي، لكني لا أعرف. حتى إنني لا أتذكَّر أين كان في ذلك اليوم. عندما يقع حدَث مُريع، كما تعرف، تدفعه إلى أعماق عقلك ولا تسترجعه مرةً أخرى لو كان الأمر بيدك. أتذكَّر جيدًا أنه قضى الليل كلَّه على مُهره يبحث عنك بجنونٍ. مسكين سايمون. لقد آذيتَه حقًّا يا برات. لا أعرف إذا كنتَ تُدرك ذلك. لقد تغيَّر سايمون بعد رحيلك. لا أعرف إن كان ذلك من صدمة هروبك أو لافتقاده رفقتك المُتزنة، لكنه صار شخصًا مختلفًا بعدها.»

ولمَّا لم يجد برات ردًّا على ما قيل، أخذ يأكل في صمت، وبعد قليل قالت: «وآذيتَني بامتناعك عن مُراسلتي. لماذا لم تكتُب لي يا برات؟»

كانت هذه هي نقطة الضَّعف في الحبكة بأكملها، كما كان لودينج يُشير باستمرار.

قال: «لا أعرف. صدقًا لا أعرف!»

كان إحساس الغضب واليأس في نبرة صوتِهِ في محلِّهما لدرجةٍ لم يكن قد توقَّعها.

قالت: «لا بأس. لن أزعجك يا عزيزي. لم أقصد ذلك. كان ذلك أمرًا أثار حيرتي فحسب. لقد كنت شديدةَ الولع بك عندما كنتَ صغيرًا، وكنا صديقَين مقربَين. لم يكن من طبعك أن تعيش حياةً خاصة بك من دون أن تُلقيَ نظرةً سريعة إلى الخلف.»

نقَّب عن ردٍّ في أعماق خبرته الشخصية. «من السهل أن تُلقيَ الماضي وراءَ ظهركِ عندما تكونين في عمر الرابعة عشرة أكثر مما قد تتخيَّلِين. إذا كنتِ تُواجِهين خبراتٍ جديدةً باستمرار، هذا ما أقصده. الماضي لا يحمل واقعًا أعظمَ من شيءٍ رأيتِه في سينما. أقصد، ليس هناك واقع شخصي.»

قالت بمرح: «لا بدَّ أن أُجرِّب الهروب يومًا ما. ثمَّة أحداث كثيرة من الماضي أودُّ أن أُلقيَها وراء ظهري.»

ثم جاء دانيال حاملًا الجبن، وأخذا يتحدثان عن أمورٍ أخرى.

الفصل العشرون

لم يكن برات مُهيئًا لأن يجد هدايا عيد ميلاد متراصَّة بجانب طبقِه صباح يوم الجمعة. فلم يكن، في الحقيقة، يعبأ بفكرة عيد الميلاد نهائيًّا. كان السيد ساندال قد أخبره في لندن: «لقد أُرجئت جميع الاحتفالات حتى عودة السيد تشارلز إلى هذا البلد»، ولم يتذكر أنه بعيدًا عن الاحتفال، سيأتي يومٌ لا محالة يبلُغ فيه عامه الحادي والعشرين، حتى لفتت بي انتباهه إلى ذلك. كانت خبرته ضئيلةً في أعياد الميلاد حتى إنه قد سلَّم بأنَّ تأجيل الاحتفال يعني استقبال تهانٍ شفهية بسيطة من كل فرد من العائلة، وأربكته كومة الطرود التي وجدها بجانب طبق إفطاره. وشعر بالخوف من فكرةِ اضطراره إلى فتحها على مرأًى من الجميع.

شجَّعته اللمعة الساخرة في عينَي سايمون لأداء المهمة. فقد ساوره شكٌّ بأن التزام سايمون بموعد الفطور صباح ذلك اليوم لم يكن بداعي حضور السيد ساندال بقدْر ما كانت بداعي الاستمتاع بارتباكه أمام تلك الهدايا.

قالوا عند دخولهم: «عيد ميلاد سعيد يا برات!» وتوالت التهاني الواحدة بعد الأخرى: «عيد ميلاد سعيد يا برات!» كانت المباركات الرقيقة تنهال عليه مثل قصاصات الأوراق الملوَّنة.

تمنَّى لو لم تكن لديه مثل هذه المشاعر السيئة حيال الأمر. تمنَّى لو أنهم كانوا عائلته حقًّا، وأن تلك الهدايا التي بجانب طبقه هي هداياه، وأن ذلك اليوم هو يوم ميلاده. كانت أجواء في غاية الروعة، أجواء عيد ميلادٍ عائلي.

سألت إلينور: «هل أنت من مُحبي فتْح الهدايا قبل الإفطار أم بعده يا برات؟»

قال سريعًا: «بعده» وهكذا فاز بمهلةٍ للتنفُّس والتفكير.

لعله يشعر بمزيدٍ من الشجاعة بعد عدة فناجين من القهوة المركَّزة.

كان لدى سايمون، بالإضافة إلى الهدايا، كومةٌ من البرقيات المُرسَلَة من الأعداد الغفيرة من معارفه الذين لم يعلموا حتى الآن بعودة أخيه التوءم، ففتحها عندما تناول طعامه وشارك مضمونها مع البقية. وبعد قراءة كل رسالةٍ بصوتٍ عالٍ كان يُضيف تعليقًا في نهايتها.

«شلن بالتمام والكمال، تلك البخيلة مُكتنزة المال! وأنا مَن قدَّمت لها غداءً فاخرًا في آخر مرة ذهبت فيها إلى المدينة … ماذا يفعل بوبي في جزيرة سكاي في تصوُّركم؟ فهو يكره الجبال ويُعاني الأمرَّين من الذباب الصغير … جور وبوين. أظن أن هذه الرسالة لِيُذكِّراني بدفع فاتورتي … واثق أنني لا أعرف أحدًا باسم بيرت برت؟ هل تعتقدون أنه قد يكون وكيل مراهنات؟»

عندما لم يَعُد بإمكان برات في النهاية أن يؤجِّل فتْح طُرُودِه، كانت الحقيقة التي جعلت مُهمَّته أسهل أن هداياه كانت في الغالب نسخة طِبق الأصل من هدايا سايمون التي كان يُخرجها من كومته. كانت هدايا غربال السُّكر من السيد ساندال، والقنينة الفضية من بي، والسوط من إلينور، ودفتر الملاحظات الصغير من التوءمتَين، كانت جميعها هدايا مكررة. كانت الهدية الوحيدة المميزة هي تلك المرسلة من منزل القس. كانت عبارة عن صندوق خشبي صغير يُصدِر نغمة موسيقية عند فتح الغطاء. لم يكن برات قد رأى أو سمع عن شيء كهذا من قبل قط؛ لهذا كان سعيدًا بها لدرجةٍ أنه نسي نفسه وانشغل بها.

علَّقت بي: «جاءت تلك الهدية من كلير بارك.»

وعندما تذكَّر لودينج إثر هذه الملحوظة، عاد إلى الواقع وأغلق الغطاء على النغمة الرقيقة العذبة.

كان في صباح هذا اليوم سيتوقَّع تنازُلًا عن حُريته. ولم يكن الوقت مُواتيًا لدندنة نغمات صغيرة.

كان إجراء التنازُل هذا مفاجئًا أيضًا. فقد تخيَّل ببراءته أن مجموعةً مختلفة من الأوراق كانت ستُوضع أمامه وسيُوقِّع عليها، وينتهي الأمر. مسألة ستستغرق عشرين دقيقة على الأكثر. لكن تبيَّن أنها تستغرق ساعات. جلس هو والسيد ساندال جنبًا إلى جنبٍ على الطاولة الكبيرة في المكتبة، ووضع السِّجل المالي للاتشتس كاملًا مفتوحًا ليفحصه. كان مكتب كوسيت وثرينج ونوبل يوضح لموكلهم الشاب حسابات السنوات التي لم يبلُغ فيها سنَّ الرشد.

اجتهد برات، الذي كان حائرًا قليلًا رغم تشوُّقه، في متابعة السيد ساندال أثناء استعراضه لما حدث خلال تلك السنوات، وأعجبَتْه الطريقة التي تناول بها الرجل المحنَّك تحليله القانوني والحسابي.

«ثروة والدتك العزيزة ليست كما كانت في أيام الرخاء عندما ورِثَتْها بالطبع؛ لكنها ستكفي لضمان معيشةٍ كريمة لك في لاتشتس مستقبلًا دون قلق. وكما لاحظت، كثيرًا ما كان هامش الأمان ضئيلًا للغاية خلال السنوات التي كنتَ فيها قاصرًا، لكنها كانت رغبة الآنسة آشبي بضرورة عدم الاقتراض استنادًا إلى إرثك من والدتك. كانت مُصمِّمة على أن يصِلك كاملًا دون أي مساسٍ به عند بلوغ عامك الحادي والعشرين.»

ومضى يعرض الكشوفات أمام برات، ولأول مرة يُدرك برات الصراع وعدم الأمان الكامنين وراء السعادة المضمونة التي كانت لاتشتس تظهرها للأعين.

سأل برات: «ماذا حدث في ذلك العام؟» واضعًا إصبعه على سجلٍّ أسود بعينه.

قلَّب السيد ساندال في بعض الأوراق. «آه، أجل. تذكَّرت. كان ذلك عامًا سيئًا. عامًا سيئًا للغاية. نفقت واحدة من الأفراس وصارت فرستان عاقرتَين، وانكسرت ساق مُهر أصيل للغاية. كان عامًا حزينًا. إنها وسيلة غير مُستقرة لكسب العيش. ذلك العام، على سبيل المثال»، وأشار بإصبعه النحيل الجاف إلى تقريرٍ آخرَ غير مُرضٍ، «سار كلُّ شيءٍ في لاتشتس بسلاسة لكن تصادف أن كان عامًا لم تُبَع فيه أيُّ خيول ولم يَجلِب أيٌّ من الخيول التي مرَّ عليها الحول سعرَها الأدنى عند البيع. إنها مسألة حظ. حظ بحت. ستُلاحظ أن بعض السنوات كانت موفقة إلى أقصى حد، وبذلك عُوضت الخسائر.»

ترك شئون الإسطبلات ثم انتقل إلى المزارع: شروط الإيجار، التحسينات، موقف المستأجرين، طبيعة المحاصيل. وأخيرًا وصل إلى الدخل الشخصي.

«كان دخل والدك مُجزيًا من مهنته مهندسًا استشاريًّا، وبالطبع لم يبدُ أن هناك شيئًا يحول دون ادِّخاره مبلغًا سنويًّا ضخمًا للحياة فيما بعد. ولذلك كان يُنفق بسخاء على لاتشتس وعلى الخيول التي كانت هوايته. اشترى أفراسًا غالية وأصيلة، وما إلى ذلك، ومن ثَم عندما مات لم تكن استثماراته مُتسعة للدرجة، وكان لا بد بالطبع من دفع الضرائب على التركة، ولذلك كان لا بدَّ من استمرار تلك الاستثمارات.»

مرَّر ورقةً أخرى أمام عينَي برات، تُوضِّح كيف سُددت الضرائب دون رهن لاتشتس.

«الآنسة آشبي لها دخلها الخاص ولم تأخُذ أيَّ مصروفاتٍ قط من أموال لاتشتس. فيما عدا مصروف المنزل. كانت مصروفات الطفلَين الأكبر سنًّا تزداد مع تقدُّمهما في العمر.

وباستثناء بعض الممتلكات الشخصية — أمهُر الأطفال، على سبيل المثال — فإن الخيول في الإسطبل تخصُّ تركة لاتشتس. عندما كان الأطفال يذهبون إلى المزادات لشراء خيول من أجل إعادة بيعها كانت الآنسة آشبي تُعطيهم أموالًا، وأي أرباحٍ من الخيول المُحسَّنة كانت تُخصَّص لنفقات لاتشتس. لكنني أعلم أن سايمون قد اشترى مؤخرًا حصانًا أو حصانَين من مكاسب رهانات مربحة، وإلينور من حصيلة عملِها مُعلِّمة لفن ركوب الخيل. وستُخبرك الآنسة آشبي دون شكٍّ ما هي تلك الخيول. فهي غير موضَّحة في تلك المستندات. أما أمهُر شيتلاند، فكانت مشروعًا خاصًّا بالآنسة آشبي، وهي مِلكٌ خاصٌّ لها. آمُل أن يكون كل شيء واضحًا؟»

فأقرَّ برات بأنه كذلك.

«نأتي الآن إلى الحديث عن المستقبل. بناء على توصية من البنك، يجب أن تظل الأموال التي تركتْها والدتُك لك مُستَثمرة كما هي الآن. هل لديك أي اعتراض على ذلك؟»

كان لودينج قد أخبرَه: «لا أريد مبلغًا كبيرًا دفعةً واحدة. أولًا لأنَّني سأُبدِّده. ثانيًا، لأن ذلك سيتسبَّب في قدْرٍ هائل من المراجعة والتدقيق الشديدَين في البنك. ونحن لا نرغب في أي تدقيقٍ بمجرد أن يُصبح زمام الأمور في يديك. كل ما أريده هو مصروف أسبوعي بسيط مريح لبقية حياتي، حتى يُمكنني أن أرفع رأسي في وجه اتحاد إيكوتي، ومجالس الإدارة، والمُنتجين الذين يدَّعون أني أتأخَّر دائمًا عن تجارب الأداء. ولا أستثني صاحبات العقارات. الثروة يا بُني، لا تكمن في امتلاك الأشياء، إنما في عدم الاضطرار إلى فعل شيءٍ لا تريد فِعله. ولا تنسَ ذلك. الثروة هي القدرة على أن تكون مرفوع الرأس.»

سأل برات السيد ساندال: «ما الدخل الذي ستُدِرُّه عليَّ تلك الاستثمارات إذا بقِيَت كما هي؟» فأخبره السيد ساندال.

كان ذلك مناسبًا تمامًا. كان بإمكانه اقتطاع نصيب لودينج ويظلُّ يمتلك ما يكفي للوفاء بالتزاماته في لاتشتس.

«هذه هي المصروفات الحالية للأطفال. ستذهب الأختان التوءمتان، بالتأكيد، إلى المدرسة خلال فترة وجيزة، وستكون هذه مصاريف مفروضة على تركة لاتشتس لبضع سنين.»

أدهشه قلَّة حجم المصروفات. ففكر مُتعجبًا، لقد جنيتُ أكثرَ من ذلك في ثلاثة أشهر من العمل في منتجع ركوب الخيل. وبدَّل هذا موقفه تجاه سايمون قليلًا؛ إذ كان ذلك يعني أن سايمون كان أقلَّ منه بكثيرٍ فيما يتعلَّق بمسألة الإنفاق.

قال للسيد ساندال: «ليست كبيرة للغاية، أليس كذلك؟» فبدا السيد العجوز متفاجئًا. فأجابه بنبرةٍ جافة: «هذه المصروفات وفقًا لحجم التركة.»

«حسنًا، أعتقد أنها يجب أن تزيد قليلًا الآن.»

«أجل؛ ستزيد بكل تأكيد. لكن لا يُمكنك أن تتوقَّع أن تُحمِّل نفقات شخصَين بالِغَين على تركة لاتشتس. لن يكون ذلك عدلًا بالنسبة إلى التركة. كلاهما قادر على كسب المال لتغطية نفقات معيشتهما.»

«ما اقتراحك إذن؟»

«أقترح أن تُمنح إلينور زيادةً طفيفة في المصروف طوال فترة معيشتها هنا في لاتشتس، أو حتى تتزوج.»

«هل تفكر في الزواج؟»

«يا بُني العزيز، جميع الفتيات يُفكِّرن في الزواج، لا سيما عندما يَكُنَّ على قدْر من الجمال يسرُّ الناظرين مثل أختك. ولكن لستُ أدري إن كانت قد أبدت إلى الآن أي اهتمامٍ خاصٍّ بهذا الأمر.»

«أوه. وماذا عن سايمون؟»

«وضْع سايمون صعب. فحتى أسابيع قليلة مضت كان يَنظُر إلى لاتشتس باعتبارها مِلكًا له. ومن غير المُحتمَل أن يظلَّ طويلًا في لاتشتس الآن، لكن يمكن أن تُدفَع له زيادة طفيفة في المصروف تقترحها أنت طوال الفترة التي يُقدِّم لك فيها خدماته هنا.»

قال برات الذي أدهشه افتراض السيد ساندال احتماليةَ رحيل سايمون: «لا أعتقد أن ذلك مناسب بالقدْر الكافي.» فلم يُظهِر سايمون أيَّ دلائل على اعتزامه الرحيل. ثم أردف قائلًا: «أعتقد أن بعضًا من التركة تئول إليه.»

«أتقصد أدبيًّا؟»

«أجل، أعتقد هذا.»

«لا شك في أنك مُحق، لكنه افتراض خطِرٌ لا يُمكنك أن تتوقَّع منِّي الموافقة عليه. لا يمكن توزيع أنصبة صغيرة من تركة مالية وتظلُّ محتفظًا بتلك الثروة في حالٍ جيدة ومبشرة. المصروف شيء يأتي من الدخل. لكن أن تهَبَ جزءًا من الثروة يعني تدمير الثروة بأكملها.»

«حسنًا، أقترح، حال رغبة سايمون في الرحيل والبدء بمفرده في مكانٍ ما، أن يُقرَض المال الذي سيبدأ به من التركة بفائدة اسمية. أظنُّ أنني إذا قلت من دون فائدة فستمسك بعنقي.»

ابتسم له العجوز بلطفٍ شديد. «أعتقد أن لا شيء يمنع ذلك. أتطلع إلى فترةٍ تنعم فيها لاتشتس بازدهار كبير بعد أن انقضت السنواتُ العجاف. لا أعتقد أن منْح قرضٍ لسايمون سيؤثر كثيرًا بالسلب على التركة. سيعمل توفير المصروف الذي كنتَ تمنحه إيَّاه على إحداث توازن. والآن، بالنسبة إلى الزيادة في المصروفات الحالية ...»

وقاما بتحديد المبالغ المُخصَّصة لذلك.

قال السيد ساندال: «وأخيرًا، المتقاعدون.»

«المتقاعدون؟»

«أجل. المُعالون من قِبَل العائلة الذين بلغوا من العمر ما يمنعهم من العمل.»

تفاجأ برات للمرة الرابعة في صباح ذلك اليوم. ألقى نظرةً على القائمة الطويلة وتساءل إذا كانت كل العائلات الإنجليزية الحالية لدَيها هذا المصرف الذي يستنزف دخولها. بدا أن السيد ساندال يأخذ تلك النقطة عادةً مُتبعة؛ فكانت تلك الممارسة المُشرِّفة بالنسبة إليه عادية كدفع الضرائب على الدخل. كان السيد ساندال يرفُض أي إسراف يخصُّ العائلة: المُعافَون بدنيًّا من عائلة آشبي لا بد أن يكسبوا قُوتَهم بأنفسهم. لكنه اعتبر دعم خادمي العائلة من كبار السن والعجزة أمرًا بديهيًّا لا جدال فيه. فهناك المُربية، التي كانت قد بلغت من العمر الآن اثنين وتسعين عامًا وكانت تعيش في مكانٍ يُدعى نيو دير في اسكتلندا؛ وهناك سائس عجوز في التاسعة والثمانين يعيش في القرية، وآخر في جيسجيت، وطاهية ظلَّت تطهو لهم حتى بلغت الثامنةَ والستين وتعيش الآن مع سيدة عمرها تسعة وستون عامًا في هورشام، وهلمَّ جرًّا.

فكَّر في الشقراء الجريئة ذات الزينة الصارخة والفستان الحريري المنقوش بالورود التي رحَّبت به عند قدومه إلى لاتشتس. مَن سيمنحها معاشها؟ ربما الدولة. هل على فترة خدمتها الطويلة والمشرِّفة؟

وافق برات على استمرار المعاشات، ثم استُدعي سايمون للدخول ليؤدي نصيبه من التوقيع. أسعد برات، الذي كان قد وجد الصباح باعثًا على الكآبة، أن يُلاحظ الاتِّساع المفاجئ لعيني سايمون ما إن وقعتا على توقيعِه. مرَّ ما يقرُب من عَقدٍ منذ أن وقع نظر سايمون على الحروف الأولى من اسم باتريك، وها هي ذي تُطِلُّ أمامه برتابةٍ على منضدة المكتبة. ذلك سوف «يُلقِّنه درسًا» بألا يستهزئ بجهود برات ليفوز بعيد ميلادٍ لم يكن له.

دخلت بي، وأوضح السيد ساندال المُخصَّصات الإضافية فيما يتعلق بالمصروفات والخطة المقررة لدعم مستقبل سايمون ماديًّا. عندما سمع سايمون بالخطة حدج برات

بنظرةٍ مُتأملة، وكان بوسع برات أن يقرأ ما قالته تلك النظرة بوضوحٍ تام. «رشوة، أهي كذلك؟ حسنًا، لن تفيد بشيء. سأبقى هنا إلى الأبد، وأنت ستدفع لي رغمًا عنك ذلك المصروف.» أيًّا كانت خطط سايمون، فقد كانت تدور في فلك لاتشتس.

غير أن بي بدت سعيدة. فوضعت ذراعها في ذراعِهِ لتقوده إلى الغداء، وضغطت عليها. ثم قالت: «عزيزي برات!»

قال السيد ساندال، مُمسكًا بكأسه من نبيذ الكلاريت: «لقد هنأتكُم اليومَ وتمنيتُ لكم أطيبَ الأمنيات على الفطور. لكن أودُّ الآن أن نشرب نَخبك.» ورفع كأسه نحو برات. «في نَخب باتريك، الذي لم يُورَّث تركته فحسب، إنما قَبِل التزاماتها.»

قالوا: «في نَخب باتريك! في نَخب باتريك!»

ثم قالت جين أخيرًا: «في نَخب باتريك!»

نظر إليها فوجدها تبتسِم إليه.

الفصل الحادي والعشرون

رافق سايمون السيد ساندال إلى المحطة عصر اليوم، وعندما غادرا قالت بي: «إذا كنت تريد تجنُّب أي اجتماعيات عصر اليوم، فسأتولى عنك الأمر. فلديَّ سجلات حسابات ينبغي أن أتعامل معها، على أي حال. ربما تودُّ أن تأخُذ أحد الخيول وتخرج مع إلينور. أظنُّها قد عادت إلى الإسطبلات.»

أشياء قليلة في الحياة كان برات سيُحبها قدْرَ حُبه لركوب الخيل مع إلينور، لكن كان هناك شيء واحد أراد أن يفعله بشدة. لقد أراد، في هذا اليوم الذي كان من المُفترَض أن يتسلَّم فيه بات آشبي إرثَه، أن يتَّجِه نحو تل تانبيتشس مُتخذًا المسار الذي اتخذه بات في آخر يومٍ من حياته.

قالت روث: «أريد الذهاب مع برات»، ولاحظ أن جين تتباطأ لسماع نتيجةِ هذا الاقتراح، وكأنها من المُحتمَل أن تأتيَ هي الأخرى. لكن بي قضت على الاقتراح. فقالت إن برات قد قضى ما يكفي من الوقت مع العائلة.

احتجَّت روث قائلة: «لكنه سيذهب مع إلينور!»

لكن برات نفى ذلك. فقد كان ذاهبًا للتمشية بمفرده.

تجنَّب طريق المنزل المحفوف بالأشجار، تحسبًا للقاء زائرين قاصِدين المنزل، واتجه من الإسطبلات إلى الطريق. في واحدٍ من الإسطبلات الذي كان يَحُدُّ طريق المنزل كانت إلينور تُدرِّب مُهرًا بُنيًّا ضاربًا إلى الحمرة وتُحركه في دوائرَ كبيرة بواسطة حبلٍ. وقف تحت الأشجار وراح يُراقبها؛ راقب صبرها الحليم، وبراعتها في التحكُّم في مُهر حائر وحرون، والطريقة التي تمكَّنَت بها، حتى عند طرف لجام طويل، من بثِّ الطمأنينة في نفسه. تساءل إن كان ذلك الطبيب يعرف أيَّ شيءٍ عن الخيول.

أبهجه العشب في تانبيتشس. لم يحظَ بعُشب مثل ذلك تحت قدمَيه منذ كان طفلًا. سار على مهلٍ إلى أعلى، مُستنشقًا رائحة العشب ومراقبًا ظلال السُّحب المهيبة تمر سريعًا أمام الريح. انتقل من المسار نحو قمة أشجار الزان على قمة التل. إذا صعد هناك فسيتمكَّن من رؤية انحدار الريف بأكمله حتى حافة المنحدر؛ الريف الذي كان بات آشبي يتشاركه مع طيور القُبَّرة.

عندما صار على مستوًى واحد مع كتلة الشجيرات والأشجار الصغيرة الخضراء التي ميَّزت المحجر القديم، وجد رجلًا عجوزًا يجلس في مأواه يأكل قطعًا يابسةً من الخبز والمُربَّى، فحيَّاهُ عندما مر به.

قال العجوز بأسلوبٍ فظ: «فخور بنفسك، أليس كذلك!»

استدار على عِقِبَيه ونظر مُحدقًا.

«لا شك أن السفر إلى الخارج يرتقي بالناس ويجعلهم أكثر وسامةً وتأنقًا.»

وأخذ قضمة أخرى كبيرة وتفحَّص برات من أسفل اللباد البالي لقُبعته.

«لا أعرف كم من الأعشاش لم تكن لتراها لولاي.»

قال برات: «آبل!»

قال العجوز على مضض: «حسنًا، إلى حدٍّ ما.»

قال برات: «آبل!» وجلس بجانبه. ثم أردف: «سرَّني لقاؤك!»

قال آبل لكلبِه الذي خرج من تحت معطفه ليتشمَّم الوافد الجديد: «كف عن ذلك!»

«آبل!» كان بالكاد يُصدِّق أن مَن كان اسمه بالأمس يشغل مجلدات الجريدة ماثلٌ هنا أمامه بشحمه ولحمه.

بدأ آبل يُظهِر دلائل الرِّضا عن هذه الحماسة التي لا يَعتريها شكٌّ تجاه رفقتِه، وأقر بأنه كان قد تعرَّفه من بعيد. «أنت أعرج، صحيح؟»

«قليلًا.»

«كُسرت ساقك؟»

«أجل.»

قال آبل، مُستحسنًا تقبُّله المقتضب لسوء حظه: «لم تكن قطُّ الشخص الذي يُقطِّب وجهه.»

أسند برات ظهره إلى السياج الخشبي المتين الذي حال بين الخراف وبين واجهة المحجر، وأخرج علبة سجائره، واستقرَّ هناك طوال فترةِ ما بعد الظهر.

في غضون الساعة التالية كان قد عرف الكثير عن بات آشبي، لكن لا شيء مما عرفه ساعده في تفسير انتحاره. ومثل الجميع، كان آبل العجوز مصدومًا ومُندهشًا من وفاة الصبي، وشعر في تلك اللحظة أن تشكيكه في انتحار باتريك قد ثبتَت صحته.

باتريك «لم يكن قطُّ الشخص الذي يُقطِّب وجهه» مهما كانت الأمور «مضجرة إلى حدِّ البشاعة».

سار راعي الغنم العجوز برفقتِهِ إلى أشجار الزان، ومكث برات هناك وأخذ يُراقِب الرجل وكلبه يتضاءلان في البُعد. وبعد أن غابا عن الأنظار بمدةٍ طويلة مكث هناك، تُهدِّئه الوحدة وسكون الرياح في أشجار الزان. ثم تبِعهما لأسفل إلى السهل الأخضر حتى وصل إلى المسار، وظلَّ يتبعه ليُعيده فوق التل المؤدي إلى كلير.

عندما نزل من المنحدر الشمالي إلى الطريق، وصل إلى مسامعه صوت «صلصلة» مألوف. وللحظة عاد بذاكرته إلى مزرعة ويلسون، وورشة الحِدادة المُتوهِّجة في هواء الجبل و— ماذا كان اسمها؟ — كورا تقف في انتظاره خلف الحظيرة بينما كان يُهندم نفسه بعد العشاء. ثم تذكَّر أين كانت ورشة الحِدادة: في ذلك الكوخ عند سفح التل. كان الوقت لا يزال مبكرًا. لذا قرَّر أن يذهب ويرى كيف تبدو ورشة حدادة إنجليزية.

عندما وقف أخيرًا في المدخل، بدت ورشة الحدادة شبيهةً بتلك الكائنة في مزرعة ويلسون، فيما عدا أن السقف كان أكثر انخفاضًا بكثير. كان الحدَّاد وحده؛ إذ كان زميله دون شكٍّ موظفًا يعمل لساعات محدودة، وكان يصنع حدوة حصان. رفع بصرَه عندما أظلم برات المدخل عند وقوفه فيه، وحيَّاه دون أن يُوقف عمله. راقبَه برات قليلًا في هدوءٍ امتزج بالود، ثم اتَّجَه نحو المنفاخ ليشغله من أجلِه. رفع الرجل بصرَه وابتسم. كان قد أنهى ما يفعله في تلك اللحظة ثم قال: «لم أعرفك في الضوء. سعادتي لا تُوصَف لرؤيتك مرةً أخرى في ورشتي يا سيد باتريك.»

«أشكرك يا سيد بلبيم.»

«أصبحتَ أكثرَ مهارةً في التعامُل مع ذلك الشيء مما كنت في السابق.»

«صرتُ أتكسَّب منها منذ أن رأيتُك آخر مرة.»

«حقًّا؟ حسنًا، سوف ...!» وأخرج من الفرن حدوة حصانٍ متوهجةً لم تكتمل بعدُ، وكان على وشْك أن يُواصِل العمل فيها عندما غيَّر رأيه وناولها بابتسامةٍ إلى برات. قَبِل برات التحدي وأبلى بلاءً حسنًا، بينما أدى السيد بلبيم دور المساعد باستحسان ناقد.

قال عندما غمر برات حدوة الحصان في الماء: «غريب، لو كان لأحدٍ من عائلة آشبي أن يمتهِن هذه المهنة، فهو أخوك.»

«لماذا؟»

«لأنك لم تُبدِ قطُّ اهتمامًا كبيرًا بهذا العمل.»

«وهل أبدى سايمون اهتمامًا؟»

«في وقتٍ ما لم أكن أستطيع منْعَه من دخول هذا المكان. لم يكن هناك أي شيء لم يكن مُستعدًّا لصناعته، من الشمعدان وحتى البوابات للطريق المؤدي إلى لاتشتس. على حدِّ ما أتذكَّر، كلُّ ما صنعَه هو عصًا لرعْيِ الغنم، ولم يكن عمله مُتقنًا. لكنه كان دائمًا في مُحيط المكان. كان بمثابة هوَس له طوال صيفٍ كامل.»

«أي صيف؟»

«الصيف الذي غادرتنا فيه. كانت الذاكرة لتخونني بشأن ذلك، لولا أنه كان هنا ليُشاهدنا ونحن نضعُ الحديدَ على إحدى العجلات في اليوم الذي هربتَ فيه. حتى إنني اضطررتُ إلى مرافقته إلى المنزل حتى يتناول عشاءه.»

تأمَّل برات الحدوةَ التي صنعها، بينما كان السيد بلبيم يستعد لإنهاء عمله لهذا اليوم.

قال السيد بلبيم، وهو يُومئ باستحسانٍ إلى عمل برات: «يجب أن أُعلقها وأضعَ وسمًا عليها: صنعه باتريك آشبي من لاتشتس.» وأضاف بأسلوب جميل: «وأنا نفسي لا يَسعُني أن أصنعَ واحدة أفضل منها.»

«أَعْطِها إلى آبل العجوز ليُثبِّتها بمسمارٍ على بابه.»

«ليُباركك الرب، لم يكن لآبل العجوز أن يضعَ حديدًا باردًا على عتبة بابه. سيُبعِد الأرواح التي تزوره.»

«حقًّا. أهو متآلف «معهم»؟»

«يَغسلون له كل شيءٍ ويُنظِّفون منزله، إذا كنت ستصدق كلَّ ما تسمعه.»

قال برات: «لا أستبعِد عنه ذلك.» ثم انطلق إلى لاتشتس.

وهكذا ظهرت حجة غياب لسايمون. كان سايمون في مكانٍ ما بالقرب من المنحدر عصر ذلك اليوم. ولم يخرج مُطلقًا من وادي كلير.

هكذا كان الأمر إذن.

في طريقِه إلى المنزل مُتخذًا الطريق بين الإسطبلات الْتقى بجين. كان مظهر جين يُوحي تمامًا بأنها كانت «تتلكَّأ»، فتساءل إذا كان سبب تلكؤها هناك هو أن تعترِضه. كانت تتحدَّث إلى الفرس هَنِي ومُهرها، ولم تُحاول أن تُخفيَ نفسها كما كانت تفعل عند اقترابه قبل تلك اللحظة.

قال: «مرحبًا يا جين»، ثم انضمَّ إلى الحديث مع هَنِي ليمنحها وقتًا. احمرَّ وجهها الصغير الشاحب خجلًا، وكان واضحًا أنها تُقاوم شعورًا غير مألوف تمامًا.

وأخيرًا قال على سبيل الاقتراح، عندما بدا أنها لا تنوي الحديث بأي حال: «حان الوقت لنعود إلى المنزل لنغتسِل.»

أنزلت يدَها من فوق رأس هَنِي والتفتت لتُصبح في مواجهته، واستجمعت نفسها محاولةً الحديث.

«أردتُ أن أقول لك شيئًا. هل تُمانع؟»

«شيءٌ تريدين منِّي أن أفعلَه من أجلك؟»

«أوه، لا. لا شيء من هذا. كلُّ ما في الأمر أنَّني لم أكن لطيفةً معك كثيرًا حين عُدت من أمريكا، وأريد الاعتذار إليك.»

قال وبداخلِه رغبة في أن يأخذ هذا الوجه الصغير الشجاع بين ذراعَيه: «أوه، جين.»

قالت في تطلُّع منها لأن يفهمها: «لم يكن ذلك لرغبةٍ منِّي في أن أكون فظةً معك. إنما لأن … إنما لأن …»

«أعرف السبب.»

«حقًّا؟»

«أجل، بالتأكيد. كان من الطبيعي تمامًا أن تشعري بذلك.»

«صحيح؟»

«في الحقيقة، عند وضع جميع الأمور في الاعتبار، أراكِ مُحقةً وتستحقِّين الإشادة بموقفك.»

«أتقبَلُ اعتذاري إذن؟»

قال برات بجدية: «أقبَل اعتذارك»، وتصافَحا.

لم تضَع ذراعَها في ذراعِه في الحال مثلما كانت ستفعل روث. بل سارت بجانبِه في رصانةٍ وجدية، مُتحدثةً بأدبٍ عن حظوظ مُهر هَنِي في السوق، والاسم الذي ينبغي أن يُسمَّى به. كان موضوع الاسم موضوعًا جذابًا ومثيرًا حتى إنها سرعان ما نسِيَت ارتباكها، وفي الوقت الذي وصلا فيه إلى المنزل صارت تتحدَّث بلا تحفُّظ.

عندما اجتازا الامتداد الواسع المفروش بالحصى، جاءت بي إلى الباب ووقفت تُراقِبهما وهما قادمان.

قالت: «ستتأخَّران على الغداء، أنتما الاثنان.»

الفصل الثاني والعشرون

وهكذا استحوذ برات على لاتشتس وعلى كلِّ مَن فيها، عدا سايمون.

ذهب إلى الكنيسة يوم الأحد واستسلم لنظرات الحاضرين المُحدِقة على مدى ساعة ونصف ولم تتوقَّف إلا في وقت الصلوات. كان الأشخاص الوحيدون الذين لم يُوجَدوا في كنيسة كلير ذلك الصباح هم المنشقين وثلاثةَ أطفالٍ مُصابين بالحصبة. في الحقيقة، كان المكان المعتاد للصلاة للعديد من المُصلِّين، كما أشارت بي، هو ذلك المخزن المُشيَّد من الطوب الأزرق الكائن على الطرف الآخر من القرية، لكنهم قرَّروا تحمُّل الشعائر والأساقفة هذه المرة حتى لا يفوتهم ذلك الحدث المُثير المُتمثِّل في ظهوره. أما الرعية الأرثوذكسية، فقالت بي إن هناك أفرادًا منهم حاضرون لم تَخطُ أقدامُهم أبواب كنيسةٍ منذُ تعميد آخِرِ طفلٍ لهم. حضرت كذلك لانا آدامز التي، حسبما يعلم الجميع، لم تدخل كنيسةً منذ تعميدها في المخزن ذي الطوب الأزرق منذ حوالي عشرين عامًا.

جلس برات بين بي وإلينور، وجلس سايمون بجوار بي على الجانب الآخر. أما التوءمتان فجلستا وراء إلينور؛ كانت روث مُستغرقةً في الدراما وتُنشِد الترانيم بصوتٍ عالٍ في نشوةٍ واستغراق، بينما جين تنظُر إلى حشدِ المُصلين باستنكارٍ شديد. قرأ برات الألواح المنقوشة باسم عائلة آشبي مرارًا وتكرارًا، واستمع إلى صوت القسِّ الخافت الهادئ وهو يُقدِّم إلى سكان كلير حِصَّتهم الأسبوعية من الوعظ. لم يكن القس يُلقي موعظةً، بالمعنى المعروف للكلمة. كان يبدو من صوتِهِ وكأنه يُناقش الأمر مع نفسه؛ وبذلك، إذا أغمضتَ عينَيك، فقد تُصبح في مقعدٍ عند الجهة الأخرى من مدفأة منزل القس تستمِع إليه يتحدَّث. ذهب برات بعقله إلى المجموعة المُصطفاة من الواعظين الذين كانوا يأتون لأداء قُداس الأحد في دار الأيتام: كان منهم أصحابُ الصوت العالي، ومَن يتحدثون بصوتٍ خافت، والمُتخصِّصون في العروض الدرامية الكنسية الذين يُنوِّعون في نبراتهم ويخفضون

أصواتهم مثل مُرتِّلِين مُبتدئين، وأصحابُ الأداء الحماسي، ومُحِبُّو الجمال المُختالون؛ ورأى أن جورج بيك جاء خارج المنافسة تمامًا. بدا جورج بيك حقًّا وكأنه لا يُفكر في نفسه على الإطلاق؛ وكأنه ربما كان سيصبح رجل دين حتى لو لم يكن هناك حافز مِثل الظهور العلني على منبرٍ.

بعد القداس ذهب برات إلى غداءِ يومِ الأحد في منزل القس، لكنه لم يذهب قبل أن يتلقَّى جميع صنوف الأمنيات الطيبة من أهل القرية. خرجت بي من الكنيسة بجانبِه مُتأهبةً لتوجيهه وسط هذه المحنة، لكن السيدة جلوم اقتربت لتتحدَّث إليها، وتُرِك هو بلا حولٍ ولا قوة. نظر في ذعرٍ إلى أول هؤلاء المجهولين الذين كانوا ينقضُّون عليه: سيدة ذات وجنتَين مُتورِّدَتَين مُمتلئتَين ترتدي قبعة من قماش الكرينول القُطني بها زهور وردية. كيف سيتظاهر بأنه يتذكَّرها؟ أو يتذكر جميع الآخرين الذين كانوا يتلكئون بكلِّ وضوح لمشاهدته؟

جاءه صوتٌ، وكانت إلينور عند مرفقه: «تتذكَّر سارة جودوين، التي اعتادت المجيء في أيام غسل الملابس.» ثم حرَّكته من مجموعةٍ إلى أُخرى ببراعةٍ ترقى إلى براعة سكرتير شخصي منوط بالأمور الاجتماعية، فكانت تُطلِعُه سريعًا في جملةٍ مقتضبة بصوتٍ خافت كلما لاح وجهٌ جديد في الأفق. «هاري واتس. كان يُصلِح دراجاتنا. الآنسة مرشانت. مُدرسة القرية. السيدة ستابلي. القابلة. تُومي فيت. صبي البستاني. السيدة ستاك. الصناعات الريفية.»

قادته في سلام حتى البوابة الحديدية المُؤدِّية إلى حديقة منزل القس، وفتحَتْها، ودفعَتْه منها، ثم قالت: «صِرنا في أمانٍ الآن. ذاك هو «الملاذ».»

«ذاك ماذا؟»

«لا تقُلْ إنك نسيت. عندما كنَّا نلعب الغُميضة كان المخبأ الآمن دائمًا «ملاذًا».»

فكَّر برات فارار بينَهُ وبين نفسه وهو يسلك المسار المؤدي إلى منزل القس أنه في يومٍ ما سيُصبح في مواجهة شيء «كان مستحيلًا» أن يكون قد نَسِيَه.

على الغداء جلس هو ومُضيفه في صمتٍ باعث على الاسترخاء بينما كانت نانسي تُضيِّفهما، وبعد ذلك سار في الحديقة مع القس وأجاب عن أسئلته بشأن الحياة التي عاشها طوال تلك السنوات الثماني. كان من الأشياء الجذَّابة في جورج بيك أنه كان يُنصت لما يُقال له.

يوم الإثنين سافر إلى لندن وجلس على مقعدٍ بينما كانت تُعرَض لفَّات من القماش على بُعد عدة ياردات منه، ثم كانت تُحضَر إلى الأمام على مسافةٍ قريبة حتى يُقدِّر وزن القماش، وملمسه، ومتانته. تولَّى جور وبوين اختيار التصميم المناسب له، أما والترز فكان يأخذ المقاسات، وطمأنَهُ كلاهما أنه في وقتٍ قياسي سيكونُ لدَيْهِ زيٌّ ليس لرجلٍ إنجليزي أن يشعر بالحرج من امتلاكه. كانت مفاجأة له أن القمصان قد صُنعت حسب القياس. كان سعيدًا أنه استطاع أن يقدِّم نفسه إلى مُصمِّمي أزياء آشبي في بذلةٍ جديدة بالاحترام كتلك التي حاكها له مصمم أزياء السيد ساندال، وكان إظهارُ تعاطفٍ نحوَهُ بشأن القميص الأزرق الأمريكي النظيف واللطيف الذي كان يرتديه تحتها، صدمةً له. غير أنه عندما كان في روما ... أُخذِت قياساته لحياكة القمصان أيضًا.

تناول الغداء مع السيد ساندال، الذي أخذه لمقابلة مدير البنك الخاص به. صرف شيئًا من البنك، واشترى مظروفًا بريديًّا مُسجلًا، وأرسل رِزمةً ضخمة من الأوراق النقدية إلى أليك لودينج. كان ذلك هو الاتفاق؛ كان لودينج قد قال له: «نقود دون رسالة». ولا حتى رقم هاتف. يجب ألا يُوجَد نهائيًّا أيُّ اتصالٍ بينهما مرةً أخرى فيما عدا النقود المُرسَلَة إلى مجهول في مظروفٍ بريدي مُسجَّل.

تركتْ هذه الدفعةُ الأولى من المال المرسلةُ إلى شريكه في الجريمة مذاقًا في فمِهِ لم يكن سبَبُه بتاتًا الصمغ الذي لعقَهُ على الظرف. ذهب وتناولَ جِعةً حتى يُزيله، لكن ظلَّ الطعم موجودًا. استقلَّ الحافلة رقم ٢٤ وذهب ليُلقي نظرةً على مسكنه السابق في بيمليكو، وفي الحال شعر بأنه أفضل.

لحِق بحافلة الساعة الرابعة وعشر دقائق، وكانت إلينور تنتظِرُه في سيارتها الخنفساء في جيسجيت لتُقابِلَه. لم يَعُد متوترًا، ولم تَعُد إلينور مصدرَ قلقٍ أو عدوًّا يخشاه.

قالت: «بدا من المُخزي أن أدعك تنتظر الحافلة في الوقت الذي ليس لديَّ ما يَشغلني حتى آتيَ لاستقبالك»، ثم ركب بجانبها وانطلقت به بالسيارة إلى المنزل.

قالت: «لستَ مُضطرًّا الآن إلى الذهاب بعيدًا مدة طويلة.»

«نعم. فيما عدا من أجل قياس الملابس الجديدة، وإلى طبيب الأسنان.»

«أجل؛ مجرد يوم. وربما سيتوقَّع العم تشارلز أن يذهب أحدٌ لاستقباله. لكن حتى ذلك الحين يُمكننا أن نستريح ونهدأ.»

وهدأ.

كان يُدرِّب الخيول في الصباح، أو يُمرِّنهم على قفز الحواجز في الإسطبل. كان يخرج لركوب الخيل مع إلينور والأطفال من كلير بارك؛ وكان مما أسعد روح أنطونيو توسيلي

الرومانسية كثيرًا أنه وصل إلى درسِهِ ذات صباحٍ في «زيٍّ ركوب الخيل للأطفال» كاملًا، والذي كان قد أرسل برقياتٍ مُطوَّلَة وبليغة دخلت تاريخ مكتب بريد كلير من أجل الحصول عليه. مرَّن المُهر الصغير لإلينور، وراقَبَها أثناء تدريبها لخيلٍ أصيلٍ صغير من إسطبلٍ لخيول السِّباق على السَّير متزنًا ورفْعِ رأسِهِ كرجلٍ نبيل. كان يقضي أيامه كلها مع إلينور تقريبًا، وعندما كانا يدخلان في المساء كان ذلك من أجل التخطيط لمهامِّ اليوم التالي.

راقبت بي هذه الصداقة بعين الرضا، لكنها تمنَّت لو أن لسايمون نصيبًا أكبرَ منها. وجد سايمون أعذارًا لا تنتهي للخروج من المنزل منذُ وقتِ الفطور وحتى العشاء. كان يُدرِّب تيمبر أو سكابا في الصباح، ثم يجد عذرًا حتى يذهب إلى ويست أوفر وقت الغداء. ومن حينٍ لآخر عندما يعود إلى المنزل للعشاء بعد قضاء اليوم بأكملِهِ بالخارج كانت بي تتساءل إن كان قد امتنع عن الشرب. ولكن فيما عدا أنه صار الآن يتناول كأسَين في حين أنه كان قبل ذلك يشرب كأسًا واحدة، فقد كان يشرب قليلًا في المنزل؛ ومِن ثَمَّ قرَّرت أنها حتمًا مخطئة. لم تكن نوباته المتعاقبة من المزاج المُتقلِّب والسعادة جديدة عليه: فقد كان سايمون مُتقلِّب المزاج دائمًا. فاعتقدت أن غيابه كان الطريقة التي يلجأ إليها للحد من وطأة موقفٍ صعب، وأمَلَت أن يُصبِح عما قريب طرفًا ثالثًا في هذه العلاقة التي تزدهر بنجاحٍ كبير بين إلينور وباتريك.

قالت إلينور ذات يومٍ عندما دخلا مُتعبُيْن عائدَين من الإسطبل: «سيكون عليك أن تفعل شيئًا في عَرْض بيورز. وإلا سيراه الناس أمرًا غريبًا للغاية.»

«بإمكاني أن أركبَ خيلًا في أحد السباقات، كما اقترحت روث.»

«لكن ذلك كان على سبيل الترفيهِ لا أكثر. أقصد، لا أحد يأخُذُه على محمل الجِد. من المُفترَض أن تستعرِض أحدَ الخيول. سوف تأتي مُعدَّاتك الخاصة بركوب الخيل في الوقت المناسب، ولا يُوجَد سببٌ يُبرِّر امتناعك.»

«لا.»

«بدأتُ اعتيادَ إجاباتِك المُقتضبة.»

«ليست حكرًا عليَّ.»

«ليست كذلك. إنما اختصاصك فحسب.»

«ماذا بوسعي الركوب في السباقات؟»

«حسنًا، بعد تيمبر، يأتي شيفرون أسرع فرس لدَينا.»

«لكن شيفرون فرس سايمون.»

«لا. شيفرون اشترَتْها بي بأموال الإسطبل. هل ركبتَ خيولًا في سباقاتٍ من قبل؟»

«نعم. كثيرًا. في سباقاتٍ محلية بالطبع. على رهاناتٍ صغيرة.»

«حسنًا، أظنُّ أنَّ بي تُخطِّط لعَرض شيفرون كحصان أجرة، لكن ذلك ليس سببًا يحول دون دخول السباقات بها في النهاية. إنها سريعة الغضب ويُمكن استثارتها، لكنها تقفز بسلاسةٍ، وسريعة للغاية.»

عرَضَا الاقتراح على بي وقت تناول العشاء، فوافقت عليه. «ما الوزن الذي تركب به الحصان يا برات؟»

«تسعة ستونات وثلاثة عشر رطلًا.»

نظرت بي إلَيهِ نظرةً مُتأمِّلة بينما كان يتناول عشاءه. كان شديد النحافة. لم يصل أحدٌ من الجيلَين الأخيرَين لعائلة آشبي إلى مثل هذا الوزن، لكن ثمة شيئًا في مظهره يُوحي بالإنهاك؛ لا سيما في نهاية اليوم. عما قريب، عندما ينتهي أمر الاحتفال، لا بد أن يتخذوا خطوةً بشأن رِجلِه. ربما يُفسِّر ذلك حالة الإرهاق التي ميزت نحافته. لا بدَّ أنه عبء جسدي ونفسي عليه. لهذا كان لزامًا عليها أن تسأل بيتر سبينس عن جرَّاحٍ ماهر لاستشارته.

كان من دواعي سرور بي أن وجدت في برات ما كان يفتقده سايمون بكل وضوح: ألا وهو الاهتمام بنَسَب الخيل نظريًّا. كان سايمون واسعَ الاطلاع في تربية الخيول على صعيد اهتماماته الخاصة، لكن دراسته النظرية للموضوع اقتصرت على سِجلِّ «مستجدات سباقات الخيول». أما برات، على الجانب الآخر، فشُغِف بسجلَّات أنساب الخيول كشغفِ البعض بالكتب البوليسية. كانت قد ذهبت ذات مساءٍ لتُطفئ مصباحًا في المكتبة كان من الواضح أنه قد تُرك مُضاءً، فوجدت برات منغمسًا في قراءة سِجلٍّ لأنساب الخيول. وقال إنه يحاول الاستزادة في البحث عن نَسَب الفرس هَني.

قالت: «لقد حصلتَ على السجلِّ الخاطئ»، وأعطَتْهُ السجلَّ الصحيح. كانت منشغلة بأمرٍ يخصُّ جمعية النساء الريفيات؛ ولهذا تركَتْهُ لمُطالعَتِهِ ونسِيَت أمره. لكن بعد نحو ساعتَين لاحظتْ أن الضوء لا يزال مُشعلًا فدخلت لتجد برات مُحاطًا بمجلداتٍ من شتَّى الأنواع ومنقطعًا تمامًا عن العالم حتى إنه لم يسمعها حين دخلت.

قال: «إنه مذهل يا بي.» كان يتفحَّص صورةً للحصان بِيند أور، وقد ترك عدة مجلدات أخرى مفتوحةً على صورٍ منحَتْهُ متعةً خاصة، حتى صارت المنضدة الكبيرة تُشبِهُ كشكًا للكتب المُستعملَة وقد عرض ما به من صور ورسومات لجذب المشتري.

قالت بعد أن طالعت المجلَّدَ الذي وقع عليه اختياره: «لم تأتِ في مجموعتك بالمجلد المفضَّل لي»، ثم أحضرت من الأرفف مجلدًا آخر. وحين اكتشفت جهلَهُ التام بالموضوع،

أعادته إلى نقطة البداية وأطلعته على الجذور العربية، والمَغربية، والتُّركية للشكل النهائي للخيول كما هي الآن. وبحلول مُنتصَف الليل تكاثرت الكتب على الأرض أكثر مما كانت على الأرفف وقضى كلاهما وقتًا رائعًا.

بعد ذلك صار بالإمكان العثورُ على برات دائمًا في المكتبة حال تغيُّبِهِ عن النطاق الطبيعي، إما لاستكشافِ شيءٍ في سِجل أنساب الخيول أو ليُطالع صور الخيول المُميَّزة على مهلٍ.

لم يجد غضاضة في أن يُصبح تلميذًا لجريج، وكان نتاج ذلك أنه في خلال أسبوع صار جريج يمنحه احترامًا لم يكن قد منحَهُ نهائيًّا إلى سايمون. فقد لاحظت بي أنه بينما كان يُخاطب سايمون مُستخدِمًا «السيد سايمون»، كان يخاطب برات مستخدمًا «السيد باتريك المُبجَّل.» وتلاشى أيُّ أثرٍ للموقف الدفاعي الذي يتبنَّاه أي سائس أمام زائر جديد حتى لو كان سيده في الوقت ذاته. لقد رأى فيه جريج هاويًا شغوفًا لم يكن يرى نفسَه العالِم بكل شيء، وبهذا كان برات «السيد باتريك المبجَّل.» كانت بي تبتسم كلما مرَّت بغرفة مُعدَّات ركوب الخيل وسمعت حديث جريج الرتيب المطوَّل تُقاطِعُه تعليقات برات المقتضبة.

«أطلقِ النارَ عليه، فقلت، لن أفعل شيئًا من هذا، سيخرُجُ ذلك الحصان من هنا مُعافًى في غضون شهر، قلتُ ستتضوَّرُ كلابك اللعينة جوعًا قبل أن تُطبِق فكوكها على جسدِ خيلٍ لم يبدُ من تحت لجامٍ ما هو أجودُ منه على الإطلاق، فماذا تَظنُّني فعلت؟»

«ماذا؟»

كانت بي مُمتنَّةً للغاية إلى القَدَر، لا لعودة ابن أخيها فحسب، بل أيضًا للحالة التي عاد بها. فبينما كانت تُراجِع في عقلها جميعَ الأشكال التي ربما كان باتريك سيعاود الظهور بها، ملأتها الحيرة من أنَّ الشكلَ الفعليَّ الحاليَّ هو الشكل الأنسب تمامًا، والمُطابق للمواصفات التي وضعتْها. كان برات هو من كانت ستختاره لو كان بيدِها الاختيار. كان هادئًا للغاية بالطبع، وفي غاية التحفُّظ. تشعُر بسلامٍ في صُحبته دون أن يُراودك أي شعورٍ بأنك تعرفه. لكن وجهَهُ الثابتَ كان أسهلَ بالتأكيدِ في التعامُل معه عن وجه سايمون المتقلِّب.

كتبتْ خطابًا طويلًا إلى العم تشارلز لتستقبله في ميناء مارسيليا، واصفةً له ابن أخيها الجديد، وقالت كلَّ ما لم يَسَعْها قوله في برقياتها الأولى. لن ينبهر تشارلز بالطبع بكون برات قد أبدى نفعًا مع الخيول؛ إذ كان تشارلز يكرَهُ الخيول وكان يراها حيوانات

ذات غباء لا يُقهَر، وخيَالٍ جامحٍ لا يُكبح، وقدرةٍ على الاستدلال المغلوط. بل زعم تشارلز أن طفلًا في الثالثة لا يُعاني في الواقع التهابًا في الدماغ أو أيَّ قصورٍ خلقي آخر، لدَيه قدرةٌ على التوصُّل إلى استنتاجٍ صحيحٍ أكثر من أذكى وأنقى الخيول الأصيلة المُهجَّنة. كان تشارلز يحب القطط؛ وحين حدث وانجذب لرائحةٍ ما داخل أحد الإسطبلات، على مضض، أقام صداقةً مع قط الإسطبل وانزوى به إلى ركنٍ هادئ تمامًا حتى الانتهاء من استعراض الخيول. كان هو نفسه، نوعًا ما، يُشبِهُ القط؛ فهو رجل هادئ ضخم البِنية له وجه دائري ناعم لا يتجعد إلا بالقدْر الكافي ليحمل نظارةً أُحادية العدسة على إحدى عينَيه، تتحدَّد بحسب أي يدٍ من يدَيه لا يشغلها شيء. وعلى الرغم أن طوله كان يتجاوز ستة أقدام، كان يمشي بخفةٍ على قدمَيهِ الكبيرتَين وكأنه مُمتلئ جزئيًّا بالهواء.

تميَّز تشارلز بوفائه إلى وطنه القديم وإلى عائلته، لكنه كان مولعًا بالتصريح بانتمائه إلى عصرٍ أكثرَ فحولةً حين كان الحصان مجردَ وسيلة للانتقال، وقادرًا على حمل وزنٍ مُعتَبَر، ولم يكن ضروريًّا لرجلٍ أن يَبنيَ عضلاتٍ من شأنها أن تُخجِل دجاجة، ومن ثَم ينبغي أن تُستحث الخيول الأصيلة الهشة للتغلُّب على عقباتٍ غير ضرورية ولا مبرِّر لها.

إن قطةً ما نصفَ جائعة بإمكانها أن تقفز مسافاتٍ أعلى من أي حصانٍ على أي حال دون أن يضطر أحد أيضًا أن يُعلِّمها ذلك.

لكن أحفاد أخيه كانوا قرةَ عينَيْه، وكان يُحب كل عظمةٍ من عظامهم الهشة. وقد امتدحت بي ابنَ أخيها الجديد إلى هذا العم تشارلز.

في الأسبوعين القصيرَين اللذين أمضاهما هنا، تحوَّل من شخصٍ غريب تمامًا إلى جزء أصيل من لاتشتس حتى إن لا أحد منَّا ينتبِهُ لوجوده أساسًا. إن له قدرةً مميزة على أن يُشكل جزءًا من المشهد بالطبع، ولكن الأمر لا يُعزى فقط إلى تواضُعه وخجله. إنما لأنه أكمل القطعة المفقودة في ذلك المشهد. حتى إنني أُلاحظ أن أهل البلدة، الذين يُفترَض أنه لا يزال غريبًا في نظرهم ومثارًا لنظرات الارتياب، يُعاملونه وكأنه كان هنا طوال الوقت. إنه صامت بطبيعته، وقلَّما يتطوَّع بإبداء تعليقٍ أو ملحوظة، لكن عقله مُنتبهٌ على نحوٍ استثنائي، وعندما يُدلي بتعليقٍ يكون تعليقًا لاذعًا لو لم ينطق به بلطفٍ جم. يتحدَّث بلهجةٍ أمريكية صحيحة تمامًا — وهي يا عم تشارلز العزيز، لهجةٌ إنجليزية صحيحة يُميِّزها نطق حرف «A» رقيق — ويتشدق في الكلام قليلًا. لكنه تشدُّقٌ مختلف تمامًا عن سايمون. أقصد، عن أسلوب سايمون عندما يتشدَّق في الكلام. هذا ليس على سبيل الحكم أو الانتقاد؛ إنما مجرد وصف لأسلوب نطقه.

كان أكبر انتصارٍ له هو جين، التي استاءت بشدة من مجيئه، نيابةً عن سايمون. كانت تحوم حوله ببراعةٍ لأيام، ثم استسلمت. أما روث فكانت تُبالِغ بشدةٍ في الاهتمام به، لكنها لم تتلقَّ منه الكثير من التشجيع — أعتقد أنه شعر بعدم إخلاصها لسايمون — وأصبحت الآن تتعامَل معه بفتورٍ نوعًا ما.

«يبدو أن جورج بيك سعيد به، لكني أظنُّ أنه استعصى عليه أن يغفر له صمتَهُ طوال كل تلك السنوات. وأنا كذلك بالطبع. لا أجد لِما فعلَهُ مبررًا. ليس بإمكان أحد شيءٌ سوى محاولة تفهُّم جسامة الاضطراب الذي أبعدَه عنَّا.»

«أما سايمون فكلمات المديح لا تُوفِّيه حقَّه. لقد استقبل إحالته إلى المرتبة الثانية بجَلَدٍ ورحابة صدر مؤثِّرة. أظنه تعيس غاية التعاسة، ويجد صعوبةً في ربط باتريك الجديد بباتريك القديم. الخطأ الأكبر الذي ارتكبَهُ بات في بقائه صامتًا هو الخطأ الذي ارتكبَهُ في حق سايمون. ليس بوسعي إلا افتراض أنه كان يعتزِم عدم العودة نهائيًّا. لقد حاولتُ أن أُصرِّح له بهذا الأمر، لكنه ليس الشخص الذي يسهُل الحديث معه. كان طفلًا مُتحفظًا وأصبح اليوم أكثرَ تحفُّظًا. ربما سيتحدَّث إليك عند مجيئك.»

«نحن منشغلون بالتحضير لعرض بيورز للخيول — الذي ستسعد حين تعرف أنه سيُقام قبل ثلاثة أيام على الأقل من الموعد المُقرَّر لوصولك إلى إنجلترا — ونأمُل في تحقيق قدْرٍ من الدعاية الناجحة للاتشتس. لدَينا ثلاثة خيول جديدة مستواها فوق المتوسط بكثير، ونأمُل أن يوافق اثنان منها على الأقل معاييرَ أوليمبيا. وسنرى كيف يبدو سلوكها في الحلْبة حينما نأخذها إلى بيورز. رفض باتريك أن يشارك بأي دورٍ في عروض هذا العام، وترك المجد كله إلى سايمون وإلينور؛ اللذَين يعود إليهما الفضل في هذا المجد بالتأكيد. أظنُّ أن في ذلك وصفًا لباتريك الذي عاد إلينا أكثرَ من أي شيء آخر.»

الفصل الثالث والعشرون

لما كان سايمون هو مَن سيستعرِض تيمبر ويقفز به، فقد ترك برات مهمةَ تدريبِه كليًّا إليه، ووزَّع اهتماماته بين الخيول الأخرى. لكن ثمَّة أيامًا، لا سيما بعد ازدياد تغيُّب سايمون أكثر وأكثر، كان لا بد أن يتولَّى خلالها شخصٌ آخر تدريب تيمبر، وكان برات يتطلَّع إلى تلك الأيام أكثر مما اعترف حتى لنفسه. أحبَّ أغلب خيول لاتشتس، وكرِه قليلًا منها، وشعر بمودةٍ نحو شيفرون المفعمة بالحيوية، وسكابا العطوفة الرزينة، وفرس إلينور الهَرِم، باستر: فرس عجوز مُحبط لكنه محبوب. لكن ظل تيمبر شيئًا آخر. كان تيمبر مصدرًا للتحدي، والإثارة، والسعادة؛ كان تيمبر موضع شكٍّ ومصدر مجدٍ وشرف.

خطَّط برات لعلاج تيمبر من عادة دفع الراكِبين عن ظهره، لكنه لم يكن ليفعل أيَّ شيءٍ لبعض الوقت. كان من المُهمِّ ألا تُتَّخَذ أيُّ خطوة من شأنها أن تضرَّ بثقته في نفسه، إذا كان سيقفز في عرض بيورز. يومًا ما، إذا كان لبرات أي صلةٍ بذلك، كان تيمبر سيشعر بالضآلة الشديدة بالفعل، لكن في هذه الأثناء سمح لسايمون أن تكون كل ذرة من تلك الثقة المهيبة تحت إمرته. لهذا درَّبه برات برفق، وعندما كان يمتطِيه ليجُوب به الريف كان يُبقي عينَيه يقظتَين بحثًا عن مكانٍ قد يصلح ليُعالج فيه مشكلة تيمبر عندما يحين الوقت لذلك. لم يكن في أشجار الزان على تلِّ تانبيتشس أيُّ أغصانٍ منخفضة بما يكفي لإدراك غرَضه، ولم يكن هناك أي مُتَّسع على قمة ذلك التل للوصول إلى السرعة المطلوبة. أراد أرضًا مفتوحةً بها أشجار معزولة أو مُتكتِّلة وتكون أكثر أغصانها انخفاضًا على ارتفاعٍ مناسبٍ من الأرض لدفع تيمبر إلى الانطلاق. في الأثناء تذكَّر أن أكثرَ مآثر تيمبر إبهارًا كان في لريدج بارك وكانت كلير بارك تقع هناك، وكان يُحيط بها امتداد من العشب والأشجار.

سأل إلينور ذات يوم: «هل يمانع أهل كلير بارك إذا تجوَّلنا بالخيول عبْر المتنزَّه؟» وكان لا يزال مُتبقيًا سبعة أيام قبل عرض بيورز.

جاءت إجابة إلينور بالنفي، شريطةَ أن يكونوا بمنأًى عن الملاعب. «إنهم لا يُمارسون أي لعبة لأن الألعاب المنظمة مُريعة إلا إذا كان منظِّمُوها هم الروس على النظام الروسي، لكنهم يحتفظون بالملاعب لأنها تبدو خلَّابة في الإعلانات الدعائية.»

لذا اصطحب برات تيمبر إلى الجهة الأخرى من الوادي، وقاده بلطفٍ على عشب مدينة كلير بارك الذي يمتدُّ عمره لقرون، مُبعدًا إياه تمامًا عن الأشجار. ثم سار به حول الكُتَل الشجرية المتنوعة، بعد قياس ارتفاع الأغصان الأكثر انخفاضًا عن الأرض. قُوبِلَت هذه الخطة من تيمبر باهتمامٍ جمع بين الحيرة والحماسة. كان بالإمكان ملاحظته وهو يحاول حلَّ اللغز. ماذا كان الغرض من ذلك؟ ما الذي جاء الرجل من أجله وجعله يتطلَّع في الأشجار الكبيرة؟ بذاكرة حصان غير طبيعية، كان مُدركًا تمامًا أن الأشجار الكبيرة مرتبطة بمباهجَ خاصة به، لكن، لكونه حصانًا، كان عاجزًا في الوقت ذاته عن التوصُّل إلى أي استنتاجٍ منطقي من اهتمام رَاكِبه بنوع الأشجار نفسه.

سار نحو كلِّ كتلةٍ من الأشجار بخفَّةٍ لطيفة، حتى اقتربا من شجرة بلوطٍ كبيرة كانت لخمسمائة عامٍ مصدرَ اعتزازٍ لكلير بارك. عندما دخلا في ظلِّها الممدود أسند تيمبر نفسه فجأة على رجلَيْه الأماميتَيْن وأخذ يصهل بخوفٍ أربك برات. بمَ ذكَّرته شجرة البلوط حتى تتسبَّب في ردِّ فعلٍ بهذه القوة؟ نظر إلى أُذنَيه اللتَين كانتا مُتصلِّبَتَين بشدة كأنهما قرون. ربما لم تكن ذكرى. ربما كان ثمة شيء في العشب.

قال صوتٌ آتٍ من الظلال: «هل أنت معتادٌ الاقترابَ خلسةً من الفتيات تحت الأشجار؟» ثم ظهرت الآنسة بارسلو من العشب هناك بقوامها الذي يُشبه الفقمة. أسندت نفسها على أحد مرفقَيها وأخذت تتفحَّص الثنائي. كان برات مُندهشًا قليلًا من أنها بمفردها. «ألا تركب أي حصان آخر غير تلك الدابة السوداء؟»

فأجابها برات بأنه يركب غيرَه في كثيرٍ من الأحيان.

«أظنُّها مُبالغةً منِّي أن أتوقَّع أنك كنت تبحث عني عندما جئتَ إلى المتنزَّه حتى تتجول بالخيل؟»

قال برات إنه كان يبحث عن مكانٍ حتى يُعلِّم تيمبر آداب السلوك.

«ما خطْب سلوكياته؟»

«لدَيه عادةُ الاندفاع فجأة تحت إحدى الأشجار دافعًا بذلك راكبه أرضًا.»

أسندت الآنسة بارسلو نفسها قليلًا لأعلى ونظرت باهتمامٍ جديد إلى الحصان. «غير معقول! لم أظن قطُّ أن تلك الدوابَّ لدَيها هذا القدْر من الإدراك. كيف ستمنعه من ذلك؟»

«سأجعل السير تحت الأشجار تجربةً مؤلمةً له.»

«أتقصد أنك ستضربه عندما يحاول فِعل ذلك؟»

«أوه، لا. لن يُجدي هذا نفعًا.»

«بعد أن يفعلها، إذن؟»

«لا. ربما لا يربط الضرب بالأشجار نهائيًّا.» حكَّ سوطَهُ بعُرف تيمبر الأسود، فانحنى تيمبر. «ستُفاجَئين بالأشياء الغريبة التي تربط الخيول بينها.»

«لا شيء عن الخيول سيُفاجئني بأيِّ درجةٍ. كيف ستفعل ذلك إذن؟»

«دعِيه يعدو بكامل سرعتِه بالقُرب من شجرةٍ مُغرية جميلة، وعندما ينحرف تحتها اجرحِيه جُرحًا على بطنِه يظلُّ يتذكَّره طوال حياته.»

«يا إلهي، لا، هذا بشع. يا له من حيوانٍ مسكين.»

قال برات بجفاء: «سيكون الأمر بشعًا إذا لم أضبط انزلاقي جانبًا من فوق السَّرج في التوقيت المناسب.»

«وهل سيُعالج هذا مشكلته؟»

«أتمنَّى ذلك. في المرة التالية التي يرى فيها شجرة مُغرية سيتذكَّر أنها سبَّبت له ألمًا حارقًا آخِر مرة حاول فيها.»

«لكنه سيكرهك.»

ابتسم برات. «ستكون مفاجأة كبيرة لي إذا ربطَني بما حدث على الإطلاق. وسأتفاجأ أيضًا إذا ربطه كذلك بالسوط. الخيول لا تُفكِّر مثل البشر.»

«أي شيء سيظن أنه قد سبَّب له الألم إذن؟»

«الشجرة أغلب الظن.»

«طالما اعتقدتُ أنها حيوانات شديدة الغباء.»

خطر لبرات أنها لم تكن موجودة في إحدى جولات ركوب الخيل الجماعية التي رافق فيها إلينور. ولم يرَها في نطاق الإسطبلات مؤخرًا. فسألها عن أحوالها مع ركوب الخيل.

«لقد يئست.»

«تمامًا؟»

«أها.»

«لكنك كنتِ تُبلين بلاءً حسنًا، أليس كذلك؟ قالت إلينور إنك قد تعلمتِ القفز.»

«كانت قفزةً أدَّت إلى انزلاق شديد، وآلَمَتني أكثر مما آلَمَتِ الحصان.» ثم شدَّت عشبًا طويلًا وبدأت في مضغه، وهي تنظر إليه نظرةَ تندُّر خبيثة. «لم أعُد مُضطرة إلى التسكع حول الإسطبلات بعد الآن. إذا أردتُ رؤية سايمون، أعرف أين أجده هذه الأيام.»

قال برات قبل أن يتمكَّن من منْع نفسه: «أين؟»

«الحانة الكائنة بالطابق العلوي في مطعم أنجل.»

«في ويست أوفر؟ لكن هل مسموح لكِ بالذهاب إلى ويست أوفر متى تشائين؟»

ضحكت قائلة: «أذهب لرؤية طبيب أسنانٍ في ويست أوفر. أو بالأحرى، كنت أذهب. حدَّدت لي المدرسة أول موعد بالطبع، لكن بعد ذلك كنتُ أُخبِرهم فحسب بموعد الزيارة التالية. لقد حسبت عدد أسناني ووجدت أن لديَّ نحو ثلاثين سِنًّا، وهو ما يُفترَض معه أن يجعلني أداوم على الذهاب حتى نهاية الفصل الدراسي.» وفغرَت فمَها الأحمر وضحكت. كانت أسنانها في حالةٍ ممتازة. «ذلك ما أفعلُه في الوقت الحالي. أؤجِلُ الموعد حتى يحين موعد حافلة ويست أوفر. كان بإمكاني أن أستقل الحافلة التي قبلها ولكن هناك مُحصِّل تذاكر شديد الوسامة على هذه الحافلة. وصل به المدى أن طلب منِّي الذهاب معه إلى السينما في ليلةٍ ما من الأسبوع القادم. لو كان سايمون قد استمرَّ في أسلوبه الذي اتبعَهُ معي كل تلك الأشهر، دون أن يعرف أني على قيد الحياة، لربما فعلت شيئًا حيال ذلك المُحصِّل — فلدَيه رموش طويلة تمتدُّ نحو بوصة — لكن الآن بعد أن توقَّف سايمون عن غطرسته، أعتقد أنني سأتخلَّى عن مُحصل التذاكر.» ومضغت ساق العشبة بطريقة استفزازية. ثم أردفت: «لقد صار سايمون ودودًا تمامًا.»

«رائع.»

«هل تسلَّمتَ ابنةَ جيتس لتترُكَه مثلما اقترحت عليك؟»

«لم أفعل ذلك.»

«أمرٌ غريب. من الواضح أنه لم يَعُد راغبًا فيها. وليس مُغرمًا بك بشدة، إذا كان للأمر علاقة بذلك. لهذا ظننتُ أنك كنتَ تنتزع منه تلك الفتاة بيجي. لكني أعتقد أنك انتزعت منه لاتشتس فحسب.»

«ستفوتُكِ الحافلة، أليس كذلك؟»

«أنت مُحطِّم تمامًا مثل سايمون، وإن كان بأسلوبك الخاص.»

«كنتُ فقط ألفتُ نظركِ إلى أن الحافلة قد صارت عند ورشة الحدادة. وستصِل عند بوابات كلير بارك في غضون ...»

صرخت، وهي تهبُّ واقفةً على قدمَيها في رجفة رعبٍ شديدة: «ماذا!» حتى إن تيمبر دار بقوة في ذُعرٍ من اندفاعها العاصف. «يا إلهي! من أجل محبة ...! يا إلهي! يا إلهي!»

ولَّت مُسرعةً عبْر المتنزَّه مُتجهةً نحو بوابات الطريق، وهي تصرخ تنفيسًا عما بها من كرب وانزعاجٍ أثناء رحيلها. شاهد برات الحافلة الخضراء تسير مُسرعةً على امتداد الطريق أمام بوابات لاتشتس البيضاء وتتهادى عندما وصلت إلى بوابات كلير بارك. كانت ستلحق بها في النهاية، ولن يضيع يومُها هباءً. كانت ستجد سايمون. في مطعم أنجل. في الحانة بالطابق العلوي.

كان قضاء سايمون وقتَه في ويست أوفر في حانة أنجل مُثيرًا للقلق، لكنه لم يكن مفاجئًا في مثل هذه الظروف. ما كان مفاجئًا هو ظهور سايمون «الودود» مع شيلا بارسلو. كانت ابنة بارسلو دائمًا في نظر سايمون شيئًا دون المستوى؛ مخلوقًا أدنى. لقد لفظها بسخريةٍ عندما ذُكر اسمها، وفي وجودها، كما قالت بنفسها، لم يكن مُدركًا أنها على قيد الحياة. ماذا حدث لسايمون حتى لا يرضى فحسب بصُحبتها، بل ليكون «ودودًا» معها؟ لم تكن الفتاة تكذب في هذا الأمر. إذا لم يكن رضاؤها عن نفسها الواضح كالشمس دليلًا كافيًا، فثمة الحقيقة الواضحة أن سايمون كان من الممكن أن يتجنَّبها بتغيير المكان الذي يشرب فيه. لم يكن هناك نقصٌ في الحانات في ويست أوفر، وأغلبها كانت أماكنَ أكثر اقتصارًا على الرجال من حانة أنجل التي تتميز بطابعها الاجتماعي وتردُّد الفتيات عليها.

حاول برات أن يتخيَّل سايمون بصحبة شيلا بارسلو لكنه فشل.

ماذا حل بسايمون — ذلك الشخص الصعب الإرضاء الانتقادي — حتى يشعر أن بالإمكان تحمُّلها؟ وقضاء ساعات برفقتها؟

أكان ذلك نوعًا من «الجَلْد» لعائلتِه على خيبة الأمل التي سبَّبتْها له؟ شيءٌ على شاكلة «أنتم لا تُحبونني ولذلك سأرافق شيلا»؟ أو «ستندمون حين لا ينفع الندم»؟ كان هناك جانب شديد الطفولية في شخصية سايمون.

فكَّر برات أيضًا، من واقع كلِّ ما سمِعَه، أن الأمر كان له جانبٌ عملي للغاية أيضًا، وشيلا بارسلو كان لدَيها المال، وسايمون كان بحاجةٍ إليه. لكن بطريقةٍ ما لم يُصدِّق برات أن سايمون، حتى في أصعب لحظاته، كان سيُفكر في رهن حياته لبَلْهاء شهوانية.

بينما كان يقود تيمبر عائدًا إلى المنزل فكَّر مرةً ثانية في الغرابة التي تُحيط بشخصية سايمون عمومًا، لكنه كالمعتاد لم يتوصَّل إلى نتيجة.

سلَّم تيمبر إلى آرثر حتى يُنظفه، ثم ذهب مع إلينور ليتفقَّد مُهر ريجينا الجديد.

قالت إلينور، وهي تراقب الوليد الجديد يترنح هنا وهناك على أرجله غير المُتسقة: «إنها آية بديعة في الجمال، هكذا أراها. فرس أُخرى جميلة. لا عجبَ في أنها تبدو مُعتدَّةً بنفسها. كان الناس يتوافدون ليُبدوا إعجابهم بمهورها لزمنٍ طويلٍ حرفيًّا، تلك الدوقة العجوز. أعتقد أن المهور بالنسبة إليها ليست إلا وسيلةً لتنال بها هذا الثناء السنوي. فهي لا تُبالي مِثقال ذرةٍ بالمهر.»

قال برات، وهو ينظر إلى المُهر دون شغف: «ليست أفضل من مهور هَنِي.»

«تبًّا لك ولفرسك هَنِي!»

«تمهَّلي وسترَين ماذا ستُنجِب هَنِي العام القادم مع هذا الرفيق الجديد. ستنجب مُهرًا سيُسجِّله التاريخ.»

«حماستُكَ لهَنِي تقترِب من حدود البذاءة.»

«سمعتِ بي تقول ذلك.»

«كيف عرفت؟»

«لأني سمعتُها أيضًا.»

ضحِكا قليلًا، ثم قالت: «جميلٌ أن تكون هنا بيننا يا برات.» لاحظَ أنها لم تقُل: جميلٌ أنك عُدت إلينا يا باتريك؛ لكنه أدرك أنها هي نفسها لم تنتبِهْ إلى أي غرابة في الصيغة التي استخدمتها.

«هل سيأتي الطبيب الشابُّ في زيارة إلى بيورز لحضور العرض؟»

«لا أعتقد ذلك. فهو مشغول للغاية. ما الذي جعلكَ تفكر فيه؟»

لكن برات لم يدرِ السبب.

قضَيا وقتًا طويلًا في إنجاز بعض الأعمال البسيطة في الإسطبلات حتى إنهما وصلا متأخِّرَين كثيرًا على موعد الشاي، وقاما بتحضيره بأنفسهما. كانت جين تضرب بأصابعها بقوةٍ على البيانو عازفةً موسيقى الفالس لشوبان بدقةٍ وإتقان، وتوقَّفت بارتياحٍ واضح عندما دخلا.

سألت: «هل لي أن أقول إن خمسًا وعشرين دقيقةً تُعادل النصف ساعة يا إلينور؟ إنها حقًّا خمس وعشرون دقيقة ونصف الدقيقة.»

«بوسعكِ أن تقولي ما تشائين ما دُمنا لسنا مُضطرَّين إلى سماع موسيقى الفالس تلك ونحن نتناول الطعام.»

لذا انزلقت جين من فوق مقعد البيانو، وخلعت النظارة التي أضفت عليها هيئةً كهيئة البومة، ودفعتها في جيب سروالها، ثم اختفت في امتنانٍ بالخارج.

قالت إلينور وهي تطوي خبزًا بالزبد في سُمْكٍ يليق بشهيَّتها: «روث تتدخَّل في جميع التفاصيل الصغيرة للمعزوفات وفي التعبير الموسيقي ولا تُبالي بعدد النغمات الخاطئة التي تعزفها، لكن جين لا بديلَ لدَيها عن الدقة. لا أعرف أيًّا من الطريقتَين كان شوبان سيكرَهُها أكثر من الأخرى.»

راقَبَها برات وهي تصبُّ الشاي مُستمتعًا بحركاتها المتأنِّية الدقيقة. يومًا ما ستنهار أساسات الحياة التي يعيشها هنا؛ سيُنفِّذ سايمون الخطةَ التي يُدبِّرها لتدميره، أو سيتفوَّه بكلمة هوجاء من كلماته ستجعل هذه البِنية تنهار بالكامل، ولن يعود هناك إلينور.

لم يكن ذلك أقلَّ مخاوفِهِ من المُستقبل.

تناولا الطعام في صمتٍ لطيف، يقطعانه من آنٍ لآخر بتعليقاتٍ لا يربط بينها شيء كلما خطرت ببالِهما.

قالت إلينور بعد قليل: «هل سألت بي عن ألوان الملابس التي سيرتديها المُتسابقون في سباق الأسبوع القادم؟»

أجاب برات بأنه قد نسي.

«لنذهب ونبحث عنها الآن. هي في تلك الخزانة بغرفة معدات ركوب الخيل.»

فعادا إلى الإسطبلات. كانت غرفة معدات ركوب الخيل شاغرة؛ إذ كان جريج قد عاد إلى منزله لتناول العشاء؛ لكن إلينور كانت تعرف مكان المفتاح.

قالت عندما بسطت الملابس على المائدة: «هي في الواقع مُمزَّقة لأنها قديمة للغاية. كانت مُصمَّمة في الأساس لأبي، ثم ضُيِّقت قليلًا من أجل سايمون ليرتديها في سباقات تخطِّي الحواجز عندما كان مقاسُه أصغرَ مما هو الآن. ثم وُسِّعت مرةً أخرى عندما كَبر. لذا فهي مربوطة معًا. ربما سيُصبِح باستطاعتنا الآن أن نتحمَّل تكلفة ...» وجذبت نفسها لأعلى.

«أجل. سنشتري مجموعةً جديدة.»

«أرى أن البنفسجي والأصفر الفاتح ألوان جميلة، أظنُّك تراها كذلك أيضًا؛ لكنها تفقد جاذبيتها عندما تبهت بمرور الزمن. يُصبِح وجه سايمون مُزرَقًّا مع البرد في الشتاء، ويقول إن تلك الألوان مصممة لتليق مع وجهه.»

فتَّشا في الصندوق، فعثرا على تذكارات من سباقاتٍ قديمة. ثم تجوَّلا في أرجاء الغرفة مُتفحِّصَيْن الصفَّ الطويل من أوشحة التكريم، تحت شارةِ كلٍّ منها دُوِّنَ مكانُ الفوز بها والكيفية.

أغلقت إلينور الصندوق أخيرًا، وهي تقول: «حان الوقت لنستعدَّ للعشاء.» قفلت الصندوق وعلقت المفتاح. ثم أردفت: «سنأخذ الثياب معنا. أتوقع أنها ستناسبك تمامًا؛ إذ كان سايمون آخرَ مَن ارتداها. لكنها ستحتاج إلى كيٍّ.»

أخذت الثياب بين ذراعَيها، ثم خرجا معًا من باب غرفة معدات ركوب الخيل والتقيا سايمون وجهًا لوجهٍ.

كانت إلينور على وشْك أن تبدأ الحديث، عندما أبصرت وجهه: «أوه، ها قد عُدت يا سايمون.»

قال غاضبًا: «مَن أخرج تيمبر؟»

أجاب برات: «أنا مَن أخرجتُه.»

«تيمبر يَخُصُّني ولا يحقُّ لك إخراجه في غيابي.»

قال برات بلطفٍ: «كان على أحدٍ أن يُدرِّبه اليوم.»

«ليس لأحدٍ سواي أن يُدرِّب تيمبر. لا أحد. إذا كنتُ سأتولى مسئولية وثبِه؛ فأنا الذي أقول إذن متى يجب تدريبُه، وأنا مَن أُدرِّبه.»

قالت إلينور: «لكن يا سايمون، هذا غير معقول. هناك ...»

قال لها: «اخرسي!» وكان يَصِرُّ على أسنانه.

«لن أخرس! الخيول مِلك برات، وإن كان لأحدٍ أن يقولَ مَن يفعل ماذا، وفي أي وقت، فهو ...»

«قلتُ لكِ اخرسي. لن أسمح لرجلٍ فظٍّ أحمقَ آتٍ من منطقة مجهولة أن يُفسد خيلًا أصيلًا بارعًا مثل تيمبر.»

«سايمون! أحقًّا هذا!»

«ظهر من العدم بلا سابق إنذار ويتدخَّل في شئون الإسطبلات وكأنه عاش حياته كلَّها هنا!»

«لا بد أنك ثمِلٌ يا سايمون حتى تتحدَّث بهذه الطريقة عن أخيك.»

«أخي! ذاك! عجبًا، يا لك من حمقاء صغيرة بائسة، هو ليس حتى من عائلة آشبي. الرب يعلم مَن هو. أكادُ أجزم أنه سائس لشخصٍ ما. وذلك ما يجب أن يفعله. يُنظف

الإسطبلات. لا أن يجول أرجاء البلدة على ظهر أفضل خيولي بخيلاء السادة. من الآن أيها المغرور الصغير الملعون، عليك أن تترك الخيول التي أنوي ركوبها في الإسطبل الخاصِّ بها إلا إذا أمرتُ أنا بإخراجها، وإذا أمرتُ بإخراجها فليس أنت مَن ستركبها. لدَينا عددٌ كافٍ من السائسين الآخرين.»

كان ذقنه مشرئبًا لمسافة قدمَين من وجه برات، وكان بوسع برات أن يُسدِّد له لكمةً يطرحُهُ بها أرضًا من شأنها أن تُرسِلَه إلى منتصف غرفة معدَّات ركوب الخيل. كان مُتلهفًا لفعل ذلك، لكن ليس في وجود إلينور. وربما ليس الآن. كان من الأفضل ألا يفعلَ أيَّ شيءٍ لا يُمكنه أن يتوقَّع عواقبه.

صاح سايمون وقد أثار صمت برات غضبه: «أفهمت؟ هل سمعتني؟»

قال برات: «سمعتك.»

«حسنًا، لنرَ إن كنت تتذكَّر ما قلته. تيمبر يخصُّني، وإياك أن تضع ساقًا عليه مرةً أُخرى حتى أُصرِّح لك بذلك.»

ثم اندفع مُبتعدًا عن طريقهما متجهًا نحو المنزل.

بدت إلينور مصدومة.

«أوه، أعتذر إليك يا برات. أعتذر إليك بشدة. كانت تلك الفكرة المجنونة أنك لستَ باتريك تراوِدُه من قبل أن يراك، والآن وهو في حالة من الثمالة أعتقد أن الفكرة جاءت من عقله الباطن وصرَّح بها لأنه كان غاضبًا. طالما كان يتفوَّه بأشياء كثيرة لا يقصدها وهو في مزاجٍ سيئ، كما تعرف.»

كان برات يعرف من واقع خِبرته أن الإنسان، على النقيض، لا يصرح بما يقصده إلا حينما يكون مزاجه كدِرًا. لكنه عزف عن إخبار إلينور بذلك.

أردفت: «كان يشرب، كما تعرف. أعرف أنه لا يبدو عليه ذلك، لكن بإمكاني أن أؤكد لك من عينَيه. كما أنه لم يكن ليتصرَّف هكذا أبدًا وهو مُستفيق، حتى وهو غاضب. أعتذر إليك نيابة عنه.»

أخبرَها برات بأن الجميع يتصرفون بحماقةٍ من وقتٍ لآخر عندما يكونون «سكارى»، وليس عليها أن تُزعج نفسها بهذا الأمر.

تبِعا سايمون إلى المنزل في جِديةٍ وتجهُّم؛ إذ تلاشت السعادة التي عمَّت فترة العصر الطويلة التي قضَياها معًا وكأنها لم تكن.

عندما أبدل ثيابَه مُرتديًا «حلته الأنيقة»، كما كان لا يزال يراها، فكَّر برات أنه إذا اتسعت الصدوع التي تجلَّت في شخصية سايمون بالقدْر الكافي فربما يكشف عن نواياه

يومًا ما، وسيكتشف ما يُدبِّره له. وتساءل إن كان سايمون سيكون يقظًا بما يكفي ليتصرَّف بأسلوبٍ طبيعي على العشاء.

لكن لم يحضُر سايمون على العشاء، وعندما سألت إلينور عن مكانه، قالت بي إنه قد ذهب إلى الحانة في جيسجيت ليُقابل صديقًا كان يُوجَد هناك. شخصٌ ما كان قد اتصل به قُبَيل العشاء مباشرة على ما يبدو.

بدت بي هادئة، واستنتج برات أن سايمون قد بدا لها طبيعيًّا وأنها صدَّقت قصتَه عن الصديق الذي كان يقضي الليلة في حانة جيسجيت.

وفي الصباح نزل سايمون ليُغذي ذاته المرحة المعتادة بالإفطار.

قال: «أخشى أني كنتُ ثملًا الليلة الماضية. وكنتُ مُستهجَنًا للغاية. أعتذر إليك بشدة.»

نظر إلى برات وإلينور، اللذَين لم يكن على المائدة سواهما، بثقةٍ ممزوجة بالمودة. ثم قال: «لم يكن ينبغي لي أبدًا أن أشرب نبيذ الجين. إنه يُغيِّب العقل ويُدمر الروح.»

قالت إلينور بفتور: «كنتَ في غاية البشاعة.»

لكن صفَتِ الأجواء، وصار اليوم مُجرَّد يومٍ آخر. دخلت بي من الخارج لتناوُل فنجانِ قهوة ثانٍ، بينما وصلت جين تضمُّ إلى بطنِها بتشبُّثٍ وعاءَ الثريد الذي أحضرتْه لنفسها من المطبخ، وفقًا للروتين المُتَّبع في لاتشتس، ودخلت روث مسرعةً في وقتٍ متأخِّر كثيرًا وفي شعرها مشبك من «الألماس» وأُعيدت إلى غرفتها لتخلَعَه.

قالت بي، عندما اختفت روث وهي تُطلق صيحاتٍ جنونيةً لأن بي ستؤخِّرها عن دروسها: «من أين حصلت على ذلك الشيء المُقزز؟»

أجابت جين: «اشتريته من متجر وولورث عندما كنَّا في ويست أوفر آخر مرة. ليس ألماسًا حقيقيًّا، كما تعرفين، لكنه بدا صفقةً رابحة بسعرِ شلنٍ واحدٍ وستة بنسات.»

سألت بي وهي تنظر إلى مشبك الشعر الحديدي العتيق الذي يُزيح شعر جين عن وجهها: «لماذا لم تشتري واحدًا إذن يا جين؟»

أجابت جين: «همم، أعتقد أني لستُ من النوع المُحب للألماس.»

وهكذا عاد منزل آشبي إلى هدوئه المعتاد، وإلى استعداداته لذلك اليوم في بيورز الذي كان مقدرًا أن يُغيِّر حياتهم جميعًا.

الفصل الرابع والعشرون

كانت بيورز مدينةً صغيرة تُقام فيها سوق مركزية، تقع شمال ويست أوفر، وفي وسط المقاطعة تقريبًا. كانت تُشبِهُ جميع المدن الصغيرة الأخرى التي تُقام بها سوق مركزية بجنوب إنجلترا، فيما عدا أنها تقع في منطقةٍ أكثر ثراءً بعضَ الشيء وطبيعة عذراء غير ملوَّثة عن أغلب المناطق الأخرى. ولهذا السبب حظِيَ بيورز آجريكلتشرال شو، رغم كونه حدثًا صغيرًا في المدينة، بمكانةٍ وصيتٍ أكبر بكثيرٍ مما يسمح به حجمُه. تظهر خيولٌ كلَّ عام في معرض بيورز شو في طريقها لتحقيق انتصاراتٍ أكثرَ نضجًا في مكانٍ آخَر، وكان من الشائع لشخصٍ ما يُشاهد أحد الخيول في أحد العروض الضخمة، أن يقول: «أتذكَّر ذلك عندما كان مبتدئًا في بيورز منذ ثلاث سنوات.»

كانت مدينةً صغيرة مُبهجة ومُتحضِّرة، لها قس، وبها بعض الحانات العتيقة الراقية، وشارع رئيسي يتميَّز بسَعتِه وأجوائه المُبهجة، ولا يُوجَد أي شيء يدعو إلى الخجل. كان المزارعون الذين يأتون ببضائعهم إلى أسواق المدينة يُثيرون حنق السيد ماكالان إلى أقصى حدٍّ بقناعتهم بنصيبهم في الحياة، وجهلهم الواضح بأن هناك عوالِم أخرى يجب غزوها. إحساس بالرفاهية انبعث من أرصفة بيورز مثل ضوء الشمس المنعكس. ربما مرَّت سنواتٌ عجاف، على كلٍّ من التجار والمزارعين، لكن ذلك كان خطرًا عارضًا في خضمِّ حياةٍ سعيدة وطيبة.

كان العرض السنوي، في أوائل فصل الصيف، ملتقًى اجتماعيًّا بقدْر ما كان حدثًا تجاريًّا، وكان اليوم يُختَتم «بحفل راقص» في قاعة الاجتماعات بفندق تشيكرز، حيث تتبادل زوجات المزارعين اللاتي لم يتقابلن منذ رأس السنة النمائم والشائعات، بينما الشبان المندفعون الذين لم يلتَقُوا منذ حفل الصيادين المشترك الراقص يتبادلون الخيول. كان الصيادون، فيما بينهم يُطوقون المدينة بأكملها؛ من لريدج إلى الجنوب ومن كينلي فال

حتى الشمال؛ وفعلوا الكثير لضمان أن تكون الخيول المعروضة في بيورز جديرة بأكثر من مجرد نظرة عابرة. ونظرًا لأن جميع المزارعين تقريبًا كانوا ميسوري الحال بما يكفي لامتلاك حصان وجَرَّار كانا مِلكًا لأحد الصيادين، كانت المنافسة قائمة دائمًا.

في السنوات الأولى للعرض، عندما كان التنقُّل لا يزال بالخيل وبطيئًا، جرت العادة على الإقامة ليلةً واحدة في مدينة بيورز؛ وكانت فنادق تشيكرز، وروز آند كراون، وويلينجتون، وكينلي آرمز تضع كل ثلاثةٍ في سريرٍ واحد. لكن مع ظهور السيارات تغيَّر كل ذلك. كانت متعةً أكبرَ أن يعودوا إلى المنزل تسعةً في سيارة واحدة في ساعات فجر الصيف، ثم النوم ثلاثة في سريرٍ واحد في ويلينجتون. لم تكن دائمًا وسيلةً ناجحةً للعودة إلى المنزل، بكل تأكيد، وكان أكثر من مزارع شابٍّ يقضون شهور الصيف في المُستشفى بعد عرض بيورز، لكن بالنسبة إلى الجيل الأصغر سنًّا كان من المُستحيل عليهم النوم في نُزُل بينما منازلهم على بُعد أقل من أربعين ميلًا. لهذا لم يكن إلا العارضون الأكبر سنًّا — الذين تشبَّثوا بالعادة السائدة، أو أولئك الذين كانوا يسكنون على مسافةٍ شاقة من مدينة بيورز، أو لم يكن بوسعهم، بسبب صعوبة الانتقالات، نقلُ خيولهم مساء يوم العرض — هم مَن ظلُّوا يقضون الليلة في مدينة بيورز. وكان أغلبهم يُقيم في فندق تشيكرز.

كانت عائلة آشبي تقيم في غرف النوم نفسها في فندق تشيكرز ليلة عرض بيورز منذ زمن ويليام آشبي السابع: الذي كان قد انضمَّ إلى سلاح الدفاع في ويست أوفر لمقاومة الغزو المُتوقَّع من نابليون الأول. لم تكن غُرَفهم هي أفضل الغرف؛ لأن في تلك الأيام كانت أفضل الغُرَف تذهب إلى عائلة ليدينهام من كلير، الذين كانون بالطبع يحصلون على حجزٍ سنوي لليلة العرض. وما كان يتبقى من عائلة ليدينهام كان يذهب إلى عائلة شيرليز من بينبري ونزلاء هالاندز من دار رعاية هالاندز هاوس. كانت دار هولاندز، التي كان العرض يُقام على أراضيها الواقعة على مشارف المدينة، تَستخدِم غُرف النوم فقط لتسكين الأعداد الزائدة من ضيوفهم، لكنَّ نزيلًا واحدًا من هالاندز كان أعلى قدرًا بكثيرٍ بالطبع من أي فردٍ من عائلة آشبي شخصيًّا.

كانت حديقة بينبري في ذلك الوقت ملكًا للدولة مُتخذةً منها مقرًّا لمؤسسة التراث الوطني؛ فكانت قيمة الدخول شلنًا للترويح عن جمعٍ من الركَّاب البسطاء الذين لا يعرفون جيبونز من أدولف آدم ويريدون احتساءَ الشاي. وكان هالاندز هاوس أيضًا مِلكًا للدولة مُتخذةً منه دائرةً حكومية. لم يعرف أحدٌ قطُّ ماذا كان يفعل هذا الجمْع من الغرباء هنا. ذات مرة أقدمت السيدة ثريل، التي كانت تُدير مقهى سينجينج كيتل على طريق ويست

أوفر، بجرأة على سؤال موظفةٍ حكومية شابة، كانت تشرَب قهوتها، عن طبيعة مهمتها حاليًّا، فأخبرتها بأن مهمتها هي «تنسيق ترجمة أغاني توم جونز إلى اللغة التركية»؛ لكن هذا اعتُبر مجرد سوءِ فهمٍ من جانب السيدة ثريل، ولم يملك أحدٌ الشجاعة ليسأل هؤلاء الغرباء مرةً أخرى. فقد انغلقوا على أنفسهم في تصميمٍ شديد، ولم يَعُد ممكنًا لأهل بيورز التجوُّل في هالاندز بارك.

كان من المُمكن منذ زمنٍ طويل أن تحظى عائلة آشبي في زيارتها السنوية بغرفٍ أرقى في فندق تشيكرز، لكن مثل هذه الفكرة لم تخطر قطُّ في عقل أحد أفراد آشبي. لم يكن الفرْق بين الغرفة رقم ٣ والغرفة رقم ١٧ أنَّ إحداهما كانت غرفةً راقية ذات إطلالةٍ مبهجة وأثاث جيد، وأن الأخرى غرفة خلفية تُطلُّ على سطح غرفة الاجتماعات، وإنما أن تلك الغرفة لم تكن «غرفتهم» أما الأخرى فهي لهم. لذا ظلُّوا يُقيمون في الغُرَف الثلاث الصغيرة في المبنى الأقدم، الذي منذ أُلحق به حمَّام في نهاية المَمر، صار فعليًّا جناحًا لعائلة آشبي.

نقل جريج الخيول إلى مدينة بيورز مساء يوم الثلاثاء. ولحِق به آرثر صباح يوم الأربعاء بالمهور، وباستر، فرس إلينور، الذي كان يكرَه أي مقصورةٍ غير مقصورته، وكان مُتوقَّعًا منه أن يضرب أي إسطبل غريب بقدمِه حتى يصير حُطامًا. أما سايمون والأختان التوءمتان، فذهبوا في السيارة مع بي؛ أما برات فتشارَكَ ركوب الخنفساء مع إلينور وتوني توسيلي، الذي أصرَّ على السماح له بالمنافسة في فئة «أفضل فارس من الأطفال». («سينتحر أبي إذا لم يُسمح لي بالمحاولة.»)

تمنَّى برات لو لم يجلس فرخ الضفدع هذا بينه وبين إلينور. كان الإحساس بأن وقته مع إلينور قصير، مُلازمًا له دائمًا، ما جعل كلَّ لحظةٍ غير مهمة لحظةً ذات قيمةٍ جوهرية له. لكن إلينور بدت سعيدةً بما يكفي للشعور برغبةٍ في العطاء والبِرِّ حتى مع توني توسيلي.

قالت، وهي تنظر إلى قوس السماء العالية التي غاب عنها السحاب: «سيكون الطقس رائعًا. لا أتذكر سوى سَكِّير حقيقي وحيد في مدينة بيورز وكان ذلك منذ سنوات. كانوا على الدَّوام محظوظين بشدة. هل وضعتُ قفازاتي الخيطية في الخزانة؟»

«نعم.»

«ماذا ستفعل طوال فترة الصباح؟ هل ستتفقَّد معروضات السيدة جودوين من المُربَّى؟»

«سأقطع حلبة السباق سيرًا.»

قالت باستحسان: «أنت داهية يا برات. أنت مُحِق تمامًا في ذلك.»

«ربما يعرف رفاقنا من الخيول كل بوصةٍ منها.»

«أوه نعم. فهو حدَث سنوي بالنسبة إلى أغلبها. في الواقع، إذا بدأتَ في إطلاق الخيول فمن المُحتمَل أن تطوف وحدَها عبره؛ فهي معتادة المكانَ تمامًا. هل تذكرَتْ بي أن تُعطيك تَذْكرتك للجلوس في المدرَّج؟»

«نعم.»

«وهل أحضرتَها معك؟»

«نعم أحضرتُها.»

«أبدو أكثر إزعاجًا هذا الصباح، أليس كذلك؟ أنت شخصٌ لطيف ورفقتك مُطمئنة. ألا تشعر بالإثارة قطُّ يا برات؟»

«أوه، بلى.»

«إثارة تجعلك مُضطربًا في داخلك؟»

«بل تجعلني أتقلَّب بداخلي مراتٍ ومرات.»

«هذا شائق. لكني أظنُّ أنه لا يظهر عليك.»

«أظن أنه لا يظهر.»

«إنه أحد أشكال الوجوه التي من المُفيد أن تحظى به على نحوٍ استثنائي. إن وجهي يصير ورديًّا باهتًا عليلًا، كما ترى.»

كان يرى أن هذا التورُّد الطفولي الدافئ الذي يعتلي ملامح وجهها الهادئة بطبيعتها تورد مُثير للمشاعر ومُحبَّب إلى النفس.

«سمعتُ أن بيجي جيتس ترتدي زيًّا جديدًا لهذا الحدث. هل سبق لك أن شاهدتَها تمتطي حصانًا؟ ليس بوسعي أن أتذكَّر ذلك.»

«لا.»

قالت إلينور باستحسان: «تبدو لطيفة. إنها تُجيد ركوب الخيول. أظنُّها ستنصف ذلك الحصان الذي كان مِلكًا لديك بوب.»

كان من طبيعة إلينور أن يكون رأيها مُستقلًّا عن مشاعرها.

تلألأ الشارع الرئيسي بمدينة بيورز في ضوء شمس الصباح الهادئ. لافتات ضخمة من رابطة السيارات تشدُّ من عزم المسافر، وإعلانات مرفرفة تتملَّقه. ولافتة تقول «غذاء

كار للعجول». بينما أعلنت لافتة مُعلَّقة بين مدخنتَين كأنما تصرخ «سافو، المُطهِّر الآمن!» ولافتة أخرى كُتب عليها ببساطة «سائل بيتس للتغميس»، مُعتبرًا أن سائل التغميس معروف بما يكفي ليشرح نفسه.

في رَدهة فندق تشيكرز ذات الضوء الخافت كانت بي في انتظارهم. قالت إن سايمون قد ذهب لتفقُّد الإسطبلات.

«غُرفنا تحمل أرقام ١٧، و١٨، و١٩، يا برات. أنت ستتشارك الغرفة ١٧ مع سايمون، أما أنا ونيل فسنُقيم في غرفة رقم ١٨، والتوءمتان في الغرفة المُتصلة بغرفتنا، رقم ١٩.»

لم يكن تقاسُم غرفة واحدة مع سايمون شيئًا في حسبانه، لكن لم يكن بيدِه ما يفعله حيال الأمر. فحمل حقيبتَهُ وحقيبة إلينور وصعد معهم إلى الطابق العلوي؛ إذ ماجت الرَّدهة بالنزلاء الوافدين. ورافقَتْه إلينور وأرتْهُ مكان الغرف.

قالت: «أول مرة جئتُ فيها إلى هنا وسُمح لي بقضاء الليلة ظننتُ أن الحياة لم تترك شيئًا إلا وقدَّمته لي. أنْزِل الحقيبة هنا يا برات، شكرًا لك، سأفرغها على الفور وإلا فسيتغضن فستاني.»

في الغرفة رقم ١٧ كانت أغراض سايمون مُبعثرةً في كل أرجاء الغرفة، بما في ذلك الفِراش الثاني. كان من الغريب أنَّ مُتعلقات سايمون التي يفترض أنها جمادات كانت تحمِل، حتى في غيابه، شيئًا من العجرفة.

أخلى برات فراشَه وأفرغ حقيبتَه، وعلَّق ثيابَه الجديدة للسهرة بعناية في خزانة الملابس التي كانت لا تزال شاغرة. الليلة سيرتدي ملابس سهرةٍ لأول مرة في حياته.

قالت له بي عندما نزل: «في حال ضللتَ الطريق يا برات، موعد الغداء في الثانية عشرة وثلاثين دقيقةً في خيمة الغداء. آخِر طاولةٍ على يسارك عند الدخول. ماذا تنوي أن تفعل هذا الصباح؟ تنكز الخنازير؟»

قالت إلينور: «لا، سيقطع مضمار السباق سيرًا.»

«حسنًا. إيَّاك أن تشرُد بعيدًا عنها إلى أيٍّ من أعيان الحكومة وتُعرِّض نفسك للاعتقال، هل لك ذلك؟»

عُهد بتوني إلى السيدة ستاك، التي، لكونها مهتمة فقط بالصناعات الريفية، مثَّلت نقطةً ثابتة وسط السيل المُتدفِّق من الزوار إلى أحد المعارض الزراعية.

قالت إلينور: «إذا أخبرك بأن والدَه يحتضِر وأنه مطلوب في المنزل على وجه السرعة، فلا تُصدِّقيه.»

«هل والدُه مريض، إذن؟»

«لا، لكن توني قد يشعر بالملل قبل الساعة الثانية عشرة والنصف. سآتي وأُحضره لتناول الغداء.»

سار برات في الشارع الرئيسي في مدينة بيورز وبداخله إحساس بالهروب. لأول مرة تقريبًا منذ شهر يُصبح سيد نفسه، لدَيه الحرية ليكون على طبيعته. كان قد نسي كيف يبدو السير من دون حذر. ولقرابة ثلاث ساعاتٍ كان بوسعِه أن يذهب إلى حيث يشاء، ويسأل عما يريد، ويُجيب من دون لجام على لسانه.

كُتِب على لافتة لوجهة السير على إحدى الحافلات «هالاندز بارك»، فاستقلَّ الحافلة وذهب إلى هناك. لم يكن قد زار أيَّ معرضٍ ريفي من قبل قط، وراح يتفقَّد المعارض باهتمام جديد وناقد في آنٍ واحد، مقارنًا كلَّ ما رآه بأشياءَ مُماثِلة رآها في أماكنَ أخرى. الغزل المنزلي في أريزونا، وأدوات الزراعة في نورماندي، والكباش في زاكاتيكاس، وماشية الهيرِفورد بعد أن اكتسبت طابعًا أمريكيًّا، والفخاريات في نيو مكسيكو. من حين لآخر كان أحدهم ينظر إليه بفضول، ورُفِعت أكثر من يدٍ إلى النصف بالتحية لتعود مُجددًا إلى موضعها. كان يبدو كأحد أفراد عائلة آشبي بشدة لدرجةٍ أعاقته عن أن يكون حرًّا تمامًا في بيورز. لكن، بوجهٍ عام، كان الناس مُستغرِقين إلى أقصى حدٍّ في المعروضات وفي مشاغلهم في تلك الساعة من الصباح لدرجةٍ منعتهم من إبداء الكثير من الاهتمام بهذا العابر.

بعد أن فرغ من تفقُّد المعرض، خرج إلى المتنزَّه حيث الأعلام الحمراء تُميز مضمار السباق المؤقت المُقام فيه. كان مضمارًا مُستقيمًا للعدْو مزوَّدًا بحواجز للقفز حتى نصف الميل الأول عبر المتنزَّه، ثم يتَّجِه إلى داخل البلدة في منحنًى عريض لمسافة ميل أو أكثر، ثم يعود إلى المتنزَّه لمسافة نصف ميلٍ من المدرجات، ومن تلك النقطة كانت هناك سلسلة من الحواجز حتى نقطة النهاية أمام المدرجات. وفيما عدا المنعطفات الحادة وبعض الأسيجة العمياء في البلدة، لم يكن مسار المضمار صعبًا. كانت الحواجز في المساحات المفتوحة من المتنزَّه حواجزَ سباق مطابقة للوائح، وكان العشب مذهلًا. فانشرح قلب برات.

كانت الأجواء هناك في البلدة غايةً في الهدوء؛ لهذا عاد إلى العرْض بشيءٍ من التردُّد. لكن دُهِش حين وجد مدى سعادته برؤية الوجوه المألوفة المجتمعة حول المائدة في خيمة الغداء عندما وصل هناك؛ ومدى سعادته بالاسترخاء في المكان الذي خُصص من أجله، وبكونه جزءًا من العائلة مرة أخرى.

توافد الناس على مائدتهم ليُرحِّبوا بعودته إلى عرْض بيورز، وإلى إنجلترا. كانوا أولئك الذين يعرفون بيل ونورا آشبي، ووالد بيل من قبله. لكن لم يتوقَّع منه أيٌّ منهم أن يتذكَّرهم، فما كان عليه سوى أن يلتزم الأدب واللباقة معهم.

الفصل الخامس والعشرون

قالت روث، عندما تُرِكت مع برات وحدهما في المدرج: «أظن أني سأتقيَّأ.»

قال برات: «لا أستغرب ذلك.»

«لماذا؟» فاجأها ما قيل؛ إذ لم يكن هذا ردَّ الفعل الذي توقَّعتْهُ نهائيًّا.

«ثلاثة مكعبات ثلجٍ على لحم السلطعون المُتبَّل.»

قالت بنبرة زاجرة: «ليس ذلك بسبب أي شيء أكلتُه. المسألة أنَّ جهازي العصبي حساس. فالإثارة تجعلني أشعر بالإعياء. وأتقيَّأ بسببها.»

نصحها برات: «لو كنتُ مكانك لذهبتُ وأنهيت الأمر.»

«تعني أذهب للتقيؤ!»

«أجل. إنه شعور مُذهل.»

قالت روث مُستسلمة: «إذا جلستُ ثابتةً تمامًا بلا حَراك ربما أصبح أفضل.»

كانت روث تشعُر بعدَم أهميتها اليوم. فقد تجنَّبت الخيول طوال الوقت لبقية العام لدرجة حرمَتْها من المُطالبة بأي حقٍّ في استعراض أيٍّ منها في هذا اليوم بعرض بيورز؛ لهذا جلست في المُدرَّج مرتديةً زيًّا رماديًّا أنيقًا من قطن الفلانيل واكتفت بالمشاهدة. وما كان موضع تقدير وإشادة لها أنها لم تَضِنَّ على توءمتها بموقعها المرموق الذي استحقَّتْه عن جدارة، وكانت في أشدِّ اللهفة لأن تحصد جين المركز الأول في فئتها.

«ها هو ذا روجر كلينت مع إلينور.»

بحث برات عن الاثنين ووجدهما.

«مَن روجر كلينت؟»

«لدَيه مزرعة كبيرة قريبة من هنا.»

كان روجر كلينت شابًّا أسودَ الحاجبَين، وصديقًا قديمًا لإلينور.

قالت روث، بعد أن فشِلَت في محاولةٍ من محاولاتها لافتعال دراما: «إنه يُحب إلينور.»
قال برات، ولكن بقلبٍ مُنقبض: «شخص مناسِب تمامًا للوقوع في غرامِه.»
«سيكون رائعًا إذا تزوَّجَتْه. فلدَيه أموال كثيرة ومنزل كبير جميل وأعداد كبيرة من الخيول.»
سأل برات رغمًا عن إرادته إن كانت إلينور تُفكر في الأمر.
فكَّرت روث في إيجابيات وسلبيات هذا الأمر كما يتناسَب مع الإطار الدرامي الذي وضعته.
«تجعله يخدم سبع سنواتٍ من أجل أن يتزوَّجها. أتعرف: مثل يعقوب. وهو ببساطة ثائر بشأن ذلك، ذلك المسكين روجر، لكنها الفتاة الحسناء العديمة الرحمة.»
ودَّعت الفتاة الحسناء العديمة الرحمة السيدَ كلينت مؤقتًا، وصعدت لتنضمَّ إليهما في المدرَّجات بينما اصطفَّ الناشئون تحت سن العاشرة في حَلْبة السباق.
قالت وهي تجلس إلى جانب برات: «هل تعلم أن توني نجح في دخول السباق بمعجزة؟ سيبلُغ عامه العاشر بعد غدٍ.»
كان هناك أحد عشر مُتسابقًا ناشئًا، أصغرهم طفلة بدينة في الرابعة تلبَس قُبعة فرسان مخملية سوداء، كانت تتواثَب على مُهرٍ ثابتٍ لم يكن لها أي سيطرة عليه بأي حال.
قالت إلينور: «حسنًا، على الأقل لم يبدُ توني بهذا القدْر من البشاعة حتى في أيامِهِ السيئة.»
علَّقت روث: «يبدو توني رائعًا»، وكان توني يبدو بالفعل رائعًا. فكما قالت إلينور في مناسبةٍ سابقة، بداخل توني بذرةُ فارس.
سار المتسابقون الناشئون، ثم ركضوا، ثم عدَوا ببطءٍ، تحت أعيُن الحكَّام الرءوفة، وبعد قليل بدأ تصنيف المتسابِقين. حتى من المُدرَّج كان واضحًا للعيان الإصرار الجنوني في عينَي توني السوداوَين كسواد الحلزون. كان عازمًا إما على الفوز بالمال أو الموت. انحصر المتسابقون المحتمَلون في أربعة متسابقين بعد أن كانوا ستة، لكن هؤلاء الأربعة أثاروا حيرةَ الحكام. أُرسِلوا أكثر من مرةٍ للعدْو ببطءٍ والرجوع للتدقيق، ثم أُرسلوا للعدْو ببطءٍ مرة أخرى. لم يكن هناك سوى ثلاثة جوائز ولا بد أن يرحل واحدٌ منهم.
في هذه المرحلة لعِب توني بما اعتبره بوضوح ورقتَهُ الرابحة. عندما عدا ببطءٍ أمام المدرج انحنى حتى وصل إلى ركبتَيه في السَّرج وبدفعةٍ طفيفة وقف فيه، في استقامة وفخر.
قالت إلينور بوقارٍ وإحساس مؤثر: «يا إلهي.»

سَرَت موجةٌ من الضحك في المدرَّج. لكن توني كان في جَعبته محاولة أخرى. انزلق إلى ركبتَيه، وجذب الحافة الأمامية من السَّرج، ثم وقف على رأسه، فأخذت ساقاه الرفيعتان اللتان تُشبهان أرجُل العنكبوت تتأرجحان بتردُّد نوعًا ما في الهواء.

حينئذٍ انفجرت عاصفة من الضحك والتصفيق، وعاد توني، الذي كان في غاية السعادة، إلى مقعده على السَّرج ودفع حصانه المندهش، الذي كان قد تهادى حتى صار يمشي خببًا، ثم عاد إلى العدْو ببطءٍ مرة أخرى.

بالطبع حسم ذلك قرارُ هيئة التحكيم ببراعةٍ شديدة، وشعر توني بالإهانة عند رؤية أوشحة التكريم الثلاثة تُسلَّم إلى منافسيه. لكن إهانته لم تكن شيئًا بالنسبة إلى الإهانة التي أوقعها بمدرِّبته.

قالت: «أتمنَّى ألا أرى ذلك الطفل حتى أهدأ، وإلا قد أضربه بفأسٍ.»

لكن توني، بعد أن سلَّم مُهره إلى آرثر، اتجه مُتهللًا إلى المدرَّجات ليبحث عنها.

قالت: «توني، أيها الأحمق الصغير. ما الذي دفعك إلى فِعل شيء مثل ذلك؟»

«أردتُ أن أستعرض قُدرتي على ركوب الخيل يا إلينور.»

«وأين تعلَّمتَ القيام بتلك الحِيَل البهلوانية؟»

«تدرَّبت على المُهر الذي يقطع العشب. عند المدرسة، كما تعرفين. كان له ظهرٌ أعرض كثيرًا من مافيت؛ ولهذا لم أكن ثابتًا للدرجة اليوم.» وأضاف وهو يُومئ برأسه نحو هيئة التحكيم المُهينة: «أعتقد أن هؤلاء الناس لا يُقدِّرون الفروسية الماهرة.»

انعقد لسان إلينور من الصدمة.

قدَّم له برات قطعةً من النقود وأخبرَه بأن يذهب ويشتري لنفسه أحد المثلجات.

«لولا أني أريد رؤية عرض جين، لذهبتُ وواريت خجلي في غرفة السيدات. أكاد أتجمَّد من المهانة.»

كان منظر جين على حصانها راجا، وفي أبهى ثياب الفروسية، منظرًا مبهجًا. لم يكن برات قد رآها في أي ثيابٍ أُخرى سوى بنطالٍ رثٍّ وقميصٍ صوفيٍّ لا شكلَ له كانت ترتديهما في المنزل، وفاجأته هذه الهيئة الصغيرة المهندمة.

قالت إلينور بحُبٍّ وهي تُشاهد جين الجادةَ البارعة تدفع راجا إلى تغيير مِشيتِهِ بنظام: «تحظى جين بأفضل وضعيةٍ على الحصان بين جميع أفراد عائلة آشبي. هذه هي المنافِسة الوحيدة لها: تلك الفتاة الطويلة على الحصان الرمادي.»

كانت الفتاة الطويلة في الخامسة عشرة من عمرها وكان حصانها الرمادي جميلًا للغاية، لكن الحُكَّام آثروا جين وراجا. ربما كان من المُمكن أن تخسر جين السباق بسبب افتقاد أدائها للحماسة الكافية، لكن روث كانت متحمِّسة لأدائها.

قال سايمون، ظاهرًا بجانبهم: «أحسنتِ أيتها العزيزة جين. خبيرة متمرِّسة في التاسعة من عمرها.»

قالت إلينور في ألمٍ مرة أخرى عندما تذكَّرت: «حقًّا يا سايمون، أرأيت!»

قال وهو يضع يدَه على كتفها مواسيًا إيَّاها: «ابتهجي يا نيل. كان من الممكن أن يحدُث ما هو أسوأ.»

«وكيف يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك؟»

«لم يصدح بالغناء بصوتٍ بكائي.»

وبدأت تضحك على ما قال، واستمرَّت في الضحك. ثم قالت وهي تمسح عينيها: «يا إلهي، أظن أن ذلك مضحك كثيرًا، وأتوقَّع أن أضحك عليه سنواتٍ، لكني في هذه اللحظة أتمنَّى فحسب لو استطعتُ أن أكون في أستراليا لِما تبقَّى من العصر.»

قال: «هيَّا يا نيل. حان الوقت لنجمع الخيول»، ثم انصرفا معًا عندما جاءت جين لتجلس في المدرج.

كان ردُّها على تهنئة برات لها: «الفئة القادمة الآن هي الفئة المُثيرة في السباق. ليس معضلًا الفوز في فئة الخامسة عشرة وما دونها. يومًا ما سأكون هناك في الأسفل معهم. مع العمة بي، وإلينور، وسايمون، وبيجي، وروجر كلينت، وجميعهم.»

أجل، كان روجر كلينت حاضرًا. كانت إلينور تمتطي الفرس سكابا ذات اللون الكستنائي والظهر الطويل، وكان يقف إلى جوارها روجر كلينت على حصان كستنائي ذي أربع قوائم هي أطول القوائم التي رآها برات في حياتِهِ وأنصعها بياضًا. وبينما كان الحُكَّام يمرُّون بمحاذاة الصف، تحدَّث هو وإلينور معًا بصوت خافت.

سألت جين: «مَن في رأيك سيحصد المركز الأول؟»

أزاح برات عينَيه عن إلينور وكلينت وأجبر نفسَه على التفكير في دخول المتسابقين. كان الحَكَم قد أرسل بي لتعدوَ بحصانها شيفرون، الحصان الكستنائي الذي كان سيدخل السباق عصر اليوم، وكانت في تلك اللحظة بصدد النزول أمام المدرجات. لم يكن قد رأى بي في زيِّ الفروسية الرسمي من قبلُ قط، وتفاجأ مرةً أخرى عندما كان جالسًا مع جين. كانت بي جديدة، وجادة، ومُخيفة نوعًا ما.

كرَّرت جين السؤال: «مَن برأيك يا برات؟»

«تيمبر بالطبع.»

«ليس حصان بيجي؟ ذلك الحصان الذي كان مِلكًا لديك بوب؟»

«رايدينج لايت؟ لا. ربما يفوز في سباق القفز، لكن ليس في هذا السباق.»

وكان مُحقًّا في ذلك. كانت هذه النظرة الأولى للحكام على تيمبر، وقد أبهرهم كثيرًا لدرجةٍ حالت دون أن يَستميلهم جمال رايدينج لايت وسُمْعته.

ونال الحُكم إجماعًا شعبيًّا. عندما عدا سايمون بالحصان تيمبر أمام المدرجات بعد أن تلقى وشاح التكريم انقلب التصفيق إلى هتاف.

قال صوتٌ جاء من الخلف: «أليس ذلك هو الحصان الذي قتل فليكس العجوز؟ كان من المُفترَض أن يطلقوا النار عليه بدلًا من أن يمنحوه جوائز.»

جاءت في المركز الثاني بيجي على حصانها رايدينج لايت، وقد بدت مُتورِّدة وسعيدة؛ فتبذير والدها صار له ما يُبرِّره. وفي المركز الثالث، وعلى غير المتوقع نوعًا ما، كانت بي على حصانها شيفرون.

قال الصوت: «عائلة آشبي تربح كالمعتاد»، لكنَّهُ أُسكِت في الحال، ومِن المُحتمَل أنه أشير إلى وجود أفراد آشبي على مسافة قريبة.

وصل اليوم إلى نقطة الإثارة الحقيقية عندما بدأت فئة سباق القفز المفتوح، وجاءت بي لتجلس في المدرج وتشاركهم.

أعلن مكبر الصوت: «رقم واحد، من فضلكم»، ودخلت إلينور مضمار السباق على سكابا. كانت سكابا واثبة متأنية وهادئة، لكن لم يكن من المُمكن إقناعها أبدًا بالوقوف بعيدًا عن الحواجز. ومع بعض التدريب الصبور بالاستعانة بحاجز حماية، تمنَّت إلينور أن تكون قد أقنعتها الآن بانتهاج طرقٍ أفضل. وسارت الأمور جيدًا لنصف الجولة، إلى أن لاحظت سكابا عدم وجود حاجز مُزعج لتحذر منه في نهاية حواجز القفز تلك، فأخذت تقترب مرة أخرى، لينتهي الأمر بالنتيجة الحتمية. لم يكن بوسع إلينور أن تفعل أي شيءٍ من شأنه أن يجعلها تنطلِق في الوقت المناسب. فقفزت قفزةً عالية «كادت أن تصدمهما بالقمر»، لكنها نزلت في المكان الخاطئ، ونزلت معها العوارض الخشبية ذات الطلاء الأبيض.

قالت بي: «مسكينة يا نيل. بعد كل هذا التدريب الذي درَّبتِه لها.»

لم يبدُ أن الحصان رقم اثنين ورقم ثلاثة قد تدرَّبا نهائيًّا.

أعلن مكبر الصوت: «رقم أربعة، من فضلكم»، فظهر رايدينج لايت. كان «الزي الجديد» الذي ارتدتْه بيجي مؤلَّفًا من معطفٍ لونُه بُني ضارب إلى الصفرة ضيقًا للغاية عند الخَصر، وسروال من الجلد لونه باهت قليلًا، لكنها بدَتْ أنيقةً على الحصان البُني وتعاملت معه بشكلٍ جيد. أو بالأحرى، جلست ثابتةً وتركت رايدينج لايت يقوم بعمله. كان بارعًا في الوثب يتخطَّى الحواجز بخطوته الواسعة، فيدفع نفسه عاليًا في الهواء في خطٍّ مُنحنٍ طويل بلا جهد ثم يَثني قدمَيه الخلفيتَين وراءه كقطةٍ. ثم خرج بعد أن أدَّى جولةً رائعة.

أعلن مكبر الصوت: «رقم خمسة، من فضلكم.»

كان رقم خمسة هو حصانَ روجر كلينت ذا القوائم البيضاء الطويلة. قالت بي: «هل تعرف ماذا يُطلق عليه؟ «أوبريشن ستوكينجس».»

قال برات: «إنه قبيح جدًّا. يبدو وكأنه سار في حوض من الطلاء الأبيض.»

«لكنه يستطيع القفز.»

كان يُمكنه القفز بالتأكيد، لكن كان لدَيه رُهاب من الماء.

ضحكت بي وهي تُشاهد ستوكينجس يرفض الماء: «مسكين روجر. كان يدفعه إلى القفز إلى الخلف وإلى الأمام عبر بحيرة البط في المنزل على أمل أن يُعالِجه من الرهاب، والآن يتصرف هكذا!»

ظل ستوكينجس رافضًا الماء، واضطر كلينت إلى إخراجه وسط موجةٍ من التصفيق على سبيل التعاطف.

ارتكب المتسابقان رقم ستة وسبعة خطأً واحدًا لكلٍّ منهما.

أما رقم ثمانية فكان سايمون على حصانه تيمبر.

دخل الحصان الأسود إلى الحلْبة تمامًا مثلما خرج من مقصورته في اليوم الذي رآه فيه برات لأول مرة، سعيدًا بنفسه وجاهزًا لنيل التقدير والاحترام. انتصبت أُذناه المُتحمستان الخفاقتان في انتباهٍ عندما أبصر حواجز القفز. وجَّهه سايمون إلى العدْوِ واتجه نحو حاجز القفز الأول. كان بوسع برات أن يشعر بسلاسة تلك الحركة حتى من المكان الذي كان جالسًا فيه. تلك السلاسة التي أذهلته في ذلك اليوم الأول في لاتشتس عندما كان مُمتطيًا إيَّاه على قمة التل. ارتفع الحصان الأسود بسلاسةٍ عاليًا في الهواء ثم نزل على الجانب البعيد من حاجز القفز، فصدرت غمغمات من الجمهور إعجابًا برشاقة القفزة التي كانت أشبه بقفزة قط. راقب برات، بأصدق مشاعر الاحترام، جسد سايمون يتأرجح

مع ارتفاع الحصان الأسود وهبوطه وكأنه كان جزءًا منه. كان سايمون هو مَن يجِب فعلًا أن يَمتطيه. لم يكن أبدًا ليبلُغ تلك الدرجة من الإتقان ولو عاش مائة سنة. خيَّم صمت رهيب على الجمهور كلما تجاوز تيمبر حاجز قفز تلوَ الآخر. سيكون أمرًا بشعًا لو قُدِّر لهذا الجمال أن يفشل أو يتخلَّله خطأ. كانت الأجواء شديدة الهدوء عندما صار في مواجهة حاجز القفز فوق الماء لدرجةِ أنَّ صوت بائع صحف بعيد عند البوابة الرئيسية كان الصوتَ الوحيد الذي أمكن سماعه. وعندما هبط بسلاسةٍ ودقة عند الضفة البعيدة، عَلت شهقة انبهار من الجمهور. لقد شاهدوا أداءً رائعًا. لم ينخدعوا فيه في نهاية الأمر.

كانوا متأثرين بشدة حتى إن سايمون كان خارج الحلْبة تقريبًا قبل أن تنفجر عاصفة التصفيق.

كان قد أُلغي دخول آخر ثلاثة متسابقين، فكان سايمون هو المؤدِّي الأخير، ومن ثَمَّ بدأت الجولة الثانية بمجرد مغادرته.

عادت إلينور على فرسها سكابا، وبقليلٍ من الصوت والتحفيز نجحت في أن تجعل الفرس العنيدة تنطلِق عند المكان المناسب، وبهذا فعلت شيئًا لتستعيدَ احترامها لذاتها. أما الجمهور، مقدرًا الخطأ الذي وقع في البداية وما نجحت في تحقيقه في تلك اللحظة، فقد أشاد بها لما حقَّقته.

أدَّى الحصان رقم اثنين جولةً اندفاعية لكنها موفَّقة، والحصان رقم ثلاثة كانت جولته اندفاعية وغير موفَّقة؛ ثم جاءت بيجي مرةً أخرى، ولم تزل متورِّدة من أثر سعادتها بجولتها الرائعة.

مرة أخرى كان لها منطقٌ في أن تجلس ثابتةً بينما يرتفع بها رايدينج لايت في الهواء بدفعة من أرجُله الرائعة، ويجتاز حاجز القفز، ويتَّجِه إلى الحاجز التالي بأُذنَيه المُنتصبتَين الواثقتَين. لم يبدُ أن هناك شيئًا يعيق الحصان البُني عن فعلِ هذا طوال اليوم. كان ثمة إحساس بالاعتياد على هذه المهمة انتقص من أدائه بشكلٍ ما؛ فقد جعلها تبدو مهمةً أسهل مما ينبغي. كان هناك بعض الشك فيما يبدو في أنه سيؤدي جولةً أخرى رائعة. كان تقديرُه للمسافة صائبًا تمامًا. ولم يُضطر إطلاقًا إلى التوقُّف ليضع نفسه على مسافةٍ قصيرة تدفعه إلى نقطة الانطلاق المناسبة؛ فكان يصِل إلى نقطة الانطلاق بحساباته الشخصية، ثم يقفز بخطوته الواسعة وكأنها حواجزُ قصيرة. كان يقترب من السور في تلك اللحظة، فانتظَروا حتى يرَوا إذا كان سيتعامل معه كحاجزٍ قصير أيضًا.

صدحت طبلة فرقة بيورز سيلفر باند كمُقدمة لمارش «كولونيل بوجي» العسكري وكتمهيد لدخولهم البوابة الأماميةَ لساحة العرض لتقديم عرضهم لفترة العصر. خفقت

أُذنا رايدينج لايت في تساؤل وشكٍّ. وانصرف ذهنه عن ذلك الجدار الذي كان يقترب منه سريعًا. اندفعت أذناه إلى الأمام مرةً أخرى في انزعاج عندما رآه وقد أصبح فوقه تقريبًا. فقصَّر خطوته، محاولًا مواءمَتَها مع المسافة المُتبقية، لكنه أساء تقديرها. ارتفع عند السور بعزمٍ وإصرار وهبط على الجهة الأخرى، مطوحًا قوائمه إلى أعلى في محاولةٍ ناجحة لتفادي الاصطدام بالحاجز المُرتفع الذي أصبح في تلك اللحظة قريبًا للغاية أسفل منه. لكن حدوة رجله الأمامية القريبة لامست السور عندما ارتفع فوقه، فانزلق أحد الأحزمة من مكانه. واهتز لوهلةٍ على الحافة، ثم سقط على الأرض.

تعالت تأوُّهات الجمهور في تعاطُف سريع، ونظرت بيجي إلى الوراء لترى ما حدث. رأت الشق الصغير في قمة الجدار، لكنه لم يُربكها. أحضرت رايدينج لايت، وربَّتت على رقبتِهِ في تشجيع، ووجَّهته إلى الحاجز التالي.

تمتمت بي: «أحسنتِ يا بيجي!»

كانت الفرقة الموسيقية البعيدة تعزف مارش «كولونيل بوجي»، ولم يُعِرها رايدينج لايت أي انتباه؛ إذ كان يعرف كل شيءٍ عن الفرق الموسيقية. كانت الفرق الموسيقية مصاحبةً لأفضل عروض أدائه. عاد مرةً أخرى إلى نظامه المعتاد، وأنهى العرض بالقفز فوق الماء بفارقٍ تعالى معه شهيق الجمهور.

قالت بي: «لن يقدر سايمون على هزيمة ذلك الحصان أبدًا. فتلك الجولة الرائعة لتيمبر كانت معجزة في المقام الأول.»

انطلقت القوائم الأربع البيضاء الطويلة لحصان روجر كلينت حول الحلْبة بوتيرةٍ سريعة ومُتأهِّبة إلى أن وصل إلى حاجز الماء. وعندما صار بمواجهة مسافةٍ طويلة إلى حاجز القفز الأخير، توقَّف ستوكينجس وفكر مليًّا. تناقش كلينت معه بلطفٍ، لكن ستوكينجز لم يكن ليتقبل أيًّا مما قاله. كان لسان حاله وكأنه يقول: «أعرف تمامًا ما وراء ذلك السور، ولا أُحبه!» ثم، ومع تلك اللاعقلانية الأزلية التي تتَّسِم بها الخيول، قرَّر أن يُجريَ محاولة. ومن تلقاء نفسه اتجه نحو حاجز القفز وبدأ يعدو ببطء. جلس روجر وقاده نحو الحاجز، فانطلق ستوكينجس مُسرعًا نحوه بعزمٍ تجلَّى في كل خط من خطوط وجهه. وفي النصف ثانية الأخيرة غيَّر قراره فجأةً مثلما توصَّل إليه فجأة، فغرز أطراف قدمَيه بقوةٍ، وانزلق إلى نقطة توقُّفٍ أمام الحاجز المرتفع.

ضحِك الجمهور، وكذلك روجر كلينت. جذب نفسه عائدًا إلى موضِعه في السَّرج إذ كان مائلًا للأمام عند رقبة حصانه. وأخذ ستوكينجس إلى الجهة الأخرى من الحاجز وأراه

الماء. وسار به حولها وتركه يُلقي نظرةً على الحافة الأخرى. ثم أعاده إلى الطرف الأقصى للحلْبة ووجَّهه نحو حاجز القفز. وبإحساس مَن يقول: «حسنًا، لننْهِ هذه المهمة الكريهة سريعًا»، قفز ستوكينجس بردفَيه، وانطلق يقطع الحلْبة ركضًا، ثم قفز فوق الماء بفارقِ ياردةٍ أو ياردتَين.

ضحِك الجمهور مُبتهجًا، وتكشَّفت الأسنان البيضاء في وجه كلينت البُني. ورفع قُبعته استجابةً للتصفيق دون النظر إليهم، مثلما يرفع لاعب كركيت قُبعته، واتجه بالحصان خارج الحلْبة، سعيدًا أنه قد تجاهل عين الحَكَم الإقصائية لمدةٍ طويلة بما يكفي ليستحث ستوكينجس على تجاوز هذا الحاجز البغيض.

ارتكب الحصان رقم ستة خطأين. أما الحصان رقم سبعة فارتكب خطأين ونصفًا.

أعلن مُكبِّر الصوت: «رقم ثمانية، من فضلكم»، ارتجفت جين ووضعت يدَها في يدِ بي. ولمرةٍ واحدة لم تُضطر روث إلى تصنُّع أجواء درامية لتناسبها؛ كان فاها فاغرًا من الترقُّب ولم تكن مُنتبِهة تمامًا لروث آشبي.

لم يكن تيمبر يمتلك الخبرة أو القدرة الآلية التي تمتَّع بهما رايدينج لايت. كان يجب أن يُسَّر. كانت إمكانية تغلُّبهما على أداء حصان بيجي جيتس الذي لا يَعيبه شيءٌ تعتمِد على تقدير سايمون بقدْرِ اعتمادها على قدرات تيمبر. رأى برات أن سايمون يبدو شاحبًا من حول فمِه. كان الأمر لسايمون يحمل في طياته شيئًا أكثرَ من مجرد الفوز بالكأس في عرضٍ ريفي صغير. كان عليه أن ينتزع تلك الجائزة من الفتاة التي حاولت أن تُساوِيَ رأسها برأسه بإدخالها حصانًا خُلق من أجل النجاح والفوز ليهزم خيوله التي لا تتمتَّع بالحنكة.

دخل تيمبر وقد بدت عليه الحيرة. بدا وكأنه يقول: «لقد فعلت هذا.» انتصبت أُذناه ما إن أبصر حواجز القفز ثم خفقَتا في شك. لم يكن لدَيه الحماسة أو اللهفة للتوجُّه نحوَها مثلما كان حين كانت التجربة جديدةً عليه. لكنه اتَّجَه بدماثةٍ نحو الحاجز الأول واجتازه بأسلوبه التلقائي السلس. ظن برات أن بوسعه سماعَ قلوب عائلة آشبي وهي تخفق بجانبه. وكان بوسعه بالتأكيد سماع خفقان قلبه؛ كان قلبه يُصدِر صوتًا يُشبه قرع طبول فرقة بيورز سيلفر. قطع سايمون نصف المسافة. أطبقت روث فاها وأغمضت عينَيها وبدت وكأنها تُصلي. فتحت عينَيها في الوقت المناسب لترى تيمبر يتجاوز الحاجز؛ كان كنهرٍ أسود انسيابي ينساب في الحاجز الأبيض. قالت روث: «أوه، حمدًا لله.» ولم يتبقَّ سوى الجدار والماء.

عندما اتجه تيمبر نحو الطرف الأقصى للحلْبة حتى يعود إلى الجدار أطاحت هبَّةُ ريحٍ بقبعة سايمون من فوق رأسه لتتدحرج على الأرض من خلفه. كان رأي برات أن سايمون لم يكن حتى واعيًا لها. ولا حتى توني توسيلي أبدى تركيزًا كالذي أبداه سايمون. لم يكن هناك شيء في هذا العالَم بالنسبة إلى سايمون سواه، والحصان الأسود، وحواجز القفز. لا أحد، لا أحد مُطلقًا كان سيقِف حائلًا بين سايمون وبين الفوز بالسباق وينجو بفعلتِه.

كل شيءٍ عرَفَه سايمون عن ركوب الخيل، كل شيء تعلَّمه منذ أول مرةٍ امتطى فيها مُهرًا وعمره سنتان، كُرِّس لدفع تيمبر إلى تجاوز السور بأمان. لم يكن تيمبر يُحب الحواجز الصعبة للغاية.

كان قد بدأ يعدو ببطءٍ نحو الجدار عندما اندفع كلب ترير أبيضُ نابحٌ من المدرج وراء القبعة البعيدة، قاطعًا الطريق أمام تقدُّم تيمبر مثل كرةٍ رُكِلت بقوة، وهو ينبح من الإثارة بقدرِ ما يستطيع كلب ترير أن ينبح.

استفاق تيمبر من هذا الذُّعر وأخذ يتصبَّب عرقًا.

أغمضت روث عينَيها مرة أخرى ولجأت إلى مزيدٍ من الصلاة. هدَّأ سايمون من روع تيمبر بتفهُّمٍ وصبر، وركض به في المنطقة المُحيطة وأولاه اهتمامًا كبيرًا بينما تولَّى شخصٌ ما استعادة الكلب وإعادته إلى صاحبه. (الذي قال: «مسكين يا سكوتي العزيز، كان من المُحتمَل أن يُقتل!») وبينما كانت الثواني القاسية تمر، وبصبرٍ وتؤدة، عمل سايمون على تهدئة تيمبر. لا بد أنه يعرف أن الوقت ينفد، وأن واقعة الكلب قد انتهت رسميًّا في تلك اللحظة وأن كل ثانية تأخير أخرى ستتراكم عليه.

كثيرًا ما كان برات يندهش من قدرةِ سايمون على ضبط النفس، لكن لم يسبق له أن شَهِد نموذجًا أكثرَ روعةً على ذلك قط. لا بد أن الرغبة في توجيه تيمبر نحو حاجز القفز كانت شديدة. لكن سايمون لم يكن يُخاطر مع سايمون. فكان يُجازف بالوقت ليكتسب فُرَص فوزٍ أفضل قليلًا من أجل تيمبر.

ثم، وبعد أن حَسَب على ما يبدو وقتَه إلى أقرب هامش مُمكن، أحضر تيمبر، الذي كان لا يزال يتصبَّب عرقًا لكنه استجمع شتات نفسه، إلى الجدار مرةً أخرى. وقبل أن يصل تيمبر إلى الحاجز مباشرة تردَّد قليلًا.

وجلس سايمون ثابتًا.

لو كان من المُحتمَل أن يُعجب بسايمون آشبي، لأُعجب به في تلك اللحظة.

أما الحصان، الذي لم ينصرف تركيزه عن المهمة التي أمامه، فقد استجمع نفسه تمامًا ودفع نفسه فوق الحاجز البغيض. ثم ركض مبتهجًا نحو الماء وانطلق متجاوزًا إيَّاه مثل طائر شحرور، شاعرًا بالارتياح لتجاوزه.

لقد فعلها سايمون.

سحبت جين يدَها من يد برات، ومسحت كفَّيها في منديلٍ مُغضَّن على شكل كرة.

مرَّرت بي ذراعها في ذراع برات وقبضت عليها بقوة.

انفجرت موجةٌ هائلة من الهُتاف جعلت الحديث غير مسموع.

في الهدوء الذي أعقب ذلك قالت روث، وكأن شخصًا يتذكر التزامًا مُربكًا: «يا إلهي، لقد رهنت مصروفي الشهري.»

سألت عمتها: «لمن؟»

قالت روث: «للرب.»

الفصل السادس والعشرون

استعرض برات هيئته في المرآة الصغيرة المُتصدعة بغرفة تبديل الملابس المؤقتة بحمَّام الرجال وقرَّر أن اللونَين الأصفر الفاتح والبنفسجي لملابس الفروسية لا يليقان بلون بشرتِهِ مثلما لا يليقان بسايمون. كان الأمر يتطلَّب وجه روجر كلينت الداكن ليُظهِر تلك الألوان الربيعية المُبهجة ويُوفِّيها حقَّها. كان روجر كلينت سيبدو أنيقًا فيها على الأرجح. لم يكن في حالةٍ مزاجية تسمح له بالنظر إلى روجر كلينت نظرةَ استحسان. كان كلَّما يلمح إلينور عصر اليوم كانت تبدو أنها برفقة السيد كلينت، والأكثر من ذلك أنها بدت مُستمتعة برفقته.

شد برات مقدمةَ الخوذة الصفراء بعيدًا عن عينَيه قليلًا. كانت نفسه تجيش بحزنٍ مُضنٍ يحترق بداخله، وكانت في روحه غصَّة تُلوِّعُه.

قال صوتٌ في داخله: «ما علاقة ذلك بك؟ أنت أخوها: هل تتذكَّر؟»

«اصمت!»

«ليس بوسعك أن تنعم بشيئين في وقتٍ واحد، كما تعرف.»

«اصمت!»

انصرف من غرفة الملابس شبه المهجورة وذهب ليبحث عن شيفرون. انتهى العمل الجاد لليوم وساد إحساسٌ بالاسترخاء. في ظلال الأشجار كان المتنافسون الذين شاركوا في الفعاليات الجادة يُسيِّرون مهورهم ويتجاذبون أطراف الحديث في انتظار سباق الانعطاف. كانت بيجي جيتس وحيدةً في ذلك الوقت على مُهرٍ بُني ضارب إلى الرمادي ثابت، وعيناها تجولان وسط الجمهور بحثًا عن شخصٍ ما. بدت مُجهدةً ومُحبطة. وعندما صار برات في مستوى نظرها توقَّف وقال:

«كان ذلك سوء حظٍّ شديدًا.»

«أوه، مرحبًا، سيد آشبي! ماذا تقصد؟»

«الطبلة الكبيرة.»

قالت، وابتسمت إليه: «أوه، تقصد ذلك! كان ذلك أحد تلك الأشياء العارضة التي تحدُث دومًا.»

بدت هادئة تمامًا إزاء الأمر، لكن كاد برات أن يجزِم بأن الدموع كانت تترقرق في عينَيها عندما ظهر.

قالت: «حظ موفق في السباق.»

شكرها برات وكان في طريقِه إلى الانصراف عندما قالت: «سيد آشبي، هل فعلتُ أي شيءٍ أساء إلى سايمون، هل تعرف؟»

أجاب برات بأنه لا يعرف.

«أوه. الأمر فقط أنه يبدو أنه يتجاهلني مؤخرًا، ولا أتذكَّر أنني قد فعلتُ أي شيء … أي شيء من شأنه أن يجعله لا …»

كانت الدموع في عينَيها لا تقبل الشك.

قالت: «أوه، تتفهَّم الأمر بالطبع»، حاولَت أن تتصنَّع ابتسامة، لكنها لم تنجح في ذلك كثيرًا، وانصرفت مُلوِّحةً له بيدِها.

إذن لم تكن الرغبة في أن تُصبح سيدة لاتشتس هي ما كانت تُحرك بيجي الجميلة؛ إنما تعلُّقها بسايمون. مسكينة بيجي. لم يكن سايمون ليغفر لها فَعلة رايدينج لايت.

كانت إلينور تنتظر تحت الأشجار على الحصان باستر، لكن كان روجر كلينت، الذي وجد أيضًا مُهرًا لسباق الانعطاف، واقفًا بجوارها رِكابه إلى ركابها. كان روجر يحكي قصةً طويلة وكانت إلينور تُومئ في تعاطف؛ تجنَّبهما برات وتوجَّهَ إلى الإسطبلات. وهناك وجد بي وجريج. رآه جريج يزن شيفرون، التي كانت متوترةً وغير سعيدة، ويضع السَّرج عليها.

قال جريج: «ما يُقلقها هو صوت الجمهور. شيء تسمعه ولا تفهمه. لو كنتُ مكانك يا سيد باتريك المُبجل، لأخرجتُها وسرت بها. أخرجها وأرِها الجماهير وستُصبح متشوِّقة كثيرًا إلى حدٍّ سيُنسيها توتُّرها.»

ومِن ثمَّ أخرج برات الفرس الكستنائية المُتردِّدة إلى المُتنزَّه، وأصبحت أكثر هدوءًا شيئًا فشيئًا، وهو ما كان جريج يعلَم أنه سيحدث. وبعد قليلٍ وجده سايمون وأشار إلى أن الوقت قد حان للتوجُّه إلى نقطة البداية.

سأله: «هل تذكرتَ أن تُوقِّع في السجل؟»

قال برات: «أي سجل؟ ولأي شيءٍ أوقِّع؟»

«لإبداء موافقتك على أن تركض خيولك.»

«لم أسمع قطُّ بتوقيع أحدٍ في أي سجلٍ. لقد أدخلت الخيول، أليس كذلك؟»

«أجل، لكن في السنوات السابقة واجهوا مشكلةً مع المُتطفلين على السباق. بعض الأغبياء المُتذاكين الذين أخرجوا خيولًا ليست ملكًا لهم، لمَّا لم ينوِ أصحابها أن يجعلوها تركض. وقاموا بجولةٍ حرةٍ عليها، وفي حالة واحدة على الأقل تسبَّبوا في انهيار الحصان الذي كان مُجهدًا بالفعل.»

«حسنًا. أين السجل؟»

«في غرفة الوزن. سأعتني بشيفرون حتى تعود. لا داعيَ لإدخالها في تلك الفوضى.»

في غرفة المكتب الصغيرة كان الكولونيل سموليت جالسًا خلف المكتب.

«حسنًا، أيها الآشبي الصغير، كانت عائلتك تُبلي بلاءً حسنًا اليوم، ألا ترى ذلك؟ المركز الأول ثلاث مرات، وليس أقل من ذلك. هل ستُضيف المرة الرابعة؟ سجل؟ أي سجل؟ آه، الورقة. أجل، أجل. ها هي ذي.»

قال برات، وهو يوقِّع على الورقة الوحيدة التي قُدِّمت إليه، إنه لم يسمع قط بهذا الإجراء.

«على الأرجح أنك لم تسمع به. ولم أسمع أنا نفسي به قط. لكنه يُؤمِّن العرضَ بالفعل ضد الخسائر بدرجةٍ ما. الرجل الذي رُكِب حصانه دون علمِه العام الماضي، قاضَى إدارة العرض للحصول على تعويضٍ عن الخسائر التي لحِقت به. وحصل عليه شِبهَ كاملٍ أيضًا. لهذا اقترح أخوك هذه الوسيلة للتأمين.»

«أخي؟ سايمون هو مَن اقترح ذلك؟»

«أجل. يحظى سايمون بعقلٍ مُفكِّر. ليس لأحدٍ الآن أن يدَّعي بأن حصانه قد أُخذ دون إذنه.»

«فهمت.»

وعاد ليستعيد شيفرون من عهدة آرثر.

«قال السيد سايمون إنه لا يُمكنه الانتظار يا سيد باتريك، لكنه قال إنه يتمنَّى لك حظًّا موفقًا. لقد عاد إلى المدرجات مع بقية العائلة لمشاهدة السباق الختامي.»

«لا بأس يا آرثر؛ شكرًا لك.»

«هل تودُّ أن أُرافقك إلى نقطة البداية يا سيدي؟»

«أوه، لا، شكرًا.»

«في تلك الحالة، سأذهب وأبحث لنفسي عن مكانٍ لأشاهد السباق منه. حظًّا موفقًا يا سيدي. نحن نراهن عليك.»

ثم غادر مُسرعًا وسط الجماهير.

وضع برات اللجام على رأس شيفرون وكان على وشْك أن يعتليَ صهوتها عندما خطر بباله أن يُلقي نظرةً أخرى على حزام السَّرج. لقد أحكم ربطه بالفعل، لكن ربما أنه قد أحكمَه أكثر مما ينبغي.

لكن شخصًا ما أرخى الحزام.

وقف برات مُمسكًا بطرَف الحزام في يدِه وحدَّق إليه. شخصٌ ما أرخاه منذ أن ترك الفرس مع سايمون. وضع يدَيه تحت حزام السَّرج وفحصه ليتحقَّق من درجة ارتخائه. خطر له أن كان سيكفي ليُخرجه من المتنزَّه وصولًا إلى البلدة وربما كان سيستمر حتى تخطِّي حاجزَين آخرين. وبعد ذلك كان السَّرج سينزلق من فوق شيفرون الشديدة الاهتياج وكانت ستُصاب بالجنون.

أهو آرثر؟ لا، ليس آرثر. يكاد يكون من المؤكد أنه سايمون.

أحكم شدَّ الحزام واتجه نحو نقطة البداية. عندما وصل أدركَه روجر كلينت بزيِّه ذي اللونين الأبيض والقرمزي على حصانه أوبريشن ستوكينجس.

قال: «أنت باتريك آشبي، صحيح؟ اسمي روجر كلينت.» وانحنى وصافحه. ثم أردف: «يسرُّني أن ألتقيَ بك مرةً أخرى في بيورز.»

سأل برات: «مَن فاز بسباق الانعطاف؟»

«أنا الذي فزت. بفارق بسيطٍ عن نيل.»

«نيل» حقًّا!

«لقد فازت بهذا السباق العام الماضي على الحصان باستر؛ لذا من الجيد أن يسير الأمر بالتداول. وقد أردتُ الفوز بكأسٍ فضية على أي حال.»

لم يتَّسع الوقت لبرات ليسأل عن سبب لهفته لكأسٍ فضية. كانوا يصطفُّون في خطٍّ مستقيم، وكان هو رقم خمسة، أما روجر كلينت فوقف بعيدًا على الطرف الخارجي. كان هناك أربعة عشر عدَّاءً وعددٌ ضخم من الجماهير المتزاحِمة. لم يكن هناك بوابة بالطبع، لكن تحدَّدَت نقطة البداية بواسطة راية.

لم يكن برات متعجلًا عند البدء. ترك الآخرين يتقدَّمونه حتى يُمكنه تقييم المنافسين. وتوصَّل إلى أن خمسة خيول، على الأقل، قد رُكِبت كثيرًا اليوم لدرجةِ أنها لم تَعُد ذات أهمية وكانت تزحم المضمار فحسب وتفسد الأمور لصالحها. وثلاثة خيول أخرى رآها تقفز في أحد سباقات الناشئين، ولم يعتقد أنها ستدور حول المضمار. وبذلك تبقى خمسة خيول منافسة مُحتملة، كان من بينها ثلاثة خيول خطرة: حصان بُني ضارب إلى الحمرة مُعدٌّ للقتال يركبُه صاحبه الضابط؛ وحصان بُني صغير سريع الحركة يركبُه مزارع شاب؛ وحصان روجر كلينت.

اجتازوا الحواجز بسرعةٍ خاطفة، واصطدم اثنان من مجموعة الخيول المستنزفة، أثناء صراعهما على المراكز، أحدهما بالآخر وأصبحا كتلةً واحدة. وانقلب أحد مُتسابقي القفز من «الناشئين» انقلابًا مروعًا فوق السياج الأول الذي يفضي إلى الريف، وتسبَّب في سقوط الخيلَين المستنزفَين. وهو ما أخلى ساحة المنافسة لحسن الحظ الشديد.

أعجب شيفرون أن ترى خيولها أمامها، وكان من الواضح أنها تستمتع بوقتها. كانت تُحب القفز وكانت تجتاز الأسيجة والحواجز بثقة دون تفكير. كانت همهمتها مسموعة بالكاد. شاهدت متسابقي القفز «الناشئين» الاثنين يُخفقان في اجتياز سياجٍ أعمى فحركت كعبَيها في وجههما.

كان عدد المتنافسين في المضمار يتضاءل على نحوٍ جيد للغاية.

بدأ برات يزيد من سرعته.

اجتاز المنافس الخامس من المنافسين المُحتمَلين دون مجهود. أما الرابع فكان يصدر صوتًا مثل فرقةِ عزفٍ على المزامير والطبول، لكنه بدا صامدًا لفترة قليلة. كان أمامه، عند أبعد نقطة من المضمار، الجندي على جواده البُني الضارب إلى الحمرة، والمزارع على حصانه البُني اليافع الكبير البِنية، وروجر كلينت على حصانه الكستنائي ذي القوائم البيضاء. وبخلاف فرسه شيفرون، ربما كان حصان كلينت هو الحصان الأفضل في السباق، ولكن كلينت كان يُشبه الجندي الذي كان يركب خيلَه بحنكة خبير، بينما كان المزارع يركب خيله مثل شخصٍ لا يكترث لحياته.

كان مضمار السباق يمتدُّ في اتجاه اليمين، وكان حصان المزارع اليافع يقفز باستمرار إلى اليمين، وبذلك لم يكن بوسع أحد أن يعترض مساره من الداخل بأي قدرٍ من الأمان ما دام مسيطرًا على المنعطفات بإحكام. ونظرًا لأن لا أحد أراد الركض على نطاقٍ أوسع مما يحتاجون إليه عند المنعطفات، فقد كانوا يتباطئون قليلًا وراء الحصان البُني الضخم

إلى أن يتمكنوا من الدخول في الجزء المستقيم من المضمار ويتجاوزونه دون أضرار. وبدأ الأمر يصبح سباقًا حقيقيًّا عندما عادوا إلى نصف الميل الأخير من المتنزَّه.

شيئًا فشيئًا اختفى مُتسابق فرقة المزامير والطبول الذي ظلَّ فترةً طويلة على يساره في الخلف، وعندما عادوا إلى المتنزَّه لم يكن هناك إلا أربعة متسابقين: الجندي، والمزارع، وكلينت، وهو نفسه. لم يبالِ بالاثنَين الآخرين، لكنه أراد بشدة أن يهزم روجر كلينت.

ألقى كلينت نظرةً فيمن حولَه عندما غادروا الريف، وابتسم له ابتسامةً ودودة. بعد ذلك لم يكن هناك مُتَّسع من الوقت للمجاملات. فقد اشتعلت وتيرة السباق على أثر نقرةٍ مفاجئة، وركض الأربعة عبر الطريق الأخضر بين الرايات الحمراء المُرفرفة وكأن مراسم تكريم كلاسيكية تنتظرهم عند الطرف الآخر. أخذ الحصان البُني اليافع الضخم البنية في التراخي؛ أما الجواد المقاتل، فرغم أنه كان ثابتًا كصخرةٍ ولم يمسَّه تعبٌ على ما يبدو، فقد بدا أن لا طاقة له لإحداث أي زيادة في السرعة يختم بها السباق. قرَّر برات أن يُبقي أنف شيفرون في محاذاة خلفية الحصان الكستنائي ويرى ما يحدث. ومعًا تقدَّما الجواد المقاتل والحصان البني بعزم. كان المزارع يستخدم سوطَه وكان حصانه يزداد تراخيًا مع كل رفعةٍ للسوط. وكان الجندي لا يزال ثابتًا على الجواد البُني الضارب إلى الحمرة ويأمُل بالطبع أن يكون القول الفصل لقوة الاحتمال والمثابرة.

ألقى برات نظرةً مُتمعِّنة على ستوكينجس وتوصَّل إلى أن الإنهاك يتمكن منه بوتيرة سريعة وأن كلينت، من الطريقة الحذرة التي كان يقوده بها، كان مُدركًا ذلك. لم يتبقَّ سوى حاجزَين لتخطِّيهما. لم يكن لدَيه فكرة عن مدى السرعة أو الاحتمال المتبقِّيَين لدى شيفرون، ولهذا قرَّر أن الطريقة الأكثر أمانًا هي محاولة خداع كلينت وانتزاع صدارة السباق منه. هزَّ لجام شيفرون موجهًا إيَّاها إلى الأمام ثم أخذها في محاذاة الحصان ستوكينج وكأنه يُحاول أن يبذل قصارى جهده. فزاد كلينت من سرعتِهِ ليُواكبه، وتجاوزا معًا الحاجزين الأخيرَين، وكان برات لا يزال متراجعًا قليلًا في الخلف بمحض اختياره، وبذلك صار خارج نطاق رؤية كلينت. ثم خفَّف برات الضغط للحظة، أما كلينت، الذي كان يَعتبر بديهيًّا أن التراجع بالقُرب من محطة توقف الخيول إنما يدل على انهيار قدرة الخيل على الصمود، فكان سعيدًا بأنه لن يُضطر إلى مطالبة خيله بأن يستنفدَ ما تبقى من طاقته واسترخى قليلًا. استجمع برات كلَّ ما لدى شيفرون من قوة وانطلق كالصاروخ من ورائه. نظر كلينت، وأجفل، وألهب حماسةَ ستوكينجس مرةً أخرى، لكن كان الأوان قد فات. كانا قاب قوسين أو أدنى من محطة توقف الخيول بسبب ذلك، حسب تقدير برات. وهكذا سرق السباق.

ضحِك كلينت بينما كانا يسيران بخيولهما معًا إلى غرفة الوزن وقال: «من بين جميع حِيَل «الجنود المُحنكين» انخدعت بهذه الحيلة! يجب أن أُخضِع عقلي لفحصٍ طبي.»

شعر برات بأن روجر كلينت قد حاز إعجابه كثيرًا بحق، بصرف النظر عما إذا كانت إلينور ستتزوَّجه أم لا.

الفصل السابع والعشرون

توقَّع برات أن نجاح سايمون سيدعم ركائز روحه المُفكَّكة، وأن شروخ نفسه ستلتئم. لكن العكس تمامًا هو ما حدث على ما يبدو. فالإجهاد الذي أصابَه عصرًا بعد الانتصار الذي حقَّقه بفوزه على حصانٍ بارع مثل رايدينج لايت قد أتى على مزيدٍ من أساسه الروحي وأخلَّ بتوازُنه أكثر.

قالت إلينور وهي تُراقب سايمون من فوق كتف برات وهما يرقصان معًا في تلك الليلة: «لم أرَ سايمون بهذا القدْرِ من السعادة من قبل.» كانت كمن يُقدِّم اعتذرًا. وأردفت: «فهو عادةً لا يُبالي بانتصاراته.»

قال برات إن ذلك قد يكون من تأثير الشامبانيا، ثم أدارها بعيدًا عن مشاهدتها لسايمون.

كان يتطلَّع طوال اليوم إلى الرقص مع إلينور، لكن كانت بي هي مَن حظِيَت بالرقصة الأولى. ومثلما تخلَّى عن فُرصته الأولى لركوب الخيل مع إلينور من أجل الذهاب إلى تانبيتشس برفقة شبح بات آشبي، وجد أن هناك شيئًا آخر كان يُريده أكثر عندما أصبح أمام اللحظة التي سيُراقص فيها إلينور لأول مرة. فقطع الغرفة مُتجهًا نحو بي وقال: «هل تسمحين لي بالرقص معك؟» فرقصا معًا في هدوءٍ باعث على السعادة، وكان تعليقها الوحيد: «مَن علَّمك أن تخدع شخصًا ما لتُخرجه من السباق بهذا الشكل؟»

«لم أكن في حاجةٍ ليُعلمني أحد. إنها خطيئة فطرية.»

ضحِك قليلًا ثم ربَّتت عليه باليد التي كانت مُستندةً على كتفه. كانت بي آشبي امرأةً جميلة، وقد أحبَّها. كان الشخص الآخر الوحيد الذي أحبَّه في حياته حصانًا اسمه سموكي.

قالت إلينور: «لم أرَك كثيرًا عصر اليوم منذ العرض البشع الذي قدَّمَه توني.»

أجابها برات بأنه أراد التحدُّث إليها قبل السباق لكنها كانت مُستغرقةً في الحديث مع روجر كلينت.

«أوه، أجل. أتذكَّر ذلك. يُريد عمُّه منه أن يترك المزرعة ويذهب ليعيش في أولستر. عمُّه هو تيم كونيل، كما تعرف، الذي يمتلك مزرعة كيلبارتي للخيول. يرغب تيم في التقاعد، وسيؤجِّر المكان لروجر، لكن روجر لا يريد أن يغادر إنجلترا.»

رأى برات أن الأمر مفهوم. فإنجلترا وإلينور معًا كانا بمنزلة جنَّة تُغنِيه عن أي شيء.

«لا أراه هنا الليلة؟»

«لا، لم ينتظر حتى حفل الرقص. لقد جاء فحسب ليفوز بالكأس الفضية ليعود بها إلى زوجته.»

«زوجته!»

«أجل، لقد أنجبت طفلَها الأول الأسبوع الماضي، وأرسلته إلى العرض ليأتيَ بقدح تعميدٍ من أجل هذه المناسبة.» ثم سألته قائلة: «ما الخَطب؟»

قال وقد بدأ الرقص مرةً أخرى: «ذكِّريني في وقتٍ ما بأن أكسر عنق روث.»

ارتسمت على وجهها ضحكة تندُّر وقالت: «هل كانت روث تختلِق لك قصصًا بهذا الشأن؟»

«قالت إنه أراد الزواج منكِ.»

«آه، حسنًا، كانت لدَيه فكرة مثل هذه، لكن مرَّ وقت طويل عليها. وبالطبع لم يكن متزوجًا العام الماضي، لهذا ربما لم تعرف روث بالأمر. هل ستُسيطر عليك النزعة الذكورية وتشرف على مخطَّطاتي للزواج؟»

«ألديكِ أي مخططات؟»

«ليس لديَّ أي مُخطط على الإطلاق.»

مع انقضاء الليل وهو يُراقص إلينور أكثرَ وأكثر، قالت: «لا بد أن ترقص مع فتاةٍ أخرى يا برات.»

«لقد رقصت بالفعل.»

«مع بيجي جيتس فحسب.»

«إذن كنتِ تُراقبينني. هل أمنعك من الرقص مع أحدٍ ترغبين في الرقص معه؟»

«لا. أحب الرقص معك.»

«حسنًا، لنرقص إذن.»

لعلها تكون الليلة الأولى والأخيرة التي سيرقص فيها في حياته مع إلينور. قبل حلول منتصف الليل بقليل صعدا معًا إلى بوفيه الطعام، وملآ أطباقهما، ثم أخذاها إلى واحدة من الطاولات القليلة الموجودة في الشرفة. كان بوفيه مائدة الطعام جزءًا من مبنى الفندق ذاته، وكانت الشرفة، التي كانت قطعةً فنية من الحديد على الطراز الريجينسي، تُطلُّ على الحديقة الصغيرة الكائنة بجانب الفندق. وكانت هناك مصابيح صينية معلَّقة في الحديقة وفوق الطاولات في الشرفة.

قالت إلينور: «أنا سعيدة للغاية لدرجةِ أني لا أقوى على تناول الطعام»، وشربت كأسها من الشامبانيا في صمتٍ حالِم. «تبدو جذَّابًا للغاية في ملابس السهرة التي ترتديها يا برات.»

«شكرًا لكِ.»

«هل يُعجبك فستاني؟»

«أجمل فستان رأيتُه في حياتي.»

«كنتُ آمُل حقًّا أن يحوز إعجابك.»

«هل تناولتِ العشاء الليلة بالفعل؟»

«لا. فقط بعض المشروبات وشطيرة.»

«من الأفضل أن تأكُلي إذن.»

أكلَتْ بزهدٍ كان جديدًا على إلينور.

«كانت تلك إحدى مناسبات آشبي بحق، العرض السنوي الرابع والسبعون لعرض بيورز آجريكالتشرال شو ... ابقَ ثابتًا لحظة، لدَيك بعوضة تزحف أسفل ياقتك.»

وانحنت ثم ضربت رقبتَه من الخلف بخفة. «أوه، إنها تنهار!» وبأسلوبٍ شِبه أخوي لَوَت رأسه جانبًا بيدٍ بينما كانت تُخرِج البعوضة باليد الأخرى.

قال: «هل انتشلتِها؟»

لكنها كانت صامتة، فرفع بصره إليها.

قالت: «أنت لستَ أخي! لم أستطِع أن أشعُر بالشعور الذي ...» ثم توقَّفت في هلع.

ووسط الأجواء الساكنة ارتفع قرع الطبول البعيدة من غرفة الاجتماعات.

بدأت تنتحِب: «عذرًا يا برات، أعتذر إليك! لم أقصد ذلك! أعتقد أنني أسرفتُ في الشرب. عذرًا يا برات، أعتذر إليك!» وأخذت حقيبتَها من فوق الطاولة ثم خرجت بخطواتٍ مُتعثرة من الشرفة المُعتِمة قليلًا إلى غرفة البوفيه. «سأذهب وأستلقي وأُفيق من ثمالتي.»

تركها برات تمضي وسعى بحثًا عن مشورةٍ في الحانة. كان هناك في غرفة الاجتماعات في منتصف الليل شيء أشبه بالألعاب البهلوانية، وكانت الحانة خاليةً تمامًا إلا من سايمون، الذي كان جالسًا بمُفرده لا يُرافقه سوى زجاجة شامبانيا على إحدى الطاولات في الزاوية البعيدة.

قال سايمون: «آه! أخي الكبير. ألستَ مهتمًّا بسحب اليانصيب؟ اشرب.»

«شكرًا. سأشتري لنفسي.»

اشترى مشروبًا من الحانة وحملَه عبر الغرفة الطويلة إلى طاولة سايمون.

قال سايمون: «أعتقد أنك لا تُطيق صبرًا لانتظار فرص الفوز باليانصيب. فأنت تريد أن تكون المائدة مهيأةً لك كي تفوز من قبل أن تُلقيَ رهانك.»

تجاهل برات ذلك. «لم تسنح لي الفرصة لتهنئتك بالفوز مع تيمبر.»

«لا أحتاج إلى ثناء منك.»

كان سايمون ثملًا بالتأكيد.

قال بنبرة طفلٍ مُبتهج: «كانت تلك وقاحة بالغة منِّي، أليس كذلك؟ لكني أستمتِع بوقاحتي. أتصرف على نحوٍ سيئ للغاية الليلة، أليس كذلك؟ أبدو أني أنزلق إلى الخطأ. خُذ كأسًا.»

«لقد اشتريت واحدة.»

بدا سعيدًا من نفور برات: «أنت لا تُحبُّني، أليس كذلك؟»

«ليس كثيرًا.»

«لماذا لا تُحبني؟»

«أعتقد لأنك الوحيد الذي لا يُصدِّق أنني باتريك.»

«تقصد أنني الوحيد الذي «يعرف» أنك لستَ باتريك، أليس كذلك؟»

ساد صمتٌ طويل بينما كان برات يتفحَّص العينَين اللامعتَين ذوَاتَي الحدود الداكنة الغريبة.

قال: «أنت قتلتَه.» وسيطر عليه يقينٌ مُفاجئ ممَّا قال.

«بالطبع قتلتُه.» ومال إلى الأمام ثم نظر بسعادةٍ إلى برات. «لكن لن يُمكنك أبدًا أن تُصرِّح بذلك، أليس كذلك؟ لأن باتريك لم يمُت من الأساس بالطبع. لا يزال على قيد الحياة، وأنا أتحدَّث إليه الآن.»

«كيف فعلت ذلك؟»

«تودُّ أن تعرف، أليس كذلك؟ حسنًا، سأُخبرك.» فمال مُقتربًا منه أكثرَ وقال بصوتٍ خفيضٍ على سبيل التهكُّم: «أتعرف، أنا ساحر. يُمكنني أن أُوجَد في مكانَين في وقتٍ واحد.»

واتَّكأ بظهره إلى الوراء واستمتع بحيرة برات.

قال: «لا بدَّ أنك تعتقد أنني ثمل أكثر مما أبدو يا صديقي. لقد أخبرتُك عن باتريك؛ لأنك شريكي في الجريمة بعد وقوعها. لقب مُذهل ذلك اللقب، وقد أحسنتُ صياغتَه ببراعة. لكن إذا كنت تظن أني سأجعل التفاصيل في متناولك بلا عناء، فأنت مُخطئ.»

«إذن، لماذا فعلتَها؟»

فأجاب بنبرتِه المازحة المميزة له: «كان صبيًّا صغيرًا في غاية الحمق، وليس جديرًا بلاتشتس.» ثم أضاف من دون تصنُّع: «كنتُ أكرهه، إذا أردتَ أن تعرف.»

صبَّ لنفسه كأسًا أخرى من نبيذ الأيالا وشربها. ثم ضحك بصوتٍ منخفض، وقال: «إنها علاقة روحية مذهلة بين توءمين، أليس كذلك؟ لا يُمكنني أن أُفصح عن أمرك ولا أنت بوسعك أن تفصح عن أمري!»

«ولكن لديك ميزة عني.»

«أنا؟ كيف؟»

«ليس لك ضمير يوخزك.»

«أجل؛ أظنها ميزة.»

«عليَّ أن أحتمِلك، لكن لا نيةَ لديك أن تحتمِلَني، أليس كذلك؟ بذلت أقصى ما في وُسعك لتقتُلني عصر اليوم.»

«ليس أقصى ما في وُسعي.»

«أعتقد أنك ستُحسِّن من محاولاتك، أليس كذلك؟»

«سأحسِّنها.»

«أتوقَّع منك ذلك. الشخص الذي بوسعه أن يكون في مكانَين في وقتٍ واحد بإمكانه أن يفعل شيئًا أفضلَ من إرخاء حزام سَرج.»

«بل أفضل بكثير. لكن على المرء أن يتقبَّل الوسائل التي في متناوله.»

«أتفهَّم ذلك.»

«أظن أنك لن ترغب، في مقابلِ ما أسررتُ لك به، أن تُفصِح لي عن شيء؟»

«أفصح لك عن ماذا؟»

«مَن أنت؟»

جلس برات ينظر إليه مدةً طويلة.

قال: «ألا تعرفني؟».

«نعم. مَن أنت؟»

قال برات: «جزاؤك»، ثم أنهى شرابه.

انصرف من الحانة ثم استند قليلًا إلى الدرابزين حتى هدأ جوفه وأصبح يتنفَّس بسهولة أكبر. حاول أن يُفكِّر في مكانٍ يُمكنه أن يختلي بنفسه فيه ليفكر مليًّا في هذا الأمر. لم يكن هناك أي مكانٍ في الفندق؛ حتى في غرفته ربما يلحق به سايمون في أي لحظة؛ كان عليه أن يذهب إلى مكانٍ في الخارج.

ذهب ليُحضِر معطفه من الغرفة رقم ١٧، وفي طريق العودة قابل بي مرةً أخرى.

قالت بي بغضب: «هل جُنِنتم جميعًا؟ إلينور في الطابق العلوي تبكي، وسايمون يشرب الخمر في الحانة، وأنت تبدو الآن وكأنك رأيتَ شبحًا. ما خَطبكم جميعًا؟ هل نشب شجار بينكم؟»

«شجار؟ لا. أعتقد أن إلينور وسايمون قد مرَّا بيومٍ مرهق.»

«وما الذي يجعلك تبدو شاحبًا تمامًا إلى هذا الحد؟»

«الهواء في قاعة الرقص. أنا ابن المساحات المفتوحة: هل تتذكَّرين؟»

«كنتُ أفهم دائمًا أن المساحات المفتوحة كانت تعجُّ فحسب بقاعات الرقص.»

«هل تُمانعين إذا أخذتُ السيارة يا بي؟»

«إلى أين ستأخذها؟»

«أريد مشاهدةَ شروق الشمس من فوق وادي كينلي.»

«وحدك؟»

«وحدي بالطبع.»

قالت: «ارتدِ معطفك. الجو بارد في الخارج.»

عند قمة المرتفع المُطل على وادي كينلي أوقف السيارة وأطفأ المحرك. كان الجو لا يزال مُعتمًا وسيظلُّ معتمًا مدةً من الوقت. ترجَّل من السيارة ووقف على الحافة العُشبية من الطريق، واستند على غطاء مُحرِّك السيارة، مرهفًا السمع إلى الصمت. كانت الأرض والعشب تفوحان برائحةٍ قوية في الجو الندي البارد بعد زوال شمس الأمس. كان الهواء ساكنًا. وعلى الجهة المُقابلة من الوادي بعيدًا صفَّر أحد القطارات.

أشعل سيجارة، وتحسَّنت مَعِدته. لكن شعوره بالاضطراب لم يتحرك إلا لأعلى فحسب. فقد صار في تلك اللحظة في رأسه.

كان مُحقًّا بشأن سايمون. وكان مُحقًّا في التشابُه الذي رآه بينه وبين تيمبر: ذلك الكائن المهذَّب الدمث الخُلق الذي كان مُحتالًا أيضًا. لقد أخبره سايمون بالحقيقة، هناك في الحانة. وكان سعيدًا بإفصاحه عن الحقيقة له. يقولون إن جميع القتلَة يرغبون في التفاخُر بجرائم القتل التي ارتكبوها؛ ولا بد أن سايمون كان مُتلهفًا كثيرًا لأن يفصح لأحدٍ عن مدى براعته. لكن لم يكن بوسعه أن يُفصح عن الأمر حتى تلك اللحظة؛ عندما صار لدَيه مُستمِع «موثوق فيه».

وكان هو، برات فارار، ذلك المُستمع «الموثوق فيه».

هو، برات فارار، الذي امتلك لاتشتس، وسلَّم سايمون بأنه سيحتفظ بما أخذَه. وأنه سيحتفظ به باعتباره شريكًا لسايمون في الجريمة.

لكن ذلك كان مُستحيلًا بالطبع. فتحالُفُه السافر مع لودينج كان شيئًا؛ لكن التحالف الذي اعتبره سايمون باستهزاء مُسلَّمًا به كان أمرًا مُستحيلًا. كان شنيعًا. مُحالًا.

وما دام الوضع قد آل لما آل إليه الآن، فماذا سيفعل بشأنه؟

يذهب إلى الشرطة ويقول: اسمعوا، أنا لستُ باتريك آشبي من الأساس. باتريك آشبي قُتل على يد أخيه منذ ثماني سنوات. أعرف بالأمر؛ لأنه أخبرني بهذا لمَّا كان ثملًا بعض الشيء.

وبعدها سيشيرون إلى أنه في سياق تحقيقهم في موت باتريك آشبي ثبَت لهم أن سايمون آشبي قد قضى تلك الساعات التي وقعت خلالها الجريمة بصُحبة الحداد في كلير.

بوسعه أن يُخبرهم بحقيقة نفسه، لكن لا شيء سيتغيَّر سوى حياته. وسيظل باتريك آشبي منتحرًا.

كيف ارتكب سايمون فَعلته؟

لقد قال عن إرخائه لحزام السَّرج: «على المرء أن يتقبَّل الوسائل التي في متناوله.»

ما «الوسائل التي كانت في متناوله» في ذلك اليوم منذ ثماني سنوات؟

كان إرخاء حزام السَّرج مزيجًا من التخطيط والارتجال. واقتراح «توقيع السجل» كان محاولةً مستبعدًا نجاحها. إذا نجحت في إبعاده، كان سايمون سيُصبح حرًّا لإكمال بقية خطته. إما إذا لم تنجح، فلن يقع ضرر. فالمكيدة بدت بريئة في عين المشاهد.

كانت تلك هي الطريقة التي دبَّر بها عقل سايمون مكيدةَ حزام السَّرج، وكانت تلك هي الطريقة التي دبَّر بها مقتل باتريك منذ ثماني سنوات بلا شك. مكيدة بريئة ولا مجال فيها للشك. هذا هو استخدام الوسائل التي في المتناول.

كيف استغل سايمون، قبل ثماني سنوات، مجموعةً من الظروف العادية كي تُقدِّم له الفرصة التي كان يُريدها؟

كان عقل برات لا يزال يقدح زناد فكره حول المشكلة عندما أخبره الصوت الخافت الأول للهواء الثائر بأن الفجر على وشْك البزوغ. هبَّت الرياح بعد قليل، لترفع أوراق الشجر عاليًا هذه المرة وتُثير الحركة في العشب، وعمَّ الشرقَ لونٌ رماديٌّ. شاهد سطوع الضوء. وشقَّت زقزقات العصافير الأولى الهدوء من حوله.

ظلَّ هناك ساعاتٍ ولم يقترِب بأي حالٍ من التوصُّل إلى حلٍّ لهذه المشكلة التي كانت تواجهه.

أقبل رجل شرطةٍ نحوَه على مهلٍ، دافعًا دراجته، وتوقف ليسأله إن كان يُواجِه مشكلة. قال برات إنه كان يحظى ببعض الهواء المُنعش بعد حفلٍ راقص.

نظر الشرطي إلى ملابسه الرسمية الكتانية وقَبِل مُبرِّره دون أي تعليق من جانبه. ألقى نظرة على السيارة من الداخل ثم قال: «لأول مرةٍ في حياتي أرى سيدًا شابًّا وسيمًا يخرج للاستمتاع بالهواء المنعش وحدَه بعد حفلٍ راقص. أنت لم تقتُلها، أليس كذلك يا سيدي؟»

تساءل برات ماذا عساه أن يقول لو قال له: «بلى، لكنني شريك في جريمة قتل أُخرى شاركتُ فيها بعد وقوعها.»

قال: «لقد رفضتْني.»

«أها. فهمت. تداوي حزنك. صدِّقني يا سيدي، بعد أسبوع من الآن ستُصبح مُمتنًّا للغاية وستُراودك رغبةٌ في أن ترقص في الطرقات.»

ثم دفع دراجتَه بعيدًا عبر حافة المرتفع.

بدأ برات يرتجف.

دخل السيارة وسار وراء الشرطي. سأله، من أين يُمكنه الحصول على مشروب ساخن؟

كان هناك مقهًى يعمل طوال الليل عند مفترق الطرق الرئيسي على مسافة ميلَين من هنا، هكذا أخبره الشرطي.

في المقهى، حيث صار الجو دافئًا ومشرقًا وعاديًّا بعد أجواء الفجر الرمادية، شرب قهوة مغلية. كانت هناك امرأة مُمتلئة الصدْر تقلي النقانق لسائقَين اثنَين يعملان على شاحنة، وثالث في زاوية المقهى يُجرِّب حظَّه في إحدى الألعاب التي تعمل بإدخال بنسٍ في

ماكينة. اختلسوا نظرةً غير مُبالية على ملابس الرقص التي يرتديها، لكن فيما عدا تبادل التحية معه تركوه وشأنه.

عاد إلى بيورز في موعد الفطور، ووضع السيارة في المرأب. كانت رَدهة فندق تشيكرز تبدو مبعثرة بالقمامة؛ كانت الساعة لا تزال السابعة والنصف فقط، والمشاركون في العرض قضَوا ليلة صاخبة مليئة بالمرح. صعد إلى الغرفة رقم ١٧ فوجد سايمون مُستغرقًا في النوم، وملابسه مُجمَّعة في كومةٍ واحدة على الأرض تمامًا كما خلعها. بدَّل ملابسه مُرتديًا ثياب النهار، مُتحريًا الهدوء في البداية، لكنه تخلَّى عن حذرِه قليلًا، عندما أدرك أن لا سبيل لإيقاظ سايمون في حالته الراهنة إلا بهزةٍ طويلة. خفض بصرَه نحو سايمون واندهش. كان نائمًا في هدوءٍ كالطفل. هل بات مُتأقلمًا على فَعلته بعد ثماني سنواتٍ لدرجةِ أنها لم تَعُد تُقلقه، أم إن فَعلته لم تكن شنيعةً في تقديره؟

كان وجهًا جذابًا، ربما فيما عدا فمه العصبي. وجهًا باعثًا على البهجة، أُحسِنَ خَلقُه وتقسيم ملامحه. لم يكن فيه ما يُوحي بارتكابِ شرٍّ مثلما لم يوحِ جمال تيمبر.

نزل إلى الطابق السُّفلي واغتسل، مُتمنيًا أن يكون قد فكر في وقتِ الاستحمام. كانت رغبتُه في تغيير ملابسه من دون أن يُضطرَّ إلى التحدُّث إلى سايمون تُسيطر عليه بقوة.

عندما دخل إلى غرفة الطعام وجد بي والأختَين التوءمتَين يتناولْنَ فطورهنَّ، فانضم إليهن.

قالت بي: «نيل وسايمون لا يزالان نائمَين. من الأفضل أن تعود معي أنا والتوءمتَين في السيارة، ونترك إلينور تأخذ سايمون عندما يستيقظان.»

«ماذا عن توني؟»

«لقد عاد بالأمس مع السيدة ستاك.»

شعر بالارتياح حين عرف أن بإمكانه العودة إلى لاتشتس مع بي في سلام.

بدأت التوءمتان تتحدَّثان عن عرض توني الفذ، الذي بدا واضحًا أنه سيكون جزءًا من تاريخ لاتشتس، ولم يكن مُضطرًّا إلى فتحِ حديثٍ. سألت بي إذا كان طلوع الفجر قد ارتقى إلى توقُّعه، فعلَّق أنه كان يتطلَّع إلى الأفضل منه.

عبْر الريف الأخضر في الصباح الباكر اتجهوا عائدين إلى كلير، وأدرك برات نفسه يتطلَّع إليها بمشاعرِ شخصٍ لا يتبقَّى له في الحياة سوى وقتٍ قصير. تطلَّع إلى الأشياء بنظرةٍ تحمل إحساس أن كل شيء سيبقى هناك بعد رحيله.

لن يعود أبدًا إلى بيورز. وربما لن يركب السيارة نهائيًّا مع بي مرةً أخرى.

مهما كان ما حملَه اعتراف سايمون من معنًى آخر، فقد كان يعني نهاية حياته في لاتشتس.

الفصل الثامن والعشرون

كان صباح يوم الخميس وكان من المقرر أن يصل تشارلز آشبي مُبحرًا عبر مياه ساوثهامبتون، ولا شيء كان سيمنع الاحتفالات التي ستعقب وصوله. تبِع بي إلى الرَّدهة في لاتشتس وفي نفسه شعور باليأس.

سأل بي: «هل تُمانعين إذا تركتُكِ وذهبتُ إلى ويست أوفر؟»

«لا، أرى أنك تستحقُّ بعض الراحة من العائلة. سايمون هارب دائمًا من المنزل.»

وهكذا استقلَّ الحافلة قاصدًا ويست أوفر وانتظر إلى أن حان موعد تناول السيد ماكالان لقهوته في منتصف الصباح. اتجه إلى مكتب صحيفة «ويست أوفر تايمز» وطلب أن يَطلِع على الملفات. رافقه ساعي المكتب، الذي لم يُبدِ أي علامة على أنه قد رآه من قبل، إلى القبو وأطلَعَه على مكان الملفات. قرأ برات تقرير الاستجواب كاملًا من جديد، لكنه لم يعثُر على ما يُفيده.

أيُمكن أن يكون في التقرير الكامل شيء يفيده؟

انصرف وبحث عن اسم الكولونيل سموليت في دليل الهاتف. سأل الكولونيل: أين قد يكون تقرير الاستجواب الخاص بواقعة وفاته؟ أهو مع الشرطة؟ حسنًا، أَمِنَ المُمكن أن يُسهِّل له الاطلاع عليه؟

كان الكولونيل سيُسهِّل له الأمر، لكنه اعتبر مطلبَه هذا طموحًا مروعًا ومكروهًا إلى أقصى حد، وناشد آشبي الصغير أن يُعيد التفكير.

لذا ذهب برات لمقابلة شرطي في غاية المرح، بناء على تعريفٍ من قِبل الكولونيل عبر الهاتف، وأجلسَه في مقعدٍ جلدي ذي مسندَين وقدَّم له سجائر، ثم وضع أمامه تقرير مُحقِّق الوفيات منذ ثماني سنوات بحماسةِ ساحرٍ أخرج الأرنب من قُبَّعته.

قرأه كاملًا بتمعُّن عدة مرات. لم يكن إلا تقرير صحيفة «ويست أوفر تايمز»، ولكن بمزيدٍ من التفصيل.

أعربَ عن شكره إلى الشرطي، وعرض عليه سيجارة بدَوره، وانصرف خاليَ الوفاض من أي إشارةٍ يهتدي بها مثلما جاء. واتَّجَه نحو الميناء وظلَّ مستندًا إلى السور يُحدِّق جهة الغرب في المنحدرات الصخرية.

كانت لدَيه نقطة ثابتة، على أي حال. نقطة ثابتة لا يمكن تغييرها. كانت تلك النقطة هي أن سايمون آشبي كان في كلير في ذلك اليوم. وهي نقطة أكَّدها رجلٌ لم يكن لدَيه مُبرر للكذب، ولم يكن لدَيه شكٌّ في أنَّ تلك الحقيقة لم تكن تُمثل أي أهميةٍ تُذكر. فلم يبتعِد سايمون مدةً طويلة كافية عن جوار السيد بلبيم بحيث يستشعر غيابه.

لا بد أن بات آشبي قد قُتل في الفترة التي تخلَّلت مُقابلة آبل العجوز له في بداية العصر واللحظة التي اضطُر فيها السيد بلبيم إلى أن يُوصِّل سايمون إلى المنزل من أجل تناول العشاء في الساعة السادسة.

حسنًا، ثمة مقولة قديمة تقول إذا لم يأتِ إليك الجبل، فعلَيك أن تذهب إليه.

أمعِن التفكير في نظرية الجبل، لكن ما حيَّره وجود المعطف على قمة المنحدر. كان سايمون هو مَن كتب تلك الرسالة، لكنه لم يخرج نهائيًّا من كلير.

كانت الساعة الثانية حينما استفاق من أفكاره، فذهب لتناول الغداء في حانةٍ صغيرة في الميناء. لم يتبقَّ لدَيهم الكثير من الطعام، لكن ذلك لم يكن مُهمًّا؛ إذ جلس مُحدقًا في طبقِه حتى وُضعت الفاتورة أمامه.

عاد إلى لاتشتس ومن دون أن يذهب إلى المنزل اتجَهَ إلى الإسطبلات وأخرج أحد الخيول التي لم تذهب إلى بيورز. لم يكن هناك أحدٌ سوى آرثر، الذي أبلغَه بأن جميع الخيول قد عادت بسلام وجميعها بصحةٍ جيدة فيما عدا أن باستر قد اصطدم الجزءُ الخلفيُّ من قدمه الأمامية بمقدمة قدمِه الخلفية.

سأل آرثر وهو يُومئ برأسه إلى بذلةِ برات الصوفية: «هل أُخرِجه على هذه الحال يا سيدي؟» فأجابه بالإيجاب.

اتجه نحوَ التلِّ مثلما فعل في صباح اليوم الأول له حينما خرج بتيمبر، وكرَّر ما فعله على ظهر تيمبر مرةً أخرى. لكن تبدَّد أي إحساسٍ بالجلال والزهو هذه المرة. فقد بدا العالَم باعثًا على الاشمئزاز. والحياة نفسها صار مذاقُها مرًّا.

ترجَّل عن الحصان وجلس حيثما جلس في ذلك الصباح منذ شهرٍ مضى، شاردًا ببصرِه نحو الوادي الأخضر الصغير. بدا المكان في عينَيه جنةً حينها. حتى تلك الفتاة الحمقاء التي

جاءت وتحدَّثت إليه لم تكن كفيلةً بإفساد المشهد عليه. تذكَّر كيف جحظت عيناها حينما اكتشفت أنه ليس سايمون. كانت قد جاءت إلى هناك وهي واثقة أنها ستُقابل سايمون؛ لأن ذلك المكان كان مكانه المُفضَّل لتدريب الخيول. لأنه كان …

رفع الحصان الذي بجواره رأسه سريعًا حينما هزَّت الحركة المفاجئة التي صدرت من برات الشكيمة في فمه.

لأنه كان …؟

استمع إلى صوت الفتاة في عقله. ثم نهض ببطءٍ ووقف مدةً طويلة يحدق في الجهة المقابلة من الوادي.

أدرك حينها كيف ارتكب سايمون فَعلته. وعرف كذلك الإجابة عن شيءٍ كان يُثير حيرته. أدرك لماذا خشِيَ سايمون أن يكون باتريك الحقيقي هو مَن عاد بمعجزةٍ ما.

امتطى الحصان وعاد إلى الإسطبلات. كانت السُّحب الضخمة تتسارع من الجنوب الغربي وبدأت السماء تمطر. في غرفة معدَّات ركوب الخيل أخذ ورقةً من المكتب وكتب عليها: «سأتناول العشاء في الخارج. من فضلك اتركي قفل الباب الأمامي مفتوحًا من أجلي، لا داعيَ للقلق إذا تأخرت.» ووضع الرسالة في مظروف، وكتب عليه اسم بي، ثم طلبَ من آرثر أن يُسلِّمه في المنزل عندما يمرُّ به. وأخذ معطف المطر من وراء باب غرفة معدَّات ركوب الخيل، وخرج في المطر، مغادرًا لاتشتس. لقد صار على دراية بالأمر الآن. فماذا هو فاعل بشأنه؟

سار على غير هدًى، غير مُدرك لأي شيء غير السؤال المُخيف الذي يجب الإجابة عنه. وصل إلى ورشة الحدادة حيث كان السيد بلبيم لا يزال يُزاول عمله، فرحَّب به، وتبادلا الآراء حول العمل الذي كان بين يدَيه وحول حالة الطقس في الفترة المقبلة، دون أن يتوقف لحظةً عن مصارعة الأفكار التي تدور في عقله.

اتجه نحو المسار المؤدي إلى تانبيتشس وصعد التل على العشب النديِّ ومنه إلى القمة التي تضم أشجار الزان، وهناك أخذ يسير جَيئة وذهابًا بين جذوع الشجر الكبيرة، في حالةٍ من الصدمة والتشتُّت.

كيف سيتسبَّب في هذا الألم لبي؟

ولإلينور؟ وللاتشتس؟

ألم يضر بعدُ بلاتشتس بما يكفي؟

هل سيُهِمُّ كثيرًا لو تُركت لاتشتس في حوزة سايمون مثلما كان على مدى ثماني سنوات؟

مَن الذي تضرَّر من ذلك؟ شخص واحد فقط: باتريك.

إذا كان سايمون سيُقدَّم إلى العدالة بتهمة قتل باتريك، فسيعني ذلك ذُعرًا ما بعده ذعر لبي وبقية العائلة.

لم يكن عليه أن يفعل ذلك من الأساس. بإمكانه أن يرحل؛ أن يُدبِّر واقعة انتحار. في النهاية، لقد دبَّر سايمون حادث انتحار باتريك، ومر الأمر على تحقيقات الشرطة. إذا كان قد تمكن من فِعل ذلك وهو صبيٌّ في الثالثة عشرة، فبوسعه أن يفعل ذلك الآن. بإمكانه أن يسقط من علو، وستعود الأمور كما كانت منذ شهر.

وبات آشبي؟

لكن بات، لو كان بيده الاختيار، لم يكن ليرغب في تقديم سايمون إلى العدالة على حساب تدمير عائلته. ليس بات مَن يفعل ذلك، بات الذي كان عطوفًا ويُفكِّر دائمًا في الآخرين أولًا.

وسايمون؟

هل سيُحقِّق افتراض سايمون السافر بأنه لن يُصدِر أيَّ ردَّ فعل؟ هل سيقضي سايمون حياةً طويلة كمالك لاتشتس؟ هل ستئول لاتشتس لأبناء سايمون؟

لكن سيظلُّون مُنتمين إلى عائلة آشبي. وإذا قُدِّم سايمون إلى العدالة، فلن يكون هناك أجيال أخرى من عائلة آشبي في لاتشتس.

وما النفع الذي سيعود على لاتشتس بتأمين توارثها بالتغاضي عن جريمة قتل؟

أليس من المُمكن أن يكون قد جاء إلى لاتشتس بتلك الطرق الغريبة لكي يكشف عن تلك الجريمة؟

لقد قطع نصف العالَم ليلتقيَ بلودينج في الشارع، وقال لنفسه إن مثل هذه الصدفة الغريبة لا بد أنها قَدَر مكتوب. لكن لم يتخيَّل أن يكون قَدرًا مُهمًّا. وها هو ذا الآن يبدو أنه قَدَرٌ بالِغ الأهمية.

ماذا عليه أن يفعل؟ مَن بوسعه أن ينصحه؟ أن يُقرِّر له؟ لم يكن من الإنصاف أن يُلقى بهذا العبء على عاتقه. فلم يكن لدَيه من الحكمة والخبرة ما يؤهلُه للتعامُل مع أمر بهذه الخطورة.

لقد قال لسايمون: «أنا جزاؤك»، وكان يعني ما يقول. لكن ذلك كان قبل أن يحصل على السلاح الذي سيُطبِّق به الجزاء.

ماذا عليه أن يفعل؟

أيذهب إلى الشرطة الليلة؟ أو غدًا؟

لا يفعل شيئًا، ويسمح بإقامة الاحتفالات عند عودة تشارلز آشبي؟

ماذا عليه أن يفعل؟

كان الوقت متأخرًا في تلك الليلة حين كان جورج بيك جالسًا في مكتبه، مستشعرًا من حينٍ لآخر صوتَ ارتطام المطر على نافذة منزل القس في كلير، حتى من مكانه البعيد في مملكته، وسمع صوت نقرٍ عند تلك النافذة، فعاد من مملكته واتجه إلى الباب الأمامي. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يأتي فيها الناس وينقرون على تلك النافذة في ساعةٍ متأخرة من الليل.

في الضوء القادم من الرَّدهة رأى أحد أفراد آشبي، لكنه عجز عن تبيُّن هويته؛ إذ كادت قُبعته المبتلة تمامًا تحجُب وجهه.

«أيها القس، هل تأذن لي بالدخول والتحدُّث إليك؟»

«بالطبع يا باتريك. ادخل.»

وقف برات على عتبة الباب، ومياه الأمطار تنهمِر من معطفه.

قال بنبرة غير واضحة: «أخشى أنني مُبتلٌّ للغاية.»

خفض القس بصرَه ولاحظ أن بنطاله المصنوع من صوف التويد الرمادي بات أسود، وصار حذاؤه كقطعة عجينٍ تنزُّ ماءً. اتجهت عيناه سريعًا إلى وجه برات. كان قد خلع قُبعته المترهلة وكانت مياه المطر المتساقطة من شعره المُشبع بالماء تنساب على وجهه.

قال القس: «اخلع معطفك واتركه هنا. سأعطيك معطفًا آخر حينما تستعدُّ للانصراف.» واتجه إلى غرفة المعاطف في الرَّدهة وعاد بمنشفة. فقال: «جفف رأسك بتلك.»

نفَّذ برات ما أُمِر به، بانصياعٍ وحركاتٍ مُرتبكة كأنه طفل. وتوجَّه القس إلى المطبخ الفارغ وأحضر غلاية ماء.

قال: «تعالَ، ضعِ المنشفة حيثما وضعتَ معطفك المُبتل.» ثم قاده إلى مكتبه ووضع الغلاية على عين موقدٍ كهربائي. «سيُصبح ساخنًا في لمح البصر. غالبًا ما أُعِدُّ الشاي لنفسي حينما أسهر لوقتٍ متأخر. ما الأمر الذي جئتَ لتتحدَّث معي بشأنه؟»

«جُبٌّ في دوثان.»

«ماذا؟»

«عذرًا. لقد توقف عقلي عن التفكير. ألديك أي نوعٍ من الكحوليات؟»

كان القس ينتوي أن يضع له الويسكي في الشاي، كشراب التودي، لكنه صبَّ صنفًا قويًّا في تلك اللحظة وشربه برات.

«أشكرك. أعتذر عن مجيئي وإزعاجي لك هكذا، لكن كان يجب أن أتحدَّث إليك. آمُل ألا تمانع.»

«أنا هنا ليتحدَّث معي الناس. أتريد مزيدًا من الويسكي؟»

«لا، شكرًا.»

«إذن دعني أُعطِك حذاءً جافًّا.»

«لا عليك، شكرًا لك. أنا معتادٌ أن أكون مبتلًا، كما تعرف. سيدي القس، أريد مشورتك بشأن أمرٍ بالغ الأهمية، لكن هل لي أن أتحدَّث إليك وكأنه ... وكأنه اعتراف؟ أقصد من دون أن يُخالِجك شعور بأنك ملزَم بالقيام بشيءٍ حيال الأمر.»

«سأتعامل مع ما ستقول كاعترافٍ بالتأكيد.»

«حسنًا، في البداية يجب أن أُخبرك بأمر ما. أنا لست باتريك آشبي.»

أيَّده القس قائلًا: «نعم، لستَ هو.» فحدَّق برات في دهشة.

«أتقصد ... أتقصد أنك كنتَ تعرف أني لستُ باتريك؟»

«تبلور لديَّ اعتقاد بأنك لست هو.»

«لماذا؟»

«هناك أشياءُ ترتبط بالشخص أكثر من الحضور الجسدي؛ هناك هالة، شخصية، كينونة. وكنتُ شِبهَ واثق في أول مرة قابلتُك فيها أنني لم أُقابلك من قبل. لم أتعرَّف على أي شيءٍ فيك، رغم أن لديك أشياءَ كثيرة مشتركة مع باتريك إلى جانب الشكل.»

«ولم تفعل شيئًا بشأن ذلك!»

«ما الذي كان ينبغي لي أن أفعله من وجهة نظرك؟ محاميك، وعائلتك، وأصدقاؤك تقَبَّلوك جميعًا ورحَّبوا بك. ولم يكن لديَّ دليل لأثبت أنك لست باتريك. لا شيء غير اعتقادٍ شخصي بأنك لست هو. بمَ كان سيفيد لو صرحتُ بشكِّي؟ لم يبدُ لي أنه سيمضي وقتٌ طويل قبل أن يُحَلَّ الموقف من تلقاء نفسه دون تدخُّلٍ منِّي.»

«أتقصد أن أمري سيُفتضَح.»

«لا. أقصد أنك لم تبدُ لي شخصًا سيسعد بالحياة التي اخترتها. ومن واقع زيارتك لي الليلة، فقد كنتُ مُحقًّا في ظني.»

«لكنِّي لم آتِ إلى هنا الليلة فقط لأعترف بأني لستُ باتريك.»

«لم تأتِ لذلك؟»

«نعم، الأمر فقط ... كان عليَّ أن أبوح لك بذلك لأنها الطريقة الوحيدة التي يُمكن أن تفهم بها ما حدث ... أتمنَّى لو كان ذهني أكثرَ صفاء. لقد كنتُ أتجول بلا هُدًي في محاولة لتصحيح الأوضاع.»

«ربما إذا أخبرتني أولًا كيف جئتَ إلى لاتشتس في المقام الأول، فسيرتاح عقلي على الأقل.»

«قابلتُ ... قابلتُ شخصًا في أمريكا كان يعيش في كلير. ظنَّ ... أقصد ظنَّت أني أُشبِهُ أحد أفراد آشبي، واقترح عليَّ أن أدَّعي أني باتريك.»

«وكان عليك أن تدفع لها حصةً من العائد الذي ستجنيه من عملية الاحتيال.»

«أجل.»

«لا يسعني إلا أن أقول إنها تستحقُّ نِسبتها أيًّا كانت. لا بد أنها مُعلِّمة مذهلة. لم أرَ قط تدريبًا أفضل من ذلك. أنت أمريكي إذن؟»

أجاب برات: «لا»، فابتسم القس ابتسامةً باهتة على تشديده بالنفي. «لقد نشأتُ في دار أيتام. تُركت على عتبة بابها.»

ثم حكى للقس بإيجازٍ قصة حياته.

قال القس عندما انتهى: «لقد سمعتُ عن دار الأيتام التي نشأتَ فيها. وهذا يفسر لي شيئًا حيَّرني وهو تنشئتك الصالحة.» صبَّ الشاي وأضاف الويسكي. «بالمناسبة، هل ترغب في شيء يُشبِعك أكثرَ من البسكويت؟ لا؟ إذن تفضَّل بسكويت الشوفان؛ إنه مُشبِع.»

«كان عليَّ أن أُخبرك بكل هذا لأني اكتشفتُ أمرًا ما. باتريك لم ينتحِر. بل قُتِل.»

أنزل القس الفنجان الذي كان يحمِلُه. وبدا فزعًا لأول مرة.

«قُتِل؟ ومَن قتله؟»

«أخوه.»

«سايمون؟»

«نعم.»

«لكن يا باتريك! ذلك ... ما اسمك، بالمناسبة؟»

«نسيت. لم أحمل اسمًا. كنت أُنادى دائمًا باسم برات. تحريفٌ لاسم بارثولوميو.»

«لكن يا عزيزي، هذا عبث. ما دليلك على اتهامٍ لا يمكن تصديقه بهذه الدرجة؟»

«لدي اعتراف سايمون بذلك.»

«هل أخبرك سايمون؟»

«تباهى بفَعلته. قال إنني لا أستطيع فِعل أي شيء حيال ذلك؛ لأن هذا سيعني أني سأوشي بنفسي. عرف أني لستُ باتريك بمجرد أن رآني.»

«متى دار هذا الحوار الغريب؟»

«الليلة الماضية، في قاعة رقص بيورز. لم يكن تصريحًا مفاجئًا كما يبدو. لقد بدأتُ أفكر في سايمون منذ فترةٍ طويلة قبل ذلك، وتحدَّيتُه في ذلك لأنه قال شيئًا عن معرفته بأني لستُ باتريك، فضحِك وتباهى بفَعلته.»

«أرى أن مكان هذا المشهد يُفسِّر الكثير ممَّا قيل.»

«أتقصد أنك تعتقد أننا كنَّا ثمِلَين؟»

«ليس بالضبط. لنقُل في حالة انتشاء. وأنت تحدَّيتَ سايمون في تلك المسألة، وسايمون بمنطِقه الشيطاني المُنحرِف قدَّم لك ما تتوقَّعه منه.»

سأله برات بهدوء: «هل تعتقد حقًّا أنني محدود الذكاء إلى هذا الحد؟»

«عليَّ أن أعترف بأن ذلك يُدهشني. طالما اعتبرتُك على قدرٍ كبير من الذكاء.»

«إذن صدقني، لستُ هنا بسبب خديعة ارتُكبت من جانب سايمون. باتريك لم ينتحِر. بل قتلَه سايمون. وعمدًا. والأكثر من ذلك أني أعرف كيف فعل فَعلته.»

وأخبره.

«لكن يا برات، ليس لديك دليل حتى في تلك اللحظة. ما أخبرتني به مجرد فرضية. أقرُّ بأنها فرضية ذكية ومُمكنة. وتتَّسِم ببساطتها. لكن ليس لديك دليل على الإطلاق.»

«بإمكاننا أن نصِل إلى دليل، إذا عرفت الشرطة بالحقيقة في الحال. لكن ليس ذلك ما أريد أن أعرفه. ما أريدُه هو نصيحةٌ عمَّا ... حسنًا، عما إذا كان ينبغي ترك الأمور على حالها.»

ثم شرح مُعضلته.

لكن القس لم تُخالِجه أيُّ شكوك حول الموضوع من الأساس، وهو ما كان مفاجئًا نوعًا ما في ضوء صمتِه على شكوكه في هوية برات. إذا كانت قد وقعت جريمة قتلٍ، فلا بد من الاحتكام إلى القانون. وأي شيءٍ خلاف ذلك يُعتبَر فوضى.

كانت وجهة نظره أن برات لم يمتلك دليلًا مقنعًا ضد سايمون. لقد أطال عقلُه التفكير في جريمة القتل، وتحدَّى سايمون بها بطريقةٍ مهينة، وواتت سايمون إحدى لحظاته الشيطانية المعروفة واعترف، وبعد تفكيرٍ طويل توصَّل برات إلى نظرية مُتسقة مع الاعتراف المزعوم.

«أتَراني كنتُ أسير في المطر منذ الساعة الرابعة بسبب خدعة دنيئة من سايمون؟ أتعتقد أني جئتك هنا الليلة واعترفتُ بأني لستُ باتريك بسبب خدعة دنيئة من سايمون؟»

ظل القس صامتًا. «أخبِرني أيها القس، ألم تتملَّكك الدهشة حين انتحر باتريك؟»

«إلى أبعدِ حد.»

«هل تعرف أحدًا لم يندهش لذلك؟»

«لا. لكن الانتحار واقعة مفاجئة.»

قال برات: «أُقرُّ بقلةِ حيلتي.»

في لحظات الصمت التأمُّلي التالية، قال القس: «أعرف الآن ما قصدتَهُ من قصة جُب دوثان. كان ذلك من صلاح التربية في دار الأيتام.»

«كانت على هَدْي الإنجيل بمعنى الكلمة، إذا كان ذلك ما تَعنيه. سايمون أيضًا يعرف تلك القصة، بالمناسبة.»

«أتوقَّع ذلك، لكن كيف عرفت؟»

«عندما علِم بعودة باتريك لم يستطِع أن يمنع نفسه من الشعور بخوفٍ من أن يكون ذلك حقيقيًّا، رغم إنكاره. كان يخشى أن يُواجِهَ الجانب الآخر من قصة الجُب، كما تعلم. أن يكون الضحية قد نجت بمعجزة هذه المرة. كان سايمون يخشى أن يكون باتريك قد نجا بمعجزة. عرفت ذلك؛ لأني في أول يومٍ لي هناك، كان متوترًا من مواجهة شيء مُخيف عندما دخل تلك الغرفة. وكان الارتياح الذي علا وجهه عندما رآني مُريبًا.»

ازدرد ما تبقَّى من الشاي ونظر إلى القس نظرةً مُتسائلة. ورغمًا عنه بدأ يشعر بتحسُّن.

«إحدى الخدع الأخرى الدنيئة لسايمون كانت إرسالي في ذلك اليوم الأول على الحصان تيمبر، من دون إخباري بأنه حصانٌ مشاغب. لكنِّي أظنُّ أن ذلك كان مجرد «حس الإيذاء الضال» الذي يملكه. ومن مقالِبه الدنيئة أيضًا إرخاء حزام السَّرج الخاص بي بالأمس قبل أن أبدأ السباق على الفرس شيفرون. ولكني أظنُّ أنها كانت فحسب إحدى «لحظاته الشيطانية المعروفة».»

كان القس يتفحَّص برات بعينَيه العميقَتَين.

«لا أدافع عن سايمون؛ فلم يكن يومًا شخصيةً مُثيرة للإعجاب؛ لكن الحِيَل التي تُمارس على شخصٍ دخيل مخادع، حتى لو كانت حيلًا خطِرة، شيء، وقتل أخٍ عزيز على

القلب شيء آخر تمامًا. بالمناسبة، لماذا لم يُبلِّغ عنك سايمون في الحال إذا كان لا يُصدِّق أنك أخوه؟»

«للسبب نفسه الذي منعك من ذلك.»

«فهمت. ربما أنه استصعب الأمر فحسب.»

«وبالطبع، بعد أن تخلَّص من باتريك الأول من دون أن يلقى جزاءه، تطلَّع بثقةٍ إلى التخلُّص من باتريك الآخر.»

«برات، ليتني أستطيع إقناعك بأن هذا من نسج خيالك.»

«لا بد أن تُكِنَّ احترامًا شديدًا لقُدراتي التخيُّلية.»

«إذا استحضرتَ ما حدث، بصدقٍ وعينٍ ناقدة، لا مفرَّ من أن ترى كيف تطور هذا الاعتقاد في عقلك من بداياتٍ بسيطة للغاية. قصة من صنْعك أنت.»

وظل ذلك رأي القس عندما استأذن برات في الانصراف في حوالي الساعة الثانية صباحًا.

عرض على برات المبيت، لكن برات تنازل وقَبِل أن يُعار معطفًا للمطر ومشعلًا، ثم شقَّ طريقَهُ عائدًا إلى لاتشتس عبر مسار غارق في مياه الأمطار بين الحقول والمطر لا يزال ينهمر على أشده.

كان القس قد قال: «تعالَ وكرِّر الزيارة مرةً أخرى قبل أن تُقرِّر أي شيء»؛ لكنه كان مفيدًا على الأقل في أحد الاتجاهات. فقد أجاب عن سؤال برات الرئيس. إذا كان الاختيار منحصرًا بين الحُبِّ وإقامة العدل، فلا بد أن يكون الاختيار للعدل.

وجد الباب الأماميَّ للاتشتس مفتوحًا، ورسالة من بي على طاولة الرَّدهة تقول فيها: «الحساء على الموقد في غرفة المؤن»، ووجد كأسًا فضيةً على حاملٍ من خشب الأبنوس تحمل بداخلها رسالة بخطِّ يد إلينور تقول: «لقد نسيتَ هذا يا راعِيَ البقر اللامبالي!»

أطفأ الأنوار وتسلَّل عبْر المنزل الهادئ إلى فراشه في غرفة الأطفال القديمة. شخصٌ ما وضع زجاجة ماء ساخن في فراشه. فغطَّ في النوم قبل أن يلمس رأسه الوسادة.

الفصل التاسع والعشرون

في صباح يوم الجمعة حضر سايمون إلى الفطور مُبتهجًا وسعيدًا وحيًّا برات بسعادةٍ. ثم أدلى بدلوه في سَيرِ تحريات جريمة قتل «صندوق التخزين»، وشخصية تاتي ثاكر (التي لم تكن قيمتها تُساوي في نظر المحكمة إلا جنيهًا ونصف بنس)، وفي جُرم لجوء المرء إلى التسميم وسيلةً ليُخلِّص نفسَه من عبء إنسان. وباستثناء بريق كان يلتمِع في عينِه من حينٍ لآخر، لم يبدِ أي انتباهٍ للتغيُّر الذي طرأ على علاقتهما. فكان يعتبِر أن «التوءمة الروحية» بينهما هي أمر بديهي.

بدت إلينور كذلك أنها عادت إلى حالتها السابقة، رغم الخجل البادي عليها، كشخصٍ ارتكب زلةً اجتماعية. اقترحت أن يأخذوا الكئوس الفضية الأربع عصر اليوم إلى ويست أوفر ليطلبوا نقش الأسماء عليها.

قالت: «سيكون لطيفًا أن يُنقَش اسم «باتريك آشبي» على كأسٍ مرةً أخرى.»

قال سايمون: «أجل، سيكون لطيفًا!»

تطلَّع سايمون تطلُّعًا واضحًا إلى سنواتٍ يُعذب فيها توءم روحه. لكن عندما قال برات، ردًّا على سؤال من بي، إنه قد تحدَّث مع القس في ساعةٍ متأخرة، ارتفع رأس سايمون وكأنه سمع تحذيرًا. وبعد ذلك لمح برات نظرة سايمون إليه من حينٍ لآخر.

حينما انطلقت إلينور وبرات قاصدَين ويست أوفر بعد الظهر، ظهر سايمون وأصر على أن يحلَّ ثالثًا في المساحة الضئيلة داخل السيارة الخنفساء. كان قد حصل على إحدى الكئوس بجهده دون أن يُساعِده أحد، وقال إن لدَيه الحق أن يُقرِّر ماذا سيُنقَش عليها، وما إذا كان النقش بالرومانية، أو العربية، أو العبرية، أو السريالية، أو الاكتفاء بكتابةٍ مختصرة.

كان لجاذبية سايمون المُمتزجة باللامبالاة تأثيرٌ شديد؛ حتى إن برات وجد نفسه على وشْك أن يتساءل ما إذا كان القس مُحقًّا وأنه قد بنى قصَّته كليًّا من نسج خياله. لكنه تذكَّر الحصان الذي أحضرَه المزارع جيتس لابنته بيجي، وخلَص إلى أن ذلك كان دليلًا أكثر موثوقية لشخصية سايمون من أي شيءٍ ربما يُقدِّمه سايمون نفسه.

عندما استقروا على نقش أسمائهم على الكئوس، ذهب سايمون وإلينور لاحتساء الشاي، لكن برات قال إن لدَيه بعض الأشياء يريد التسوُّق لشرائها. كان برات قد قرَّر ما يجب أن يفعله في مأزقه الحالي. لم يكن بوسعه التوجُّه إلى الشرطة حاملًا قصَّتَه بحبكتها الحالية، معلقًا أيَّ أملٍ على أن تحظى بتصديقٍ أكثرَ مما حظِيَت به من جانب القس. إذا كان القس، الذي كان يعرف نقاط ضعف سايمون، أبى أن يُصدِّق من دون دليل مادي، فإلى أي مدًى ستأبى الشرطة أن تُصدق، حينما لا يكون سايمون في نظرهم ولدًا مشاكسًا، بل السيد آشبي من لاتشتس؟

لذلك عقد برات النية على أن يُقدِّم لهم الدليل.

توجَّه إلى الميناء وبحث عن متجر لتجهيزات السفن، وهناك، وبعد بعض المشاورات وعددٍ من الاختيارات، اشترى مائتي قدمٍ من الحبل. كان الحبل رفيعًا للغاية؛ حتى إنه لم يزِد سُمكًا عن حبلٍ متين، لكن حدَّه للانقطاع تحت الضغط كان مُماثلًا لحبلٍ فولاذي إلى حدٍّ كبير. طلب منهم تعبئتَه في صندوقٍ من الكرتون وتوصيلَه إلى مرأب أنجل، حيث كانت الخنفساء. تسلَّمه في المرأب ثم وضعَه في حقيبة السيارة.

عندما وصل الآخران ليعودا إلى المنزل، كان ينتظرهما في السيارة ببراءة ومعه صحيفة مسائية.

حشرا أنفُسهما في الخنفساء وكانوا يستعدون للرحيل حينما قال سايمون: «مهلًا! نسينا أن نترك ذلك الإطار القديم معهم»، وخرج وفتح حقيبة السيارة الخلفية ليُخرج الإطار.

«ماذا بداخل الصندوق يا نيل؟»

أجابت إلينور، دون أن تتحرك: «لم أضَع أيَّ صندوق في الخلف. لا يمكن أن يكون خاصًّا بنا.»

قال برات: «إنه لي.»

«ما هذا؟»

«إنه سرٌّ.»

جاء صوت سايمون معلنًا: «جيمس فراير آند سن، للوازم تجهيز السفن.»

يا إلهي! كان على الصندوق مُلصق لم ينتبِه إليه.

أغلق سايمون حقيبةَ السيارة بقوةٍ وعاد إلى مقعده. «ماذا كنتَ تشتري يا برات؟ واحدة من تلك السفن داخل زجاجة؟ لا، إنها كبيرة جدًّا على ذلك الصندوق. واحدة من تلك السفن دون زجاجة. واحدة من تلك السفن الشراعية ذات الأشرعة الكاملة التي تُوضَع على المناضد الجانبية في الضواحي لتشرح صدر سفينتنا آيلاند ريس وتُخفِّف عنها ما واجهتْهُ من عناءٍ خلال رحلتنا إلى مدينة مارجيت.»

«كفاك حماقة يا سايمون. ما هذا يا برات؟ أهو سرٌّ حقًّا؟»

لو أراد سايمون أن يعرف ما بداخل الصندوق، لفعل ذلك بكلِّ تأكيد بطريقةٍ أو بأخرى. وأن يجعل الأمر لغزًا يعني أن يلفتَ الانتباه إليه. فكان ذلك أفضل كثيرًا من أن يتحدَّث بصراحة عما فيه.

«إذا كان لزامًا أن تعرف، فقد كنتُ أخشى أن أفقد مهارتي في تدوير الحبل سريعًا؛ لهذا اشتريتُ بعض الحبال لأتدرَّب عليها.»

ابتهجت إلينور. لا بد أن يعرض لهم برات الليلة بعض حركات تدوير الحبل.

«لا. ليس قبل أن أُجرِّبه في الكاميرا أولًا.»

«ستُعلِّمني كيفيةَ تدوير الحبل، أليس كذلك؟»

بلى، كان سيُعلِّمها كيف تُلقي حبلًا. فستكرَهُهُ يومًا ما عن قريب، إذا حقَّق هذا الحبل الغرض من شرائه.

حينما عادوا إلى لاتشتس أخرج الحبل وتركه على الملأ في الرَّدهة. سألت بي عن أمره، وتقبلت مُبرر وجوده، ولم يَعُد أحدٌ يلتفت إليه. تمنَّى ألا يُضطر في فترته القصيرة الأخيرة أن يقضيَها في الإدلاء بأكاذيب. كان غريبًا، بعدما قضى وقتَه كله في لاتشتس ألا يفعل شيئًا سوى الكذب، أن يُبالي إلى هذا الحد بهذه الحيلة الصغرى.

كان لا يزال هناك مُتَّسع من الوقت لترك الحبل دون فِعل أي شيءٍ حياله. أن يتركه هناك في مكانه، وألا يطلب منه الإجابة عن أي سؤال. كان نوع الحبل غير مناسبٍ للرَّمْي، لكنه استطاع أن يُغيِّره إلى النوع المناسب.

لكن عندما حلَّ الليل، وكان وحيدًا في غرفته، أدرك أنه لم يَعُد لدَيه خيار آخر. كانت هذه هي المهمة التي قد قطع نصف الكرة الأرضية حتى يقوم بها، وكان بصدد القيام بها.

خلَد أفراد المنزل إلى النوم في ساعة مبكرة؛ إذ كانوا لا يزالون مُجهَدين من الأحداث المثيرة في عرض بيورز، وأمهلهم وقتًا حتى الساعة الثانية عشرة والنصف، ثم ترقَّب الأجواء. لم يبدُ هناك ضوءٌ منبعث من أي مكان. ولم يكن هناك أي صوتٍ بالتأكيد. فنزل وأخذ الحبلَ من الزاوية التي كان فيها. وفتح مزلاج نافذة غرفة الطعام، ثم قفز من فوق عتبة النافذة في جُنْح الليل، ثم سحب الحبل بلطفٍ لأسفلَ مرةً أخرى وراءه. انتظر تحسبًا لأي ردٍّ فعل، لكن لم يكن هناك أي شيء.

سلك طريقَه على الحصى في هدوءٍ ومنه إلى العشب، ثم جلس مُلتجِئًا في ظلال أشجار الإسطبل الأول، بعيدًا عن محيط النوافذ، ومن دون الحاجة إلى استخدام الضوء، عقد بخفةِ يدٍ مواضع لقدمَيه على مسافاتٍ بطول الحبل. كان الشعور بالملمس المألوف للحبل بعد كل هذه المدة الطويلة باعثًا على السعادة والطمأنينة. كان حبلًا ذا جودة ولبَّى متطلباته بكفاءةٍ. وشعر بامتنانٍ لمتجر جيمس فراير آند سن.

لفَّ الحبل ثم وضع اللفة على كتفه. في غضون نصف ساعة سيظهر القمر. لكنه كان قمرًا في طوره الأول، ولم يكن ليُهتدى بنوره كثيرًا، لكنه كان يحمل معه في جيبه مشعلَين قوِيَّين ولم يرغب كثيرًا في ضوء قمر مكتمِل الليلة.

كان يتوقف كل خمس دقائق وينتظر ليرى إذا كان أحد يتتبَّعه. لكن لم يتحرَّك أي شيءٍ على الإطلاق في الليل. ولا حتى قطة.

استقبلَه ضوء القمر الخافت حينما وصل ناحية سفح تل تانبيتشس، واهتدى إلى الطريق المؤدي إلى ويست أوفر دون أن يُضطر إلى إشعال أي مشعل. اقتفى نوره قليلًا ثم، حينما صار بإمكانه أن يرى أشجار الزان التي تزين التل في مواجهة السماء، صعد إليها سريعًا حتى وصل إلى الأجمة على الجانب العلوي من المحجر القديم. وهناك جلس وانتظر. لكن مرةً أخرى لم يُسمَع أي صوتٍ في الريف الذي يغطُّ في نومِه فيما عدا صوت ثُغاء مفاجئ لخروفٍ على التل. ربط الحبل حول جذعِ أكبرِ أشجار الزان اليافعة التي نبتت من تلقاء نفسها هناك، ثم ترك الحبل يُحَلُّ من تلقاء نفسه حتى سقط من فوق حافة المحجر إلى الغطاء الأخضر الكثيف في الأسفل. كان هذا هو الجانب المنحدِر من المحجر. كان للجانب المنخفِض مدخل ضيق، لكن منذ وقتٍ طويل صار مستويًا ومكسوًّا بطبقاتٍ كثيفة من النباتات الشائكة لا يمكن اختراقها. كان آبل العجوز قد أخبرَه بكل شيءٍ عن هذا المدخل في اليوم الذي جلسا فيه هناك وتحدَّثا عن باتريك. كان آبل يعرف كل شيءٍ عن المحجر؛ لأنه أنقذ خروفًا منه ذات مرة. وأخبره آبل بأن النزول من الجانب المنحدِر أسهلُ

من الدخول من الجانب المنخفض. في الحقيقة، كان الدخول من الجانب المنخفض، أو من أي جانب آخر، مُستحيلًا تمامًا. فلم يكن فيه ماء؛ على الأقل لم يكن هناك أي ماء منذ عشرين سنة مضت، أي منذ نزل آخر مرة وراء خروفٍ؛ فقد جفَّ الماء تمامًا أسفل التلِّ وحتى البحر.

اختبر برات الحبل عدة مرات، وتحسَّس انسلال نسيجه. لكن جذع الشجرة كان أملس، فوضع لبادة في الموضع الذي يتجاوز فيه جذع الشجرة حافة المحجر. انزلق من فوق الحافة وتحسَّس أول موطئ لأصابع قدمِه. وبعد أن صار على نفس المستوى مع الأرض صار أكثر استشعارًا لسطوع السماء. وكان بوسعه أن يرى الشكل المُعتِم للأجمة المنخفضة في مقابلها، وعتمة الشجرة الأكبر حجمًا من فوق رأسه.

كان في تلك اللحظة قد وجد الموضع الأول لقدمِه في الحبل، لكنَّ يدَيه كانتا لا تزالان على الحبل حيثما كان مشدودًا على العشب.

جاء صوت سايمون بأشد نبراته المُتثاقلة المُميزة له: «أكره أن أدعَك تمضي من دون وداعٍ لائق. أقصد، كان بوسعي فحسب أن أقطع الحبل وأدعك تفكر، إن سنح لك الوقت للتفكير من الأساس، أنه قد انقطع. لكن ذلك لن يكون مُمتعًا، أليس كذلك؟»

كان بإمكان برات أن يرى جسد سايمون في مواجهة السماء. ومن شكل جسده، أدرك أنه كان جاثيًا جزئيًّا على الحافة، بجانب الحبل. واستطاع برات أن يلمسه مادًّا إحدى يدَيه.

كانت حماقةً منه أن استخف بسايمون. لم ينتهز سايمون أي فرص. ولا انتهز حتى الفرصة لتتبُّعِه. فقد كان هو مَن جاء أولًا وانتظر.

قال: «لن يفيد قطع الحبل كثيرًا. سأهبط على أغصان إحدى الأشجار البعيدة في الأسفل، وسأصرخ بأعلى صوتي حتى يأتي أحدٌ.»

«أنا أذكى من ذلك. فبيني وبين هذا المحجر معرفة شخصية. يُمكنني القول إنها علاقة شخصية.» وزفر نَفَسَه في هيئةِ ضحكة هامسة. «انحدار شديد نحو الأرض، حتى نصف منحدر التل.»

تساءل برات إن كان الوقت يسمح له بالانزلاق عبر الحبل في دفعة واحدة سريعة قبل أن يقطعه سايمون. كانت مواضع الأقدام مُصمَّمة للصعود مرة أخرى. كان بإمكانه أن يتجاهلها وينزلق. هل سيكون قريبًا بما يكفي من السفح قبل أن يُدرك سايمون ما فعله؟

أو أمن الأفضل ...؟ أجل. أحكمت يدُه القبض على الحبل وضغط على موضع أصابع قدمِه ثم رفع نفسه حتى كاد أن يضع إحدى ركبتَيه على العشب مرةً أخرى. لكن لا بد أن سايمون كان واضعًا يدَه على موضعٍ ما على الحبل. فقد أحسَّ بالحركة.

قال: «أوه، لا، لن تصعد!» وأنزل كعبَه على يد برات. تشبَّث برات بقدم سايمون بيده الأخرى وتعلَّق بها، وكانت أصابعه في مقدمة حذاء سايمون. أنزل سايمون سكينه على معصم برات فصرخ، لكنَّه ظلَّ متشبثًا بقدمِه. سحب يدَه اليمنى من أسفل حذاء سايمون وأمسك به من مؤخرة كاحلِه. كان يُغطي بجسده الحبلَ أمام سايمون ولما ظلَّ متشبثًا بسايمون، لم يكن بوسع سايمون أن يستدير ليقطع الحبل من خلفِه. كان مزعجًا للغاية التشبُّث بقدمِ أحدٍ من الأسفل حينما يكون واقفًا على شفا جرف شديد الانحدار.

قال سايمون وهو يطعن بجنون: «اتركها!»

قال برات لاهثًا: «إذا لم تتوقَّف عن ذلك، فسأسحبك معي.»

قال سايمون وهو يضرب بوحشية في هلعٍ أعمى دون أن يستمع: «اتركها! اتركها!»

أزال برات اليد التي كانت تتشبث بطرَف الحذاء وأمسك يد سايمون التي كانت تحمل السكين عند نزولها. فصارت يدُه اليُمنى الآن حول كاحل سايمون الأيسر، وكانت يده اليسرى متشبثة برُسغ سايمون الأيمن.

صرخ سايمون وتراجع للخلف، لكن برات تعلَّق بثِقله على الرُّسغ. كان واثقًا من ثبات موضع أصابع قدمه، لكن لم يكن لدى سايمون ما يسند نفسه عليه، وبسحبةٍ قوية، سحب يدَه اليُمنى من قدم سايمون وأمسك بها يد سايمون اليسرى. كان قد أمسك سايمون في تلك اللحظة من كِلا رُسغيه، فانحنى سايمون وكأن قوسًا اعتلته.

قال: «ألقِ ذلك السكين!»

عندما قال ذلك أحسَّ بالعُشب على حافة المحجر يهبط قليلًا وينزلق إلى الأمام. لم يُحدِث ذلك فارقًا بالنسبة إليه، فيما عدا أنه دفعه قليلًا بعيدًا عن واجهة المنحدر. لكن بالنسبة إلى سايمون، الذي انحنى بالفعل بِفعل ثِقل ذراعَي برات وجسده، كان الوضع مميتًا.

رأى برات الكتلة السوداء تندفع إلى الأمام فوقه وهو مُرتعب. فأزلَّته من موضع أصابع قدمه، وهوى معها في الظلام.

انفجر ضوء شديد في رأسه، ولم يَعُد يدرك شيئًا.

الفصل الثلاثون

جلست بي في المقهى المُعتِم وأمامها فنجان من القهوة مسكوب بعضها وقرأتِ اللافتةَ على الجهة الأخرى من الطريق للمرة المائة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. كانت اللافتة تقول: تنبيه إلى سائقي السيارات. يُرجى الامتناع عن استخدام بوق السيارة. هذا مُستشفًى. كانت الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا، لكنَّ المقهى فتح أبوابه في السادسة، وكان يُوجَد دائمًا على الأقل زبون واحد آخر يتناول طعامَه بينما كانت تجلس هناك. لكنها لم تكن تُعيرهم انتباهًا. كانت تجلس فحسب وأمامها فنجان قهوة وتُحدِّق في سور المستشفى. كانت أحد مرتادي المقهى المألوفين في تلك الفترة. كانوا يقولون لها في المستشفى بلطفٍ: «من الأفضل أن تخرُجي وتتناولي بعض الطعام»، فكانت تعبُر الطريق وتجلس قليلًا وأمامها فنجان القهوة، ثم تعود مجددًا.

انحصرت حياتها في هذا الوجود المتأرجِح بين المستشفى والمقهى. كانت تجد صعوبةً في تذكُّر الماضي، واستحالةً تامَّةً في تخيُّل المستقبل. لم يبقَ إلا «الحاضر»، ذلك النصف الآخر الكئيب من العالَم الذي حلَّت عليه مُصيبة كئيبة. في الليلة الماضية أعطَوها سريرًا صغيرًا في واحدةٍ من غُرَف المُمرضات، أما الليلة التي سبقتْها فقضتها في غرفة الانتظار بالمستشفى. ثمة جملتان اعتادوا أن يُخبروها بهما، وكانتا مألوفتَين على نحوٍ مُثير للاستياء مثل اللافتة المعلَّقة على السور: «لا، لا جديد»، أو يقولون: «من الأفضل أن تخرجي وتتناولي بعض الطعام.»

جاءت الفتاة الرَّثة المظهر ودفعت أمامها فنجان قهوة جديدًا وأخذت الفنجان الذي تناولته. قالت الفتاة الرَّثة المظهر: «ذلك الفنجان باردٌ وأنتِ حتى لم تلمسيه.» كانت القهوة الجديدة مُنسكبة أيضًا. شعرت بالامتنان للفتاة الرثة المظهر لكن أغضبَها تعاطُفها. فقد كانت تستمتع بمشاركة المأساة المُتسبِّبة في وجودها في المقهى وتداعياتها.

تنبيه إلى سائقي السيارات. يُرجى الامتناع عن استخدام ... لا بد أن تتوقف عن قراءة تلك اللافتة. لا بد أن تنظر إلى شيءٍ آخر. ربما إلى النقش ذي المُربعات الزرقاء المتداخِلة في غطاء المائدة البلاستيكي. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة ... لا، غير معقول. ليس عدُّ الأشياء هو الحل.

انفتح الباب ودخل الطبيب سبينس، بشعرٍ أحمرَ أشعثَ وذقنٍ غير حليق. قال موجهًا طلبَه إلى الفتاة: «قهوة من فضلك!» ثم جلس في المقعد الذي بجانبها.

قالت: «خيرًا؟»

«لا يزال على قيد الحياة.»

«واعٍ؟»

«لا. لكن ظهرت مؤشرات أفضل. أقصد، مؤشرات على احتماليةِ استعادةِ وعيه، وليس بالضرورة مؤشرات على ... حياته.»

«فهمت.»

«نُدرك وجودَ كسرٍ بالجمجمة، لكن لا سبيلَ لتحديد الإصابات الأخرى التي قد تكون ألَّمت به.»

«لا.»

«ليس من المُفترَض أن تعيشي على فناجين القهوة. ذلك كل ما تتناولينه، أليس كذلك؟»

قالت الفتاة الرثة المظهر وهي تضع فنجانه المُمتلئ: «إنها لا تتناولها. تجلس فحسب وتنظر إليها.»

ثارت بداخلها موجةُ غضب مُمتزج بالتعب والضَّعف لاستباحة الفتاة ذات المظهر الرثة لمخاوفها.

«من الأفضل أن أُرافقكِ إلى وسط المدينة وأُقدِّم لكِ طعامًا.»

«لا. لا، أشكرك.»

«يقع مطعم أنجل على بُعد ميلٍ واحدٍ فقط، وبإمكانك الاسترخاء هناك كما ينبغي ...»

«لا. لا، لا يُمكنني الذهاب بعيدًا هكذا. سأشرب هذه القهوة. إنها ساخنة ومذاقها سائغ.»

ازدرد سبينس قهوته ودفع حسابها. تردَّد لحظةً وكأنه مُتردِّد في أن يتركها. «عليَّ أن أعود إلى كلير الآن. تعرفين أنه ينبغي ألا أترُكه لو لم يكن في أيدٍ أمينة، أليس كذلك؟ سيفعلون معه أكثر مما يُمكنني فِعله.»

قالت: «لقد صنعتَ العجائب من أجلِنا جميعًا. لن أنسى ذلك أبدًا.»

بعد أن بدأت في شُرب القهوة، واصلت شُربها، ولم ترفع بصرَها عندما انفتح الباب مرةً أخرى. فلن تكون رسالة أخرى من المستشفى بهذه السرعة، ولا شيء يُمثل أهميةً لها ما لم تكن رسالة من المستشفى. تفاجأت حينما جلس جورج بيك بجانبها.

«أخبرني سبينس بأني سأجدك هنا.»

قالت: «جورج! ماذا تفعل في ويست أوفر في هذه الساعة من الصباح؟»

«جئتُ أحمل لكِ ما يُواسيكِ في موت سايمون.»

«يواسيني؟»

«أجل.»

وأخرج شيئًا من مظروفٍ ووضعَه أمامها على المائدة. كان شيئًا قد بِلِيَ بفعل تعرُّضه للعوامل الجوية لكن كان سهلًا التعرُّف عليه. كان عبارة عن قلم حبر أسود رفيع يُزيِّنه حلزون أصفر رفيع.

نظرت إليه مدةً طويلة دون أن تلمسه، ثم رفعت بصرَها إلى القس.

«أعَثَروا عليه؟»

«نعم. كان هناك. هل تُريدين التحدُّث بشأن ذلك هنا؟ ألا تفضلين العودة إلى المستشفى؟»

«ما الفرق بينهما؟ كلاهما مجرد مكان للانتظار.»

قالت الفتاة الرثة المظهر حينما ظهرت عند كتف جورج: «قهوة؟»

«لا؛ لا، شكرًا لكِ.»

«حسنًا!»

«ما ... ماذا هناك؟ أقصد، ما الذي تبقَّى؟ ماذا وجدوا؟»

«ليس سوى عظام يا عزيزتي. هيكل عظمي. أسفل أوراق شجر متعفنة بثلاث أقدام. وخِرقًا من القماش.»

«وقلمه؟»

قال بحذر: «كان في مكانٍ منفصل.»

«تقصد أنه ... أنه أُلقي بعده؟»

«ليس بالضرورة، لكن مُحتمل.»

«فهمت.»

«لا أعرف إن كنتِ ستجدين في ذلك ما يُواسيكِ أم لا — لكني أظنه هكذا — لكن الجرَّاح التابع للشرطة يرى أنه لم يكن حيًّا، أو ربما من الأحرى القول إنه لم يكن واعيًا، عندما ...»

قالت له بي: «عندما أُلقي.»

«أجل. طبيعة الإصابة في الجمجمة، حسبما أتفهم، هدَتْه إلى ذلك الاستنتاج.»

«أجل. أجل، أنا سعيدة بالطبع. على الأرجح لم يعرف شيئًا عن الأمر. نهاية سعيدةً تمامًا ليومٍ في عصر أحد فصول الصيف.»

«لقد عُثر على أشياءَ صغيرة أخرى في الملابس. أشياء ربما كان يحملها في جيوب بنطاله. لكن الشرطة تحفَّظت عليها. أعطاني الكولونيل سموليت هذا»، وأمسك بالقلم وأعاده في مظروفه، «وطلب مني أن أُريكِ إياه لعلك تتعرَّفين عليه. أهناك أخبار من المستشفى؟ كان سبينس مغادرًا بسيارته عندما رأيته.»

«لا جديد. فاقدٌ الوعي.»

قال القس: «أتعرفين، ألوم نفسي كثيرًا على ذلك. لو أصغيتُ إليه بتفهُّم، لَمَا أُجبِر على هذا التصرُّف السري، وعلى ذلك البحث الجنوني في الليل.»

«جورج، لا بد أن نفعل شيئًا لنعرف هويته.»

«لكني أعلم أن دار الأيتام ...»

«أوه، أعرف. أجرَوا تحرياتهم المعتادة. لكني لا أظن أنها كانت تحريات جادة. بوسعنا بالتأكيد أن نتحرَّى أفضل كثيرًا من ذلك.»

«أنبدأ من التسليم جدلًا بأنه ينتمي إلى عائلة آشبي؟»

«أجل. لا يمكن أن أصدِّق بوجود تشابُهٍ مثل ذلك دون الانتساب إلى آشبي. ستكون صدفةً مدهشة للغاية.»

«عظيم يا عزيزتي. هل تريدين التعامل مع الأمر الآن؟»

«نعم. الآن تحديدًا. ربما يكون الوقت ثمينًا.»

«سأتحدَّث إلى الكولونيل سموليت عن الأمر. سيعرف كيف يجب المُضيُّ فيه. لقد تحدثتُ إليه بشأن الاستجواب، ويرى أنه قد يكون من المُمكن التصرُّف فيه دون حضورك. أخبرتني نانسي بأن أسألك إذا كنتِ تريدين منها المجيء إلى ويست أوفر لتكون برفقتك، أم سيزعجك وجود أحد معك.»

«ناني الحبيبة. هلا تُخبرها بأن البقاء وحدي مريح أكثر؟ لكن اشكُرْها. أخبِرْها بأن من الأفضل أن تظلَّ بجانب إلينور. لا بد أن الموقف مُريع بالنسبة إلى نيل، بعد أن صارت مضطرةً إلى الكدح في أمورٍ تافهة في الإسطبلات.»

«أظنُّ أن تكريس الإنسان نفسه للمتطلبات الروتينية لعالَم الخيول أمرٌ باعث على الهدوء.»

«هل أبلغتَها بالخبر كما وعدت؟ خبر أن برات لم يكن باتريك؟»

«نعم. لا مفرَّ من الاعتراف صراحة بأنني كنتُ أتوجَّس خيفةً من إبلاغ الخبر يا بي. لقد عهدتِ إليَّ بمهمةٍ من أصعب المهام في حياتي. كانت لا تزال تتعافى من صدمة معرفتها بمقتل سايمون. كنتُ أهاب الأمر. لكن الحدث كان مفاجئًا.»

«ماذا فعلَتْ؟»

«قبَّلَتْني.»

انفتح الباب، ووقفت في مدخله المُعتِم ممرضةٌ متدرِّبة شابَّة جميلة متورِّدة الخدَّين، بدت في ملابسها ذات القماش الأرجواني الفاتح المطبوع والمعطف الكتاني الأبيض المنسدِل على جسدِها في انسيابيةٍ مثل زائر من عالمٍ آخر. رأت بي فأقبلت نحوها.

«من فضلك، هل أنتِ الآنسة آشبي؟»

أجابت بي، وهي تنهض من موضعها جزئيًّا: «خيرًا؟»

«الآنسة بياتريس آشبي؟ أوه، رائع. لقد عاد ابن أخيك إلى وعيه الآن، لكنَّه لا يعرف أحدًا ولا يعرف أين هو؛ يتحدَّث فحسب عن سيدةٍ تُدعى بي، وظننا أنها ربما تكون أنتِ. لهذا أرسلتني الممرضة لأرى إن كان بوسعي العثور عليكِ. أعتذِر لمقاطعتك ولم تنتهِي من تناول قهوتِكِ بعدُ، كما يبدو، لكن كما ترين ...»

قالت بي التي كانت بالفعل عند الباب: «حسنًا، لا بأس.»

قالت المُتدربة، وهي تتبعها إلى الخارج: «كما تفهمين، ربما يُصبح أكثر هدوءًا في حضورك. غالبًا ما يصبحون كذلك في حضور شخصٍ يعرفونه، حتى لو لم يرَوه فعليًّا. أمر غريب. وكأنهم يستشعرون وجودهم دون أن يرَوهم. لاحظت ذلك كثيرًا. سيقولون، إلين؟ أو أيًّا ما كان الشخص. ثم تجيب إلين، نعم. ثم يهدءون قليلًا. لكن إذا أجاب شخصٌ آخر بنعم، فلا يمكن خداعهم أبدًا في أغلب الأحيان، ويتملَّكُهم القلق والحَنَق. أمر غايةٌ في الغرابة.»

كان الغريب بحقٍّ هو سماع ذلك السيل المُتواصِل من الكلمات ينبعث من بين شفتَي برات الذي كان صامتًا بطبيعته. فطوال يومٍ بليلةٍ ويومٍ آخر جلست بي بجوار فراشه واستمعت إلى ذلك الوابل المضطرب من الحديث. كان يقول: «بي؟» تمامًا مثلما حكت لها المُتدربة الشابة. وكانت تجيب: «نعم، أنا هنا»، ثم يعود مُطمئنًّا إلى العالَم الذي كان يهيم فيه.

كان الاعتقاد الأكثر رسوخًا لدَيه أن هذه هي المرة التي كُسرت فيها ساقه، وأن هذا هو المستشفى نفسه، وكان القلق حيال ذلك يُمزِّقه من الداخل. «سأتمكن من ركوب الخيل مرة أخرى، أليس كذلك؟ لم تُصَب رجلي حقًّا بأي مكروه، أليس كذلك؟ لن يبتروها، أليس كذلك؟»

فكانت تجيب: «بلى، كل شيء على ما يرام.»

وذات مرة، حينما صار أكثر هدوءًا قال: «هل أنتِ غاضبة مني يا بي؟»

«لا، لستُ غاضبة منك. اخلد إلى النوم.»

لم ينقطع سيرُ الحياة خارج المستشفى؛ فالسفن وصلت إلى ساحل ساوثهامبتون؛ وأجريت استجوابات، وَوُورِيَتْ أجساد الثرى، لكن بالنسبة إلى بي انحصر العالم في الغرفة حيث كان برات وفي سريرها في غرفة الممرضات.

في صباح يوم الأربعاء وصل تشارلز إلى المستشفى، مُتهاديًا عبر الممرات المصقولة بخطًى خفيفةٍ على قدمَيه الكبيرتَين الهادئتَين. نزلت بي لاستقباله ومُرافقته لأعلى إلى غرفة برات. عانقها كما اعتاد معانقتها وهي طفلة صغيرة، فشعرت بالدفء والراحة.

«العم تشارلز العزيز. أشعر بسعادةٍ بالِغة أنك تبدو أصغرَ من أبي بخمسة عشر عامًا، وإلا لما أمكنك الحضور إلى هنا لتُواسِينا جميعًا.»

قال تشارلز: «الشيء الرائع في كون المرء أصغرَ من أخيه بخمسة عشر عامًا هو أنه ليس مُضطرًّا إلى ارتداء ملابسه القديمة.»

قالت متوقفة خارج غرفة برات: «إنه نائمٌ الآن؛ لذا ستلتزم الهدوء التام، أليس كذلك؟»

ألقى تشارلز نظرةً على وجه الشاب بفكِّه المرتخي، والظلال الزرقاء تحت عينَيه المغمضتَين، ولحيتِهِ الرمادية الخفيفة، ثم قال: «والتر.»

«اسمه برات.»

«أعرف. لم أكن أُخاطبه. كنت أشير فحسب إلى التشابُهِ بينَه وبين والتر. هكذا بالضبط كان يبدو والتر، في مثل عمره، حينما كان يُعاني آثارَ السُّكر.»

اقتربت منه بي أكثر ونظرت إليه. «ابن والتر؟»

«بلا شك.»

«لا أُلاحظ أي تشابُهٍ نوعًا ما. لا يبدو شبيهًا بأحدٍ الآن سوى بنفسه.»

«لم تَرَي والتر قطُّ حينما يغطُّ في نومٍ عميق حتى يُفيق من سُكره.» وأطال النظر قليلًا إلى الشاب. «ولكن له وجهٌ أفضل من وجه والتر. وجه جميل.» ثم تبِعها إلى الممر. «علمتُ أنكم جميعًا أُعجِبتُم به.»

قالت: «بل أحببناه.»

«حسنًا، الأمر برُمته مؤسف جدًّا، مؤسف جدًّا. مَن كان شريكه في الجريمة، هل تعرفين؟»

«شخصٌ في أمريكا.»

«صحيح، هكذا أخبرَني جورج بيك. لكن مَن يكون؟ مَن الذي سافر من كلير إلى أمريكا؟»

«ذهبت عائلة ويليت إلى كندا. وكان لهم بنات. كانت شريكتُه امرأة، كما تعرف. ربما انتهى بهم المطاف في الولايات المتحدة.»

«سألتَهِمُ قُبعتي لو كانت امرأة.»

«أشعر بذلك أيضًا.»

«حقًّا؟ فتاة ذكية. أنت امرأة ذكية لدرجةٍ تُثير الإعجاب يا بي. وجميلة أيضًا. ماذا ستفعلين بشأن ذلك الشاب؟ أقصد مستقبلًا؟»

أجابت: «لا نعرف حتى الآن إن كان سيُكتَب له مُستقبل.»

الفصل الحادي والثلاثون

لم يَعرف حتى الآن أن برات ليس باتريك آشبي سوى القس، وبي، وتشارلز، وإلينور، ومكتب كوسيت وثرينج ونوبل.

والشرطة.

الشرطة «على أعلى مستوياتها».

أُبلِغت الشرطة بكلِّ شيء، وكانوا في ذلك الوقت عاكفين بطريقتِهم الرائعة على تسوية هذه البلبلة بكلِّ ما أُوتوا من مهارةٍ وإتقان دون مُخالفة أيٍّ من القوانين التي تعهَّدوا بالالتزام بها. لقد مات سايمون آشبي. وليس من مصلحةِ أحدٍ أن يتمَّ الكشف عن قصة جريمته. ومن خلال عدم الإفصاح عن أمورٍ أكثر مما ينبغي، أمكن الإذعان لطقوس الشرطة، تارِكين بعض الحقائق مدفونة؛ وكأنها جرَّافة تمرُّ ببطءٍ فوق أرضٍ تحمل تحت سطحها ألغامًا لم تنفجر بعد.

تباطأ مُحقِّق الوفيات في البتِّ في العظام البائسة التي عُثر عليها في المحجر، وأرجأ التحقيق إلى أجلٍ غير مُسمًّى. ولم يُبلِغ أحد في المناطق المجاورة عن أي حالة اختفاء. أما تل تانبيتشس، على الجانب الآخر، فكان موقع تخييم مُفضَّلًا للرحالة، الذين لم يعتادوا إبلاغَ الشرطة عن أي حوادث تقع. لم يتبقَّ من الملابس سوى خِرق من القماش استعصى التعرُّف عليها. والأغراض التي عُثر عليها بالقُرب من العظام تعذَّر تمييزها؛ فكانت عبارة عن قطعة متآكلة من معدن ربما كانت في يوم من الأيام صفارة، وقطعة متآكلة أخرى كان من السهل التعرُّف عليها بأنها سكين، وعدد من العملات المعدنية من فئاتٍ نقدية صغيرة.

قالت بي: «جورج! ماذا حدث للقلم؟»

«القلم الحبر؟ أضعته.»

«جورج!»

«كان على أحدٍ أن يُضيِّعه يا عزيزتي. لم يتسنَّ للكولونيل سموليت فِعل ذلك؛ فهو جندي، يحمل حسَّ المسئولية الذي يتحلَّى به الجندي. ولا يمكن للشرطة فِعل ذلك؛ فهي تراعي احترامها لذاتها وواجبها تجاه الشعب. لكن ضميري هو شيء بيني وبين الرب. أظنُّ أنهم مُمتنُّون لي بشدة بطريقتِهم الضمنيَّة دون تصريح.»

أُجريَ التحقيق المُرجأ بشأن سايمون آشبي فيما بعد؛ إذ كان قد أُرجئ إلى أن تسمح حالة برات باستجوابه في المستشفى. أفاد الشرطيُّ الذي استجوبه أنه السيد آشبي لم يكن بوسعه تذكُّر أي شيء عن الحادث، أو عن السبب الذي حملَه على الذهاب إلى هناك برفقة أخيه في تلك الساعة لنزول المحجر. كان لدَيه ظنٌّ بأنَّ ما حدث كان نتيجة رهان. ظن أنه رهانٌ على شيءٍ بشأنِ وجود ماء في المحجر القديم من عدمِه؛ لكنه لم يستطِع القسَم على ذلك نظرًا للتشوُّش الذي أصاب ذاكرته. كان يُعاني إصاباتٍ خطِرة في رأسه ولا يزال مريضًا للغاية. لكنه عرف أنه قد اكتشف من آبل تاسك عدم وجود ماء هناك؛ وقال سايمون على الأرجح إن هذا مُستبعَد بشدة، وربما كان هذا منشأ الخلاف.

أكَّد آبل تاسك حقيقةَ أن باتريك آشبي قد سأله عن الماء في المحجر، وأن من النادر أن تجد أرضَ محجرٍ قديم جافة. كان آبل تاسك هو أول مَن أنذر بوقوع الحادثة. كان في الخارج على التل مع خروفه ثم سمِع ما ظنَّها صرخات استغاثة من جهة المحجر، فذهب إلى هناك بأقصى سرعة مُمكنة ووجد حبلًا سليمًا، واتَّجَه إلى ورشة الحدَّاد واستخدم هاتفه ليتصل بالشرطة.

أقرَّت بي، في ردِّها على مُحقِّق الوفيات، بأنها حتمًا كانت ستتَّخِذ خطوات لإحباط أي خطة كهذه لو كانت قد علِمت بها. وأبدى مُحقق الوفيات رأيه بأن لذلك السبب نُفِّذت هذه الخطة سرًّا.

صدر القرار النهائي بأن الوفاة قضاءٌ وقدَر، وعبَّر مُحقق الوفيات عن تعاطفه مع العائلة لفقدها هذا الشابَّ المِقدَام.

بهذا حُسمت مشكلة سايمون. سايمون الذي قتل أخاه قبل أن يبلُغ الرابعة عشرة من عمره، وكتب رسالةً نيابةً عن ذلك الأخ بدمٍ بارد، ثم رمى القلَمَ في الهوة بعد جثة أخيه، وعاد إلى المنزل رابطَ الجأش لتناوُلِ عشاء الساعة السادسة عند إخراجه من ورشة الحدادة. سايمون الذي انضمَّ إلى عملية البحث ليلًا عن أخيه على مُهره، وفي وقتٍ ما أثناء تلك الليلة الطويلة أخذ معطف أخيه إلى قمَّةِ المنحدَر وتركَه هناك مع رسالةٍ في الجيب. سايمون الذي فُجع لوفاته أهل الريف الآن كشابٍّ مِقدام ذي جاذبية لا تُنسى.

لكن ظلَّت مشكلة برات قائمة.

لم تكن المشكلة في هويته، إنما في مُستقبله. كان الأطباء قد خَلَصوا إلى أنه، بعد أن عاش كل هذه المدة الطويلة خلافًا لكل الاحتمالات، فمن الوارد أن يُواصِل حياته. لكن ربما سيحتاج إلى عناية لوقتٍ طويل، وحياة هادئة إذا كان له أن يتعافى كما ينبغي.

أخبرتْهُ بي حينما صارت حالتُه جيدة بما يكفي للفت انتباهه إلى موضوعٍ ما: «جاء العم تشارلز لزيارتك ذات يومٍ حينما كنتَ مريضًا. أدهشَه الشبَهُ الذي بينك وبين والتر آشبي. ابن عمي.»

قال برات: «حقًّا؟» لم يُبدِ اهتمامًا بالأمر. ما جدوى ذلك الآن؟

«لقد بدأنا تحرياتٍ عنك.»

قال بضجرٍ: «ذلك ما فعلَتْه الشرطة. قبل سنوات.»

«هذا صحيح، لكن المعلومات التي توافرت لديهم ضئيلة للغاية لا تكفي لينطلقوا منها ويستمرُّوا في البحث. كلُّ ما عرفوه أن فتاةً شابة وصلت بالقطار تحمِل طفلًا رضيعًا، ثم غادرت بالقطار من دونه. كان القطار قادمًا من مقاطعة برمنجهام المزدحمة بجميع ضواحيها. فبدأنا نحن من الطرف الآخر. طرف والتر. عُدنا إلى حيث كان والتر، في مكانٍ ما منذ نحو اثنين وعشرين عامًا، وبدأنا من هناك. كان والتر دائمَ التنقُّل؛ لذلك لم يكن الأمر سهلًا، لكننا اكتشفنا أن، من بين الوظائف الأخرى التي عمل فيها، كان قائمًا بأعمال أحد الإسطبلات في مدينة جلوسترشير لمدة شهرَين بينما كان صاحب الإسطبل غائبًا يخضع لعملية جراحية. كان أفراد المنزل هم مُدبِّرة المنزل وفتاة صغيرة تتولَّى شئون الطهي. رغم إجادتها للطهي، كان طموحها الحقيقي أن تعمل ممرضةً في أحد المستشفيات. أحبَّتْها مُدبِّرة المنزل، وكذلك صاحب المنزل، وحينما عَلِما بأنها ستُنجِب طفلًا سمحا لها بالبقاء، وأنجبت طفلَها في الدار المحلية لاستقبال الحوامل. طالما كان لدى مُدبِّرة المنزل قناعة بأن الطفل ابن والتر، لكن الفتاة لم تُفصح عن ذلك. لم تكن لدَيها رغبة في الزواج؛ إنما أرادت أن تكون مُمرضة. قالت إنها ستعود بالطفل إلى بلادها لتعميده — فقد جاءت من إيفشام واي — ولم تَعُد. لكن مُدبرة المنزل تسلَّمت خطابًا منها بعدَها بمدةٍ طويلةٍ تشكرُها فيه على طيبة قلبِها وتخبرها بأن الفتاة قد حقَّقَت طموحها وصارت ممرضة»، وقالت: «لا أحد يعرف أي شيءٍ عن طفلي. لكني متأكدة أنه يتلقَّى رعاية جيدة.»

نظرت إلى برات نظرةً سريعة. كان مُسترخيًا وعيناه على السقف، لكن بدا منصتًا إليها.

«كان اسمُها ماري وودوارد. كانت ممرضةً أكثرَ براعةً منها كطاهية. قُتلت أثناء الحرب، وهي تُخرِج المرضى من أحد العنابر إلى منطقةٍ آمنة في أحد المخابئ.»

ساد صمت طويل.

قال: «يبدو أنني وُرِّثْتُ مواهبي في الطهي أيضًا»؛ لكن لم يكن بوسعها أن تُميِّز إن كانت تلك الكلمات تنمُّ عن مرارةٍ في النفس أم لا.

«كنتُ مغرمةً كثيرًا بوالتر. كان غاليًا وعطوفًا جدًّا. لكن لم يعِبْهُ سوى شيء واحد؛ كان يعجز عن الصمود أمام الخمور، وكان يُحِب الشرب حبًّا جمًّا. لا أُصدِّق للحظة أن والتر كان يعرف بأمر الفتاة. كان من النوع الذي سيُهرع إلى الزواج منها. وأظنُّ أنها لم ترغب في أن يعرف.»

ألقت نظرةً أخرى على برات. ربما أنها تسرَّعت في إخباره بكلِّ هذا، قبل أن يُصبح قويًّا بما يكفي ليُبديَ اهتمامًا. لكنها أمَلت أن يمنَحه ذلك رغبةً في الحياة.

«أخشى أن ذلك أقربُ ما استطعنا الوصول إليه يا برات. لكن لا أحد منَّا لدَيه أيُّ شكٍّ في ذلك. بنظرةٍ واحدة ألقاها تشارلز عليك قال «والتر.» وأنا نفسي أرى أنك تُشبِهُ والدتَك قليلًا. هذه هي ماري وودوارد. التُقطت لها هذه الصورة في عامها الثاني في جامعة سانت ليوك.»

أعطتْهُ الصورة، وتركتها معه.

بعد مرور أسبوع أو أسبوعَين قالت لإلينور: «نيل، سأتركك. لقد استأجرتُ إسطبل تيم كونيل في كيلبارتي.»

«معقول يا بي!»

«لن أتركك في الحال، لكن حينما يَقدِر برات على السفر.»

«أستأخُذين برات إلى هناك؟ أوه، نعم، بالطبع، لا بد أن تُسافري! يا لها من فكرة رائعة، يا بي. ستُحَلُّ الكثير من المشكلات، أليس كذلك؟ لكن هل تستطيعين تحمُّل التكاليف؟ هل لي أن أقرضك مالًا من أجل ذلك؟»

«لا، العم تشارلز يتولَّى ذلك. من الرائع أن تُفكري في أن تشارلز يدعم الخيول، أليس كذلك؟ ستحتاجين كلَّ ما لدَيكِ لدفع ضريبة التركة يا عزيزتي. السيد ساندال أبلغ البنك بأن المكان كان ملكًا لسايمون طوال الوقت.»

«ماذا سنفعل بخصوص إخبار الناس بشأن برات؟ أقصد، بخصوص أنه ليس باتريك.»

«أعتقد أنه لن يكون علينا أن نفعل أي شيءٍ حيال ذلك. ستتسرب الأخبار لا محالة. كما تتسرب دومًا. أظنُّ أن لا شيء بيدَينا حتى نمنع تسريبَ الأخبار. إن ما سينتزِع من الحدث جزءًا كبيرًا من مُتعتِهِ لمروجي الفضائح، هو حقيقة أننا نجعله جزءًا من العائلة بدلًا من الشروع في محاكمات وإجراءات تقاضي. سننجو منها يا نيل. وسينجو هو كذلك.»

«بالطبع سننجو. وفي أول مرةٍ سيجرؤ أحدُهم على مُفاتحتي في الأمر، سأقول له: «ابن عمي؟ أجل، ادَّعى أنه أخي. فهو يُشبه باتريك كثيرًا، أليس كذلك؟ وكأننا نُناقش أمرًا عاديًّا».» توقَّفت لحظة ثم أضافت قائلة: «لكني أودُّ أن ينتشِر الخبر قبل أن يكبر سنِّي لدرجةٍ تحول دون الزواج منه.»

سألت بي في دهشة: «أتُفكرين في ذلك؟»

«بل عازمة عليه.»

تردَّدت بي؛ ثم قررت أن تدَع المُستقبل يقرر نفسه.

قالت: «لا تقلقي. سينتشر الخبر.»

قالت لبرات في وقتٍ لاحق: «أما وقد صار العم تشارلز هنا، فسيستقر في لاتشتس. أما أنا فبإمكاني أن أعود لإنشاء حياةٍ خاصة بي في مكانٍ آخر.»

نزلت عيناه عن السقف، وتأمَّلها.

«أضع عيني على مكانٍ في أولستر. إسطبل تيم كونيل في كيلبارتي.»

لاحظَتْ أن أصابعه بدأت تعبث بحزنٍ في ملاءة السرير.

سأل: «هل سترحلِين إلى أولستر إذن؟»

«فقط إذا أتيتَ معي، وأدرتَ الإسطبل من أجلي.»

اغرورقت عينا الشابِّ الذي تماثَلَ للشفاء مؤخرًا بالدموع وطفِقت تسيل على وجنتَيه.

قال: «يا لطيبة قلبك يا بي!»

قالت: «أعتقد أن ذلك يعني أن عرْضي مقبول.»


هنداوي